

مكتبة

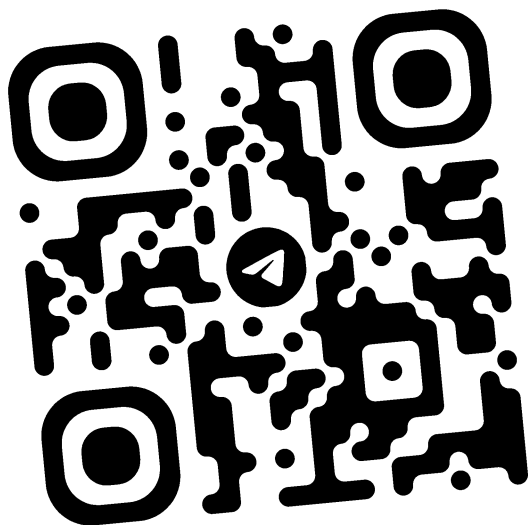
فهد العودة

كُدُ فُيْل

مطر الدّم

رواية





سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

فهد العودة

كُذُفُيْل

مطر الدّم

كُدْمُبُل

فهد العودة

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalamat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www.kalamat.com

للتواصل مع الكاتب

@X Falodah

تصميم الغلاف: أيوب ضبابي

المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1447/9209

ردمك: 978-603-8569-18-4

مكتبة

t.me/soramnqraa

فهد العودة

كُذِّبْ

مطر الدَّم

مكتبة

t.me/soramnqraa

رواية

الطبعة الثانية

kalemat

إلى أمي...

كلُّ ما عرِفْتُه عن الحياة بدأ من صوتِك،
ومن الطريِقةِ التي كان العالمُ يهدأ بها حين تنطقين اسمي.

٤ نوفمبر

لم تكن عادية... كان العالمُ أعمى!

كان

يركض

يركض

يركض

يركض

يركض

يركض

يركض

ثم اكتشف أن النجاة أحياناً في التوقُّف!

الرياض

لم يكن المطر في السماء بل في عينيه. الوقت ظهر رمادي في مدينة الرياض، والصمت ممدود ككفن فوق الشوارع. فتحت المقبرة أبوابها للغياب الأخير؛ بابٌ حديدي كبير مطلي بلونٍ أخضر كالح، تجلت على سطحه بقع الصدأ، والتصقت عند أطرافه بقع الوحل التي حوّلها المطر إلى جروح داكنة. وإلى جانبيه شجرتا سدرة متقوستان، إحداهما تميل بشدة نحو الداخل، كأنها تحني ظهرها احتراماً أو حراسةً للموتى. كل شيء في المكان بدا منحنيًا: الغيم ينتشر فوق الرؤوس، والأرض تلين تحت الأقدام، حتى النسمة العابرة دخلت المقبرة على استحياء، خشية أن توقظ الراقدين.

دخل الناس في صفوف غير منتظمة؛ ثياب بيضاء ابتلت من المطر، وبشوت سوداء وبنية تتدلّى فوق الأكتاف، وأشمعة حمراء وبيضاء أثقلها البلل. كانت خطواتهم تغوص في الطين، وصوت الماء يتكسر تحت أحذيتهم. تملأ صدورهم رائحة الأرض المختلطة بعبق المغفرة، وتذكّرهم بما سيعودون إليه.

لم يكن الجمع كبيراً؛ بدا كافياً ليصير الهواء ثقيلاً بهمساتهم. بعضهم حرّك سُبْحَة بين أصابعه وهو يستغفر، وبعضهم مسح وجهه بكفّه، وآخرون أطلالوا النظر إلى التراب الذي سيُفتح فمه بعد لحظات.

وقف راشد قريباً من القبر المفتوح؛ ثوبه ناصع البياض، غير أنّ أطرافه ابتلت وتناقلت بالطين، وشماغه الأحمر مرخى على

كتفيه، كأن رأسه لم يعد يحتمل ما يُحيط به. كان وجهه يشبه قناعاً لا ينتمي إلى المكان، خالياً من الانفعال، لا يرفض ما يحدث ولا يقرّ به. عيناه جامدتان، وكل من حوله يقرأ في صمته وجعاً أعمق من أي بكاء.

والى يساره يقف خاله؛ رجل في أواخر الخمسينيات، طويل القامة، يرتدي بشتاً أسود خفيفاً فوق ثوبه، ولحيته المختلطة بالبياض مشذبة بعناية. عيناهُ ضيقتان، يمسك سُبحة سوداء بين أصابعه المرتجفة، ويهمس بدعاءً متكرر: «اللهم اجعل قبرها روضةً من رياض الجنة، اللهم اغفر لها ما تقدّم وما تأخر من ذنب».

رفع بصره إلى السماء، ثمّ التفت إلى راشد وهمس بصوتٍ متهدّج: «لم تكن أُمك تخشى الموت، لكنها كانت تكره البحر، تقول دائماً إنّ البحر لا يشيع منّا».

هوت جملته في صدر راشد كسقوط حجر في بئر؛ اهتزّت دواخله، وأحسّ أنّ صدره قد ضاق دفعة واحدة، لكنه لم يرد، واكتفى بأن أطرق رأسه، وارتخت اليد التي كانت تثبت شماغه، حتى سقط طرفه على الأرض.

جاءه عبد العزيز من الخلف، فاحتضنه بقوة، وقال بصوت يختلط بالمطر: «اصبر يا راشد، كُلُّنا نسير على هذا الطريق. غفر الله لها». ثم ابتعد، تاركاً مكانه لبدر، الذي اكتفى بأن يضع يده على كتف راشد. كانت نظرة بدر أبلغ من كلامه؛ عيان محمّرتان بالدمع، وفمٌ مطبق يخشى أن ينفلت منه البكاء. رفع المغسّل صوته: «الصلاة يا جماعة، نصلي».

وقفوا صفوفًا، انحنت الأكتاف، واصطففت الأقدام على الأرض المبتلة. كبر الإمام، ورددوا خلفه: «الله أكبر».

رفع راشد يديه ثم تركهما تهويان إلى جانبيه مسلماً حزنه للسماء. أحسّ بأن جسده يفلت منه، وبات هيكلاً هشاً ينجرف تحت وطأة الفاجعة. كانت دموعه تتحدر من عينيه، تجتمع تحت ذقنه نقطة بعد أخرى، ثم تهوي على الطين عند قدميه، فيتسع موضعها كأن الأرض تشرب وجعه في صمتٍ مطبق، حتى خُتِمت الصلاة وسكن كل شيء إلا داخله.

ولمّا انتهت الصلاة، رفع الرجال الجثمان من فوق أكتافهم، فانقبض قلب راشد وهو يرى الجسد الذي كان يومًا صدرًا يؤويه وذراعًا تضمه، وقد صار نعشًا تلفّه الأكفان وتحمله الأيدي بعيداً. وقف مشدوهاً لا يبكي، وتعلّقت عيناه بالجسد وهو يهبط في الحفرة بين يدين غريبتين.

لم يمدّ يده؛ شعر أنه طُرد من هذا العالم، ولم يعد جزءاً من مشهد الموت.

وبينما انشغل الرجال بردم التراب، وقع بصره على غرابٍ يقف فوق شاهد قبرٍ قريب. كان سواد جناحيه يلمع تحت المطر، وفي جناحه الأيسر ريشةٌ بيضاء تُشبه ندبة. حدّق إليه بعينين ثابتتين لا تطرفان؛ لم ينطق ولم يرفرف، واكتفى بمراقبته في صمتٍ طويل، حتى خيّل لراشد أنّ هذا الطائر يعرفه أكثر مما يعرف نفسه. هداً المطر شيئاً فشيئاً، وبدأ المعزّون يفادرون. تعالت كلمات العزاء المألوفة: «أحسن الله عزاءكم»، «الله يرحمها ويفقر لها»، «جعلها الله من أهل الفردوس». مصافحة تتلوها مصافحة، ويد تربّت على كتفه، ودموع تُخفى خلف شماغ أو بشت.

وقف راشد وحده قرب القبر. انحنى ولمس التراب براحته
فشعر بجسم صلب تحته، فحفر التراب بأصابعه المرتجفة حتى
أخرج صدفةً بحرية مشروخة من طرفها، كانت مبللة كأنها تنتظر
انكشافها منذ زمنٍ بعيد. رفعها أمام عينيه، تأمل شرخها، ثم
خبأها في جيبه كمن يخبئ سرًا لا يريد أن يشاركه أحدًا فيه.
رفع رأسه نحو شاهد القبر؛ كان الغراب قد اختفى، ولم يبقَ
حوله غيرُ المطر المتقطّع، وقلبه الذي صار -من فرط حزنه-
أثقلَ من الأرض.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لم ينظر إلى أحدٍ وهو يغادر، حتى حين ناداه خاله بصوتٍ خافتٍ من خلفه:

«راشد، أتريد أن أرافقك؟» أشار له بيده دون أن يلتفت، ثم مضى وحده نحو سيارته.

كانت السيارة متعبة قليلاً من السنين؛ أطرافها مخدوشة، وزجاجها الأمامي يحمل أثر قبلة صغيرة من حجرٍ طائشٍ. كانت هذه السيارة ملك أبيه يومًا، ورثها عنه كما ورث منه صمته وغيابه. وحين جلس خلف المقود أحسَّ أنه يجلس في حضرة غائب آخر؛ فالمقعد ما يزال يحتفظ بحرارة رجلٍ لم يعد موجوداً. وفي المقعد الخلفي وُضعت عباءة والدته مطوية، تفوح منها رائحة البخور والورد المعتق، كما كانت تفعل دائماً بعد صلاة العصر، كأنها ما زالت هنا، تترك ظلّها في نسيجها الحريري المطرّز. أغلق الباب، فأحاطه اختناقٌ شدّ وثاقه على صدره.

بدأ المطر ينقر الزجاج الأمامي؛ طرقات خفيفة مترددة، ثم اشتدّت قليلاً، ثم هدأت، كأنّ السماء تختبر حزنه بصبرٍ ناعم. أدار المفتاح، فاستجاب المحرّك برجة واهنة، وشعر أن السيارة تشاركه فقد وتذكر أنها تحمله الآن إلى بيتٍ لم يعد فيه سوى الصدى.

على الإسفلت المبتلّ، انعكست أضواء الإشارات المرورية، وعبرت السيارات ببطءٍ حذرٍ تخلف وراءها خطوطاً من الماء الموحل. على الأرصفة، صفت دكاكينٌ صغيرةٌ أوصدت أبوابها

الحديدية الملونة بالأزرق والأخضر، وقد غطاها البلبل وتجمّعت عند عتباتها برك الماء. فيما وقفت نخلات متفرقة يهتزّ سَعْفُها تحت وطأة المطر والريح.

بدت الرياض مدينتين في واحدة: شوارع رئيسية معبّدة تلمع كالمرايا، وأزقة جانبية ما زالت ترابية، أحالها المطر وحلاً حفظ آثار خطى الأطفال والعابرين. كانت السوق الشعبية ساكنة قبل الإغلاق؛ بسطات غُطيت على عجل، ورائحة بهارات ثقيلة تماهت مع رائحة المطر.

كلّ شيءٍ يذوب تحت مظلةٍ واحدة من الحنين.

ثبّت عينيه على الطريق، فيما هام باطنه في جهةٍ أخرى. يداه تقبضان على المقود، لكنه منفصل عن المكان، كأن وجوده انقسم نصقين: جسدٌ حاضر، وروحٌ تبتعد. لاحت في خياله صورة أمه؛ تتلمس عباءتها بابتسامة خجول وتقول: «دائماً أنسى أين أضعها، وأنت من يجدها لي».

كان يضحك حينها، أما الآن فقد ضاق الصدر عن الضحك. فتح زجاج النافذة قليلاً، فاندفع هواءٌ بارد يحمل عبق التراب المغسول، ورائحةً برسيم قادمة من أطراف المدينة. انفتحت ذاكرته على لحظاتٍ لا تزال حيّة في داخله: صوتها، ضحكاتها، ملمس يديها. همس لنفسه: «كان يمكن أن أعود مبكراً، لكنني كنت خائفاً». ثم التفت مخاطباً العباءة الملقاة في الخلف: «لكنك تعرفين... تعرفين أنني لا أستطيع أن أهرب أكثر».

توقّف عند إشارة حمراء، فانعكس لونها على الزجاج الداخلي كجرح قاني اللون. نظر في المرأة، وللحظة خيّل إليه أن طيفاً

يجلس في المقعد الخلفي. التفت فزعاً... لا أحد. وحدها العباءة السوداء، وقد انزلق طرفها من الطيَّة المنسدلة، كأنها تتململ في جلستها.

فاح منها عطر دافئ؛ مزيج من الهيل والبخور ورائحة البن في عصريات الشتاء، حين كانت تمد له فنجان القهوة وتقول ببساطتها الآسرة: «تقهوى»..

ارتجف قلبه، وتمنى لو يلتفت فيجدها حقيقة، توخَّه على تأخُّره كما اعتادت.

دلف إلى الحي القديم. ضاقت الشوارع؛ بعضها تآكل إسفلته، وبعضها لا يزال ترابياً موحلاً. وعلى الجانبين تجاوزت بيوت الطين مع بيوت الحجر والجير، بأبوابٍ حديديةٍ بهتت ألوانها، ونوافذ خشبيةٍ تقشّر طلاؤها من طول الصبر على الشمس. في السوق المجاورة، كان باعة التمر والبهارات يللمون ما بقي تحت الشوادر المبتلة هرياً من المطر، فيما تسلّلت رائحة القهوة وشاي الجمر من مقهى صغير، لاذ به رجالٌ يرقبون الطريق بصمت.

يقع بيته في زقاقٍ جانبيٍّ عند نهاية الشارع، يطلُّ عليه عمودُ إنارةٍ مطفاً، ويحيط به سورٌ بنيٌّ فاتح بهت من الشمس. وعند البوابة الحديدية الصغيرة يبرز نقشٌ هلالٍ صديء بالكاد يُرى. تطلُّ على الشارع نافذةً جانبيةً ذات شبّاكٍ حديديٍّ، وتحتها أصيصٌ فخاريٌّ فيه نبتةٌ يابسة لم تُسقَ منذ أشهر.

أوقف سيارته أمام الباب. أطفأ المحرّك، وجلس في مكانه دقيقة... دقيقتين... كأنه يرجو أن يفتح الباب وحده، وأن يستيقظ من كابوسٍ طويل فيجد أمّه عند المدخل تقول له: «تأخّرت».

ولكن الواقع قاسٍ كالمفتاح الحديدي في جيبه. مدّ يده نحو مقبض الباب فارتدّت.

أغلق عينيه واستسلم لحظةً للوهم: أن يعود من المقبرة فيجدها حيّة، تنهزه وتضحك في الوقت نفسه. فتح عينيه على الجدار الصامت أمامه.

أدار المقبض، فاستجاب الباب بصريرٍ خافت، كمن يشكو غيابًا طال كثيرًا.

حين دخل البيت، شعر أنه استقبله بصمتٍ ثقیلٍ يشبه الفقد. أغلق الباب خلفه، وأسند ظهره إليه لحظةً، ثم سحب نفساً قصيراً وصعد الدرج نحو الغرفة التي تعرف خطواته. لم يبدل ثوبه؛ رمى شماغه على كنبه جانبيه، ووضع المفاتيح على الطاولة الصغيرة، وترك الكيس الذي يحمل فيه بعض الأوراق قرب الحائط، ثم جلس على حافة الفراش. كان البيت ساكناً، لا أصوات تنبعث فيه سوى تقاطر الماء من المزاريب في الخارج وصفير خافتٍ يمر من بين الشقوق. مدّ يده إلى الستارة وأزاحها قليلاً، فانساب ضوء النهار المتعب فوق البلاط. في الزاوية، خزانة خشبية تُقابل السرير، وتحتها تماماً، حيث يلتقي الخشبُ بالبلاط، خطٌ دقيق يعرفه وحده: هناك يستقر الصندوق.

أشعل المصباح، ثم أطفأه فوراً؛ لا يريد ضوءاً يزيد يقظته. عاد فتمدد على الفراش، ويداه فوق صدره كمن يتحسس وجعه، ثم وضع ساعده على عينيه، وأحسّ بالنبض يطرق صدغيه. حاول أن يأمر نفسه بالنوم: «نصف ساعة للمحاولة».

لكن النوم لا يُؤتى بالأوامر. انقلب على جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم تشابكت أصابعه على بطنه لئلا تمتد الرجفة أكثر. تسلل إليه صوتٌ قديم، ليس من الذاكرة وحدها، بل من الممر بين غرفته والمطبخ: أصوات الملاعق في عصرٍ مضى، ورائحة القهوة حين كانت أمّه تمد له فنجان القهوة وتقول: «تقهوى».

نفس العبارة، بنفس الهدوء. حاول أن يبتلع ريقًا جافًا، فارتفعت الجملة الأخرى من عمقٍ أبعد:

«لا تفتح الصندوق يا راشد إلا إذا متُّ».

أبعد ساعده عن عينيه وحدّق إلى السقف. لم يُخبرها يومًا أنّه اكتشف مكان الصندوق؛ هي التي دلّت عليه من غير أن تُصرّح بموضعه. قالت له في اليوم الذي سبق مرضها الأخير بأيام:

«لا تنسَ الصندوق، واحذر البحر».

ضحك يومها ضحكة خافتة ليوهمها بالقوّة، لكنها رأت ارتبাকে، فوضعت يدها على كتفه وقالت بصوتٍ أشدّ وضوحًا:

«إن حدث ما تعلم فافتحه، أمّا قبل ذلك، فلا تقترب منه».

أغمض عينيه ثانيةً، وكاد يغفو، لولا أن باغته ذكرى أخرى: وجهها على السرير، تقول بصوتٍ متهدّج: «عِدي يا راشد ألاّ تُدخل البحر إلى حياتك».

كان يهمس: «حاضر»، فتزيد:

«ما في الصندوق يكفيك لتعرف، فلا تبحث عن موتك».

رفع رأسه عن الوسادة كمن يخرج من موجة باردة فجأة. جلس ومدّ يده إلى قدميه، نزع حذاءه، ثمّ انحنى ومدّ ذراعه تحت الخزانة. لم يلامس الخشب أولاً؛ مسح الغبار، ثمّ الحافة، ثمّ تلك القطعة الخشبية السفلى التي يعرف أنّها تتحرّك إذا دُفعت من الجهة اليمنى. دفعها حتى انزاحت بخفّة، فكشفت الظلّ المستطيل الذي يحرس الصندوق منذ سنوات.

لم يسحبه؛ تركه حيث هو، واستند إلى الحائط. أحسّ أنّه إنّ أخرجه إلى وسط الغرفة صار أثقل من المكان، وأنّه إن أبقاه

في الظل غدا قابلاً للتراجع. عاد إلى الفراش وجلس يحدّق في الخزانة كما لو كانت وجهًا ينتظر منه كلمة:

«بعد العصر»، قال لنفسه.

ثمّ استدرك: «بعد المغرب».

ثمّ لم يحتمل، وقال في نفسه: «الآن».

جثا على ركبتيه، وأدخل يديه تحت الخزانة، وسحب الصندوق إلى الضوء. كان خشبه قاتمًا، وفي زواياه خدوشٌ صغيرة كأنها آثارُ أصابع. الشريطة الحمراء حوله باهتة، عقدتها لا تزال ثابتة، لكن ما تحتها يرتجف ببطء. وضع راشد كفيّيه على الغطاء قبل أن يفتحه، فالتقطت راحةً يده برودته، ومنحته شعورًا غريبًا.

تردّد قليلًا؛ لا يريد أن يرى نفسه وهو يفتحه. حاول أن يغمض عينيه، فتهافت عليه صور متعبة: يدٌ أمّه تُخفي شيئًا في هذا الموضع، وصوت أبيه وهما يمران قرب البحر ذات صباح وهو يقول: «ليس كل ما يلمع رزقًا»، وصدى بعيد لكلمة كان يحاول نسيانها: «القحمة».

فتح عينيه، ومدّ يده إلى الشريطة، وسحبها قليلًا دون أن ينكّها، وتذكّر قولها:

«لا تفتح الصندوق يا راشد إلا إذا مت».

في الخارج، يرسم المطر خطوطًا رفيعة على الشارع، والهواء داخل الغرفة ساكنٌ لا يتحرك.

أراح ساعديه على ركبتيه ونظر إلى العقدة الحمراء. كادت أصابعه تتحلّ، ثم تراجع. نهض، واتجه إلى المطبخ.. فتح الخزانة، سحب كوبًا، صبّ ماءً باردًا، وشربه بجرعة واحدة. عاد

إلى الغرفة وهو يسمع صدى خطواته كأنها لرجلٍ آخر. جلس ثانية، ووضع يده على العقدة وقال بصوت أوضح: «سامحيني يا أمّي».

لقد رحلت، فما الذي يمنعه؟ يمنعه خوفه من أن يقلب ما في الداخل حياته رأسًا على عقب، وأن يخرج الكلام الذي خبّأته عنه في حياتها وبعد موتها، وأنه ما إن يرى، فلن يعود كما كان. رفع رأسه. تذكّرها عند النافذة، في آخر عصرٍ وقفت فيه على قدميها وهي تصلح الستارة وتقول: «البحر يا راشد ذكّي، فلا تتحدّه».

وتذكّرها وهي تضع الدلّة على السفرة:

«أحياناً، يا ولدي، ما يُخبأ لنا أصدقُ مما يُقال لنا».

وتذكّرها وهي تشدّ على أصابعه في ممرّ البيت: «لا تنسَ الصندوق».

جلس مستقيماً، مدّ يده إلى العقدة، ولئلا يسمع رعدة إصبعه قال بصوتٍ أثبت: «لن أنسى».

فكّ العقدة الأولى. توقّفت أصابعه عند الثانية، أخذ نفساً ثم أعاد عقدها. راح يجربّ خدعة طفولية ليؤجّل ما لا مهرب منه. ابتسم ابتسامة خاطفة تلاشت فور أن قفزت العبارة في داخله: «احذر البحر».

ما علاقة البحر بما في الصندوق؟ هل يحمل داخله أمراً يقوده إلى طريقٍ لم تُرده أمّه؟ هل فيه كتابةٌ قديمة من زمن الجدّ؟ سؤال يتلوّه سؤال.

هذه المرة لم يتردد. وضع الصندوق في حضنه، مرّر أصابعه على الخشب، فقرأ بأطرافه الخدش القديم في الزاوية اليسرى، والنتوء الصغير عند الحافة الأمامية. أمسك الشريطة من طرفها وفكّها في صمت، ثم أسند الغطاء إلى كفيّه من الجانبين. توقّفت أصابعه فوق المفصل، ثابتةً وثقيلةً كأنها بابٌ لا يفتح وحده. تذكّر وصيتها للمرة الأخيرة، بصوتها هي، لا بصدى صوته: «لا تفتح الصندوق يا راشد إلا إذا متُّ».

فأجابها في سرّه: «لقد رحلت».

ظلّ على هيئته، ساعده على الغطاء، ظهره منحني قليلاً، عيناه تترددان بين سقف الغرفة والأرض. بقيت بينه وبين الفتح لمسة واحدة.

عند تلك اللحظة، انقطع تردده. مدّ راحته إلى الغطاء، وفي داخله جملتان تتجاوران:

«لا تنسَ الصندوق».

و«احذر البحر».

رفع الغطاء كأنه يزيج عن روحه حملاً قديماً. تسلّل إلى أنفه هواءٌ راكد لا رائحة له، لكنه بدا كأثرٍ ياقٍ منذ زمن. ما في الداخل قليل، لكنه في قلبه أوسع من الغرفة كلّها. كان فيه أشياء معدودة، لكنها كفيّلة بأن تثقل صدره كاملاً: خنجرٌ بغمدٍ جلديّ، نصله باهت، وعلى حدّه شرخٌ يلمع بحدّة. مدّ راشد أصابعه يلامس الشرخ، فاجتاحه شعورٌ غريب.

وورقةٌ محروقة، نصفها أكلته النار، ونصفها الآخر ترك كلمةً وحيدة تقف في الرماد كأخر ناج: «دماؤنا». تردّد عندها، وقرأها كمن يسمع حكماً لا يخصّه وحده، بل كلّ من حمل الاسم.

وخاتمٌ أسود، ليس لمعانه لمعان معدن، بل لمعان ليلٍ كثيف.
وحين رفعه وجد وزنه أثقل مما يبدو.

وصورة باهتة لطفلٍ عند الشاطئ، ثوبه القصير يلتصق بفخذه،
وخلفه بحرٌ ممتدٌّ بزرقةٍ خامدة. ملامح الطفل مطموسة، فراغ
أبيض كأنه سؤال، وخلف الصورة لا يوجد توثيق.

وبين الأشياء قصاصة صغيرة بخط أمه، حروفها واضحة،
وجملتها رقيقة كيدٍ تربّت على كتفه:

«إذا فتحته فسامحني. كنتُ أعرف، لكنني خفتُ عليك».

أغمض عينيه؛ وصار في صدره ثقلٌ كصخرةٍ رُفعت قليلاً ثم
تُركت لتسقط دفعةً واحدة.

مدّ أصابعه نحو الخاتم، وما إن لامسته راحته حتى انقلب
العالم من حوله.

لم تعد الحجرة حجرةً، ولا الأرض تحت قدميه. كان هناك،
عند شاطئ القحمة، في صيفٍ بعيد، والشمس تميل نحو الغروب،
والرمل الدافئ يعلو ويهبط مع الخطوات. كان البحر أبعد قليلاً
مما يتمنى، ورائحة الطحالب والملح تتفد إلى صدره كذاكرةٍ لم
تُمحَ، وصوت الموج يلامس قلبه كأنه يوقظه.

كان راشد جالساً على الرمل، يضع في حجره دفترًا صغيراً
يرسم فيه أشكالاً لا تكتمل: نصف صدفة، نصف عين، وبجانبه
أصدافٌ يصفّوها حسب الحجم؛ لا يقصد شيئاً، فقط يُرتّب
الفوضى.

اندفع خالد من الخلف، تضرب الشمس كتفيه، وضحكته
تقطع صوت الموج. صرخ بصوتٍ يفيض حياة:

أخوه أمامه، يلوّح للحظةٍ أخيرة وسط الماء؛ عيناه تطلبان النجدة ولا تصلان، حتى ابتلعه البحر بلا أثر، كما يبتلع الليل آخر ضوءٍ في الأفق.

شهق راشد، ثم خرَّ على ركبتيه، يصفع الرمل بيديه العاريتين؛ وكلّ صفةٍ لا تردّ الغريق، بل تردّ صدى نفسه وهو يتفتّت. أخذ يحدّق في المكان الذي اختفى فيه خالد، يعضّ على صوته ليصرخ أكثر، لكن البحر ابتلع حتى الصرخة.

في الخلف، بين جذوع النخل، كان يقف فارس متجمّداً؛ يداها متدليّتان عند جانبيه، وعيناه تلاحقان خالداً. أراد أن يتحرّك، أن ينقذه، أن يركض نحوه، لكن الخوف شدّه من كل ناحية. راقبه مشدوهاً حتى غرق أمام ناظريه، ثمّ توارى واختفى. غير أنّ البحر لا ينسى.

انطفأت الصبورة فجأة، كأنّ البحر انتقل إلى صدره. عاد إلى جسده بكل ثقله، يلهث بأنفاسٍ متقطّعة. نظر إلى كفّه، فإذا بها تقبض على الخاتم بقوة حتى غدا دافئاً بحرارةٍ خفيفةٍ ثابتة. حاول أن يفلته، لكن أصابعه بقيت مشدودة، مترددةً بين تركه والاحتفاظ به؛ لم يشأ أن يتخلّى عن الشيء الذي أعاده إليه البحر.

جلس على الأرض. الغرفة هي ذاتها، لكن الأشياء لم تعد كما يعرفها؛ بدا كل شيء كأنّه تحرّك قليلاً عن موضعه ثم عاد، تاركاً خللاً خفياً في ترتيب المكان. شعر أنّ الحزن ينزّ من الجدران ويتسلّل إلى داخله حتى يبلغ العظام. نظر إلى كفّه فوجد نبضه مختلفاً، متسارعاً على نحوٍ لا يشبه نبضه المعتاد.

مدّ يده إلى الورقة المحترقة عند الحافة؛ خطّ لم يلحظه من قبل، كلماتٌ رقيقةٌ تكشّفت فجأة: «مَن يسمع النداء لا يبقى في مكانه طويلاً».

رفع بصره. كانت النافذة نصفَ مفتوحة، ودخل منها هواءٌ بارد، يحمل أثر ملح خفيف وطحالبٍ ورائحةَ سمك، وشيئاً يشبه صدأً ينبعث من قاعٍ غائر. لم تكن رائحةٌ عابرة، بل جرحاً قديماً عاد إلى موضعه.

وقف، كأن جسده تخلّص من عبءٍ كبير. أجال بصره في الغرفة: السرير في مكانه، الستارة ساكنة، والدولاب مغلق كما كان. كل شيء على حاله، لكن إحساسه تغيّر؛ لم يعد المكان يخصّه. شعر أنّ الجدران تراقبه بعينٍ باردة، وأنّ البيت، الذي حمل يوماً صوته وأيامه، لم يبقَ منه سوى سقفٍ يعلّق عليه الذاكرة بلا دفءٍ ولا انتماء.

عاد إلى الصندوق، أمسك الخنجر، فرأى الشرخ في حدهِ أوسع. ثم التقط الصورة، والبياضُ على وجه الطفل يزداد غموضاً. أدارها، فلم يجد سوى نقطة حبرٍ عند الزاوية. رفع الورقة ثانية، وقرأ الكلمة الناجية من النار: «دماؤنا».

اقترب من النافذة وأخرج رأسه قليلاً. كان الطريق ساكناً، والسماء قد حبست ماءها، وأثره صامد على الإسفلت وواجهات البيوت. أعاد الصندوق إلى مكانه تحت الخزانة، ووقف في منتصف الغرفة. قال في نفسه: «ربما أعود إلى القحمة».

توقّف عندها، كأنّ الجملة لا تحتل خطوة أخرى. جلس على فراشه وأسند جبينه إلى كفّه، ثم مال بجسده وتمدد. لم ينتظر

النوم؛ سبقه الإعياء وقطع عليه التفكير. الخاتم في راحته،
ونبضُه مضطرب، والبحر حاضر في صدره، يطرق السكون على
فترات، إلى أن أغمض عينيه وغلبه التعب.

لم يستيقظ راشد، بل أحسّ أن أحداً انتزعته من النوم، وهمس له :

«انهض... فقد انتهى الوقت».

فتح عينيه. كان ضوءٌ خافت يتسرّب من وراء الستارة، والساعة الصغيرة على الطاولة تُشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً. جلس كما هو، بلا تمبّط ولا استراحة، ثم يمنحه النوم راحةً بل أثقله. شعر بنبضٍ خفيف في راحته اليمنى، ودفع يبعث منها. نظر إليها، فإذا الخاتم الأسود لا يزال مستقراً فيها.

مدّ يده إلى الستارة وفتحها قليلاً. سماء الرياض ملبّدة بلون رماديّ، كأنّ أحدهم خلط الأبيض بالرماد ونقّته في الفضاء. مضى الشارع بإيقاعه المعتاد؛ سياراتٌ متباعدة، وخطواتٌ عابرة على الأرصفة، غير أنّ داخله ركّد، كأنّ كلّ ما حوله يترقّب شيئاً. ذهب إلى الحّمّام، غسل وجهه، ورفع رأسه إلى المرأة. لم يكن وجهه غريباً، لكنه بدا كصورةٍ منهكة. قال لنفسه:

«أنا مرهق».

لم يقلها تبريراً، بل اعترافاً.

حين عاد، وقعت عيناه على الصندوق الذي تركه أمس. انحنى، ولم يفتحه، بل مرّر أصابعه على سطحه كمن يتحسّس شيئاً نابضاً تحته، ثم نهض، وجلس عند الطاولة وفتح دفتريه. كتب، بخطّ متقطّع:

«خالد غرق، وأمّي دُفنت، وأبي غاب، والبحر ما زال يصلني

حتى هنا».

توقّف، ثم أغلق الدفتر ورفع رأسه. لا يزال الصمت يلفّه، لكنّه ليس صمتًا مطمئنًا، بل صمتٌ يُنذر بشيءٍ قريب.

من الأسفل، جاء صوتُ القرآن يتلى بهدوء من مكبّر صغير في مجلس الرجال. كان الإمام يقرأ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

فدخلت الآية قلبه كأنها قيلت له وحده.

لبس ثوبه، ورمى شماغه على كتفه بلا عناية. نظر إلى نفسه في المرآة، فلم يعرف:

هل تغيّر حقًا، أم أنّ الحزن كشف له تغيّرًا كان قائمًا منذ زمن؟

فتح الباب ونزل الدرج. كانت كلّ خطوة تزيد ثقله؛ رائحة البنّ والهيل تختلط بعبق البيت العتيق، وتفتح الذاكرة أكثر مما تُسكنها.

عند نهاية الدرج لمح خاله في المجلس يستقبل المعزّين. يرتدي بشته البنيّ فوق ثوبه الأبيض، وجهه متماسك، غير أنّ عينيه تحكيان عن ليلٍ بلا نوم. غاص المجلس بالرجال: جيران، ومعارف من السوق والمقهى، وأقارب بعيدون. تغطّي الفرش السميكة الجدران، ومراوح السقف تدور ببطء، وضوء النهار يتسلّل من النوافذ.

رأى وجوهًا مألوفة: جاره، وبائع التمر، ورجلاً من أهل الحارة. اقترب أحدهم، صافحه بحرارة وقال: «عظم الله أجرك يا راشد».

فأجاب بخفوت:

«أجرنا وأجركم».

وضع آخر يده على كتفه وقال:

«كانت أمك امرأة طيبة... رحمها الله».

لم يقل شيئاً، واكتفى بهز رأسه ومواصلة السير.

حمل طفل صغير صينية تمر ودلة قهوة، يناول الفناجين بارتباك، ثم يقف ساكناً.

كل الوجوه تتبعه بعينين صامتتين، كأنهم ينتظرون منه دمة طال احتباسها.

مرّ بمحاذاة الصفوف، حتى سمع خاله يهمس لرجل مسن:

«كانت قويّة كالجبل... لكن عينيها تغيّرتا من يوم جاءها خبر

البحر».

توقّف لحظة. لم يلتفت، لكن الكلمات نخزت صدره.

خرج إلى الممرّ الخلفي المؤدّي إلى فناء البيت. كان مدخل النساء مفصّولاً بستارة، تتسرّب من خلفها همسات خافتة وبكاء مكتوم. لمح ظلّ امرأة يشير لزائرة بالدخول ثم يختفي إلى الداخل. لم يقترب؛ فكل ركن في هذا البيت يذكره بأمّه... حتى الظلال.

في الفناء، فرشوا بساطاً أبيض للجلوس المؤقت. كان الجو ثقيلًا والهواء ساكنًا، وكلّ ما حوله يوحي بأنّ الحزن ليس حالة عابرة، بل كائنٌ مقيم.

وعند الباب الخارجي، على الجهة اليمنى، وقف عبد العزيز، ابن خاله. رفع رأسه، وعلى شفّتيه أثر ابتسامة خافتة لم تجرؤ أن تكتمل في هيبة المكان. تقدّم راشد نحوه بخطوات بطيئة.

صافحه عبد العزيز وقال بصوتٍ منخفض:

«أحسن الله عزاءك يا راشد».

أوماً راشد برأسه. كانت عيناه مرهقتين، وملامحه أضعف من البارحة. لم ينطق، لكن وجهه قال كلَّ ما يُقال. وفهم كلُّ من رآه أنَّ الجزن لم يُحط به فحسب، بل استقرَّ فيه.

مكثَ عبد العزيز إلى جواره، ثمَّ أشار إلى المقاعد الجانبية تحت النخلة الرفيعة:

«لنجلس قليلاً».

جلسا تحت النخلة صامتَيْن، يمرُّ بهما نظرُ المعزَّين من بعيد، ثمَّ ينصرف.

قال عبد العزيز، وفي صوته وقار العزاء:

«رحمها الله... كانت طيبة القلب على نحوٍ لا يخفى. ما رأيتُ أحداً يطرق بابها إلاَّ خرج بشيءٍ من خيرها».

أطرق راشد برأسه، وشعر بدمعةٍ تدفع نفسها إلى السطح، ثمَّ قال:

«لم تكن أمِّي... كانت ملجأً. كلُّ بيتٍ هنا يعرف ذلك».

ابتسم عبد العزيز ابتسامةً حزينة، ثمَّ أضاف:

«أذكر يوم مرضت جارتنا أم سعد؛ كانت أمَّك أوَّل من طبخ لها، وأوَّل من جلست عند فراشها. قالت لي يومها: 'الطيبة دين، لا تنتظر أن يردّها إليك الناس'».

رفع راشد عينيه نحو ظلَّ النخلة، وقال:

«كانت تقول لي ذلك أيضاً... لكنِّي لم أفهمه إلاَّ الآن».

ساد صمتٌ قصير، تبادلًا خلاله نظراتٍ لا تحتاج إلى تفسير.
ثم قال عبد العزيز كمن يفتح بابًا جديدًا:

«لم أرك أمس... أين كنت؟»

أخذ راشد نفسًا طويلاً، ثم أجاب بعد تردد:

«كنت مع الصندوق».

تغيّرت ملامح عبد العزيز واقترب منه قليلاً:

«فتحته؟»

قال راشد وعيناه نحو الأرض:

«نعم. لكنني لم أشعر أنني فتحت شيئاً، بل أن شيئاً في داخلي

هو الذي انفتح».

انتظر عبد العزيز أيضاً، لكن راشد اكتفى بجملة مقتضبة:

«وجدتُ أشياء غريبة... تخصّها هي، وتخصّ أبي ربما».

لم يسأل عبد العزيز أكثر. شبك أصابعه وقال:

«ربما ما تركته لك... ليس أشياء فقط».

ابتسم راشد ابتسامة واهنة، وقال:

«أعرف.. لكنني لست مستعداً للحديث عنها الآن».

أوماً عبد العزيز موافقاً، ثم غير مجرى الحديث:

«أفكر أحياناً أن الطيبة التي كانت في قلبها لا تتطفئ؛ تبقى

آثارها في الناس... وفيك أنت قبل غيرك».

أطرق راشد قليلاً، ثم قال هامساً:

«أشعر أنني لست هنا كلياً».

رفع عبد العزيز حاجبيه:

«ماذا تعني؟»

قال راشد وهو يحدّق في الفراغ:

«ربما... أعود إلى القحمة».

ظهر القلق على وجه عبد العزيز، وسأل:

«لماذا؟»

أجاب راشد بتردد: «لأنّ جزءاً مني ما زال هناك. أشعر أنّ شيئاً ينتظرني على الشاطئ منذ زمن».

صمت عبد العزيز لحظة، ثم قال:

«العودة ليست سهلة؛ الطريق موحش... والبحر لا يرحم من

يقصده».

ردّ راشد:

«لم أعد أفكر في السهولة. ما يثقلني هنا... يجرّني هناك. لا أعرف إن كنت سأذهب حقاً، لكن الفكرة لا تفارقني».

تنفّس عبد العزيز بعمق وقال بنبرة لطيفة:

«إن قررت... فلا تذهب وحدك».

ابتسم راشد وقال:

«لست وحيداً... منذ البارحة عاد معي شيء من هناك. خرج من الصندوق، وما زال يلازمني».

تأمّل عبد العزيز عينيه طويلاً، ثم وضع يده على كتف ابن خاله وقال:

«مهما كان... تذكر أنّنا ما زلنا حولك».

نهض راشد، كأنّ الأرض أثقل من قدميه. نظر إلى الباب المفتوح على الشارع، ثمّ إلى السماء الرمادية فوق النخلة. لم يقل شيئاً، لكن في داخله تردّد النداء مراراً: القحمة تُناديه.

بعد أن افترق عن عبد العزيز، عاد إلى المجلس، كأن عليه أن يمرّ من قلب الحكاية قبل أن يبتعد عنها. جلس بجوار خاله في وسط المجلس؛ القهوة دائرة، والقرآن يتردّد من مذياع صغير، والمعزّون يدخلون ويخرجون على مهل.

قال له أحد كبار السن: «اللّٰه يرحمها، ويجعل صبرك عليها أجراً».

فأجاب بصوت منخفض: «جزاك اللّٰه خيرًا يا عم». وضافه آخر قائلاً: «رحمها اللّٰه، ما سمعنا عنها إلّا الخير». فقال راشد: «بارك اللّٰه فيك».

التفت إليه خاله، ووضع كفّه على ركبته وهمس: «إن احتجت أن ترتاح قليلاً فافعل، لا تُلزم نفسك البقاء». هزّ راشد رأسه، ثمّ ساد بينهما صمتٌ وجيز، قال: «نويت السفر إلى القحمة».

رفع خاله نظره إليه: «ولمَ الآن؟»

قال راشد: «أشعر أنّي بحاجة إلى أن أذهب إلى هناك».

لم يُجادله خاله، ولم يُثبّه. شدّ على كفّه وقال بهدوء:

«إن رأيت في ذلك سكينَةً فامضِ، وإن أردت أن تتريّث حتى تتقضي أيام العزاء فافعل، وإن احتجت إلى شيء فارجع إليّ». قال راشد: «شكراً لك».

ثم أضاف خاله: «لا تُثقل على نفسك، يكفي أن تدعو لها وتستودع أمرك للّٰه».

راح راشد يجيب المعزّين بكلماتٍ مقتضبةٍ بعض الوقت، ثم استأذن خاله ونهض بتمهّل. عبر الممرّ الطويل إلى الفناء، حدّق في ظلّ النخلة الممتدّ على البلاط، ثم اتّجه إلى السلم وصعد الدرجات، كل خطوة تذكّره بفقد أمّه.

فتح باب غرفته وتوقّف عند المرآة. اقترب وتأمّل ملامحه: عينان بنيّتان يظللّهما رمش طويل، حاجبان مستقيمان يمنحان نظرته ثباتًا، أنفٌ دقيق، وفم صغير، وخطّ فكّ واضح يزيد وجهه حضورًا. بدا وسيماً على نحو هادئ.

أنزل الشماع عن كتفه وألقاه على الكرسي. ثم نظر إلى الدولاب كمن يواجه سؤالاً مؤجّلاً. هناك، في الأسفل، يستقر الصندوق في مكانه؛ ثقيلاً، لا بوزنه، بل بما يوقظه فيه كلّما لمسه. اقترب منه، ثم أزاح الغطاء بحذر وأخرج الصورة أولاً. تأمّل فيها الطفل الواقف عند الشاطئ، وجهه مطموس لا ملامح له، ثم وضعها على الطاولة. بعد ذلك، أخرج الورقة المحترقة أطرافها، قلبها بين يديه؛ في الزاوية خطّ منقطع يشبه بداية جملة لم تكتمل. قرأ ما بقي منها، ثم توقّف عند الفراغ الذي تركته النار.

ترك الورقة جانباً، واستند بكفّيه إلى حافة النافذة. لم يفتحها، ومع ذلك تسلّل إليه عبق يعرفه: ملح البحر، أثر طحالب، وشيء من رائحة القحمة. أغمض عينيه هنيهة، كأن اللحظة تعيده إلى المكان الذي هرب منه.

عاد إلى الطاولة، سحب الدفتر، وكتب:

«ليالٍ لا تعرف النوم. كنت أظنني وحدي، فإذا بشيءٍ يستيقظ معي ويمشي خلفي. البيت تغيّر؛ سكونه لم يعد راحة، بل صار

سؤالاً يطول ولا يُجاب. كل ما يحيط بي يوجّهني إلى مكان واحد:
القحمة».

توقف قليلاً، ثم كتب أسفل السطر:

«ما يبدأ هناك لا يمكن أن ينتهي هنا».

أغلق الدفتر، وأعاد الصورة والورقة إلى الصندوق، ثم أدار
الخاتم بين سبّابته وإبهامه، وتمتم بصوت خافت: «لست وحيداً؛
منذ البارحة عاد معي شيءٌ من هناك، خرج من الصندوق وما
زال يلأزمي».

أراح ظهره على السرير وأرخى جفنيه. لم يكن نوماً عميقاً، بل
إغفاءة قصيرة حملت صوراً متقطّعة: شاطئ، صبيّ يلوّح للحظة ثم
يختفي، شجرة سدرّة ثابتة، وطريق يمتد في الرمل نحو الجنوب.
ارتسمت على وجهه ابتسامة واهنة؛ فما رآه قَرَب إليه ما عجز
عن فهمه. لم يحسم أمره بعد، لكنّه أحسّ أنّ الأحلام ستكمل ما
بدأ في داخله، وأن قراره سيأتي حين تكتمل الصورة. ومع ذلك،
كان يعرف أنّ ذهابه إلى القحمة لن يمنحه جواباً جاهزاً، بل بداية
لاكتشاف لا يدرك نهايته بعد.

في الأسفل تنهى صوت القرآن، وفي الأعلى يستقرّ الصندوق
على بُعد ذراع منه، بجواره صورةٌ تحاول استعادة ما مُحيَ عمداً،
ورقّةٌ ناقصةٌ تترك العقل معلقاً بما لم يُكْمَل. أمّا هو فأسند رأسه
إلى الوسادة، مسلّماً الهدأة نصيبها من الرؤيا؛ فإن كان له أن يعود،
فلن يختار بعقله وحده، بل حين تضع الأحلام يدها على كتفه.
وبين يقظةٍ ونوم، بقي راشدٌ مُعلقاً في المسافة: ليس هنا، ولا
هناك بعد، ومع ذلك كان يعرف أن القرار لن يُحسم الآن، بل حين
يطرق الباب ما ينتظره.

بعد أن انفضَّ العزاء، لم يعد البيت بيتًا؛ صُفَّت الكراسي التي ازدحمت بها الأجساد بالأمس بمحاذاة الجدار، وما تزال تحمل أثر الجلوس الطويل. وسُحِب السجاد من الفناء وكُوِّم في زاوية، تاركًا بقعًا فوق الأرض، وحتى الأكواب الزجاجية الصغيرة التي تناوبت عليها الأيدي رُصَّت نظيفةً فوق بعضها، غير أن أثر الشفاه بقي خيطًا خفيًا لا يراه سواه. وحدها الوحشة غلبت على المكان.

وقف راشد في الممرِّ يتأمل فراغ البيت، كأنَّ العزاء مسرح مؤقت أُسْدِل ستاره، وهو الممثل الوحيد على خشبة. نظر إلى الدرج الذي يقود إلى غرفته، ثمَّ إلى الباب الخارجي؛ لم يشأ أن يصعد ولا أن يبقى. ارتدى ثوبه وخرج.

ركب سيارته، أدار المحرَّك، وقاد عبر الأزقة من غير وجهة واضحة، حتى وجد نفسه يتوقَّف عند المقهى الصغير على طرف الحي، كأنَّ عجلة المقود اختارت عنه.

دخل المقهى، فاستقبله صخبٌ خافت: فناجين تضرب أطراف الطاولات، ملعقة تُقرع على حافات كوب، مروحة سقف تهدر بدوراتٍ متثاقلة، وتلفاز قديم في الزاوية يذيع نشرة أخبارٍ لا يصفى إليها أحد. امتزجت رائحة البنِّ المطحون ببخار الشاي المتصاعد، دوائره تتلاشى قبل أن تبلغ السقف. رجالٌ متفرِّقون جلسوا على المقاعد الخشبية: أحدهم يختبئ خلف جريدة، آخر يقرأ كتابًا، اثنان يتحدثان عن أسعار الغنم والتمر، ورجلٌ يراقب الطريق من خلال زجاجٍ مغْبِش. حتى الذين يضحكون،

كانت ضحكاتهم قصيرة تخبو قبل أن تكتمل. كان المكان مليئاً بالأصوات، لكنّه بلا حياة.

اختار زاوية بعيدة وجلس وحده. طلب قهوة سوداء، ووضع دفتره على الطاولة، فتحه، غير أن يده ظلّت معلقة بالقلم كأنّها تخشى أن تجرح الورقة. وبعد لحظات كتب جملة واحدة:

«البيت تغير، وأنا لم أعد فيه».

تأمّلها طويلاً؛ شعر أنها ليست اعترافاً بقدر ما هي شعورٌ بالطرْد، بأنّ البيت لفظه كما تُلفظ شوكة عالقة في الحلق. أغلق الدفتر ورفع الفنجان. ارتشف رشفة تسلّت مرارتها إلى صدره واستقرّت كغصّة.

حاول أن يلتقط من حوله وجهاً يخفف غريته، فلم يرَ إلا انعكاساً آخر للوحدة. الرجال هنا قريبون في المكان، بعيدون في الروح. صارت الضوضاء جداراً يعزّله أكثر: سعالٌ من زاوية، حركة كراسٍ تُجرّ على الأرض، ضحكة قصيرة تتطفئ قبل أن تكتمل. كل شيء يمرّ بجانبه دون أن يلمسه.

قال في نفسه: «كل هذه الوجوه ولا وجه أعرفه، كل هذه الأصوات ولا كلمة تلمسني». ورفع بصره إلى التلفاز؛ رأى المذيع يحرك شفّتيه بلا صوت، كأنّ الصورة وُجدت لتذكّره أنّه خارج المشهد تماماً.

لم يطل جلوسه؛ دفع الحساب وخرج. بدا الهواء في الخارج أثقل من الداخل. كان المقهى، رغم ضجيجهِ، أشبه بملاذٍ هشٍّ لم يستطع أن يحميه. مشى خطواتٍ على الرصيف، وحدّق في الواجهات المغلقة: أبواب حديدية تقشّر طلاؤها، دكّان حلاقة

مطفأ الأنوار بلافتة ممسوحة، متجر مواد غذائية علقت فوقه لوحة باهتة تتدلى في صمتٍ مستسلم.

كان الطريق شبه فارغ، إلا من قط ينقب في كيس قمامة عن لقمة يسدُّ بها جوعه.

وقف أمام سيارته ولم يُعجل بالدخول؛ وقف مدة يحدّق في الزجاج الأمامي. ثم فتح الباب وجلس في مقعده، أسند رأسه إلى المسند وأغمض عينيه. وحين فتحهما، لم يكن يدري إلى أين يمضي. أدار المحرّك وترك السيارة تتقدّم، بينما أصابعه ترتجف قليلاً فوق المقود.

مرّ بزقاقٍ ضيقٍ أعمدته مائلة، وأسلاكُ الكهرباء المتدلّية تهتزُّ بخفة. رأى رجلاً يعبر بعيداً، يحمل كيساً من الخبز، ثم يختفي عند زاوية الطريق. مكثّ راشد في سيارته يصغي إلى صوت المحرّك يهدر وحيداً في مدينة غارقة في غيابها. رفع عينيه إلى المرأة، فرأى وجهاً باهتاً كأن الحياة انتزعت من ملامحه. مدّ يده يمسح العرق عن جبينه، ثم شدّ قبضته على المقود.

وعند المنعطف التالي، ظهرت امرأة واقفة في منتصف الطريق. ضغط على المكابح بعنف، فاهتزّ جسده مع ارتجاج السيارة، وكاد صدره يرتطم بالمقود. تسمّرت عيناه عليها: ثوبٌ أبيض، وشعرٌ منسدل على كتفيها، ووجهٌ نصفه ظلٌ ونصفه ضوء، وعينان ثابتتان عليه. تقدّمت نحوه حتى بلغت نافذته، وانحنت قليلاً، واقتربت عيناها من عينيه، وقالت بصوتٍ لم يكن مرتفعاً، لكنه اخترق عظامه:

«اذهب إلى القحمة».

لم تُضِف كلمة، ولم تمشِ أو تستدر.. اختفت كأن الأرض ابتلعتهَا. بقي راشد مشدوهاً، يدها متعرجتان وقلبه يخفق في صدره حتى بدا صوته أعلى من كل ما في الشارع. حاول أن يصرخ ويسألها مَنْ تكون، لكن صوته انحبس، ولم يستطع سوى فتح زجاج النافذة. التفت يمنةً ويسرةً، فلم يجد إلا فراغ الطريق. أدار المقود بقوة غامضةٍ تلبّسته فجأة، ولم يعد يفكر في البيت. استسلم للطريق الذي ساقه حتى انتهى به عند المقبرة. أوقف سيارته خارج السور. كانت البوابة الحديدية ساكنة؛ دفعها، فأَنَّ صدوها بصوتٍ تردّد صدها من خلفه. مشى بين القبور، والحصى يتكسّر تحت خطاه، والشواهد البيضاء تمتدّ صفوفًا صامتة..

كان الجوُّ ملبّدًا والغيَمُ ثقیلاً. أخذ قلبه يخفق خفقًا لا عهد له به؛ لم تكن رهبة الموت، بل رهبة أن يواجه الغياب مواجهة لا مهرب بعدها.

كان الهواء ساكنًا سكونًا مريبًا، والسماء محمّلة بغيوم خفيفة كأنها تكتّم أسرار الأرواح الراقدة تحتها.

سار بين القبور، في ممرّ ضيق، يطأ الأرض بحذر، كأنما يخشى أن يوقظ ذاكرة تمتدّ عبر طرقات الصمت الطويل. حتى بلغ قبرها.

البقعة لا تزال طريّة العهد، وقد تعلّقت بأنفاسه الرائحة الترابية ذاتها التي التصقت بثيابه يوم دُفنت.

وقف عند رأسها، ووضع كفّه على الشاهد الحجري، كأنه يربّت على كتفها كما كانت تفعل كلما أنهكه شيءٌ من الدنيا.

ساد صمّت عميق لا يقطعه إلا صوت قلبه .

لم يتعجّل الكلام؛ فبينه وبينها مساحة من الحزن أبلغ من كل خطاب.

ثم تمتم، بصوت يتهدّج: «أمّي...».

كانت الكلمة وحدها كافية ليفتح الوجد أبوابه . كأن الذكريات انتفضت دفعة واحدة؛ انفتحت نوافذها واندفعت منها ضحكتها، رائحتها، وصوتها وهي تناديه إذا تأخّر عن المنزل أو عاد مُثقلًا بهمّ ما .

قال خافتًا: «جئت أستودعك قبل رحيل لا بدّ منه... ما استطعت أن أغادر دون أن أستأذنك . تعرفين يا أمّي... أني مهما كبرت، ومهما ادعيت القوة، فإن قلبي لا يطمئن لخطوة لا تُباركها» . كانت المقبرة ساكنة، لكن السكون كان يحرك داخله عواصف لا تهدأ .

لم يكن يخاطب ترابًا، بل يخاطب الغياب الذي يشبه حضورًا أشدّ كثافة من الحياة .

وتدفّق الحديث في أعماقه، كلامًا لا يسمعه أحد، لكنه كان أوضح من كل أصواته السابقة .

أمّي... لقد أثقلتني هذه المدينة بعدك .

كل زاوية فيها تُعيدني إليك، وكل ذكرى تنبض في جدرانها تخبرني أنك لن تعودني .

الأماكن التي كنت أستأنس بها صارت باهتة، والأماكن التي لم أحبّها أصلًا ازدادت ضيقًا .

أشتاقك شوقًا لا يشبه الشوق؛

فالشئ الذي يُنتظر لا يُسمّى كهذا.

أنا لا أنتظر عودتك... أعرف أنك لن تعودني.

فما هذا الذي يجتاحني؟

أهو فراغ؟

أم وجع؟

أم حفرة في الروح لا قرار لها؟

كل ذلك... وربما أكثر.

مدّ يده فمسح شيئاً من التراب على أطراف القبر، كأنه

يخفف عنه، أو يشاركها بعض ما حمله من أثقال قلبه.

ثم قال بصوت منخفض يقاوم انكساره: «أمّي... أنا ذاهب إلى

القحمة. بيتنا هناك ينتظرني، والصمت هناك أقل وطأة من

الصمت هنا. لعلّي أستطيع أن أتنفس، أن أستوعب رحيلك، أن

أبدأ بترتيب حياتي من جديد. لكن يا أمّي... أقسم بالله ما من

خطوة أخطوها إلا وأشعر أنك معي».

عاد الصوت الداخلي يتدفق:

«أمّي... إنني أخاف.

أخاف الوحدة هناك، وأخاف الغياب.

أخشى أن يتحوّل البيت إلى صندوق كبير أحيّا فيه مع صدى

صورتك فقط. لكنني، رغم ذلك، أعلم أن الرحيل واجب؛ فهذه

المدينة التي شهدت مرضك، وتعبك، وسهري عند رأسك، وبكائي

على صدرك... لم تعد تحتل بقائي فيها.

الناس يقولون: الزمن يخفّف... وما علموا أن الحزن على الأم

لا يُشبه سواه. الأم إذا رحلت... أخذت معها جزءاً من الروح، لا

يعوّضه أحد.

كانت تعرف حزني من نبرة صوتي، وقلقي من طريقتي في المشي، وفرحي من صمتي.

من يعيد خلق هذه النسخة من الحب؟ من يردّ إليّ الأمان الأول؟

تنفّس بعمق، واستند إلى ركبتيه، ثم قال بصوت خافت: «اللهم اجعل قبرها روضة من رياض الجنة، ونور عليها، وارحمها رحمة واسعة».

ثم فُتح في داخله باب آخر للقول، كأنه يحدثها عبر حجاب رقيق:

«أمي... سأبوح لك بما لم أبح به لأحد:

رحيلك أحدث في داخلي كسرًا خفيًا، لكنه يمسك القلب من جذوره.

ولمّا انقطع، سقطتُ إلى داخلي سقوطًا لا قرار له. ورغم ذلك... أعلم أنك تريدني لي الحياة. أعرف هذا يقينًا؛ لأن حبّ الأم لا يعترضه الموت، ولا تحجبه طبقات التراب. ما زال حبّك يحرسني، وما زلتِ، رغم رحيلك، أقرب إليّ من كلّ قريب».

رفع رأسه نحو السماء، كأنما يرتقب إشارة من عالم آخر. كانت الغيوم تتهاذى ببطء، وفي ذلك البطء سكينة تشبه اللمس. قال بصوت مسموع:

«سامحيني يا أمي... قد أبدو قويًا أمام الناس، وربما ضحكت أو تصنّعت الانشغال، لكنّي من الداخل هشٌّ كقصبية في مهبّ الريح. أحتاج رضاك، أحتاج إذنك، أحتاج بركتك قبل أن أغادر. أحتاجك... كما كنتِ دائمًا».

ثم جثا على ركبتيه، وأغمض عينيه، وأطلق دعاءً طويلاً خرج من أعماق الروح:

«اللهم يا واسع الرحمة...

اغفر لأمي، وارفع درجاتها، وأكرم نزلها، وأفضل عليها شآبيب رحماتك.

اللهم إني أشهدك أنها كانت أمًا رحيمة، قريبة من الخير، تُعطي ولا تطلب، وتحبّ ولا تنتظر مقابلاً.

فاقبلها قبولاً حسناً، ولا تحجب عنها نورك طرفة عين.

ثم همس:

«أمي... ها أنا أستأذنك.

وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه. سأذهب، لكن قلبي سيظل عند قدميك».

وقف. لكنّه لم يبتعد.

رمق القبر نظرة أخيرة، تحمل من العمق ما لا يُقال.

مرّت في داخله صورٌ لا تُحصى: ضحكتها، صوتها، يدها التي كانت تمسح على رأسه، حرصها عليه كلما سافر، دعاؤها له قبل أن يخرج من البيت، ورضاها الذي كان يشعر به ويحمله عندما يسقط دون أن تتطرق كلمة.

ثم جثا على ركبتيه، ووضع كفه على التراب وأحس ببرودته تنهش عظامه. قال في سرّه: «ما حذرتني منه يقترب، كأن رحيلك لم يُغلق الباب، بل فتحه أكثر».

أطرق برأسه وبقي ساكناً لحظة. ثم رفع عينيه، فإذا بظلٍ صغير يتحرّك بين قبرين بعيدين. حدّق، فرأى طفلاً بثوبٍ قصير،

وحافي القدمين، وأشعث الشعر. التفت الطفل نحوه، فعرفه
راشد: خالد! القامة نفسها، النظرة ذاتها، الالتفاتة نفسها.
نهض سريعاً وصرخ: «خالد». خطأ خطوتين نحوه، لكن
الطفل ركض بين القبور واختفى فجأة، كأن قبراً ابتلعه.
وقف راشد مذهولاً، عيناه تجوسان بين الشواهد، وقلبه
يضرب كطبولٍ متلاحقة، حتى خُيِّل إليه أنَّ القبور كلّها تتبض
معه. عاد إلى قبر أمّه وجلس. وإذا بصدرة يضيق؛ لم تكن رائحة
التراب وحدها، بل نفحةٌ ملح نافذةٌ اخترقت أنفاسه، ومع كلّ
شهيق شعر أنه يبتلع موجاً.

التفت حوله: القبور صامتة، الشواهد جامدة، غير أن داخله
التقط خريراً بعيداً، كصوت ماءٍ يضرب صخرًا ثم يتراجع. لم
يكن هنا بحر، ومع ذلك أحسّ به يزحف إلى صدره بلا استئذان.
شعر أن المكان كله يضيق عليه. لم يعد يدري: أهو هنا ليزور
قبرها أم ليجد قبره هو؟

رفع عينيه إلى السماء وقال بصوتٍ خافت: «إن كان عليّ أن
أعود، فلن أتأخر أكثر».

همّ بالنهوض، لكنه شعر أن قدميه ثقيلتان تلتصقان بالتراب.
مشى بين الصفوف، يراوده شعورٌ بأن كلّ شاهد قبر يرمق خطواته
بعينٍ خاملة. وحين بلغ البوابة، التفت لوهلة نحو الداخل. لم يرَ
الطفل، ولم يسمع الخريز، لكن الإحساس لم يغادر صدره: شيءٌ
يراقبه من عمق الأرض، يتبعه حيث يذهب. دفع الباب الحديدي،
فأصدر صريراً طويلاً كأن الموتى كلّهم تنهّدوا بصوت واحد.

التفت مرة أخيرة، وقال بصوت محمل بالرجاء والانكسار:

«اللّٰه يرحمك يا أمّى... ويرحمنى...».

خرج من المقبرة وقلبه أثقل مما دخل به، لكنه ثقلٌ مهيب، لا ثقل الانكسار. كأن القبر منحه إذنًا صامتًا بالرحيل، أو كأن أمّه أرسلت إليه طمأنينتها من عالم الغيب.

وقف على الطريق وتنهّد.. ما تزال السماء الرمادية معلّقة كجرسٍ لا يجروُ أحد على قرعه.

لم يكن يدري كيف تستطيع المدن أن تفقد معناها فجأة، ولا كيف يغدو المكان الذي نشأ فيه مجرد ظلٍّ باهتٍ لحزنٍ لا يجد له مخرجًا.

كانت الرياض، تلك المدينة التي طالما احتضنت شبابه وفتوته، تبدو في ذلك الصباح مطفأة، خاوية، كأن روحًا عظيمة غادرتها. شوارعها الممتدة التي طالما جال فيها، وهو يسمع بقايا نصائح أمّه عن التروّي والحذر، بدت بلا ملامح؛ كل شيء يشير إليها، وكل شيء لا يشبهها منذ أن واراها الغياب. تقدّم خطوة، ثم ثانية، وكلُّ خطوةٍ تردّد في داخله صوتًا واحدًا: «القحمة تنتظرك».

لم تكن جملةً سمعها فحسب، بل عهدًا استقرّ في صدره؛ عهدًا لا يستطيع نقضه. أحسّ أنه منذ تلك اللحظة لم يعد حرًا في اختياره، وأن الطريق قد رُسم له، ولن ينجو إلا بالسير فيه... ولو كان آخر طريق.

في ناحيةٍ أخرى من المدينة، جلس خاله في مجلسه الصامت
يحرّك سُبْحته، وزوجته أمامه تحدّق في الفراغ. لم يكن بيتهما
أهدأ من بيت راشد؛ بل كان يضجّ بالأسئلة نفسها: ماذا عن
راشد؟ إلى أين سيمضي؟ وهل يقدر أن يحمل وحده ما تركته
أمّه على كتفيه؟

كان بيت الخال أوسع قليلاً من بيوت الجيران، ببابٍ حديديٍّ
أزرق تعلوه زخرفة صغيرة صارت، مع السنين، أقرب إلى خدشٍ
متآكل. في الداخل، بدا المجلس مرتباً ترتيباً يوحى بالتعب أكثر
مما يوحى بالنظام: فرشٌ وُضعت بعناية، لكنها فقدت لونها،
ومساند محشوة بالصوف تهدّلت أطرافها، وفي الزاوية دَلّة قهوة
فوق صينيةٍ نحاسيةٍ لم تبرد بعد.

جلس الخال مستنداً إلى الحائط، يرفع عينيه الضيّقتين
تارة إلى السقف وتارة إلى الباب، والسُّبحة بين أصابعه لا تكاد
تستريح. كان وجهه طويلاً قليلاً، وعيناه كأنما نقش التعب فيهما
خطّين لا يُمحيان.

دخلت زوجته تحمل إناء ماء، وضعتة قربه، ثم جلست قبالة. كانت
في الأربعين من عمرها، شعرها مشدود إلى الخلف، وعيناها يقظتان على الدوام؛ فيهما حدّة تتحوّل إلى قلقٍ إن طال
الحديث.

قالت وهي ترفع خصلةً عن كتفها: «لقد صار البيت موحشاً
من دون أختك. كنت أظن أن العزاء ثقيل، فإذا بالغياب أثقل منه».

لم يُجب. مرّر حَبَات السُّبْحَةِ بين أصابعه، ثم قال بعد صمتٍ قصير: «رحمها الله. كانت سندًا للجميع، حتى ونحن كبار، كنّا نعود إليها كما يعود الصغير لأُمّه».

أطرقت برأسها لحظة، ثم رفعت نظرها نحوه: «وماذا عن راشد؟»

هز رأسه وقال: «راشد كتوم، لا يخرج ما في صدره. منذ يوم الجنازة وأنا أراه كمن يحمل صخرة لا يعرف أين يضعها».

قالت بصوتٍ يغلفه التردد: «راشد يحتاج إلى مؤنس. لا ينبغي أن يبقى وحيداً طويلاً. لمَ لا تفتحه في موضوع الزواج؟»

ابتسم وقال: «لا يمكن أن أفتحه في هذا الآن، لكن إن طالت به الحال هكذا... فربما كان ذلك هو الدواء».

قالت: «الناس لا تكفّ عن الكلام. كل من يزورنا يلمّح: لماذا لم يتزوج راشد؟ أليس له بيت؟ أليس له أهل يرعونه؟»

رفع بصره إليها، ثم أعاده إلى السُّبْحَةِ: «الناس يسألون دائماً، ولا أحد يضع نفسه مكانه. راشد فقد أمّه، وأبوه غائب منذ زمن. فمن يلومه إذا أبطأ؟»

قالت بنبرةٍ أقلّ حدةً: «أنا لا ألومه، لكنني أخشى أن تضيع أيامه. الوحدة تجرّ الوحدة، حتى يجد نفسه غريباً بين أهله». مدّ يده إلى الدّلة، صبّ فنجاناً وشربه دفعةً واحدة، ثم قال: «عسى الله أن يصلح أمره. لن أضغط عليه، لكنني لن أتركه أيضاً. هو ابن أختي... ولن أغفل عنه».

ساد الصمت مدة. ومن الحجرة الأخرى خرجت ابنته الصغيرة، العنود، تحمل قطعة خبز في يدها. وقفت عند الباب

تأمل وجهيهما بعينين متسائلتين. ابتسمت الأم وقالت: «ادخلي يا العنود».

اقتربت وجلست قرب أبيها، أسندت رأسها إلى كتفه، فوضع يده على شعرها كأنه يبحث في قربها عن عزاءٍ لم يجده في المجلس.

قالت الزوجة وهي تحدّق إلى ابنتها: «أخاف أن يكبر راشد وهو على حاله. العمر يمضي، ولا ينتظر أحداً».

تتهد الخال، ثم قال كمن يقطع حبل الحديث: «الله وحده يعلم أين يمضي راشد غداً. نحن نرى ظاهره، أمّا ما في صدره فلا يعلمه إلا ربّه. سأمرُّ عليه بعد ساعة».

تأملت الزوجة الفرجان الفارغ أمامها، تلمس حافظه بإصبعها، ثم همست: «البيوت تنتظر أهلها... حتى لو غادروها زمناً».

لم يعلّق. اكتفى بأن أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما. كان المجلس ساكناً إلا من صوت العنود تمضغ خبزتها، كأنها آخر ما يملأ فراغ المكان.

ركب راشد سيارته وانطلق. كان يشعر أنّ عجلاتها تسير على صدره لا على الإسفلت. لم يلتفت يميناً ولا يساراً؛ وجهه ثابت نحو الأمام، نحو ما ينتظره. وحين وصل إلى البيت، نزل بخطوات متثاقلة كأنها محمّلة بتراب لم يغادر نعليه. وقف قليلاً، يحدّق في الحائط المتشقّق، وفي النافذة التي غطاها غبار الأيام، وبدأ له أنّ البيت كلّه يتهيأ ليغدو مجرد ذكرى.

فتح الباب، فما إن دخل حتى امتلأ صدره برائحة هادئة وثقيلة في آنٍ معاً؛ خليط من قهوة قديمة وعطرٍ غابت صاحبته. رفع بصره إلى السقف، ثم جال به في الأركان؛ كل شيء في مكانه، لكنه بدا مختلفاً: الكراسي الخشبية مصطّقة بمحاذاة الجدار كجنودٍ انكسروا، والطاولة الوسطى خالية إلا من غبارٍ ناعم يلمع تحت الضوء. تقدّم بخطواتٍ منكسرة حتى بلغ المطبخ.

فتح الخزانة، أخذ كوباً، وملاً الإبريق ليسخنه. أشعل الموقد وجلس على الكرسي الصغير يراقب اللهب. أراد أن يفعل شيئاً بسيطاً، عادياً، كإعداد قهوة، لكنه شعر أنّ الأفعال العادية صارت غريبة في بيتٍ غاب عنه صوته. وحين بدأ البخار يتصاعد، صبّ قليلاً في الكوب، ورفعته إلى شفّتيه، لكن الطعم لم يكن الطعم الذي اعتاده؛ كانت مرارة لا تُطاق، كأنها تذكّره بأنّ ما مضى لن يعود. وضع الكوب على الطاولة بقوة جعلتها تهتزّ وترسم حلقة على الخشب.

مضى إلى الغرفة التي صار يخافها. فتح الستارة قليلاً، فتسلّل الضوء إلى الداخل. جلس على السرير، أخرج دفتره من

الدرج، فتحه على صفحةٍ بيضاء، وأمسك القلم. كتب كلمة واحدة في صدر الصفحة: «وحيد».

سَمَرَ عينيه عليها، حتى استحالت الحروف الأربعة جدارًا يحيط به من كل الجهات. لم تكن كلمةً، بل قيدًا يطوّق عنقه. نظر إليها مجددًا، فبدا له أنها تتسع في عينيه، تكبر حتى تغطي الورقة كلها، ثم الجدار، ثم الغرفة، حتى لم يعد يرى إلا بياضًا يتوسّطه سوادٌ صغير يقول له: أنت وحدك.

الوحدة عنده لم تكن خواءً، بل امتلاءً خانقًا؛ تغمر صدره كما يغمر الماء رئة الفريق. لم تكن سكونًا يُطاق، بل عبثًا جائثًا كصخرةٍ على صدره، تُطحن أنفاسه ببطء. كانت قسوة صامتة تتخر قلبه كما تتخر ديدان الخشب جذعًا ميتًا، تزيده هشاشة كلما ظنّ أنه اشتدّ. كل لحظةٍ معها أشدّ وقعًا من الصخب، وكل دقيقةٍ تحت قبضتها أشبه بعمرٍ يُنتزع منه انتزاعًا.

تخيلها تجلس إلى جواره على السرير، تُبعده عمّن حوله. يمدّ يده فلا يجد يدًا تصافحه، يفتح فمه فلا يجد أذنًا تصغي. الوحدة عنده لم تكن غياب الناس، بل غياب القدرة على الوصول إليهم؛ كلما اقترب أحد، وقفت بينهما مثل بابٍ لا يُفتح. كان يظن أن الوحدة اختيار، ثم اكتشف أنها قدر؛ مثل ظلك، لا يفارقك مهما حاولت. هي المرأة التي تراك وأنت لا تراها، الحارس الذي يرافقك حين لا يرافقك أحد.

همس وهو يضغط على الدفتر: «وحيد... كلمة واحدة، لكنها عمري كله».

أغلق عينيه، فازدادت حدّتها. الوحدة في داخله ليست هدوءًا، بل همسٌ متكرر يوقظه من كل غفلة: أنت بلا أحد، بلا سند، بلا معنى. أمّه رحلت، وأبوه غاب، وأخوه ابتلغته الأمواج. حتى الذين يحيطون به يمرّون كظلالٍ عاجزين عن أن يدخلوا قلبه.

فتح عينيه على الممر الممتد. رأى الظلال ساكنة، لكنه أقسم إنه سمع حركة خفيفة، كأن أحدًا مرّ للتو. نهض وخرج من الغرفة، ووقف في منتصف الممر، فلم يجد سوى الجدران الصامتة. قال في نفسه: «حتى الوحدة تعرف كيف تخدعني».

عاد إلى غرفته وقلبه لا يهدأ.

اقترب من المرآة الصغيرة على الطاولة، فرأى انعكاسًا لم يكن انعكاسه وحده: ملامح أنثى خلفه، شاحبة، لمعة خاطفة في عينيها قبل أن تتلاشى. تجمّد في مكانه ولم يلتفت.

مدّ يده سريعًا وقلب المرآة. كانت الوحدة كافية... فما حاجته إلى أشباحٍ جديدة؟ جلس على السرير، وضع يديه على رأسه، وراح يتنفس ببطءٍ متقطع، متممًا بصوته المبحوح:

«إلى متى سأبقى وحيدًا؟»

ظلّ على حاله دقائق، حتى سمع طرقًا خفيفًا على الباب الخارجي. لم يتحرك في البداية، ثم تكرّر الطرّق، فنهض. وحين فتح الباب، وجد خاله واقفًا، وإلى يمينه عبد العزيز بوجهه المتعب من السهر. صافحه عبد العزيز بحرارة، شدّ على يده وقال: «اشتقنا إليك يا راشد».

قال راشد: «أهلاً بك.. وأنا كذلك».

جلس خاله على الأرض، وسُبَّحته لا تفارقه. حدّق إلى راشد طويلاً ثم قال: «كيف حالك؟»

لم يعرف راشد بمّ يجيب؛ فاكتفى بهز رأسه مطرّقاً. قطع عبد العزيز الصمت قائلاً: «منذ تشييع أمك لم نرك. كلما جلسنا معك تركتنا. ما الذي يشغل بالك؟ وما الذي تتوي فعله؟»

رفع راشد رأسه، ونظر إلى وجه خاله ثم إلى عبد العزيز. شعر أنّ السؤال الذي يتجنّبه منذ أيام يقترب منه على لسان غيره. تنفّس بعمق، ثم قال بهدوء قاطع: «نويت العودة إلى القحمة».

ساد الصمت قليلاً. أزاح الخال السُّبَّحة من يده، وأسند كفيّه إلى ركبتيه وقال: «ومتى عزمتم السفر؟»

قال راشد: «غدًا».

تبادل الأب والابن نظرة سريعة. ثم قال خاله بصوتٍ يغالب غصّة: «يا ولدي، أنت ريحتها الباقية.. لا تُدقني مرارة الفقد مرتين؛ كفاني موت أختي، فلا تفجعني ببعدهك أنت أيضاً».

تنهّد راشد طويلاً، وأخذ يد خاله بين يديه «أعرف هذا الشعور يا خالي، وقلبي يعتصره الألم لحديثك. أتمنى لو أملك خيار البقاء بينكم، فالوحدة هنا أشقّ... لكن هذا المكان لم يعد يحتملني، وأشعر بأن قوة خفيّة تجرّني إلى القحمة، كأنّ شيئاً ينتظرني هناك ولا أستطيع مقاومته».

صمت خاله برهة «هل ينقصك شيء يا بني؟ إن كنت بحاجة إلى المال، فأنا سند لك هنا».

أجاب راشد: «شكراً يا خال. لا أحتاج إلى شيء. وبيتنا لا يزال هناك... ولا أعلم متى أعود».

قال عبد العزيز: «لا نريدك أن تبقى وحدك. ولكن إن قررت الذهاب إلى القحمة فإذهب، لكن تذكر أن لك هنا عائلة وبيتًا يفتح بابه لك متى عدت».

ابتسم راشد ابتسامةً واهنة وقال: «أعرف ذلك، ولن أنقطع عنكم، لكنني أشعر أن عليّ أن أذهب إلى القحمة».

نهض خاله، صافحه بقوة وقال: «إذهب على بركة الله.. هنا بيتك، وهناك بيتكم، ومتى أردت العودة فعد... ولا تحمل همًا». وقف عبد العزيز أيضًا، واحتضنه سريعًا ثم قال: «لا تحمل وحدك كل ما يثقلك. نحن معك... تذكر هذا».

رافقهما راشد إلى الباب، وودّعهما بهدوء. وحين أغلق الباب خلفهما، عاد إلى المجلس، ونظر حوله كأنه يراه للمرة الأخيرة. أحسّ أنّ البيت يستعد لوداعه؛ فقد حان وقت الرحيل، ولا مجال بعد الآن للتراجع. جلس لحظةً على الكنب، ثم نهض واتجه إلى غرفته. فتح الخزانة وأخذ بعض الثياب، طواها بعناية كأنّه يطوي أيامًا مضت، ووضعها في حقيبة السفر. كان الدفتر على الطاولة مغلقًا، والقلم فوقه ينتظر سطرًا جديدًا، لكنه لم يفتحه؛ اكتفى بوضعه جانبًا مع الثياب. ثم التفت إلى الصندوق قرب الخزانة. فتحه وأعاد ترتيب محتوياته: الورقة المحترقة، والخاتم الأسود، والخنجر في غمده، والصورة المطموسة. أعادها جميعًا كما كانت، ثم أغلق الغطاء بإحكام، وحمله بيديه، ووضعته قرب الحقيبة. وقف لحظةً أمامه وقال في نفسه: «لن أتركه هنا».

سقط على سرير، ورأسه نحو السقف، وأغمض عينيه.

غداً.. سأذهب إلى القحمة.

الطريق إلى القحمة

استيقظ راشد، ولم يكن في استيقاظه أثرٌ لراحة. لم يفتح عينيه على ضوء الصباح، بل على يقينٍ داخلي واحد: هذا اليوم ليس للبقاء، بل للرحيل.

أحسَّ بثقلٍ عند قدميه، وحين رمى بصره رأه: الصندوق القابع في مكانه، وإلى جواره الحقيبة، ساكنة لكنها ممتلئة بما يشبه أيامًا مطوية لا ملابس. كان المشهد يوحي بأن البيت نفسه يتأهب لأن يُترك، وأن الأشياء كلها رُتبت نفسها لتدفعه إلى الخارج.

جلس على السرير، وأسند راحتيه إلى ركبتيه. شعر بعرقٍ باردٍ على جبهته رغم برودة الحجرة. تنفَّس مرتين كمن يتهيأ لمواجهة خصم، ثم نهض، وجرَّ قدميه إلى الحمام. فتح الصنبور؛ اندفع الماء أولاً متقطعاً ثم انساب ثابتاً. انحنى ليفسل وجهه وترك الماء يسيل على وجنتيه وعينه، كأنَّه يحاول محو أثر الليلة الماضية وما حملته من صورٍ وأصوات. رفع رأسه ونظر إلى المرأة؛ لم ير وجهه، بل رأى شخصاً آخر يحدِّق إليه: عيناں محمرّتان، بشرة متعبة، وفمٌ متوتّر لا يعرف إن كان يستعد للكلام أم للصمت الأبدي.

مدّ يده إلى الزجاج ومسحه من أثر البخار، لكن الصورة لم تتغيّر؛ الغريب ما يزال أمامه.

عاد إلى الغرفة، واختار ثوباً أبيض ناصعاً. أحسَّ، مع كلِّ زِرٍ يخلقه، أنَّه يفلق باباً في داخله. تناول شماغه وأسنده إلى كتفه، متظاهراً بعدم الاكتراث بتفاصيل صغيرة فيما كان داخله ينهار.

وقف في منتصف الغرفة، وتلفت حوله. على الطاولة كان الدفتر مغلقاً، والقلم فوقه ساكناً. مَدَّ يده والتقط الدفتر، قلبه بين أصابعه لحظة، ثم فتح الحقيبة ووضعه بين الثياب.

اقترب من الخزانة، وأمسك بالصندوق، رفعه بحذر ثم وضعه فوق الحقيبة. ثبتهما معاً، ووقف أمامهما لحظة صامتاً، في داخله صوتٌ يقول: لن تتركه هنا.

مشى نحو الباب، فتحه ووقف على العتبة. لم يجتزمها مباشرة، بل التفت ونظر إلى البيت للمرة الأخيرة: الجدران، الأرضية التي تحمل آثار خطاه، الأثاث الساكن كأناسٍ ماتوا واقفين.

حتى الهواء في الحجرة بدا كأنه ينتظر خروجه ليتحرر من ثقل الحزن. شمَّ رائحةً قديمة من بخور اعتادت أمّه أن تشعله في العصر؛ لم يبقَ منها الآن سوى بقايا عالقة في الستائر. قال في نفسه: «بيتٌ فارغ... لا قلب له».

خرج إلى الشارع. كان الحيّ ساكناً، الأبواب كلّها مغلقة، والسيارات مركونة على الأرصفة.

ما زالت الأرض تحتفظ ببقع داكنة من مطرٍ مضى، والهواء مشبعٌ برائحة ترابٍ جفّ سريعاً. فتح باب سيارته، وضع الحقيبة في المقعد الخلفي، وأسند الصندوق بجوارها، ثم جلس خلف المقود. أدار المفتاح فاشتغل المحرّك بعد لحظة قصيرة، ضغط على الدواسة فتحرّكت السيارة وسارت عبر الممرّ الضيّق حتى بلغت الطريق العام.

وصل إلى الطريق الرئيسي، فكان أول ما قابله محطة وقود بمظلتها المعدنية الآيلة للسقوط، وعاملان بملابس متسخة يتناوبان ويشريان الشاي.

واصل السير، والمدينة ما تزال تلاحقه. على الجانبين ظهرت محلات متفرقة: ورشة ميكانيكي، صيدلية مغلقة، ودكان صغير يُمسك صاحبه الممسحة أمام الباب. مضى أبعد قليلاً، فظهرت ساحة خردة: سيارات متهاكة مرصوفة صفوفًا غير منتظمة، وقد غطاها التراب كلّها.

ومع كلّ كيلومتر يقطعه، كانت العلامات الحضرية تقل شيئاً فشيئاً، وتختفي المباني التي كانت تملأ الأفق، كذلك المتاجر الكبيرة، وتصبح البيوت متباعدة أكثر.

وعند المنعطف الأخير لمح مقهى صغيراً مبنياً من طوبٍ قديم وسقفٍ من صفائح. أمامه ثلاث طاولات بلاستيكية، يجلس عند إحداها رجلٌ يقرأ جريدةً مطويةً على النصف، يرفع رأسه كلما مرّت سيارة. فوق المدخل لوحة خشبية كُتب عليها اسم المقهى بحروفٍ متأكلة بالكاد تُقرأ. كانت تلك آخر علامة على أنّ المدينة ما تزال خلفه.

بعدها لم يبقَ إلا الطريق، مستقيماً بلا حواجز، وعلى جانبيه أرضٌ مفتوحة صامتة تمتدّ بلا حدود. رفع عينيه إلى المرأة، فرأى ما تركه يذوب تدريجياً: البيوت، الأصوات، الزحام... حتى غدت كلها نقطةً بعيدة في الخلف.

انفتح الطريق أمامه طويلاً، ممتداً بلا نهاية، كخطٍّ أسود يسحب نفسه من تحت العجلات. كلّ كيلومتر يقطعه كان يزيد ثقل صدره، كأن داخله يحمل حمولةً لا تخفّ.

على الجانبين لم يبقَ سوى أرضٍ عارية؛ صحراء تمتدّ إلى ما لا يصل إليه البصر، وبضعة أحراشٍ يابسة ومتناثرة، كأثار حياةٍ

انطفأت منذ زمن. ضغط الفراغ على سمعه حتى طفى صوت أنفاسه على هدير المحرّك.

وفي الأفق، اهتزت خيوط السراب فضيئةً تحت الشمس، كماء يفرّ كلما دنا. أدرك راشد الخدعة، لكنه لم يملك كبَح قلبه عن التعلّق بها، كغريقٍ يتشبّث بتلوحةٍ بعيدة.

تابع سيره، يدها ثابتتان على المقود، بينما رأسه يغلي بما لم يخمد بعد. وكلما ابتعد عن المدينة واقترب من الجنوب، ازداد وقع جملة واحدة تردّدت في داخله بحدّة: «احذر البحر».

لم تعد صوتاً عابراً من ماضٍ راحل؛ بل غدت نداءً يرافق كل مترٍ يقطعه. سمعها بصوت أمّه، بنفس الحزم الذي نطقت به آخر مرة، كأنها الآن تجلس إلى جواره وتعيدها على مسامعه من جديد.

أحسّ أن الفراغ حوله يتواطأ مع الجملة؛ الأرض القاحلة، الخطّ الممتد، اهتزاز السراب... كلّها بدت كأنها تردّد الصوت ذاته: «احذر البحر». لم يكن يعرف ممّ يحذره تحديداً؛ البحر بعيد... لكنه حاضر في كل خطوة، يقترب كلما ابتعد.

فجأة، ارتسمت أمامه صورتُها في آخر مساءٍ جمعهما: كانت واقفةً عند النافذة، تمسك بطرف الستارة بيدها الواهنة، وتقول بصوتٍ متهدّج: «البحرُ يا راشد لا يشبّع من أحد».

لم تكد ثوانٍ تمضي حتى تبدّل المشهد في ذهنه، فإذا بخالد، أخيه، يقف عند الشاطئ، يضحك، ويركض نحو الماء، يلوّح له بيده قبل أن تجرفه الموجة وتبتلعه. ارتجف على المقود، وضغط عليه أكثر، كأنّ الطريق هو الشيء الوحيد القادر على رده من

هاوية الذكرى. شدّ قبضته، وزاد سرعته قليلاً، محاولاً أن يخلف وراءه الصورة التي باغته، غير أنّ الذكرى ظلّت عالقةً كخنجرٍ في صدره.

لم يكن يسمع غيرَ هدير السيارة، ومع ذلك أحسّ أنّ الطريق نفسه يهمس بما فرّ منه. مرّت دقائق وهو على هذه الحال، إلى أن لمح شيئاً يتحرّك عند طرف الإسفلت. انكمش قلبه قبل أن تتّضح الصورة: جملٌ خرج من وراء الكثبان على جانب الطريق، يتمايل في مشيته، ثم انعطف إلى منتصف الطريق. ضغط راشد على المكابح فجأة، فانحرفت السيارة قليلاً. أحسّ دمه يتجمّد في عروقه، وتوقّف قلبه لوهلة وهو يراقب الجمل يعبر أمامه. كان الجمل هزيل الجسد، تبرز أضلاعُه تحت جلده، وعيناه واسعتان منهكتان. وقف لحظةً في وسط الطريق، التفت بعنقه نحو السيارة، ثم أكمل خطاه المتثاقلة حتى ابتلعه فراغ الصحراء. وقف راشد في مكانه، يده قابضة على المقود كأنها تمسك بطوق نجاة، وعرقه يتصبّب. تذكّر خالدًا من جديد، كأنّ الطريق بما فيه يتأمر على فتح الجرح. همس لنفسه: «حتى الجمل يعبر... وأنا متوقّف».

أعاد السيارة إلى مسارها وواصل السير، لكنّه لم يستطع أن يتخلّص من شعوره بأنّ ذلك المرور لم يكن عابراً، بل إشارةً أخرى، كأنّ الطريق يضع أمامه علاماتٍ صغيرةً ليذكّره بأنه مقبلٌ على ما هو أشدُّ تعباً.

عادت العجلات تُخلف وراءها أثر احتكاكٍ خفيف. فتح زجاج النافذة قليلاً، فدخل هواءٌ ساخن محمّل بغبار رقيق. ثبت عينيه على الخطّ الأبيض الممتدّ أمامه، محاولاً نسيان ارتعاشة جسده قبل قليل.

ولم يكد يبتعد كثيراً حتى لمح فوقه حركةً خاطفة. رفع رأسه، فرأى سربَ حمام يشقّ السماء في اندفاعٍ واحدة، كأنّه سهمٌ من ريشٍ رمادي وأبيض. ارتفع عالياً، ثم هبط فجأةً وتفرّق في قوسٍ واسع، قبل أن يجتمع من جديد فوق بقعةٍ ماءٍ بجوار الطريق. تابّعهم بعينيه حتى تواروا في الأفق، وأحسّ أنّ مشهدهم يوازي ما يعتمل في داخله: تشتّت يعقبه جمعٌ جديد، بلا استقرار.

وبعد مسافةٍ غير طويلة، لاح له غبارٌ متصاعد عند طرف الطريق. خفف سرعته، فانكشفت ملامح قطعٍ من الغنم يعبر على مهل: عشرات الرؤوس تتحرّك في خطٍّ غير منتظم؛ بعضها يتعثّر، وبعضها يتوقّف ليلتقط ورقةً يابسة من نباتٍ صغير. يتقدّمهم صبيٌّ نحيل، يحمل عصاً أطول منه، يلوح بها في الهواء، ويصرخ بين الحين والآخر ليعيد شاةً شردت عن البقية.

أشار الصبيّ لراشد بالتوقّف، فتوقّف، وراح يرقب المشهد. مرّت الأغنام واحدةً تلو الأخرى، وخلف عبورها أثراً من الغبار والضجيج الخافت. وحين انتهى القطيع، لوح الصبيّ بيده شاكراً، فبادله راشد ابتسامةً عابرة؛ كانت الأولى منذ أيام، ثم واصل سيره.

تابع المسير بعد عبور القطيع، والتعب يتسلّل إلى جسده؛ عيناه مثقلتان بالإرهاق، وحلقه جاف. لمح لوحةً صغيرة كتب عليها بخطّ باهت: مقهى البادية. أبطأ من سرعته، وانعطف إلى ساحةٍ ترابيةٍ ضيّقة. كان بناء المقهى متهاكاً، وجواره سدرية صغيرة، وفي ظلّها يقعي كلبٌ هزيل يلهث بهدوء.

أوقف السيارة على جانب الطريق، ونزل بخطواتٍ متثاقلة، فارتفع الغبار قليلاً مع كل خطوة.

دفع باب المقهى الحديدي نصف المفتوح، فبان له الداخل:
طاولاتٌ خشبية متباعدة، وكراسي بلاستيكية متهاكة، وعلى
الجدار ساعةٌ حائطٌ قديمة توقفت عند وقتٍ لا يتغيّر. وخلف
الطاولة وقف رجل في منتصف العمر، ذو شاربٍ كثٍّ، يصبّ
القهوة في فناجين ملوّنة. جلس راشد عند الطاولة الأقرب،
فاقترب الرجل وقدم له الفنجان قائلاً ببساطة:
«تفضل القهوة».

رشف راشد من الفنجان، وتذوّق مرارته الثقيلة، وشعر بحرارته
تنزل إلى حلقه وتعيد إليه شيئاً من اليقظة. وحين التفت نحو
النافذة الصغيرة، ارتجف جسده: على السور المنخفض، وقف
الغراب ذو الريشة البيضاء -الطائر نفسه الذي رآه في المقبرة-
ساكناً لا يرفُّ له جناح، وعيناه مثبتتان عليه. ارتبك، أشاح ببصره
لحظة، ثم أعاده نحو السور... فوجد المكان خالياً إلا من الحجارة
وجذع سدره. ومع ذلك، كان متأكداً مما رأى، وشعر بانقباض في
قلبه، كأنّ الطائر عاد ليذكّره بأنه ليس وحيداً في الطريق، بل
ثمّة من يراقبه.

أكمل قهوته، ووضع النقود على الطاولة، وشكر صاحب المقهى
وغادر. كانت الشمس قد اشتدّت، وانعكست أشعتها على الأرض
الترابية بوهج يلسع العين. صعد سيارته، أغلق الباب، وقبل أن
ينطلق نظر إلى الشجرة الصغيرة مرةً أخيرة؛ أوراقها ترتجف
لنسمةٍ عابرة، والكلب الهزيل يتابعه بعينه. ثم وجّه عينيه إلى
الطريق الممتد أمامه، وحرّك المقود، فانطلقت السيارة من
جديد نحو الجنوب.

بدا الطريق كأنه يعيد نفسه؛ كل كيلومتر يشبه سابقه: إسفلت ممتد وخط أبيض يتكرر دون نهاية. مدّ يده إلى وأدار المذيع، فانبعثت أغنية هادئة. تركها دقائق قليلة، ثم أغلقه، فعاد الصمت يملأ السيارة. تأمل الساعة الصغيرة أمامه؛ وحركة عقاربها الرتيبة.

بعد مسافة قصيرة ظهرت شاحنة ضخمة قادمة من الاتجاه الآخر، محملة بصناديق حديدية. ارتفع صوت محركها وهي تقترب، ثم مرّت بجانبه فاهتزّ المقود للحظة، وتبعها غبارٌ تناثر في الفراغ ثم هداً سريعاً.

وبعدها مرّت بجانبه سيارةٌ أخرى؛ كان الأطفال في المقعد الخلفي يلوحون بأيديهم الصغيرة، وأحدهم يضحك وهو يشير إلى سيارته. راقبهم لثوانٍ حتى ابتعدت السيارة وغابت. واصل سيره، تمرّ بجانبه لوحاتٌ زرقاء كتبت عليها أسماءُ قرى لا يعرفها، فيتجاوزها دون أن يلتفت.

ومع مرور الوقت بدأ النعاس يثقل جفنيه، ورأسه يميل بلا إرادة، كأنّ النوم يفرض نفسه عليه.

عند جانب الطريق لمح ساحةً ترابيةً واسعة، غاصت فيها آثارُ إطاراتٍ قديمة، وتناثرت فوقها أكوامٌ حجارةٍ مبعثرة. انحرف نحوها وأوقف السيارة، أطفأ المحرّك، وأسند رأسه إلى المقود. كان يقصد أن يستريح، غير أنّ النعاس غلبه في لحظات.

رأى في الحلم موجةً تتقضّ عليه، والبحر يتقدّم نحوه من النافذة. ارتفع الموج حتى غطّى الزجاج، ووسط العباب لمح خالداً يلوح بيده، وصوته يتقطّع وهو ينادي اسمه. مدّ راشد يده

إلى مقبض الباب ليخرج إليه، لكنّ الماء كان أسرع؛ اندفع وملاً المكان، وأغلق عليه كل منفذ. وفي اللحظة نفسها جاءه صوت أمّه واضحاً وقريباً، كأنها تجلس بجوارها: «احذر البحر».

انتفض وفتح عينيه فجأة. وجد نفسه في مكانه، والصحراء ساكنة من حوله؛ لا أثر لماءٍ ولا لصوت. أخذ نفساً قصيراً، ومسح وجهه براحته، وأحسّ بالعرق على جبينه. جلس مستقيماً في مقعده، حرّك كتفيه ليطرد تيبّس النوم، ثم أمسك المقود من جديد.

أدار المحرّك وترك السيارة تتحرّك ببطء أول الأمر، ثم دفعها إلى الطريق، فعادت العجلات إلى رتابتها، لكنّ داخله لم يعد كما كان. كان يسترق النظر إلى المرأة بين حين وآخر، كأنّه يخشى أن يخرج البحر من خلفه. قلبه يخفق أسرع مما ينبغي، وكل ارتطام حجرٍ بالإطار أو ارتجافٍ صغير في المقود يجعله ينتفض.

ومع ذلك واصل السير، ومع كل كيلومتر بدأ الفراغ يتبدّد قليلاً؛ ظهرت تلالٌ صغيرة متباعدة، بعضها عارٍ، وبعضها تتناثر فوقه أشجارٌ سدر.

في السماء انخفضت الشمس، وخفتت أشعتها، تاركة على الطريق ظلالاً طويلة. مرّ بلوحةٍ مائلة تشير إلى مسافةٍ أقصر نحو الجنوب، فعندها شعر أنّه اقترب من وجهته، وأنّ هذا الطريق الطويل الذي حمّله بعيداً إلى مكان لا يشبه بدايته، يوشك أن يضعه الآن في حضن مكانٍ آخر. كان الطريق ما يزال مفتوحاً أمامه، يقوده بلا تردّد نحو القحمة.

تتابعت الكيلومترات، والطريق لم يعد معزولاً كما كان؛ ظهرت بيوتٌ طينيةٌ متفرقة على مسافاتٍ متباعدة، وعلى جانب الوادي رجلٌ يسوق دابته، فيما امتدت منحدراتٌ صخرية تنفتح ثم تضيق، وفي الأفق ارتفعت الجبال متتابعة؛ بعضها قريب يطل على الطريق، وبعضها بعيد يذوب في زرقة المساء. ظلّت ترافقه طويلاً؛ تقترب أحياناً حتى تضيق المسافة، ثم تبتعد فتترك بينهما ممراتٍ واسعة.

ومع انحدار الطريق تدريجياً شعر أنّ الأرض تغيّرت؛ لم تعد قاحلة تماماً، بل تخلّلتها وديانٌ صغيرة وأشجار متناثرة على السفوح. وعلى جانبي الطريق بدت بيوتٌ من طين أو جدرانٌ حجرية، بعضها مسقوف بالقش أو صفائح الزنك، وأمامها صغارٌ يلعبون حفاة، وقطعانٌ ماعزٍ وغنمٍ تنتشر على السفوح. فتح النافذة قليلاً، فداخلته رائحةٌ مختلفة تحمل أثر الملوحة. أغلقها بسرعة؛ فقد أدرك قلبه أنّ البحر صار قريباً.

ومع مَيْل الشمس نحو الغروب، كأنها تضع خدّها على كتف الأفق، خفَّ وهج الطريق واشتعل الحنين داخله.. أحسّ أن شيئاً خفياً ينهض في صدره، كأن قلبه الذي ظلّ مطوياً تحت غبار الأيام بدأ يستعيد نبضه الأول. لم يكن فرحاً صافياً ولا خوفاً خالصاً، بل ذلك الارتجاف الغامض الذي يسبق كلّ تحول كبير في الحياة، إحساس بأن الطريق الطويل الذي مضى عليه وحيداً، متعثراً أحياناً ومتجلّداً أحياناً أخرى، لم يكن عبثاً، وأن كل خطوة أثقلت قدميه كانت تجرّه بصمت نحو هذه اللحظة بالذات. الآن فقط أدرك أن ما ينتظره أمامه ليس محطة جديدة فحسب، بل

استجابة خفية لانتظاره القديم، ذلك الانتظار الذي سكنه حتى وهو يدّعي النسيان.

ألقى الجبل ظلاله الطويلة فوق الإسفلت، وانكسر الضوء إلى شريط ذهبيّ يقود السيارة في جهةٍ واحدة. وبين حينٍ وآخر تعبر شاحنةٌ محمّلة بالتمور، أو سيارةٌ صغيرة تهبط إلى الوادي ثم تختفي في المنعطفات.

وفجأةً، لمح من خلال فتحة ضيقة بين جبلين خيطاً أزرق ممتداً. لم يكن سراباً، بل البحرُ نفسه، يمدّ صفحةً عريضة تحت الأفق. انقبض صدره للحظة، وأشاح نظره سريعاً، لكنه أيقن أن القحمة لم تعد بعيدة. ثم ظهرت لوحة أخرى بخطّ أبيض واضح: القحمة - 25 كم.

عندها أحسّ أنّ قلبه يقفز في صدره، لا فرحاً ولا خوفاً، بل إحساساً بأنّ الطريق الطويل الذي جرّه نصف نهارٍ كامل يضعه أخيراً أمام ما كان ينتظره منذ زمن.

لم يكن النزول هيئاً؛ فالطريق الجبلي الضيق كان يلتف حول نفسه كأفعى متعبة تتحدر نحو الساحل. أطفأ راشد المصابيح العالية، واكتفى بالأنوار الأمامية التي تشق للعتمة قدر ما تستطيع ممراً خافتاً بالكاد يهديه.

كانت الجبال تحيط به كجدرانٍ سوداء، تتخللها فجواتٌ صغيرة يلمع فيها ضوءٌ بعيد من بيتٍ منعزل أو زقاقٍ ضائع. بدأت رائحة الملح تتسرّب إلى صدره كلما ازداد انحدارُ الطريق. شعر أنّ الأرض تدفعه دفْعاً نحو الأسفل، إلى جهةٍ يعرفها قلبه أكثر ممّا تراها عيناه. وعند منعطفٍ عريض انفرج الطريق، فبانت القحمة لأول مرة. لم تشبه في نظره قريةً كاملة، بل بيوتاً متفرّقة صغيرة متواضعة: بعضها من طينٍ متشقّق، وبعضها من حجارةٍ جُلبت من الوادي، وأخرى سقوفها من الزنك أو القش وسعف النخل. فوق بعضها مصابيح صفراء معلقة بأسلاكٍ عارية، يتطاير حولها حشد من حشرات صغيرة، تصنع حلقة مضطربة من الضوء والظلال. منح الضوء الخافت المكانَ مزيّجاً من الألفة والغربة، كأنّ القرية تنام بأعينٍ نصف مفتوحة.

واصل سيره حتى دخل قلبَ القحمة، وطريقها الترابي الضيّق تحفّه بيوتٌ متلاصقة، أبوابها من خشبٍ ثقيل؛ بعضها مغلقٌ بإحكام، وبعضها مواربٌ ينبعث منه وميضٌ فانوس وأصواتٌ نسوةٍ يتحدثن. وعلى جانبي الطريق أطفالٌ يلعبون في الظلام، يركضون خلف كرةٍ مصنوعة من خِرق. وحين مرّت سيارته توقّفوا لحظةً، نظروا إليه بأعينٍ واسعة، ثم عادوا للركض كأنهم لم يروه.

وصل إلى السوق. كان الليل قد ألقى ثقله على المكان، وأقفلت الدكاكين أبوابها. عند أول الصف جلس الخبّاز عند تنوّره، يمدّ يديه إلى الأرغفة يخرجها، فيتصاعد بخارها وتنتشر رائحتها الدافئة في الأرجاء. بجواره دكانُ تمر، قِفافٌ وسِلالٌ مصفوفة على الأرض، ورجلٌ يعرض بضاعته في ضوء فانوس معلق. وعلى زاوية الساحة يقع دكانُ العطار، أمامه أوعيةٌ صغيرة من حناء وبخور وزيتٍ شتّى، تمتزج روائحها بالخبز الساخن.

وفي الطرف الآخر مقهى، طاولاته متباعدة، وصاحبه يتنقل بينها يسكب الشاي في أكوابٍ زجاجية. وبجواره مكتبة، بابها الحديدي مرفوع إلى منتصفه، والداخل غارق في الظلّ، غير أنّ رفوف الكتب تلوح كظلالٍ ساكنة تنتظر قارئاً يوقظها. أمّا الدكان المجاور فمختصّ بالمواد الغذائية؛ رفوفه الخشبية محمّلة بأكياس أرزٍّ وسكرٍ وشايٍ وعلبٍ مرتّبة بعناية. وعلى الجانب الآخر دكانٌ للملابس الرجالية، علّقت عند بابه أثوابٌ بيضاء تلوح في ضوء الفانوس كأطيافٍ هادئة.

بين تلك الدكاكين تمتدّ ساحةٌ غير مستوية، تنتشر فيها كراسي خشبية وأحجارٌ مرصوفة للجلوس، وتتفرّع من أطرافها أزقةٌ ضيقة مظلمة تقود إلى بيوت القرية. كانت الحركة قليلة؛ أصواتٌ متقطعة -ارتطامٌ فنجانٍ بطاولة، خشخشةٌ نقود، نداءٌ عابر- لكنها كافية لتقول إنّ السوق ما تزال حيّة، وإنّ الليل لم يطمس أنفاسه كلّها.

خفف راشد سرعته وهو يدخل السوق، وعيناه تتحرّكان بين الدكاكين والساحة. بدا المشهد مألوفاً على نحوٍ يريكه. انزلت

إليه ذكرى بعيدة: يد أمّه تشدّ على كفه وسط الزحام، صوتها تحذره لئلا يضيع، ورغيف ساخن ناولته إياه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة، فسبقته الرائحة قبل أن يذوقه. مرّت الذكرى واضحة، أعلى صوتًا من السوق نفسها. المكان هو ذاته، لكن ضجيج الأمس لم يبقَ منه إلا صدّى خافت، وصوت الذاكرة أبلغ من الواقع.

لفتت السيارة أنظار الباعة وروّاد المقهى؛ اتّسعت حدقاتهم بالفضول، ونهض بعضهم عن كرسيه ليرى القادم الغريب الذي حلّ على ليل القحمة.

تابع السير، وعلى طرف الساحة لمح شجرة ضخمة ذات جذع عريض وأوراق كثيفة، تمتدّ فروعها كأنها تطلّ برأسها نحو البحر. كانت شجرة السدر الكبيرة. تذكر أنه كان يجلس تحتها يومًا بين الصبية في دائرة صغيرة، والعجائز من حولهم يروين حكايات عن جنّ يسكن البحر، وعن صيادٍ ابتلعه الموج ولم يعد. كان الأطفال يتبادلون النظرات بين وجه العجوز وامتداد الماء في الأفق؛ يرتجف بعضهم، ويضحك آخرون ليخفوا خوفهم. أمّا راشد فكان يلتقط كل كلمة، وعيناه لا تفارقان البحر الذي يلوح من خلف أغصان السدر، ينتظر أن يخرج منه الكائن الغامض الذي ملأ الحكايات. والآن يطوّق الليل الشجرة، ويفمر ظلّها نصف الطريق، ومع ذلك لم تفقد هيبتها، بل بدت أرسخ، كأنها ثابتة في مكانها منذ قرون.

مرّ بجوارها، وبصره معلق بها، ثم أسرع قليلاً. انحدر الطريق أكثر، وانفتح أمامه منظر البحر. لم يكن بعيداً: صفحة واسعة

داكنة يلمع سطحها تحت ضوء القمر. ضربت الرائحة أنفه بقوة؛ مزيجٌ من ملوحةٍ وطحالبٍ وسمك. شعر للحظةٍ بالاختناق؛ فالبحر لم يكن عنده اتساعاً، بل هاويةٌ تتربّص. انفتحت ذكرى الطفولة فجأة: خالد يركض على الرمل، يناديه، والبحر يبتلعه. أغمض راشد عينيه لثوانٍ، ثم فتحهما محاولاً التشبُّث في الحاضر، غير أن الماضي لم يتركه.

قاد على الطريق المحاذي للشاطئ؛ بدت المراكب الخشبية كأشباح ساكنة، أشرعتها مطوية، وحبالها متدلّية على الرصيف، ورجالٌ قلّة يجلسون عند الحافة يصلحون شباكهم تحت ضوء فانوس مرتجف. جاءت أصواتٌ متقطّعة من ضحكٍ أو همهمةٍ نساءٍ من البيوت القريبة، ثمّ ما لبثت أن تلاشت في هواء الليل المالح.

انحرف إلى الطريق الداخلي المؤدّي إلى بيت الجد؛ أزقةٌ ضيقة تتراصّ فيها جدرانٌ من طينٍ متشقّق، وأبوابٌ منخفضة تُفضي إلى بيوتٍ مظفأة الضوء. في زاويةٍ نامت بقرة مربوطة إلى وتد، وفي أخرى تشبّث طفلٌ بثوب أمّه وهو يحدّق إلى السيارة الغريبة. أبطأ راشد حركته أكثر.

وصل إلى الساحة التي يعرفها؛ ما زالت ملامحها راسخة رغم مرور السنين. هناك بيتُ الجدّ يطلّ بواجهته الصامتة.. لم يتغيّر كثيراً، بدا كمن انتظر طويلاً هذه العودة. أوقف السيارة أمام الباب، ولم يلمس المقبض.

من خلف المقود، رأى البيت أمامه صلباً كصخرة صماء. حتى التقط سمعه حركة خفيفة. التفت، فإذا بكلبٍ يقف عند

حافة الطريق. كان هزيلاً، بارزة أضلاعُه، مشدودةً أذناه، وعيناه
الواسعتان تلمعان في الضوء. لم يطرف، لم ينبح، ولم يتحرك؛
مجرد وجوده يكفي ليصبغ الساحة برهبة غريبة.

ثم ظهرت طفلةٌ من زقاقٍ جانبيٍّ، حافيةً، ترتدي ثوباً متسخاً
يلتصق بركبتيها كأنه مبتلٌّ، وشعرٌ طويلٌ منسدلٌ على كتفها
اليسرى. لم تتكلَّم، ولم تقترب؛ اكتفت بأن تقف وتتنظر إليه، ثم
رفعت يداً صغيرةً في إيماءٍ غامضة لا معنى لها، لكنها خلّفت
في صدره ارتباكاً أعمق.

تدفّقت الذكريات في داخله دفعةً واحدة: أمّه تحذره من البحر،
أبوه الغائب وما تركه من فراغ، خالد يصرخ باسمه من قلب
الموج، فارس وهو طفلٌ يركض معه في أزقة القحمة ويختبئان
خلف السدرة.

بدت الطفلة والكلب بوابةً شُرِّعت على الذاكرة.

عَلِقَ بين سيارةٍ مغلقةٍ وقريةٍ مفتوحة؛ بين ماضٍ لا يرحم
وحاضرٍ ينوء بحمله. لم يحسم إن كان سينزل أم يتّبع البحر.
كل ما أدركه أنّ الكلب بعينه الثابتتين، والطفلة بثوبها المبلّل
وصمتها، ما زالا يراقبانه، وأنّ القحمة لم تستقبله.. بل ابتلعت
من جديد.

نزل أخيراً من السيارة، أغلق الباب خلفه، وتقدّم نحو البيت بخطواتٍ متناقلة. كان الباب الحديدي الصغير واقفاً كما تركته السنين، يعلوه قوسٌ مطليّ بالجير الأبيض تقشّرت حافته. وعن يمينه نافذة أشبه بعينٍ مطفأة. رفع يده إلى المقبض، أدارَه ببطء، فصدر صريرٌ قصيرٌ يشبه زحزحة غطاءٍ عن ذاكرةٍ طال حبسها.

دخل الفناء؛ أرضه ترابٌ مدكوك، وإلى اليسار شجرةٌ تتدلى فروعها اليابسة كحارسٍ صامت، وفي ركنٍ بعيدٍ جرّة ماءٍ فارغة مائلةٌ على جنبها، وعلى الجدار المقابل موقدٌ حجري. وضع حقيبته والصندوق عند الحائط، ثم التفت يتأمّل المكان. كان الظلام مطبقاً؛ لا ضوء في البيت كلّه.

مشى إلى المطبخ بخطواتٍ حذرة، ودفع الباب الخشبي، فتنامت إليه رائحةٌ غبارٍ راكد. تحسّس رُفًا منخفضاً، فوجد عليه فانوساً مغطىً بطبقةٍ كثيفة من الغبار، وبجانبه علبةٌ كبرت منسية. نفّض عنه الغبار.. أشعل عوداً، وقرّبه من الفتيل. اشتعل الضوء ببطء، ورسم دائرةً صغيرة في قلب العتمة. حملَه، وراح يتجوّل في أركان البيت.

دخل المجلس؛ كان الحصير المنسوج يغطّي الأرضية بخشونته، وعلى اليمين خزانةٌ خشبية فوقها بطانياتٌ مطويةٌ ووسائد من صوف. تتخلّل الجدار الطينيّ شقوقٌ طويلة، وفي الزاوية دلةٌ قهوةٍ مقلوبة وفنجانٌ مكسور. رفع الفانوس قليلاً، فانكشفت عوارض

السقف وقد تدلّت منها خيوطٌ ليفٍ رقيق. لم يطل الوقوف، بل مرّ بالمكان مرور العارف، ثم اتجه إلى الحجرة الداخلية. فتح بابها، فأزّ المفصلُ صريراً خافتاً. مدّ الفانوس أمامه، فرأى الحصير المفروش، وفوقه فراش من صوفٍ غليظٍ بغطاءٍ رماديّ، وإلى جواره بطانيةٌ صوفيةٌ ووسادةٌ هبطت حافاتهما من كثرة الاستعمال.

في الركن طاولةٌ قصيرة، فوقها شمعٌ وصندوق خشبيّ صغير فارغ، وبجانبتها مصحفٌ بغلافٍ جلدي. وضع الفانوس فوق الطاولة لحظة، فارتجفت الظلال على الجدران، ثم حمّله من جديد. اقترب من الجدار المقابل؛ هناك صورةٌ قديمةٌ مثبتة بإطار خشبي دакن. مسح غبارها براحته، فتجلّت الوجوه: الجدّ في المنتصف، واقفاً بصلابة، وعن يمينه طفلٌ في العاشرة بثوبٍ قصير وعينين واسعتين: أبوه ناصر. وإلى اليسار صبيّ في الثامنة: عمّه الذي ابتلعه البحر. لم تكن الصورة مجرد أثرٍ قديم، بل نافذةٌ مفتوحة على غياب لا ينتهي.

جلس على الحصير، وضع الفانوس بجانبه، وأخرج دفتره، وكتب:

«لم يكن هذا بيتنا، كان فخاً على هيئة مأوى. وأنا لم أعد ابن القرية؛ أنا غريب جاء متأخراً على ذاكرته».

رفع رأسه، فرأى البيت مستودعاً للذاكرة؛ زواياه تفيض بما أودع فيها، وتشققاته تضمّر حكاياتٍ لم تُرو بعد. ومن تحت الأرض، ومن عمق صدره، تصاعد صوتٌ خافت، يشبه رجوع موجٍ يرتطم بصخرٍ بعيد.

راح يصفي إليه حتى شعر أنّ جسده يترنّج مع الإيقاع، وأن التعب يضغط عليه كما يضغط البحر على الغريق. قرّر أن يتهياً للنوم، فمدّ الفراش على الأرض، وأخذ البطانية، ثم ألقى بجسده المرهق فوقها. أما الفانوس على الطاولة فألقى دائرةً محدودة من الضوء، وما وراءها كان ظلاماً كاملاً يبتلع الحجرة.

حدّق إلى السقف، رأى شبكة عنكبوتٍ ممتدة بين عارضتين، خيوطها الرقيقة تلمع كلما لامسها الضوء، وفي مركزها حشرة صغيرة تتخبّط. وعلى الجدار صعد صرصارٌ ثم اختفى داخل شقّ طيني. لم يلتفت إليه؛ كان منصتاً إلى الصوت الآتي من المطبخ: ارتطام معدنٍ بمعدن، كأن إناءً سقط أو يداً خفية حرّكته عمداً. شدّ سمعه، ولم يتحرّك.

عاد الصمت، لكنه لم يقتنع بأن البيت خالٍ.

نهض، تناول الفانوس، وتقدّم بخطواتٍ مترددة. وقف عند النافذة؛ الستارة الممزقة تتحرك بخفة، كأن يداً غير مرئية تلامسها. رفع الفانوس قليلاً، فرأى الساحة ساكنة، والجدار المقابل غارقاً في الظلّ. لا شيء يتحرك، لكن شعور المراقبة انغرس فيه؛ كأن أعيناً تترصّده من وراء الليل. استدار ليتأكد من أن الحجرة خالية، فوقعت عيناه على المرآة الصغيرة في الركن. اقترب، رفع الفانوس، فرأى انعكاسه، غير أنّ الصورة بدت متأخرة، كأن المرآة تُعيد رسمه بعد أن يتحرّك. مدّ يده نحو الزجاج، فظهرت حدقتاه في المرآة أوسع مما هما عليه، يتسع فيهما فراغٌ لا يمتّ إليه بصلة. تراجع سريعاً، والفانوس يتأرجح بين أصابعه.

جلس على الحصير، وضع الفانوس إلى جانبه، وأغمض عينيه لحظة... فإذا بالذاكرة تنفجر. لم تعد صوراً متناثرة، بل سيلاً من الحكايات التي سمعها صغيراً من أفواه العجائز في ليالي القحمة السوداء: قلن إن البيوت إذا هُجرت طويلاً صارت مأوى للغائبين؛ يسمع ساكنها وقع أقدام في الممرات، وتُفتح فيها الأبواب وتُغلق بلا يد. وقلن إن البحر إذا ابتلع صياداً ترك صوته عالقاً في الموج، يسمعه العابرون في الليالي الباردة كنداءٍ مقطوع.

وروى الغواصون عن أبواب في القاع تقود إلى مدن غارقة؛ إذا اقترب منها غريب خرج إليه قومٌ بلا وجوه، يحيطون به حتى يضيع عقله. وحكت النساء عن مخلوقات تدخل البيوت على هيئة قطط، فإذا تبعته رأيت عجوزاً تقهقه ثم تختفي. وعن رجال بلا رؤوس يقطعون طرق المزارع؛ يمشون أمام العابر حتى يضل الطريق، ثم يختفون كأنهم لم يكونوا. أمّا الطُّرقاتُ في السقف فهي -كما قلن- مطارقُ الجنّ؛ فإذا تكررت ثلاثاً ولم يغادر الساكن، اختطفته قبائله.

كل تلك الحكايات عادت بكلّ وقعها، كأن البيت استدعاها من جوفه، والجدران ترددها، والظلال تُصغي إليها. لم يعد راشد يسمع بذاكرته فحسب، بل بأعصابه كلّها.

ولم يعرف: أيكون ما يسمعه الآن صدى الماضي، أم أنّ البيت نفسه بدأ يتكلم؟

أعاد الفانوس إلى الطاولة، ثم انسحب إلى الفراش. انقلب على جنبه الأيسر، وأسند كفّه إلى رأسه، وعيناه نصفُ مغمضتين، والصور تدور حوله: صورة الجدّ في منتصف الإطار القديم،

وصورة أبيه طفلاً غاب منذ زمن، وصورة العم الذي ابتلعه البحر،
وصورة المرأة التي تأخر انعكاسها عنه، وحكايات العجائز التي
سكنت طفولته... كلها تجمّعت فوق رأسه كقيم ثقيل.
زفر طويلاً، ثمّ غلبه النعاس شيئاً فشيئاً.

لم يكن صباحُ القحمة يشبه صباح أي مكان آخر. هنا، يهبط الضوء على البيوت الطينية والحجرية، يلمع لحظةً ثم يخفت، فتبدو الأزقة الضيقة بين يقظةٍ ونوم.

من بعيد يجيء صوت ديكٍ متأخر، ومن بيتٍ قريب يعلو صوت امرأة تنادي طفلها ليحمل جرّة ماء. فتح راشد باب بيت جدّه، فصدر صريرٌ حادّ شقّ سكون الصباح.

خرج إلى الساحة، فاستقبله هواءٌ يحمل رائحة البحر ممزجة بعبق التراب. رفع بصره؛ كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً، ولونها يكسو الجدران بصفرةٍ خفيفة. وعلى الحائط القريب صفٌّ من النمل ينساب في صمت... لكن ما استوقفه كان الكلب الواقف عند الزاوية.

كان هزياً، بارزةً أضلاعُه، وعيناه الواسعتان ثابتتان عليه. لم ينبح أو يقترب منه.. تطلّع نحوه قليلاً ثم خفض بصره، ونظر إلى زقاقٍ خلفي، كأنه يشير إليه بصمت.

وفي اللحظة نفسها التفت راشد نحو الطرف الآخر من الفناء... فرأى الطفلة.

كانت واقفةً قرب الجدار، لا تتكلّم ولا تؤشر، انحنت ومَرّرت إصبعها في التراب، ورسمت خطاً متعرجاً بدا ككلمةٍ لم تكمل. رفع رأسه إليها... فلم يجدها. كأنّها انزلقت بين الجدران، ولم يبقَ إلا أثر الخطّ في التراب.

تتفّس بعمق. كان الطريق أمامه غير مستوٍ، تتناثر فيه حصى صغيرة. سار بخطواتٍ متأنّية، وأذنه تلتقط أصواتاً متفرّقة: ارتطام دلو ببئر، صياح صبيّ ينادي رفاقه، وقع عصا يجزّها رجلٌ مسنّ. كل صوت يعيد إليه صورةً من طفولته؛ لا تعود بذات براءتها القديمة، بل مثقلة بما حمله المكان من فواجع. فالصبيّ الذي كان يلهو بالأمس.. عاد اليوم رجلاً، يواجه ما خلفه وراءه. وعند أول منعطف، لمح ظلاً واقفاً أمام دكانٍ صغير نصف مغلق. ومع أول شعاع لامس الوجه، عرفه رغم المسافة والسنين: إنّهُ أبو فارس.

كان واقفاً بثباتٍ غريب. ملامحه تقول إنّ أعواماً طويلة مرّت عليه، غير أنّ جسده ينفىها. اختلط الشيبُ بالسواد في شعره، ولحيته القصيرة مهذّبة بعناية. في وجهه صرامة الشباب، لا التجاعيد التي يألّفها الناس في مَنْ بلغ سنّه. ملامحه لم تتغيّر: عينان ضيقتان لم تفقدا حدّتهما، أنفٌ دقيق، حاجبان كثّان يمنحان وجهه هيبةً. كتفاه مستقيمتان، ووقفته مشدودة كأنّ ظهره لم يحمل يوماً ثقلَ السنين. لم يكن شاباً... ولم يكن شيخاً... كان شيئاً بينهما، يثير الدهشة أكثر مما يبعث الطمأنينة. توقّف أبو فارس، وبدت على وجهه دهشةٌ ممزوجة بارتباكٍ خفيف.

تقدّم راشد نحوه مبتسماً وقال: «مرحباً يا عمّ سلطان... يبدو أنك لم تعرفني؟ أنا راشد».

انفرجت ملامح أبي فارس قليلاً وقال: «ابن ناصر؟! سبحان الله... لم أتوقع أن أراك هنا بعد هذه السنين».

صافحه راشد، وشعر ببرودة يده وقبضته الشديدة. قال: «ولا أنا توقعت أن أعود».

تأمل أبو فارس وجهه لحظة ثم قال: «كبرت... آخر مرة رأيتك كنت تركض خلف خالد في الساحة، تحمل شماغاً أطول منك». وخز الاسم صدر راشد، لكنه تماسك وقال: «الأيام تغيّر كل شيء».

سأله أبو فارس مباشرة: «وأبوك ناصر؟ هل عاد معكم؟»
أطرق راشد رأسه وقال: «منذ غاب لم نسمع له خبراً... بحثنا طويلاً حتى يئسنا».

تنهد أبو فارس، وعيناه لا تفارقان ملامح راشد، ثم قال: «كان ناصر رجلاً عنيداً... والبحر لا يرحم من يبتعد عنه».
رفع راشد نظره نحوه وسأله بنبرة واضحة: «أتعرف شيئاً عنه؟»

هزّ أبو فارس رأسه وقال: «لا... لا شيء أكيد، مجرد أحاديث قديمة... والأفضل أن تبقى كذلك».

ساد صمتٌ، مرّت خلاله امرأة تحمل جرّة ماء فوق رأسها، وطفل حافٍ يركض خلفها. ثم قال أبو فارس: «وأأمك؟»
خفض راشد صوته وقال بصوت متحشرج: «أمي.. الله يرحمها، توفّاها الله قبل أيام قليلة».

تجمّدت ملامح أبي فارس لحظة، ثم قال: «رحمها الله... كانت من الطيبات». مدّ يده ووضعها على كتف راشد، وضغط بخفة وهو يضيف: «القحمة لا تنسى أبناءها، لكنها تختبرهم دائماً».

لم يرد راشد؛ عيناه عالقتان بالأرض. وفي تلك اللحظة التفت أبو فارس نحو المسجد القريب، كأن شيئاً استوقفه هناك.

فعند باب المسجد الكبير وقف الإمام مساعد؛ ثوبه الأبيض ناصع، ولحيته السوداء يخالطها بعض الشيب. وجهٌ دائريٌّ هادئ، يتوسطه أنفٌ أشمّ، وعينان عميقتان فيهما سَكِينَةٌ ووقار. نظر إلى راشد نظرةً ثابتة، ثم ابتسم واقترب بخطواتٍ موزونة كأنها تتبع من إيقاعٍ داخلي.

مدّ يده وصافح راشد بحرارة وقال بصوتٍ رزين: «السلام عليكم... ألسنت ابن ناصر؟ راشد؟ كم تشبهه! ها قد عدت بعد طول غياب».

أجاب راشد: «الجميع يقول إنني أشبهه... نعم، عدت، وربما متأخراً».

أطرق الإمام رأسه قليلاً، ثم سأل: «ما الذي أعادك؟» قال راشد بصوت خافت: «ماتت أُمِّي... دفنتها قبل أيام». أطرق الإمام ثانية وقال بهدوء: «رحمها الله... كل القحمة تشهد بصلاحها».

خَيَّم صمْتُ وجيز، ثم أضاف: «ألقاك في الصلوات... لا تتأخر علينا».

ابتسم راشد وقال: «حسنًا».

أومأ الإمام برأسه، ثم استدار ودخل المسجد، تاركاً الباب مفتوحاً على ظلاله الداخلية.

أمّا أبو فارس فوقف يراقب راشدَ بعينين ثابتتين، ثم قال قبل أن يبتعد: «القرية لا تنسى أبناءها... مهما طال الغياب».

ثم مضى بخطواتٍ هادئةٍ.

وقف راشد وحده في منتصف الزقاق؛ الكلب ما زال عند الزاوية، يحدّق فيه، والطفلة لم تظهر مجدداً. رفع بصره، فإذا بالنساء يخرجن إلى السوق يحملن سلالاً صغيرة، والأطفال يركضون في الأزقة، والرجال يجلسون عند الأبواب يراقبون الغريب العائد. شعر أنّ القرية كلّها تحبس أنفاسها... كأنها تنتظر كلمته الأولى.

لم يتحرّك فوراً؛ وقف بيدين متدلّيتين، وعينين تتقلّان بين الوجوه والأبواب. أحسّ أنّ القحمة تراقبه؛ لا ترحّب به ولا تنفر منه، بل تتركه معلّقاً في منتصف الطريق، كأنها تختبر خطوته التالية. في ذلك الصباح... لم يكن غريباً عابراً، بل ابناً يعود إلى بيتٍ يبقى حياً في ذاكرته مهما ابتعد.

تحرك أخيراً، ومضى نحو الساحة الصغيرة التي ما زالت تعيش في زاوية من ذاكرته البعيدة. هناك، في الركن، صمد المقهى الشعبي كأنّ الزمن مرّ من حوله لا من خلاله؛ بابه الخشبي مفتوح، ورائحة البنّ والهيل تنبعث مع البخار المتصاعد من أباريق نحاسية. الكراسي مرصوفة، بعضها مهترئ، والرجال متعلقون في مجموعاتٍ صغيرة، أحاديثهم قصيرة تتقطع كأنفاسٍ مُتعبة.

دخل راشد، فخفضت الأصوات لحظة ثم عادت إلى نسقها. جلس في ركنٍ قريب من النافذة وطلب قهوة. جاءه رجلٌ مسنّ، لحيته خفيفة ووجهه محمر من الشمس، وضع الفئجان أمامه وقال ببساطة: «أأنت ابن ناصر؟»
أجاب راشد: «نعم».

ابتسم الرجل: «سبحان من يجمع الوجوه بعد طول غياب... رحلتهم صفاراً، وكبرنا ونحن نذكركم».
تدخل رجل من الطاولة المجاورة، شابكاً أصابعه: «متى عدت يا ولدي؟»

قال راشد: «أمس».

أوماً الرجل برأسه وقال بصوتٍ مبحوح: «القحمة لا تنسى أبناءها، مرحباً بك بيننا».

لم يكن في أقوالهم غموض ولا حذر، بل فضولٌ طبيعيّ من أهلٍ يتعرّفون إلى الغريب العائد. شكرهم راشد ورشف قهوته،

غير أن قلبه كان مضطرباً؛ بدت أعينهم ودودة، إلا أنها تزن خطواته بثبات.

أنهى قهوته، ونهض بهدوء، ودّعهم بإيماءة رأس، وخرج إلى الزقاق من جديد.

ارتفعت الشمس قليلاً، وملأت الأزقة بضوءٍ ينعكس على جدران الطين. من بعيد دوى صوت مطرقة تضرب مسماراً، ومن بيتٍ قريب تعالت ضحكاتُ أطفال، ثم انطفأت سريعاً حين مرّ بينهم.

تابع السير حتى بلغ طرف الزقاق حيث يتسع الطريق. هناك، عند ركن بيتٍ قديم، وقف فارس: سيجارة بين أصابعه، ينفث دخاناً متقطعاً، وملامحه نصفها في الضوء ونصفها في الظلّ. تجمّد فارس حين رآه؛ ارتجف جسده، واتسعت عيناه. للحظةٍ لم يصدّق أن القادم نحوه هو صديق طفولته. فالمشهد وحده كان كافياً ليوقظ ما ظنّ أنه دفنه: صورة خالد وهو يفرق... يصرخ... يلوّح بيدٍ لا يمسكها أحد، وهو واقفٌ متصلّب، عاجزٌ عن النجدة. اشتعل الذنب في داخله، كأن ظهور راشد أعاده إلى تلك اللحظة.

اقترب راشد بخطواتٍ ثابتة، ذهوله لا يقلّ عن ذهول فارس. كان يتأمّل ملامح الرجل أمامه، يحاول أن يرى فيه صديقاً عرفه طفلاً... لكنه وجد وجهاً آخر: وسامة متعبة، وعينين سوداوين مضطربتين، وحاجبين عريضين يضيفان على ملامحه صرامةً غير مكتملة، وشعرًا أسود ممشّطًا بعناية، تعانده خصلةٌ تنزلق دائماً إلى جبينه.

قال فارس مدهوشاً: «راشد؟ عدت؟!»

أجابه راشد، وفي صوته صدى دهشة مماثل: «أنا الذي يجب أن يسأل... أيعقل أن أراك هنا بعد كل هذا الغياب؟!»

ارتسمت على شفتي فارس ابتسامة ناقصة، ارتجفت ثم انطفأت: «القحمة تغيرت... وأنت أيضاً تغيرت».

قال راشد: «وأنت؟»

أجاب فارس: «أنا لم أغادر أصلاً... بقيت هنا، في الأزقة نفسها، لكن بين وجوه غير الوجوه».

حلّ الصمت؛ الأعين وحدها تتحدث. كانت نظرة فارس طويلة، مترددة، كأنه يوشك أن يقول شيئاً آخر.. لكنه يخشى أن ينكشف. أما راشد فكان يحاول التوفيق بين الغربة والحنين، بين صورة فارس الطفل وصورة الرجل الذي يقف أمامه الآن.

في تلك اللحظة، خرجت أمانى من باب قريب، بعباءة سوداء تلامس الأرض، يلفّ رأسها حجابٌ منسدل. رفعت بصرها، فرأت الغريب. توقفت برهة، والتقت عيناها بعينه؛ نظرة فيها دهشة خفيفة وإعجابٌ مكتوم. مرّت على شفتيها ابتسامة لطيفة، ثم مضت بخطواتٍ هادئة إلى عمق الزقاق. تابعها راشد بعينه حتى غابت، كأن مرورها الخاطف حمل وعداً لم يتشكّل بعد.

قال فارس بصوتٍ منخفض: «تلك أختي... أمانى».

صمت راشد متأملاً فارس بإمعان. اقترب فارس أكثر، ومدّ يده، فصافحه راشد. كانت المصافحة قوية، لكنها ترتجف في أعماقها. قال فارس: «طال غيابك يا راشد... لكن بعض الوجوه لا يمحوها الزمن».

أجاب راشد: «ولا تغيّبها الذاكرة».

ابتسم فارس بهدوء، وقال: «دعنا نلتق لاحقاً... لدينا الكثير لننقله».

تعلّقت الأعين لحظةً واحدة، كأن الماضي كلّهُ محتشدٌ في هذه المصافحة، ثم أفلت فارس يده.

تابع راشد طريقه، ووقف فارس في مكانه، محدّقاً في الفراغ الذي خلفه وراءه. كان يشعر أنّ الذنب القديم اشتعل من جديد، وأنّ اللقاء لم يكن عابراً.. بل نبشاً للماضي وإيقاظاً لصمتٍ طالما حرسه البحر منذ غرق خالد.

سار راشد لا يعرف وجهته، كأنه يتبع خيطاً داخلياً لا يريد أن ينقطع.

ضاقت الأزقة خلفه حتى غدت مجرد ذكريات من طينٍ وحجارة. لم يكن يدري إلى أين يمضي، لكنه وجد نفسه ينحدر مع الطريق حتى انفتح أمامه الأفق: البحر.

بدا المنظر كأنه يراه لأول مرة، مع أنه عاش طفولته عند شاطئه؛ سطح أزرق ممتد، ساكن على نحوٍ يثير القلق أكثر مما يبعث الطمأنينة. الموج يضرب بخفةٍ متقطعة، والريح تسحب خيوطها من فوق الماء ثم ترميها على الرمل.

وعند صخرة بارزة على طرف الساحل كان الصياد عايز واقفاً. جسده نحيل، لكن وقفته ثابتة؛ كتفاه منحنيّتان من أثر السنين، ووجهه محفور بتجاعيد تشبه أخاديد البحر. شعره الأبيض متناثر كشباك قديمة، وعيناه الضيقتان تلمعان بحدّة غريبة. كان يتكئ على عصاه، وأمامه شبكةٌ ممزقة يلملم أطرافها كأنه يحاورها.

اقترب راشد وتوقّف على بعد مسافة؛ لم يشأ قطع المشهد. غير أنّ الصياد رفع رأسه فجأة، كأنه أحسّ بالخطوات قبل أن يدركها سمعه. حدّق إليه طويلاً، ثم قال بصوتٍ خشن يحمل رائحة البحر والملح: «أنت لست غريباً عن القحمة.. من أين أعرفك؟»

قال راشد: «أنا راشد بن ناصر».

توقفت أصابع الصياد عن لمس الشبكة، وأخذ يحدّق إلى وجهه، ينقب ملامحه كمن ينبش خزائن الذاكرة. ثم هز رأسه وقال: «ناصر بن فهد؟ سبحان الله ما ظننت أنّ أحداً منكم سيعود إلى هنا».

اقترب راشد خطوة ووقف إلى جواره على الرمل. قال الصياد: «بيوتكم صارت أطلالاً، والناس تنسى.. أمّا البحر فلا ينسى. يردّد الأسماء حتى لو لم ينطق بها أحد. جدّك، وأبوك.. كلاهما ترك أثراً في صمته».

سكت لحظة، ثم أشار بعصاه نحو الأفق وقال: «ذاك البحر لا يشيخ. نحن الذين نكبر وننحني، وأمّا هو فيعود كل يوم كما كان، كأنّ الأيام تأخذ منه ولا تتقصه».

جلس الصياد على الصخرة، نفض عنها الغبار، وأشار لراشد أن يجلس. جلس راشد بتردد، وعيناه على الأفق، ثم قال بصوت منخفض: «عدت... لعلّي أبحث عن شيء ضاع هنا، أو لأفهم».

قهقه الصياد وقال: «من يظنّ أنه يفهم البحر يضل الطريق. نحن نصطاد منه، لكننا لا نعرفه؛ كلما خُيّل إلينا أننا عرفناه، باغتتا بما لا يخطر ببال».

أطرق راشد رأسه، فتابع الصياد: «زمان، كان البحر كريماً.. نخرج عند الفجر، ونعود قبل الغروب والصناديق ممتلئة؛ الأسماك تقفز إلى الشباك كأنها تهب نفسها لنا، النوارس تحوم، والأطفال يركضون على الرمل، والنساء ينشرن الغسيل على الصخور. كان البحر جزءاً من حياتنا... لا عدواً ولا سراً، لكن...».

صمت قليلاً، وتنهَّد تنهيدة أثقلتها الذكرى، ثم قال: «لكنني رأيت ذات يوم ما لا أريد أن أراه مرة أخرى».

رفع راشد رأسه مذعوراً: «ماذا رأيت؟»

قبض الصياد على عصاه، وغلظ صوته: «كنت وحدي في فجر ضبابي. ألقيت شبكتي وانتظرت. مرّت ساعة ولم أصطد شيئاً. وفي الثالثة، حين سحبت الشبكة، وجدت فيها طفلاً... لا هو ميت ولا حيّ. عيناه مفتوحتان ويضحك ضحكة لا تشبه ضحك البشر. وضعت يدي عليه، وما إن لامس الماء جسده مرةً أخرى... حتى اختفى. لم يبقَ إلا فراغٌ بين الحبال».

ارتجف صوته قليلاً وهو يقول: «يومها فهمت. لم أعد أمدّ يدي للبحر أطلب رزقاً. قلت له في نفسي: إن كنت تريد أن تأخذ.. فخذني وحدي، لكن لا توجعنا جميعاً».

ثم ابتلع ريقه، وحدّق طويلاً في البعيد: «ومنذ ذلك اليوم... لم أعد صياداً. صرْتُ أعدّ الأمواج فقط».

لزم راشد الصمت مشدوداً إلى الحديث، يشعر بقلبه يلطم في صدره كما يضرب الموج الصخور. قال أخيراً: «أكان ما رأيته حقيقياً.. أم وهمًا من التعب؟»

افتترّ الصياد وقال: «ما يراه الصياد في البحر لا يُوزن بميزان العقل. أشياء لو رويتها للناس لقالوا وهمًا، لكنك تعرف في قرارة نفسك أنك لم تكن تهذي. أنا لم أعد أصطاد، وما عاد البحر يعطيني، لكنني أعلم شيئاً واحداً: البحر يختار من يخاطبه.. وليس كل الناس يفهمونه».

سكت لحظة، محدّقاً في الماء، ثم قال: «وليس ذلك أغرب ما رأيته».

حدّق راشد إليه بحدة: «ماذا تعني؟»

زفر الصياد، ثم بدأ يحكي: «كان في القرية شابٌ من أمهر الصيادين، اسمه عبد الله. خرج ليلةً وحده، والقمر غائب، والريح ساكنة. مضى بقاربه.. ولم يرجع تلك الليلة، ولا التي بعدها. وفي اليوم الثالث، وجدناه عند الفجر جالسًا على الشاطئ. ثيابه مشبعة بالمح، وعيناه زائفتان كأنهما وقعتا على ما يفوق طاقة البشر. حاولنا أن نسأله أين كان وما الذي جرى... فلم يقل إلا كلمتين:

«هو تحت».

سألناه: «من تحت؟ رجل؟ جني؟ وحش؟»

لكنّه لم يزد حرفًا. راح يرددهما أيا ما حتى خفت صوته وصار أقرب إلى الهذيان.. ثم سكت سكاتًا طويلًا، لم ينطق بعده بشيء. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد عبد الله إلى البحر، ولا اقترب منه. عاش على أطراف القرية مثل ظلّ إنسان... كأن البحر محّا اسمه من ذاكرته».

ابتلع راشد ريقه، وصوته خرج مترددًا: «أحقًا رأى شيئًا؟»

قال الصياد وهو ينهض، متكئًا على عصاه: «لا أدري. لكنني أعلم أن البحر إذا صمت.. فإن صمته ليس هدوءًا، بل ترقّب». ثم أشار بيده نحو الجنوب وقال: «إذا واصلت الطريق، فستدرك أنّ البحر اليوم غير البحر الذي تركته. إنه يراك قبل أن تبلغه.. فاحذرن أن تقف أمامه بقلب فارغ».

ومضى بخطواتٍ بطيئة، يضرب الأرض بعصاه يعدّ الزمن، حتى غاب عن الأنظار.

بقي راشد جالساً على الصخرة، والأفق أمامه، والموج يتكسر بخفة، ورائحة الملح تتسلل إلى صدره. لم يكن يدري: أيرتجف مما سمع... أم يزداد ظمأً لمعرفة المزيد؟ خفض نظره فرأى يده تلامس الرمل عند صدفةٍ مشروخة نصفها غائر. التقطها وتأملها طويلاً.

تذكر وصية أمه: «احذر البحر».

ألقى الصدفة ونهض. لم يملك جواباً بعد، غير أن كلمات الصياد ظلت تتردد في صدره كصدى بعيد: «احذر أن تقف أمامه بقلبٍ فارغ».

مشى راشد على الرمل، خطواته بطيئة، يشعر بأن البحر يتبعه بنظرة صامتة.. كأنّ في جوفه حكاية أخرى لم ينطق بها بعد.

لم يَمْضِ راشدٌ بعيداً عن الشاطئِ حتى أحسَّ بشيءٍ يلاحقه. لم يكن خطواتُ تُسمع، ولا ريحاً تصفر، بل ظلاً غامض يتبعه، يلامس ظهره من بعيد ويحوّل الرمل تحت قدميه كأنه طينٌ رخو. رفع بصره فإذا بغرابٍ أسود يقف على جدار أحد البيوت، ساكناً بعينين لا تبرحانه. في جناحه الأيسر ريشةٌ بيضاء لامعة. لم يُفاجأ؛ فقد رآه عند المقبرة أول مرة، ثم عند المقهى. كان الطائر يكرر ظهوره، يراقبه بنظرةٍ ثابتة كأنّ بينهما موعداً لا يُوجَل. هذه المرة لم يختف؛ راح يراقب ببرود، فيما كان قلب راشد يزداد اضطراباً. دخل راشد زقاقاً ضيقاً، فهبت من البيوت المتلاصقة روائح متداخلة: خبزٌ خرج تَوّاً من التتور، وملح سمكٍ مُعلّق على الجدار، ورائحةٌ عريكةٍ أطلقت في ذاكرته وهجاً قديماً فاشتعل حنينه لأمه، وشعر أن الزقاق يضيق عليه أكثر.

في آخر الزقاق ظهرت الطفلة؛ الظلّ ذاته الذي عرفه. صار حضورها علامة لا تُخطئها العين. رفعت يدها الصغيرة وأشارت نحوه. لم تكن إشارتها دعوة، بل أمراً رقيقاً لا يُرد. نظر إلى الكلب الواقف عند قدميها، ساكناً يراقب بدوره، ثم إلى عينيها الواسعتين.

شعر أن قدميه تتحركان من تلقاء نفسيهما، كأن قوة خفية تجرّه إليها. مرّت بين بيتين متهدّمين، ثم اختفت كما تنطفئ شرارةٌ في العتمة. وحين تبعها، وجد فسحةً صغيرة خلفها الركام، وهناك كان الطفل المشلول.

لم يتجاوز الثامنة؛ شعره أشعث، ووجهه نحيل، لكنه يحمل وقاراً غريباً لا يوافق عمره. عيانان مختلفتان: إحداهما زرقاء باردة كالماء، والأخرى سوداء حالكة كليل لا يفرّج. كان جالساً على كرسي خشبي متحرك، عجالاته ثابتة، وأمامه دفترٌ مفتوح. في يده اليمنى قلم؛ كانت أصابعه المرتجفة تشدّ عليه بإصرار، وترسم بأناة خطوطاً مترددة.

اقترب راشد خطوة، وانجلت له الرسمة: سمكةٌ يتوّج رأسها ثلاثُ نقاطٍ بيضاء مصطفّة بدقة. كان خدش القلم بالورق يحدث صوتاً خافتاً يكسر سكون المكان، حتى خُيِّل إليه أنه يسمع الصوت في صدره لا في الصفحة. لم ينطق الطفل بكلمة، لكنه رفع رأسه فجأة، والتقت نظراته بنظرات راشد.

تجمّد راشد في اللحظة ذاتها، وانقبض صدره بشدة. العين الزرقاء جذبت روحه إلى عمقٍ بارد، والسوداء سكبت داخله ظلاماً بلا قاع. ارتجفت أطرافه، وانسحب الدم من وجهه، فتراجع نصف خطوة كمن يفلت من حافة هاوية. لم يعد يرى طفلاً، بل بوابةً مشرعة على المجهول.

قال بصوت متقطّع يكاد يخرج من بين أنفاسه: «ماذا تريد أن تقول؟»

أبقى الطفل فمه مطبقاً. كل ما فعله أنه أتمّ خطّه الأخير، ثم أغلق الدفتر ببطء، ووضع كفه فوقه كمن يحرس سرّاً لا يجوز أن يطلع عليه أحد.

ازداد رعب راشد؛ صارت أنفاسه قصيرة لاهثة، وعرقٌ بارد تسلّل إلى راحتيه. أحسّ أن الأرض أخفّ مما ينبغي، كأنّها توشك

أن تهوي به . لم يكن ما يشعر به ثَقَلًا، بل خوفًا صريحًا يضرب عظامه . أراد أن يشيخ بوجهه لكنه لم يقدر؛ عين الطفل ما تزال معلقة به، تتغذى على رجفته .

في الخلف، أطلت الطفلة من جديد . رمشت بفتور، ثم أدارت ظهرها وتلاشت بين البيوت، كأن الأرض ابتلعتهأ بهدوء .
وقف راشد طويلًا؛ جسده مشدود، يتنفس كمن خرج من موجةٍ جليدية . لم يدرِ أيركض أم يصرخ . الطريق الذي أمامه لم يعد الطريق الذي جاء منه؛ كل شيء بعد تلك اللحظة تغيّر . لم يكن ما يشعر به خوفًا فحسب، بل رعبًا صريحًا جعل قلبه يدق بعنفٍ حتى خُيِّل إليه أن القرية كلها تسمعه .

تابعَ راشدٌ مسيرَه بخطواتٍ ناءتْ بحملِها، فوقَ أرضٍ تلفظُ
ذكرى ما شهدَه عندَ الطفل. تداعتِ الأسئلةُ في صدرِه حيرى،
وتنازعتُه الهواجسُ بينَ خوفٍ يخبو وفضولٍ يستعر.

ما لبثَ أن أفضى بهِ المسيرُ إلى السوق؛ حيثُ انتصبتِ
الدكاكينُ متناثرةً بلا نسق، تتدافعُ لتختلسَ من المارةِ نظرة.
أبوابٌ خشبيَّةٌ شحبتْ ألوانُها تحتَ سوطِ الشمس، وأخرى طُليتْ
بأزرقٍ باهت. سلَّعُ عُرضتْ كيفما اتَّفَق: سلالٌ تمرٌ تتدلى منها
حبَّاتٌ لامعة، وربطاتٌ بصلٍ أحمر، وجِعبٌ بامية، وقُدورُ ألمنيوم
منبجعة، وصِحفٌ فخاريَّةٌ متصدَّعةٌ ترجو شاريًا عزَّ وصولُه.
تتلاطمُ أمواجُ الأصوات: صياحُ دجاجةٍ مذعورةٍ يطاردُها طفل،
ونداءٌ باعةٍ يروِّجونَ لسلعِهم، وقهقهةٌ عابرة، ونباحٌ قادمٌ من بعيد.
ثمَّ يهدأ الصخبُ ليصيرَ همهمةً متقطَّعةً؛ هي أنفاسُ السوقِ
اللاهثة. صبيَّان يعدوان؛ أحدهما يجرُّ علبَةً معدنيَّةً تقرقعُ على
الحجارة، والآخرُ يسحبُ حبلًا عُقدَ بحجرٍ حسبَه دابة. ونسوةٌ
بعباءاتٍ سودٍ يحتشِنُ الخطى، يحملنَ سلالَ خوصٍ مُغطاة، ولا
يكادُ يُسمَعُ لهنَّ همس.

وفي الطرفِ القصيِّ، اتكأ خبَّازٌ على عتبةٍ دكَّانه، يميلُ صوبَ
التَّورِ مستخرجًا رغيًّا يتصاعدُ دخانُه، ليتلقَّفه صبيٌّ بلهفة.
يجاورُه دكَّانُ تمرٍ يزنُ صاحبه بضاعته بميزانٍ علاهُ الصدا،
وسطَ ذبابٍ يحومُ حولَ القفافِ المشرعة. وقبالتَه بائعٌ يعرضُ
على لوحٍ خشبيٍّ بقايا سمكٍ مشويٍّ، تفوحُ منه رائحةٌ نفاذة، تثيرُ
الجوعَ والنفورَ معًا.

وفي الجهة المقابلة، دكان عطارة: أطباق حنّاء، ومباخر، وقوارير زيتٍ داكن، ورجلانٍ يتجادلانِ في وصفة، فيما تحملُ الريحُ نفحةً حادةً من فلفلٍ أسود. وإلى الجوارِ دكانُ أزياء؛ تمايلتُ عندَ بابِهِ أثوابٌ بيضاء، غشيها غبارٌ وبقعٌ اغتالتِ ناصعَ لونها. وسطَ هذا الصخب، شمختُ سدرَةً وارفة، انحنتُ فروعها لتبسّطَ ظلًا ابتلعَ نصفَ السوق. ثَمّةٌ شيخٌ يرقبُ العابرين، وطفلانِ يتنازعانِ حجرًا أملسَ قبلَ أن تزجرهما أمٌّ بكلمة. اتجه راشد إلى المقهى، وما إن دخل حتى تعلّقت به أنظار الجالسين هنيهة ثم انصرف. أنزوى قربَ النافذة، وسرعانَ ما لمحَ الصيَّادَ عايضَ رابضًا في الزاوية؛ بثوبٍ رملي اللون، وصوتٍ يختزنُ في نبرته ثقلَ الموج.

اقترب راشد وألقى السلام، ثمّ جالسَ عايض، وسأل هامسًا: «يا عمّ عايض، ذلك الولد المُقعد، أتعرفه؟»

هزّ عايض رأسه مجيبًا: «إنه ابنِ مناع. منذ صغره وهو ساكن؛ لا يضحك ولا ييكى، ولا يبرح مكانه إلا ليُمسك دفترًا يخطُّ فيه طلاسَمَ لا نفقُها.. إنّه يرى ما لا نراه».

أشار بعصاه بعيدًا: «هناك بيت مناع. بيتٌ تأباه الريح، ولم يرَ أحدٌ زوجته قط. بيد أنَّ الليلَ فيه صوتًا آخر؛ إذ نسمع صراخًا وهمهماتٍ غامضة، دونَ أثرٍ لداخلٍ أو خارج».

عقَّبَ رجل أصلع كان يرهفُ السمعَ في الزاوية: «جدران ذلك البيت لها آذان. وإن أطلت الوقوف قبالة.. سمعت همسًا يناديك باسمك».

قهقهة ثالثٌ وهو يقشّرُ تفاحةً بسكينه: «لو تداعى ذلك البيت يوماً.. لخرجت منه كيانات لا أسماء لها».

قال رابع يسكب الشاي: «زعم مناع أن زوجته ماتت، وما شهدنا عزاءً، ولا امرأةً تدخل أو تخرج. يخالُّه الرائي يعيشُ وابنه المشلول وحيدين.. غير أن ضجيج بيته ينفي وحدة ساكنه»:

ابتسمَ عايض ساخرًا: «مناع؟ ما أحسبه تزوج من البشر.. بل يساكنُ كيانًا آخر، يَأْتَمُرُ بأمره».

خيّم الوجوم، حتّى خفت صوتُ المذياع. لاذَ راشدٌ بالصمت، بينما تفاقمتِ الحيرةُ في صدره. نهضَ أخيرًا وهمسَ لعايض: «أستأذنك».

أوماً عايض من غير كلام، محدّقًا إلى فنجانه.

غادر راشد المقهى، والسوق تموج بالضجيج، غير أن أذنيه لم تلتقطا سوى همس واحد. استحالت الضوضاءُ غطاءً لصمتٍ أعمق، صمتٍ يلزمه ويحكم وثاقه حوله.

تابع راشد خطواته في الأزقة الضيقة؛ البيوت من حوله تصطف كوجوه صامتة، لا تتكلم لكنها تراقب. جدران متشققة، أبواب أنهكتها الأيدي التي فتحتها وأغلقتها، ونوافذ تتدلى من بعضها أقمشة مهترئة تتحرك مع النسيم كأطراف ثوب.

الأطفال الذين كانوا يلعبون في الطريق حينما دخل القرية... انسحبوا فجأة إلى الداخل، تاركين خلفهم أثر جلبة سرعان ما انطفأت. لم يبق في الأزقة إلا وقع خطاه، يضرب التراب المدكوك ويعود صداه بين الجدران. وكلما تقدم خطوة، شعر أن السوق خلفه تتلاشى مثل صدى غمره الماء.

وحين مرّ أمام بيتٍ بابه مغلق ونافذته نصف مفتوحة، تسلّل إليه إحساسٌ بأن عيناً تراقبه. رفع رأسه، فرأى ظلاً ينسحب من خلف الستارة، ثم وجهاً يطل لحظة واحدة:

وجه ناعم، بشرة فاتحة، شعر أسود ينسدل على كتفين نحيلتين... وابتسامة انبثقت مثل ومضة ضوء، لكنها اخترقت صدره كما يفعل الحب حين يأتي أول مرة؛ صامتاً لكنه قادر على إيقاف القلب.

في عينيها رعشة لم تكن نظرة فحسب، بل وعداً غير منطوق. إنها أمانى، كما عرفها في صباه، وقد زادها العمر بهاءً وهدوءاً عميقاً. كانت جميلة جداً مسالماً؛ عيناان عميقتان، وفمٌ خجول يكاد يبتسم ثم يتراجع، وتحت شفيتها، على الذقن، شامة صغيرة تخطف البصر ما إن تقع عليها العين.

لحظة واحدة كانت كافية لتزرع في داخله بذرة جديدة؛ كأن نافذةً أُغلقت طويلاً قد انفتحت فجأة. استولى عليه شعورٌ يشبه البدء، وكأن الحياة التي ظنّها انطفأت عادت تبرق من شقٍّ صغير في جدار الروح. ابتسمت، ثم سحبت الستارة وغابت، تاركةً في صدره أثراً لا يُمحى.

توقّف راشد في مكانه. ولأول مرة منذ عاد إلى القحمة شعر أن شيئاً ما يدعوّه إلى البقاء. مرّت على وجهه ابتسامةٌ داخلية خجولة من غير قصد، قبل أن يواصل السير وقلبه يعيد تلك اللحظة كأنها هبة خفية من القدر.

على جانب الطريق، بدا بيتٌ قديم بلا بهاء. عند بابه جلست عجوز تلفّ جسدها بقطعة قماش قاتمة، وبين يديها وعاءٌ نحاسي تغرّيل فيه شيئاً لم يتبيّن. لم ترفع رأسها، لكن صوتها خرج حاداً يخترق سكّون المكان:

«قالوا له: لا تدخل البيت الذي بلا ظل... فلم يسمع».

تجمّد راشد، التفت إليها مذهولاً، فإذا بها ما تزال منحنية على وعائها، تتحرك يداها بإيقاعٍ هادئ كأنها لم تنطق بشيء. أراد أن يسأل عمّن قصدت، لكن الكلمات جفت على لسانه، فاكتفى بالصمت، فيما الجملة تدور في رأسه كأنها نُقشت على جدار داخلي. وبعد خطواتٍ قليلة التفت ثانية... فلم يجدها. المكان فارغ، والوعاء اختفى، كأن الأرض ابتلعته. سرت في جسده رعشة باردة، وأحسّ أن الأرض انسحبت من تحته. أيقن أنه لم يكن يواجه امرأةً عجوزاً، بل أثراً غامضاً تركته له القرية.

وأصل طريقه حتى بلغ نهايته؛ وهناك ارتفع بيت الجد، لا كبيت بل كذاكرة متجسدة، ينتصب عند طرف الممر مثل شخص في انتظار مواجهة لا مفر منها. بدا البيت كأنه نسي وظيفته؛ لم يعد يعرف كيف يكون مأوى، بعد أن عاش طويلاً شاهداً على الغياب.

توقّف أمام الباب، مثقلاً برهبة صامتة. لم يكن ينتظر وراءه أثاثاً منسياً، بل ظلالاً كاملة كانت تُقيم فيه، وكل شيء فيه يهمس: «لا تدخل».

وقف عند العتبة، تتداخل في صدره أصوات بعيدة: همس أمّه، وصدى كلمات العجوز، وابتسامة أمانى. خيوطٌ خفية تتشابك داخله وتدفعه نحو الباب. رفع بصره إلى القوس المتآكل، وشعر أنه لا يدخل بيتاً، بل يعبر إلى عهدٍ لا يدري هل يخصّه أم يخصّ الذين رحلوا قبله.

همس لنفسه: «بعض الأبواب لا تفتح باليد... بل بالندم».

ثم أدار المقبض، فانفتح الباب... ودخل.

لم يكن البيت مكاناً للنوم، بل مسرحاً للغياب. وحين أغلق راشد الباب خلفه، شعر أن الجدران تطبق عليه، وأن العتمة التي في صدره أثقل من الظلام من حوله. أشعل الفانوس، فانبعث منه ضوء أصفر ضعيف يتأرجح، لا ينيّر إلا دائرة ضيقة، ويترك ما تبقى من المكان غارقاً في السواد.

ارتوى على الفراش، وأسند رأسه إلى الحائط. وما إن أغمض عينيه حتى جاءه صوت أمّه في أيامها الأخيرة، متقطعاً: «لا تلمس الصورة.. إلا إذا كنت مستعداً أن ترى كل شيء ينهار داخلك».

فتح عينيه فجأة، كأنه يسمعها الآن. تذكر تلك الليلة حين سألتها: «أي صورة؟»

فقالت: «صورة لا تُرى بالعين، لكنها تظهر حين ينهار كل شيء».

لم يفهم يومها، وما هو ذا في بيت جدّه يلاحقه الصوت نفسه، كأنها ما تزال واقفة إلى جواره.

زفر بعمق، واتجه إلى النافذة، وأزاح الستارة الممزقة. دخل خطٌّ من ضوء القمر، أبيض خافت. تمت: «حتى القمر يتورّع عن الدخول إلى هنا».

عاد إلى فراشه، وأسند رأسه إلى ذراعه كأنما يحرس نفسه من السقوط.

لم يأتِ النوم رقيقاً، بل انزلقت ذاكرته إلى الطفولة من غير إذن. كان في السابعة عندما سمع وقع خطوات تقترب، والباب

يُفتح: دخل أبوه ناصر وجلس عند رأسه؛ وجهه شاحب، وعيناه غائرتان. مدّ يده إلى جيبه، وأخرج شيئاً صغيراً ووضع في كفّ راشد. لم يعرف أكان حجراً أم قلادة أم قطعة معدنية، لكنه أحسّ بثقله يضغط كفه الصغيرة. قال أبوه بصوت مبحوح: «هذه لك يا راشد... احتفظ بها».

ثم نهض ومشى وتوارى خلف الباب. ومنذ تلك الليلة... لم يره. انتفض راشد من نومه كمن سقط في بئر مظلمة. جلس يتصبب عرقاً، ووضع كفه على صدره ليكبح الخفقان. بقي لحظات محدّقة في العتمة، فقط ليتأكد أنه في بيت الجد... لا في حلم ممتد. الغرفة ثابتة: الحصير، الطاولة الصغيرة، والصورة على الجدار. كل شيء في مكانه.

أدار رأسه ببطء، يلهث كأن أنفاسه لا تخصّه. حاول أن يستلقي من جديد لعل النوم يعيد ترتيب داخله، لكن النوم هذه المرة لم يكن راحة، بل أرقاً يجذبه ويتركه بين إغفاءات متقطعة.

وحين فتح عينيه بعد ساعات، كان النهار قد استقر، ولم تعد الحجرة غارقة في السواد، بل امتلأت بضوءٍ يتسرّب من النافذة، ينعكس على ذرات الغبار المعلق، فيجعل المكان كأنه يطفو داخل طبقة كثيفة. جلس متثاقلاً، رفع يده إلى جبينه فوجد العرق جافاً، وعينيه متعبتين. حاول أن يستعيد ما رآه، فلم يبقَ في ذهنه إلا وجه أبيه.

جلس مدّة، ثم نهض متردداً. مشى عبر الممر حتى بلغ باب الحمام. كان الحمام ضيقاً، تشققت جدرانها، وفي زاويته مرآة مستطيلة صدئة الحافات.

مدّ يده إلى الصنبور، جمع الماء بكفّيه وغسل وجهه مرةً ثم ثانيةً وثالثة، حتى سال الماء على ذقنه ورقبته، وأحسّ أن بقايا الحلم تتزاح عنه شيئاً فشيئاً.

نظر في المرأة؛ فلم يرَ صورته كما يعرفها. بدا الوجه غريباً، والعينان غائرتين أكثر مما ينبغي، والضم متيبساً كأنه فقد القدرة على النطق، والشعر أشعث ملتصقاً بجبهته. مدّ أصابعه ولمس سطح الزجاج، فداهمه سؤالٌ فجأة: أهذا أنا؟ أم ظلّ رجل آخر يحدّق إلي؟

وقف طويلاً يراقب انعكاسه، كأن المرأة تبتلع جزءاً منه، ولم يخرج إلا حين رأى الماء يقطر من ذقنه على الأرضية الأسمنتية، يرسم بقعاً صغيرة تتسع ببطء. أغلق الصنبور، مسح وجهه بمنديل، وخرج إلى الممر بخطوات أثقل. توقّف عند الباب المؤدي إلى الخارج، التفت إلى الحجرة نظرة أخيرة، ثم مدّ يده إلى المفتاح وأطفأ الضوء.

كان الخارج مفعماً بالحياة؛ الأزقة الترابية تتنفس تحت الشمس، نخلة باسقة تمدّ ظلها فوق نصف الطريق، وأشجار الدوم اليتيمة تتمايل أوراقها العريضة مع النسيم.

سار راشد بخطواتٍ ثقيلة، كأن قلبه لا ينسجم مع حركة القرية، ولا يقوى على الاندماج في المشاهد التي تمرّ به. ولما بلغ آخر بيتٍ في طرف القحمة، تناهى إلى سمعه صوت غناء خافت، ممتد، آتٍ من جهة البحر. لم يكن غناءً عادياً، بل أشبه بتحذيرٍ يتسلل عبر الهواء. تجمّد في مكانه -البحر؟ هو الذي أقسم ألاّ يقترب منه. تردّد لحظة بين الرجوع

والمضي، لكن قدميه تحركتا من تلقاء نفسيهما. وكلما اقترب، ازداد الصوت وضوحًا؛ صوتٌ أنثوي، رخم، يخرج كأنه تعويذة: «في بطن الساحر سرّ دفين...».

على الساحل، سكن الموج بريية حتى استحال سطح البحر مرآة واسعة. وفوق الصخور احتشدت أسراب النورس، تصيح وتقلع معًا، ثم تعود باسطة أجنحتها فوق الماء. وعند الحافة، انتصب بلشونٌ وحيد مشربًا كحارس للأفق، وقد عبّ صدره رائحة الطحالب والملح حدّ الاختناق.

ومن الضوء تشكّلت امرأة.. لا تمشي، بل تتخلّق من الأفق ذاته؛ ملامحها مألوفة كأنها من زمن غابر، ينسدل شعرها الأسود كموجة انبثقت من العمق، فيما يتقاسم وجهها الظل والنور. رفع عينيه إليها، وتردده يتزايد. هي نفسها التي رآها عند المنعطف... حين قالت له: «اذهب إلى القحمة». تذكّرها الآن: نعم، إنها هي.

وقفت عند الحدّ بين الرمل والموج، ونظراتها معلقة به. ثم قالت بصوتٍ ناعم وواضح: «هذا أوّل صوت... وما بقي ستسمعه حين تكون مستعدًّا».

ارتجف جسده، وخرج صوته مبجوحًا: «من أنت؟»

ابتسمت، ثم قالت: «أنا نورة... وما بيني وبينك لا يحتاج إلى بداية، لأنه بدأ منذ اللحظة التي غبتَ فيها عن نفسك».

تقدّم خطوة دون وعي؛ صوته لم يطاوعه. انحبست الكلمات في حلقه واختفت قبل أن تولد. تعلّقت عيناه بها بارتباك؛ يخشى إن أشاح بنظره أن تختفي. لم تترك خطواتها أثرًا في الرمل.

راقبها وهي تمشي فوق صفحة البحر حتى غابت، وابتلعها الموج في لحظة، وبهت لون البحر من خلفها، كأنها سحبت من الأشياء ضوءها.

خفق قلب راشد بشدة حتى ظنّ أن ضلوعه ستتفلق. حاول أن يربط بين ما سمع وما رأى، ففجز؛ لم يبقَ له سوى صدى صوتها يدور في داخله بلا نهاية. أدرك أن كلماتها ليست جملةً عابرة، بل مفتاح فتح به بابًا داخليًا لا يعرف إلى أين يقوده.

في أعماقه شيء بدأ ينهض، كأن روحه التي خمدت طويلاً تذكّرت فجأة أنها ما تزال حيّة. لقد جاءت لتوقظه، لتفتح عينيه على ما أخفاه البحر والذاكرة، ثم رحلت، تاركةً إياه وحيدًا أمام السؤال الأول.

لم يرجع راشد من البحر؛ خرج منه خروج من انتزع من عمقٍ سحيق. مضى بين البيوت ونصفه عالق عند الشاطئ، ونصفه الآخر يحاول تصديق أنّ الأرض ثابتة تحت قدميه. أثقلت خطواته دهشة لم تكتملٌ ونداء لَمَّا يخفت بعد. فيما لامس صدى صوتها -نورة- أطراف سمعه كأغنيةٍ مبهمة المطلع. فتملّكه ارتباكٍ يضاهي حيرة طفلٍ يرى العالم لأول مرة.

ترأت له القرية مألوفة وغريبة في آنٍ معاً؛ مرآةً مشروخة تعكس صورته مشوّهة. لم يعرف: أهو الذي تغيّر، أم أن الأزقة أعادت ترتيب ملامحها لتستقبله على هيئةٍ أخرى؟ يمضي وفي داخله سؤالٌ واحد يتردّد: أيهما الحقيقي؟ ما احتفظت به ذاكرته... أم ما يراه الآن؟

كل زاوية في الطريق بدت تراقبه لتسأله: «من أنت بعد كل هذا الغياب؟»

باتت الجدران أعياناً صامتة تنتظر منه اعترافاً لم يجرؤ بعد على البوح به. أحسّ أن القرية تمتحن خطواته، خطوةً بعد خطوة، كأن الأرض تحفظ وقع قدميه لتقارن بينه وبين الطفل الذي تركها يوماً. كلما استدعى طفولته، تضاعف صدق الماضي أمام حقيقة اللحظة؛ خان الزمن صورته القديمة، وكشف له قريةً بلا أقنعة: مكاناً منهكاً من الانتظار، متعباً من الغياب، لا يمنحه عزاءً ولا يدّعي الترحيب. يجتاحه إحساسٌ مرّ بأن القرية لا تحتفي بعودته، بل تحاسبه لأنه تركها.

تضاعفت وحدته في هذه الأزقة لعجزه عن الانتماء. يطالع الوجوه العابرة من وراء زجاج سميك، وتترامى إليه الضحكات وافدة من زمن آخر. كل شيء أمامه يهمس له: لقد جئت متأخراً... والمكان لم يعد يعرفك.

وفي لحظة، شعر أن القرية تشبهه: مألوفة في ظاهرها، غريبة في أعماقها؛ كل حجر يذكره بأنه لم يعد كما كان، وكل ظلّ يمتد أمامه يذكره بأنه أضاع شيئاً لن يستعاد. كان يمشي وفي صدره خوفٌ لا يجد له اسماً: أن يكون قد عاد ليكتشف أن العودة ليست رجوعاً، بل مواجهة جدار آخر من الأسئلة التي لا تنكسر. مرّت الريح بين الأزقة همساً مشوباً بأثرها، يوحي بأن نورة لم تختفِ، بل استدارت خلفه تراقبه. وكل نسمة كانت تهمس باسمه دون أن تتطقه.

حُيِّل إليه أن القرية تقول له: أنت لست غريباً، لكنك لم تعد منّا بعد الآن.

أراد أن ينطق باسمها ليتأكد أنه رآها، أن يختبر إن كان الحلم سينكسر أمام الصوت، غير أنّ الاسم لم يخرج؛ فلسانه أثقل من أن يحتمل الحقيقة. تساءل: هل كانت نورة وعداً تأخر ظهوره؟ أم ظلّاً من ذاكرةٍ بعيدة؟

كان الأزقة خالية إلا من وجوه قليلة: صبيّ يركض خلف دجاجةٍ فالتة، عجوز تحمل على كتفها حزمة حطب، ورجل يمرّ من بعيد يحيّيه بإيماءة خفيفة ثم يمضي.

وصل إلى السوق؛ لم تكن مزدحمة ولا هادئة؛ تضحّ بنوع آخر من الحياة. عند المدخل بائع ينادي على بضاعته بصوت مرتفع،

وفتاتان تتازعان على دميةٍ محشوة بالصوف؛ إحداهما تشدّها من اليد، والأخرى من الساق، ترتفع أصواتهما ثم تخفت فجأة حين تلتفت إليهما أعين الكبار، كأنهما تعرفان أن الصخب ليس مسموحاً به.

في عيني راشد لم يكن المشهد شجاراً عابراً، بل صورة للقريبة برمتها: براءة ممزقة، وشيء يتجاذبها بين البقاء والانكسار. من الطرف الآخر رجلٌ يقود حماره المثقل بأكياس الفحم، وآخر يساوم على سلّة سمك، وعلى الحافة شجرة سدر وحيدة تنهّدي أوراقها كأنها تخبئ سرّاً قديماً.

وبين الوجوه لمح رجلاً توقف عند زاويةٍ وحدّق إليه نظرةً ثابتة قبل أن يمضي. لم يحتج راشد إلى سؤال نفسه طويلاً: لقد كان أبا فارس. مرّ كظلّ عابر... لكنه ترك وراءه أثراً يضاعف ثقل المكان.

لازمته الوحدة وازدادت جلاءً؛ ففي خضم السوق وصخبها، تفاقمت عزلته، وصار الناس جداراً يحول بينه وبين ذاته، جداراً من وجوه لا يعرفها وصخب لا يهدأ. ما عادت الوحدة غياباً، باتت حضوراً ملتبساً حوله من كل الجهات.

تابع السير، ولم يعرف كيف وجد نفسه أمام المكتبة. كانت هناك منذ طفولته، لم يتخيّل أنه سيقف عند عتبته بهذه الهيئة؛ بابها الحديدي نصف مرفوع، ومن الداخل تلوح رفوفٌ محمّلة بالكتب كأنها تنتظره وحده. وقف لحظة عند الباب، لا يدري هل سيدخل بحثاً عن كتاب... أم عن نفسه. ثم خطا إلى الداخل.

كانت المكتبة شبه صامتة، لا يقطع سكونها سوى خشخشة أوراقٍ يبعثرها الهواء عبر نافذةٍ مفتوحة. الجدران مطلية بألوانٍ فقدت بريقها، والكتب مصطفةً مثل وجوهٍ تنتظر من يعيد إليها الحياة. عند الطاولة جلس رجل خمسيني نحيل، بلحية خفيفة وشعرٍ مُسرحٍ بعناية، يضع نظارة مستديرة صغيرة على أرنبة أنفه تخفي بريق عينيْن متقدّتين. حين دخل راشد، ارتسمت على شفتيه ابتسامة مصطنعة وقال بنبرة محايدة:

«تفضل... أتبحث عن شيءٍ محدد؟»

أجاب راشد بابتسامة خفيفة: «لا، فقط أتجول».

كان الرجل يُعرف في القرية باسم حسن الورّاق. لا أحد يعرف قصته كاملة، لكن يُقال إنه ورث المكتبة عن أبيه، وواصل فتح أبوابها كل يوم حتى حين يقلّ روادها. بدا لراشد كأنّه حارسٌ لصندوق ذاكرة يخشى أن تتلفئ أنفاسه.

اقترب راشد من رفٍّ قريب، مدّ يده واختار روايةً من الزاوية، غلافها مهترئ عند الحافات. جلس، وقلب الصفحة الأولى بروية، كمن يلمس وجهًا نسي ملامحه. لم يكن يقرأ للمتعة، بل كان يبحث بين السطور عن مكانٍ يشبهه، عن ظلٍ يعيد إليه شيئاً من نفسه. لم تكن المكتبة جدراناً ورفوفاً، بل عالماً صغيراً ينجو فيه من الضجيج داخله؛ نافذة تُفتح على ما لا يستطيع فهمه، مكاناً لا يسألك من تكون، ولا يطالبك بتفسير أو تبرير، بل يكفي بأن يمنحك مقعداً وكتاباً.. ثم يتركك تواجه ذاتك.

المكتبة تفهمه وهو غارق في صمته؛ حضنٌ له حين يخذله كل شيء، ويلقي عليه سكيناً لا يجدها في غيرها، ويمنحه لحظة يرتاح فيها من ثقل العالم. بين رفوفها يشعر أن الحزن يمكن وضعه جانباً مثل معطفٍ ثقيل، وأن الكلمات قادرة على حمله قليلاً بدل أن ينوء بحملها. رائحة الورق ليست مجرد أثرٍ للزمن، بل غطاء دافئ يهمس له:

«ابقَ قليلاً... لن أتركك».

كل كتاب يلمسه يمنحه صحبةً لا تتطلب كلاماً، كأن المكتبة وُجدت لتقول له: ثمة أمكنة تبرا فيها الروح من وحشتها. دائماً ما تذكّره الكتب بأن هناك من يبقى إلى جوارك حتى حين يعجز الجميع عن البقاء.

المكتبة في عينيهِ ليست أكوام أوراق تُقلّب، هي مرايا خفية تكشف ما لا يجرؤ أحد على قوله لك. ورغم صغرها، فإنها تمنحه اتساع العالم، وتذكّره بقدرته على النهوض، وبأن في داخله شيئاً لم يُهزم بعد. هنا، وسط العزلة التي رافقته منذ وطئت قدماه القحمة... وجد ملاذاً يلتقطه من حافة الوحشة.

ومنذ طفولته أدرك أنّ القراءة ليست هرباً، بل شفاء؛ والكتاب، وإن عجز عن فهمه، يفهمه هو. المكتبة صديقه الصامتة التي لا تعاتبه إن غاب، ولا تغلق بابها في وجهه؛ رفيقة ثقيلة الحضور في ليالٍ كان العالم فيها هشاً وخفيفاً.

مرّت عيناه على الجمل كأنها قادمة من زمن بعيد. كم ليلة أنقذته القراءة من الانهيار! وكم صفحة ضمّدت جُرحه قبل أن يستسلم للنوم!

لم يكن النص الذي بين يديه بديعاً، غير أنه حمل دفئاً يشبه
دفع صديقٍ قديم لا يكثر الكلام ومع ذلك يمنح طمأنينة لا تُفسَّر.
تذكّر ليالي الرياض البعيدة، حين أنقذته الكلمات من صمت
البيت، وملأت الحجرة بما يشبه الأنس.

أغلق الكتاب بعد دقائق، ووضعه إلى جانبه، ثم مرّر يده على
غلافه مودعاً صديقاً عاد بعد غياب. مسح الغبار عن كتابٍ آخر
ولم يفتحه. نظر إلى الرفوف معتذراً لكل الكتب التي أهملها، ثم
نهض وألقى على المكان نظرة أخيرة.

ولمّا همّ بالخروج، التفت إلى حسن الورّاق وقال بهدوء:
«شكراً».

رفع الورّاق عينيه عن الدفتر، وأوماً بإيماءة قصيرة، ثم عاد
إلى عمله.
خرج راشد من المكتبة وهو يشعر أن شيئاً ليناً في قلبه عاد
ليزهر.

اتجه راشد إلى السوق يحمل في صدره بقايا دفءٍ خفي،
 كأن الكتب مرّرت يدها على قلبه المكدود. لكن ما إن خطا بين
 الدكاكين حتى أحسّ أن الدفء يتسرّب سريعاً، وأن الأزقة تعيده
 إلى الصمت الذي يعانيه عند كل منعطف. الضوء ينعكس على
 الجدران الطينية فيمنحها شحوباً إضافياً، والأصوات تتعاقب بين
 الباعة والنسوة والأطفال، لكنها لا تبلغ داخله؛ يسمعها كما يسمع
 المرء وقع مطرٍ بعيد لا يبيل الجسد.

وبين بيتين مُتْهالِكَيْن توقّف عند أثر غامض على التراب:
 خطوات صغيرة انتهت عند جدارٍ أملس، وفوق الجدار ثلاث
 نقاط داكنة، كأنها بقع دم جفت منذ أيام، رُسمت بعناية ثم تُركت
 بلا تفسير. لم يكن الأثر عابراً... بل دعوة صامته.

منّاع... الاسم الذي تتناقله القرية همساً أكثر مما تتداوله
 جهراً؛ رجل غريب القسمات، لا يُعرف له جليس، ولا يُرى له
 صديق. يُقال إن زوجته لم ترها عين، وإن الليل في بيته لا يهدأ:
 أصوات تشبه الخصام، وأحياناً ضحكات مجهولة المصدر. ولما
 شاع خبر موتها لم يشهد الناس عزاءً، ولم تدخل نسوة البيت،
 كأنها انطفأت بلا شاهد. لم يبقَ له سوى طفل واحد مُقْعَد،
 ساكن النظرات إلا حين يرسم. ومع ذلك، كان منّاع يظهر في
 السوق بين حين وآخر، يبيع أو يساوم كأي رجلٍ عادي، ثم يغيب
 أياماً كأنما ابتلعتة الأرض.

وقف راشد أمام الجدار، فبدا البيت يترصده؛ النافذة الوحيدة كشفت عن عينٍ يقظة، والستارة خلفها تتحرك رغم سكون الهواء. لم ير حركة واضحة، والصمت يحدّق به.

عند الزاوية ظهر الكلب، هزياً، عيناه تلمعان بترقب غريب؛ تحدّقان فيه ثم تتصرفان إلى جهة أخرى، ل تعودا إليه حاملتين تحذيراً مكتوماً.

ومن طرف الزقاق ظهرت الطفلة؛ لا يُسمع لخطاها وقع، بدت ظلاً خرج من الفراغ. وجهها عابس، وثوبها الملتصق بجسدها يوحي بأنها خرجت تَوْاً من الماء. رفعت ذراعها، إصبعها ممتدة نحو الطرف الآخر من البيت، تفتح له طريقاً غير واضح. مكثت لحظة تنظر إليه، ثم تراجعت بخفة، وغابت بين الجدران، تاركة في داخله رجفة يعرف أنها لن تزول.

خطا راشد نحو البيت، وبدا له الزمن يتباطأ. عيناه على الباب، فيما يستقبل صدره شيئاً آخر: رعشة دقيقة تسري من أطرافه إلى عمقه. انكمشت أصابعه من غير سبب، ثمّة صدى غامض يرتدّ في داخله، ويهتزّ في عروقه محيلاً جسده حجرةً يتردّد فيها طنين لا يسمعه غيره. للحظة رآه نفسه من الخارج: رجلاً واقفاً أمام بيتٍ صامت، وجهه قناع جامد، وداخله يفور بالاضطراب.

بدا الباب أقرب إلى عدسة مطبقة، خلفها حياة كاملة تتحرك خلسة. لم يرسل البيت صوتاً؛ سرّب صورة ناقصة تلقّفتها روحه. أدرك حينها خطأ توهّم الناس بأن البيت مهجور، إنّه مأهول بما لا يُسمّى.

في آخر الزقاق جلس الطفل المشلول على كرسيه؛ جسده ساكن كدمية، والدفتري مفتوح على ركبتيه. تقدّم راشد بخطوات مترددة، ورفع الطفل رأسه ونظر إليه نظرة لا تقول شيئاً، لكنها تُشعره أن الصفحة المفتوحة ليست ورقة، بل بابٌ فُتح له وحده. لم ينطق الطفل، بل مدّ الصفحة نحوه كأنه يقدم اعترافاً صامتاً، باللغة الوحيدة التي يعرفها.

رأى راشد رسمة جبل غريب؛ لا يشمخ نحو السماء، بل ينكفي على نفسه كأنه يزود عما في أحشائه. في وسطه فجوة تشبه باباً غائراً، وفوقه سمكة معلّقة في الهواء، على رأسها ثلاث نقاط بارزة، كأن يداً مرتعشة حفرتها بإصرار.

رفع الطفل إصبعه المرتجفة، وأشار إلى الجبل، ثم إلى النقاط الثلاث، ثم إلى صدر راشد. كانت الإشارة أثقل من الكلام، وشعر أنها تكليف غامض لا يقبل التأجيل. بعدها حرّك إصبعه نحو الجنوب، حركة بطيئة لكنها قاطعة، كأنه يرسم له الطريق. لم ينطق بكلمة، لكن المعنى اندفع إلى داخل راشد كجمرة تستقر في العمق ولا تُطفأ.

أطال راشد التحديق في عينيه. همّ بالكلام فعَقَدَ الصمتُ لسانه. انحنى انحناءً مودع يوقن باستحالة اللقاء. وحين استدار، اختلس نظرة أخيرة: الطفلُ وادعُ في مقعده، بينما الصفحة تهتز تحت أصابعه.

وعند خروجه، وجد الكلب ما يزال في الزاوية، لكن هيئته تبدّلت؛ قامته مشدودة، شعره نافش، وعيناه تومضان بصلاية غريبة. لم ينبح، بل خرج منه صوت غليظ، ثم استدار فجأة وثبّت

نظره نحو الجنوب. تراجع راشد خطوة، وشعر أن الجهة التي حدّق فيها الكلب بدأت تتحرك في أعماقه، وأن الجبل المرسوم صار أقرب مما ينبغي.

مضى يجرّ خلفه شيئاً لا يريد أن يصاحبه. ولم يعد الجنوب جهة على خريطة، بل ظلاً ينهض في داخله ويتقدّم نحوه بصبر لا يلين. لم يكن يعرف علامَ يدعو، لكنه أدرك أن الطريق لم يعد ملكه منذ تلك اللحظة... وكان هذا أكثر ما أخافه.

تهادى راشد بين الأزقة حتى بلغ بيت جدّه. كان مثقلاً بما رآه: بيتٌ منع الموحش، والطفلة المبللة، والكلب الذي أشار إلى الجنوب، والجبل المنطوي على نفسه فوق الورقة. أغلق الباب خلفه وجلس على الفراش، وأسند ظهره إلى الحائط.

أغمض عينيه بقوة ليمحو هذه الصور قسراً، وما إن فتحتها حتى وجدها أوضح: بيتٌ منع يلعب في ذاكرته كشاهدٍ صامت، والطفلة التي أشارت نحوه كأنها خرجت من بطن الأرض، والكلب بعينه الواسعتين يتعقبه، والجبل الذي يكتُم سرّاً، والسمكة المعلقة في الهواء، والنقاط الثلاث التي انغرزت في صدره.

حاول أن يتذكّر شيئاً آخر فلم يستطع. تمتم بصوت مبحوح: «الجنوب... لماذا الجنوب؟»

مسح وجهه براحة يده وتمدد على ظهره. تقلب قليلاً قبل أن يغلق عينيه. لم يكن نومه أهدأ من يقظته: بحرٌ بلا شاطئ، وقع خطوات في بيتٍ لا يعرفه، ورجفة لا يجد لها تفسيراً.

وفي بيتٍ آخر عند طرف القرية، كان الليل أثقل من أن يُحتمل؛ الجدران متشققة، والرائحة الرطبة عالقة في الممر الضيق، والظلال تتمدد كأنها تطيل إقامتها عن عمد. جلس مناع على حصير في صدر المجلس، جسده متيبس، ويداه متشابكتان فوق ركبتيه، وعيناه مفتوحتان على العتمة، شاخصتان كأنهما تنتظران حدثًا لا يأتي. لم يبدُ أنه يستعد للنوم؛ فقد صار النوم غريبًا عن هذا البيت منذ زمن.

من الحجرة المجاورة جاء صوت: خريشة على ورق. لم يكن صوت كتابة عادية، بل خشنة، متقطعة، تقف فجأة ثم تعود، كأن اليد الصغيرة التي تمسك القلم بالكاد تقوى على سحبه... لكنها لا تتوقف. كان الصوت يجرح الصمت بخطوطٍ حادة.

أطبق مناع كفيه بقوة حتى ابيضت مفاصله، وضغط أسنانه وهمس: «يكفي... يكفي».

لكن الصوت لم ينقطع: خطٌ قصير، ثم سكون، ثم خطٌ آخر أثقل وأبطأ، ثم عودة من جديد. لم يكن شغب أطفال، بل إصرارًا غريبًا على رسوماتٍ لا تفهم.

نهض متناقلاً يجرّ قدميه نحو باب الحجرة. وقف عنده ولمس المقبض، فهزت أصابعه رجفة مفاجئة، فسحب يده وتراجع خطوة، وقلبه يخفق أسرع مما يريد الاعتراف به.

عاد إلى مجلسه؛ لم يجرؤ على رؤية ما يجري في الداخل. أسند رأسه إلى كفيه، وحاول أن يتنفس بعمق. منذ جاء الطفل وهو لا يراه ولدًا له؛ لم يسمع منه كلمة، ولا ضحكة. لم يره إلا جالسًا على كرسيه، يحدّق في أوراقه، ويترك الخطوط تتراكم

وتتراكم. لم تكن رسوماته تشبه رسومات الأطفال، بل صفحات
مفعمة بأشكال لا اسم لها.
مرّت في ذهنه فكرة قاسية: أن يقتحم الحجرة، ينتزع الدفتر
من يديه، ويرميه في النار.
تخيّل الأوراق تشتعل والرسومات يلتهمها اللهب. شعر لثانية أن
ذلك هو الخلاص الوحيد.. إلا أنه لم يتحرك؛ ثبتت يداه، كأن قوة
غامضة تشدهما إلى الأرض.
أطبق الليلُ بصمته الثقيل على القحمة. وحده صرير القلم
شَقَّ السكون، باعثًا قلقًا غامضًا في النفس.
بيتٌ صامت، ورجلٌ لا ينام، وطفلٌ يرسم.. ويرسم.. ويرسم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شجن

استيقظ راشد على ضوءٍ يتسلل من أطراف الستارة، كأن الليل لم يكتمل رحيله بعد .

رفع رأسه عن الوسادة، وشعر بثقلٍ يضغط جسده من أثر السهر، وبعينين مثقلتين ببقايا الصور التي داهمته في نوم مضطرب . مدّ يده إلى صدره، تنفّس بعمق، ثم جلس على طرف الفراش . لم يسمع في البيت سوى صفيحٍ خافت يتسرّب من الشقوق، وقطرات ماءٍ تتساقط من سقف أنهكه مطر الباردة . نظر حوله؛ الحجرة كما تركها: الستارة تهتزُّ برفق، الصندوق راقد تحت الخزانة، والملامح غارقة في سكون يشبه الانتظار الطويل .

نهض مترنّحًا واتجه إلى الحمّام . فتح الصنبور فصدر صوتٌ خفيف قبل أن يتدفق الماء . انحنى وغسل وجهه، وشعر بحرارته تتكمش تحت الماء البارد، ثم نظر في المرآة وتأمل انعكاسه: وجهٌ شاحب قليلًا، عيان متعبتان، وفي غمقهما أثر قوة خفية كأن شيئاً فيه استيقظ قبله . مسح وجهه بمنديل وعاد إلى الحجرة . ارتدى ثوبه، وعدل طيّات الكمّين، ثم أخذ شماغه عن المشجب ووضع على كتفه وخرج إلى الفناء . وقف عند الباب لحظة تردّد؛ في داخله رغبةٌ في البقاء .. وخوف .

فتح الباب، فاندفعت نحوه رائحة الأرض بعد المطر . مشى في الممر حتى تجاوز العتبة، والقرية تستقبل نهارها بتروّ .

كانت السوق تستفيق بهدوءٍ أقرب إلى التهيدة منه إلى الصخب: أبواب تُفتح، وأيدي تكتس الغبار من أمام الدكاكين، ورجال

يرفعون الأغطية عن بضائعهم. من بعيد ارتفع دخانٌ خفيف من
تَوَّر الخَبَّاز، وجاءت من الجهة الأخرى نفحة دهن عود.
عند المدخل وقف رجلٌ يفرش سجادته، وأمام دكان العطار
صبِيٌّ يرتَّب زجاجات العطور في صفوفٍ دقيقة. لم يكن الضجيج
حاضرًا، بل إيقاع حياة بسيطة تتنفس بوتيرة هادئة، كأن القرية
برمتها تنهض على نغمة واحدة.

وقف راشد يتأمل السوق كأنه يراها للمرة الأولى. في كل
تفصيلٍ كان يشعر أن الحياة تتابع دورتها من دونه، كأنها لم تلحظ
غيابه. أحسَّ بشيء بين الحنين والخذلان؛ كل شيء يتحرك بهدوءٍ
مطمئن، ومع ذلك شعر بأنه غريبٌ بينهم، وأن هذه الطمأنينة
اليومية هي أغرب ما يمكن أن يواجهه بعد ليالٍ مثقلة بالاضطراب.
ومع كل تلك الغرابة... أحبها؛ أحب أن يكون غريبًا بين أناسٍ
ينهضون لأسباب صغيرة.

اقترب من شيخ مسنٍّ يحاول رفع صندوق إلى سيارته. تقدَّم
راشد وأمسك بالطرف الآخر دون أن يقول شيئًا. قال الشيخ وهو
يلهث: «جزاك الله خيرًا يا ولدي... الناس تمر من هنا، لكن لا
أحد يتوقف». ابتسم راشد وقال: «ربما لم يستيقظوا بعد بما
يكفي». ضحك الشيخ وهز رأسه شاكرًا، ثم مضى في طريقه.
جلس راشد على دكة قرب دكانٍ مغلق، وضع كفه على ركبته،
وأخذ يراقب حركة السوق كمن يصغي إلى لحنٍ خافت. أمامه
عجوزٌ تبيع السواك، ترتب عيدانها فوق قطعة قماشٍ كأنها تعيد
النظام إلى فوضى الحياة، وإلى جانبها طفل يحاول موازنة عصا
على إصبعه، ثم يسقطها ويضحك على نفسه.

أغمض راشد عينيه لحظة؛ الأصوات من حوله تتداخل: بائع ينادي، امرأة توبّخ ابنها، ضحكة قصيرة، جملة تنقطع في منتصفها. كل شيء يتحرك، لكن الحياة بدت له كأنها تتظاهر بالحركة لتخفي سكوناً أعمق.

ثم سمع الصوت. لم يكن صراخاً ولا نداءً، بل همساً صافياً عبر الهواء، كأن الريح تلفظه: «في بطن الساحر سرّ دفين». انتفض. تلفّت حوله؛ الناس تبيع وتشتري وتضحك... والصوت لم يسمعه سواه. التفت إلى رجل يجلس بجانبه وسأله: «هل سمعت صوت امرأة؟»

رفع الرجل حاجبيه بدهشة: «امرأة؟ لا... كل ما أسمعه نداءات الباعة».

هزّ راشد رأسه صامتاً، ونهض الرجل ومضى.

أعاد الجملة في داخله؛ الآن تُنطق بصوتٍ يعرفه. لم يكن شكاً، بل يقيناً: إنه صوت نورة. صعد الاسم في صدره كأن أحداً همس به عند قلبه. شعر بوخزة بين أضلعه. هو وحده يعرف نورة، سمعها ورآها من قبل، ولم يحدث أحداً عنها.

في تلك اللحظة مرّت فتاة ترتدي عباءة سوداء، بين يديها كتاب تمسكه كما لو كان سرّاً تخفيه. لم ينتبه إليها؛ كان بصره شاردًا خلف حدود السوق. رفعت رأسها نحوه لحظة قصيرة، كمن تلتقط ملامح غريبة مألوفة، ثم أنزلت نظرها ومضت.

لم يلحظها، ولم يعرف أن مرورها الخاطف سيبقى معلقاً في الهواء من حوله.

كانت خطواتها خفيفة، تمضي بلا استعجال، كأنها تمشي في زمن يخصّها وحدها.

كانت شَجَن.

ظهرت كما تظهر العلامة الأولى في الحكايات: بلا مقدمة، وبلا ضجيج... تمرّ وتترك خلفها بداية لا أحد يعرف متى بدأت. أمّا راشد، فغرق في أفكاره، يبحث عن معنى آخر، ولم يدرك أنّ لحظةً عابرةً كهذه ستغير مجرى حياته.

نهض كمن يفرّ من جسده، ومضى بلا وجهة واضحة. وبينما يتجوّل بين الدكاكين ساقته قدماء نحو دكان العطار.

كان المكان مشبعاً بروائح الحلبة والورد والقرنفل والزعتر، والضوء يتسلّل من فتحة في السقف فيخبطّ على الأرفف خطوطاً ذهبية. عند الباب وقفت امرأة تقلّب علبة صغيرة في يدها، وإلى جوارها فتاة تنظر إلى قوارير العطر. قالت الفتاة هامسة: «هذا هو راشد».

رفعت الأم نظرها إليه وابتسمت ابتسامة دافئة، كمن يلتقي ابناً غاب طويلاً: «السلام عليك يا ولدي. أنت راشد؟ ابن جواهر؟» أجاب متردداً بلطف: «نعم. أنا هو».

قالت وقد ارتسم الحنين في صوتها: «كنت تأتي مع أمك إلى هنا، وكنت تجلس على العتبة تلعب بالحصي».

ابتسم وقال: «كانت تحب السوق.. وكنت أحب مرافقتها».

تنفّست المرأة بعمق وقالت: «رحمها الله. سمعت بخبرها من أبي فارس. حزنت عليها.. كانت طيبة القلب».

التفتت أمانى، رمقته لحظةً قبل أن تعيد بصرها إلى الرفّ.

قالت الأم: «أمانى، ما رأيك في هذا العطر؟»

أجابت بنعومةٍ خجولة: «كأنّه ثقيلٌ بعض الشيء».

قال راشد، على سجيّته: «جَرّبي الذي على اليمين... رائحته أخفّ».

رفعت أمانى عينيها نحوه نظرةً عابرة، ثمّ تناولت العلبة.
قال العطار من خلف الطاولة: «الحساب عشرة ريالاً».
مدّ راشد يده ودفع المبلغ قائلاً: «تفضّل».
قالت الأم معترضة: «لا يا ولدي، لا يصحّ».
ابتسم وقال: «لو كانت أُمي هنا لقلت: لا تردّي الطيّب».
ضحكت المرأة ضحكةً حانية، وقالت: «الله يذكرها بالخير،
كانت كريمة حقاً».

ساد صمتٌ خفيف لم يقطعه إلا خشخشة الزجاجات حين
أعادها العطار إلى مكانها. ثم قالت الأم: «أمانى، هيا.. تأخرنا».
خرجتا معاً، فيما راقب راشد خطواتهما عند العتبة.
لم تكن خطوات أمانى سريعةً ولا بطيئةً، لكنها حملت معنى لا
يُفصح عنه، كأن كلّ خطوةٍ تهمس للأرض: أنا هنا.
تبعها راشد ببصره حتى غابت، وفي داخله خفقٌ لا يعرف
سببه. لم يكن يدري أنّ هذا الصباح -على بساطته- جمع له ما
لم تجمععه الليالي: صوت نورة يلوح من الغيب، ظلّ شجن الذي مرّ
كضوءٍ عابر، وخطوات أمانى التي خلّفت في القلب أثراً رقيقاً.
ابتسم وهمس لنفسه: «حتى العادي في هذه القرية لا يكون
عاديّاً».

كان الضوء يشتدّ في السوق، فيما يعود صدى الجملة إلى
صدره همساً بعيداً: في بطن الساحر سرّ دفين.

مال النهار نحو انطفائه البطيء، والضوء الأخير ينساب على الجدران الطينية فيمدها بلونٍ نحاسيٍّ. والسوق خلف راشد تهدأ كصدرٍ أضناه الكلام.

خرج كما يخرج المرء من فكرةٍ لم تكتمل؛ محملاً بأصواتٍ تتقاطع في رأسه ثم تتلاشى، وبجملٍ نُطق نصفها وضاع نصفها الآخر في الزحام، وبعطيرٍ لم يعلق بأنفه بقدرٍ ما استقرّ في ذاكرته.

لم يكن في حديثه مع أماني أو أمّ فارس ما يمكن القول إنه غيّر، بيد أن في داخله رعشةٌ لم يعرف لها سبباً، كأنّ الصمت الذي نشأ بينه وبين أماني اتخذ وزناً خاصاً.

مرّ راشد بينها بخطى وثيدة، يسمع حفيف الريح وهي تمرّ من دون أن تدخل. في السماء شيءٌ من تعب النهار، وفي صدره شيءٌ من الأسئلة التي لم تنضج بعد.

عند الزقاق المؤدّي إلى المسجد خفتت الأصوات حتى كادت تنعدم. الطين رطب تحت قدميه، ورائحة التراب تغمر الهواء. تلفت حوله فرأى الإمام مساعداً جالساً عند العتبة، بثوبه الأبيض وشماعه المرتّب؛ حضورٌ يحاكي القدر لا العادة. يكسو الهدوء وجهه بلا شدة أو لين، وتترقب عيناه من يحتاج إلى الكلام.

قال الإمام بصوتٍ واثقٍ مطمئن: «السلام عليكم يا راشد».

أجابه مقترباً: «وعليكم السلام ورحمة الله».

ابتسم الإمام وقال: «لم أتوقّع أن أراك في هذا الوقت».

قال راشد: «ولا أنا... مررت من هنا مصادفة».

قال الإمام: «ما الذي يشغل بالك يا ولدي؟»

جلس راشد إلى جواره دون استئذان، وظلَّ لحظة صامتين، ثم

قال: «أتؤمن بأن الأمكنة تتذكّر من مرّ بها؟»

أجاب الإمام محدّقًا في الأفق: «ليست الأمكنة من تتذكّر، بل

ما وقع فيها هو الذي لا ينسى».

قال راشد: «أشعر أنّ القرية تنتظر مني شيئًا لا أعرفه، لكنني

أحسّه في كل جدارٍ أنظر إليه».

ابتسم الإمام وقال: «ربما لأنك لم تعد عابرًا، بل شاهدًا».

«شاهدًا على ماذا؟»

«على ما لن يُقال لك إلا حين تتضج بما يكفي».

أطرق راشد رأسه. فأضاف الإمام بصوتٍ خافت، كأنه يحدث

نفسه: «بعض القرى تُتجب الصمت، لكنها لا تغفر لمن يكسره».

عَلِقَت الكلمات بينهما؛ يختبرها صدر راشد قبل أن يعيها.

نهض بعد قليل وقال: «أستاذنك يا شيخ».

قال الإمام وهو باقٍ في مكانه: «امضِ يا ولدي.. فبعض الطرق

لا تُفتح إلا حين تمشيها مرتين».

تركه راشد وسلك الطريق الجانبي المؤدّي إلى الحارة القديمة؛

بيوتٌ أشدَّ صمتًا وأقلَّ نظامًا، وضوءُ الشمس عليها يتضاءل شيئًا

فشيئًا. أصوات الأطفال التي ملأت الأفق قبل قليل خمدت. مرّ

بعجوزٍ تطلُّ من نافذةٍ ضيقة؛ كانت نظرتها ثابتة كأنها تعرفه،

لكنه لم يتوقف.

عند الزاوية ارتفع بخار خبزٍ دافئٍ من فرنٍ صغيرٍ؛ رائحته
لامست قلبه لا معدته، وأيقظت فيه إحساسًا بالوحدة لا بالجوع.
وبينما يمشي، سمع صوتًا مبحوحًا متقطعًا: «يا بحر... يا بحر،
أما شبت بعد؟»

توقّف وأنصت، ثم اقترب. كان الصوت لرجلٍ جالسٍ على
الأرض؛ ثوبه مغبّر، شعره أشعث، ووجهه كوجهٍ من قاوم النوم
أعوامًا.

قال الرجل بصوتٍ أوضح: «أخذت ما تريد... فماذا بقي؟
أتريدني؟ لم أعد أملك شيئًا».

كان ذلك جابر؛ الرجل الذي يسمّونه المجنون. غير أنّ صوته
لم يكن صوت مجنون، بل صوت من تكلم أكثر مما ينبغي، ثم
نجا بجنونٍ من الجنون. اختبأ راشد خلف الجدار، يسمع أنفاسه
ويصغي.

قال جابر بصوتٍ خافتٍ، كأنه يستعيد ذكرى ترفض أن تُدفن:
«قالوا لي: اسكت... لكنني قتلها. قلت ما لا ينبغي أن يُقال. وما
إن نطقتها تغيّر كل شيء. الأعين مفتوحة لا ترمش... أنا الذي
ناديتهم فلم يُجب أحد. ومن يناديهم بعد الخراب... يسمع اسمه
وحده يردّ عليه».

ثم خفض رأسه، وأخذ يتمتم بما يشبه دعاءً مكسورًا؛ كلمات
خرجت من موضعٍ أعمق، يتردّد صداها بين البكاء والهمس، كأنه
يخاطب فراغًا يعرف جيّدًا مَنْ غاب عنه.

عند تلك اللحظة مرّ الكلب؛ عيناه تلمعان كأنهما تدركان ما
يجري.

تقدّم بخطواتٍ هادئةٍ نحو الظلّ، وتوقّف عند الجدار، ثم أطال النظر إلى راشد قبل أن يحوّل بصره إلى جابر. مكث لحظةً يشمّ الأرض، ثم رفع رأسه فجأة، وخرج منه أنينٌ خافت أقرب إلى تحذيرٍ مكتوم منه إلى نباح.

لم يلتفت جابر، وقال بنبرة عميقة:

«الريح لا تنسى.. والبحر لا يرضى إلا بما يوجع. نسيتم من بدأ، لكن البحر لم ينسَ من تأخّر».

تجمّد راشد، تتردّد العبارة في صدره كوقع حجرٍ في ماء راكد. قال في نفسه: «إن كان هذا جنوناً.. فهو الجنون الذي يعي أكثر منّا جميعاً».

ثم مضى مبتعداً، والكلب يسير خلفه على مسافةٍ ثابتة؛ لا يقترب ولا يبتعد، كأنما يرافقه ليشهد معه ما سيأتي.

عبر راشد الجهة الخلفية من السوق حتى بدت له المكتبة. الملتصقة بالمقهى. لم يكن يقصدها، لكن شيئاً في داخله كان يدفعه إليها دفعاً؛ الأصوات التي سمعها قبل قليل لم تهدأ، بل كانت تُمهّد له الطريق.

توقّف عند الباب، وقلبه يخفق بخفّةٍ غريبة؛ مزيج من خوفٍ وفضولٍ لا يعرف منبعه. كان الباب مغلقاً. أدار المقبض... ودخل. لم يكن يدري ما الذي ينتظره، لكنّه أحسّ أن أول ما سيواجهه لن يكون كتاباً، بل أعيناً تنتشله من دوّامته.

دلف راشد إلى المكتبة كأنه يُستدرج إليها دون وعي؛ فتحت له الباب قبل أن يستأذن. لم ينو الدخول، ولم يُخطّط لذلك، ولم يفكر حتى؛ وجد نفسه يتخطى العتبة مستنشقا هواءً مُشبعاً برائحة الورق والغبار، فيما تسَلَّ ضوء المصابيح الأصفر الخافت بين الرفوف، راسماً على الجدران ظلالاً متراقصة. كانت الرفوف مائلة قليلاً من ثقل الكتب؛ أضناها حمل الحكايات.

غير أنّ هذا المساء لم يشبه الأمس؛ اليوم كانت هنا. لم يلحظها أول الأمر؛ لمح فقط هيئة فتاةٍ عند الرف الجانبي، مائلة الرأس نحو الكتب تُصفي إليها. وقفت بثباتٍ ناعم، منتمية إلى الكتب أكثر مما تنتمي إلى البشر. عباءتها السوداء بلا زخرفة، وحركتها الوئيدة، وهيبتها الهادئة، كلها كانت تزيدها عمقاً غامضاً. ومن تحت حجابها انسدل طرفٌ من شعر بنيّ على كتفها، في انسجام مع السكون الذي يحيط بها، كأن الليل استعاره لحظةً ليُتمّ به ظلاله.

في تلك اللحظة دخلت فتاةٌ أخرى تحمل كتاباً وتبتسم. توقفت عند الباب ثم نادى بنبرةٍ مرحة: «شجن! انظري إلى هذا العنوان... أظنك ستُحبّينه».

سمع راشد الاسم فتوقف في مكانه، كأن شيئاً مسّه على غفلة..

«شجن؟» ردّها في داخله.

انساب الاسم في أذنه ثم رسخ في ذاكرته، مألوفاً على نحو لا يدرك سببه، قريباً منه كأنّ صدى قديماً بعثه من غياهب النسيان. شعر بأن المكان كله هدأ، وكأنّ الرفوف والجدران تنتظر منه أن يهمس بالاسم مرةً أخرى.

التفتت شجن نحو رفيقتها، نظرت إلى الكتاب، قالت شيئاً لم يميّزه، ثم ضحكتا معاً. وضعت الفتاة الكتاب أمام الورّاق، تبادلت معه بضع كلمات، ثم ودّعت شجن وغادرت.

مرّت شجن بجانبه دون أن تلاحظ وجوده، لكنه أحسّ أنّ العالم في داخله تبدّل. الاسم، والملامح، والصمت الذي يطفو فوق عينيها العسليّتين... كلّها بدأت تتغلغل في قلبه دون استئذان. اقترب بخطى هادئة من رفّ جانبي، التقط كتاباً لم يقرأ عنوانه، وراح يقلّب صفحاته بشرود. كانت شجن على مقربةٍ منه، تتحسّس غلاف كتابٍ بأطراف أصابعها كما لو تلامس نبض كائن حيّ.

ومن الجانب بدا وجهها صورةً من زمنٍ عتيق؛ جمالٌ يصعب وصفه، وفي عينيها تقيم حكاية لم تُكتب بعد.

لم تلتفت إليه، ولم يُطل النظر إليها، ومع ذلك شعر أنّ المكان تبدّل منذ أن رآها.

مرّت لحظات صامتة، ثم تقدّم قليلاً نحو الطاولة، وقال بنبرة منخفضة: «أبحث عن كتاب الذين حملوا الأرض على أكتافهم».

وقبل أن يجيبه الورّاق، جاء صوتها من خلفه، واضحاً واثقاً: «أظنّه في الرف القريب من الباب... الصف الثالث. كان هناك آخر مرة».

التفت نحوها، فرأى وجهها كاملاً لأول مرة. توقّف الزمن في عينيه لحظةً خاطفة. كل ما قرأه عن الجمال بدا عاجزاً عن وصف حضورها؛ كانت مزيجاً من ضوءٍ خافت، وحزنٍ نبيل، وهدوءٍ يشبه المرايا القديمة التي لا تعكس ملامح الوجه بل تومض بما يحمله القلب. قال مبتسماً: «غريب أن يعرف أحدٌ موضع الكتاب قبل أن يعرف من يبحث عنه».

رمقته ثم قالت: «بعض الكتب لا تنتظر من يفتش عنها، بل تبحث عمّن يُشبهها».

ساد بينهما صمتٌ رقيق، قبل أن يقول وهو يقلّب الكتاب بين يديه: «وهل تُشبهنا الكتب؟ أم نحن من نسعى لنُشبهها؟»
لم تُجب، لكنّ ابتسامةً خفيفةً انعكست في عينيها، كأنها تُفكّر في السبب الذي دفعه إلى قول ما قال. عاد راشد إلى مكانه، جلس على الكرسي وفتح الكتاب على صفحةٍ عشوائية دون أن يقرأها، مركّزاً في السطور بينما عقله يسبح في الفراغ الممتدّ بينه وبينها.

في الزاوية القريبة من النافذة جلست شجن على مقعدها المعتاد، يتدلّى ضوءُ الفانوس على كتابها. قلبت الصفحات، وفكّرت: «كيف لم أراه من قبل؟»

ثم تذكّرت أنها لمحتة قبل أقل من ساعة، جالساً عند جدار السوق، شارد النظر كأنّه غارق في عالم آخر. مرّت بجانبه حينها، نظرت إليه بطرف عينيها، ثم واصلت طريقها دون توقّف. ساد صمتٌ رقيق، اختلط فيه أزيز المروحة بتكات الساعة المعلقة على الجدار. نهضت شجن، حملت كتاباً،

دفعت ثمنه، شكرت الورّاق، واتجهت نحو الباب. ولما مرّت بجانبه، توقّفت لحظة، ونظرت إلى الكتاب بين يديه وقالت: «هذا الكتاب... نهايته ليست سعيدة».

قال راشد دون أن يرفع رأسه: «وهل السعادة شرطٌ للنهاية؟»
تبسّمت ومضت. خرجت وأغلقت الباب خلفها بوقار لم يُطفئ أثر حضورها في المكان.

تَسَمَّرَ راشد؛ الكتابُ بين يديه، وكلماتها تتردّد في أعماقه. لم يُمعن في الصفحات، بل غاص في تأمل الغلاف، كأنّ عينيه تبحثان عمّا لم يُكتب. مرّت لحظة.. ثم أخرى.

في الداخل خفت نور المصابيح، وتمدّدت الظلال رويداً. تسلّل صوتُ المروحة من السقف كهمسٍ بعيد، وعاد إليه الشعور: ورق، وغبار، وأثر فتاةٍ تركت بعضَ الكلام عالقاً في صدره.

رفع نظره إلى الورّاق وسأله: «هل تأتي كثيراً؟»

أجابه: «كل يوم.. عند المساء.. تفتح كتاباً وتُغلق العالم».

ابتسم ثمّ أجالّ النظر في الرفّ الذي كانت تقف عنده. لم يكن يختلف عن سائر الرفوف بشيء، إلا أنها كانت فيه. نهض، أعاد الكتاب إلى مكانه، وتوقّف أمام كتابٍ آخر، قلب صفحاته الأولى، ثم أعاده بصمت. ولما همّ بالخروج، رفع الورّاق رأسه عن الكتاب الذي بين يديه، فاكتفى راشد بإيماءٍ خفيفةٍ، وردّ الورّاق بابتسامة مطمئنة.

وحين خرج، لامسته نسمات الليل، كأنه يغادر قصةً قصيرة.. بدأت للتوّ.

تسرّبت العتمة بين بيوت القحمة مثل حبرٍ يسكب على الورق.
الهواء مثقلٌ برائحة الحطب والبحر. ومن بعيد، تنهت أصوات
النساء تُغلق النهار بطقوسٍ مألوفة، فيما استعدت القرية لسباتٍ
عميق.

وفي قلب الأزقة، انتصب بيتٌ بلون رملي، تحفه أشجار
السدر، ويُفضي بابه إلى ممرٍّ طويل يقود إلى فناءٍ داخلي تُحدّق
به الغرف. إنه بيت أبي فارس؛ رجلٌ قليل الكلام، غير أن الصمت
في حضرته يتحوّل إلى ما يشبه الاعتراف. في هذا المساء كانت
أمانى قد عادت من السوق مع أمّها مثقلة بما رآته هناك.

فمنذ أن وقع بصرها على راشد، اضطرب في داخلها شيءٌ لم
تعرف له اسمًا؛ رعشة أولى تلتها ارتداداتٌ خفيّة لا تزال تسري
في أطرافها حتى اللحظة. دخلتا البيت فوجدتا ساكنًا كعادته
كل مساء؛ لا حركة، ولا ضجيج، ورائحة البخور ما تزال عالقة
في الزوايا. وفي المجلس كان أبو فارس يرتشف شايه بملامح
ثابتة توحى بانتظارٍ ما، وأمامه طاولةٌ عليها مبخرة خامدة وبعض
الأوراق القديمة المصطفّة بعناية، كأن كل شيءٍ في المكان مرسومٌ
بإرادة هادئة.

دخلت أم فارس، وأمانى تتبعها بخطى واهنة. جلست الأم في
الجانب المقابل، وأخذت تفرك كفيها بدهن العود كما اعتادت كل
مساء، وفي نظرتها قلقٌ مكتوم.

قال أبو فارس من غير أن يرفع عينيه عن الكوب: «هل كانت السوق مزدحمة؟»

أجابت أم فارس بنبرةٍ متردّدة: «كالعادة.. لكننا رأينا شخصاً لم نتوقّع رؤيته».

رفع بصره، كأنه يعرف مُسبقاً مَنْ تعني: «من؟»
قالت: «ابن ناصر».

ساد صمتٌ قصير. كانت أمانى تحدّق في الأرض، تعبت بطرف عباءتها، كأنها تخشى أن تنطق فتشفي بما لا تريد كشفه.
قالت أم فارس وهي تمسح جبينها بالمنديل: «كان يسير وحده.. بلا وجهة».

فقال أبو فارس وهو يضع الكوب جانباً: «أثقل ما في العودة أن تعود بلا جهة».

تمت أمانى بصوتٍ خافت: «ملاحه لم تتغيّر».

رمقها أبوها بنظرةٍ حادّة وسأل: «وكيف عرفت ملاحه؟»
احمرّ وجهها خجلاً، فنهضت مسرعة نحو حجرتها، تاركةً خلفها سكوناً كثيفاً خيم على المجلس. في تلك اللحظة دخل فارس، وعلى وجهه ظلّ تعبٍ مزمن، والليل ما زال مقيماً في عينيه منذ زمنٍ. تربّع على الأرض وقال وهو يضغط على فخذه: «رأيتُه».

رفع أبو فارس رأسه إليه وحدّق في ملاحه طويلاً ثم قال: «رأيتُه أنت أيضاً؟ كيف بدا لك؟»

قال فارس: «مرهقاً. منشغلاً بنفسه أكثر من الناس».

سأل الأب بعد برهة: «هل قال لك شيئاً؟»

أجاب فارس: «لا. لكنه بدا كمن يريد أن يقول».

خَيْم الصمت مجدداً . لم يشأ أحدٌ أن يفتح باباً آخر للتأويل،
فالصمت في هذا البيت قانونٌ لا يُجادَل.

في ناحيةٍ أخرى من القرية، حيث يسري السكون كنسمةٍ رقيقة
بين رفوف الكتب، وحيث الغرف لا تُغلق على الأسرار، كانت شجن
تفتح باب عالمها من غير أن تدرك أن لقاءً عابراً بدأ يحرك شيئاً
خامداً في أعماقها .

الطريق إلى بيتها لم يكن طويلاً، غير أنه بدا ممتداً هذه
المرة . فمنذ خرجت من المكتبة، وكلّ ما فيها يهمس: لقد كان
هناك . الرجل الذي وقف عند الرفِّ وتحدّث، ثمّ نظر إليها نظرة
لم يسبق لأحدٍ أن منحها إياها . كانت تمشي وصدرها يضطرب
بارتباكٍ وادعٍ، كأنها تخشى أن تلتفت إلى ما تبدّل فيها منذ لحظة
لقائه .

فتحت باب البيت، فاستقبلتها رائحة الكتب؛ تتقدّمها بخطوة
كأنّها تعرف موعد وصولها . لم يكن البيت كبيراً، لكنه دافئٌ
وبسيط، يشبهها في سكونه . مرّت أمام حجرة أمّها، وصوت
المذياع يتسرّب خافتاً من خلف الباب . لم تطرقه؛ فقد اعتادت
أن تجدها مستلقيةً في المساء، بعيدةً عن الأسئلة، قريبةً من
صمتها الذي ارتضته ملاذاً .

وضعت حقيبتها على الكرسي، ونزعت عباءتها، وقبل أن تفتح
دفترها سمعت طرقاً خفيفاً على باب حجرتها . فتحت... فإذا
بمنيرة واقفة عند العتبة، تحمل في يدها حقيبة صغيرة تضمّ
بعض الكتب .

ابتسمت منيرة وقالت: «تأخرت».

فأجابتها شجن وهي تفسح لها الطريق: «المكتبة اليوم لم تكن كعادتها».

دخلت منيرة وجلست على الفراش قائلة: «وما الذي قد يتغير فيها؟»

جلست شجن قرب مكتبها الصغير بمحاذاة النافذة وقالت: «ربما أنا التي تغيرت».

كانت شجن تعرف منيرة منذ الطفولة؛ جارتها الأقرب، وصديقتها التي ترافقها كظلّها. لم تكن كثيرة الكلام، لكنها تحفظ ما يُقال كما يحفظ الورق أثر الحبر. تحب القراءة، وتختار الكتب التي تترك أثراً عميقاً في القلب، وتقول دائماً إن الفوضى التي في الكتب أصدق من النظام الذي في الناس. وشجن تعلم أن هدوء منيرة ليس طبعاً، بل نتاج خوفٍ قديم؛ خوفٍ من الفقد، وخشيةٍ من انكشاف ملامحها حين تبوح.

ساد الصمت بينهما لحظةً قصيرة؛ كانت منيرة تتأمل صديقتها بعينيها الهادئتين، لا تسأل ولا تعلق، فيما كانت شجن تمسك القلم كمن يقبض على طرف فكرةٍ لا يعرف إلى أين ستقوده.

في تلك اللحظة، تسلّلت القطعة لجين إلى الحجرة بخفّة، قافزةً من العتبة إلى الداخل بخطوات حذرة كعادتها. كان لونُها الرماديّ المائل إلى الفضي يزداد لمعاناً تحت ضوء الفانوس، وعيناها الخضراوان تشعان ببريق حيّ. عاشت مع شجن منذ بضع سنين؛ جاءت إليها هزيلةً في ليلةٍ ماطرة، وقد كاد البرد ينهش جسدها الصغير. ومنذ ذلك المساء صارت ظلّها القريب، تعرف ساعاتها، وتفهم صمتها وحزنها وسعادتها.

ربضت لُجَيْن تحت الطاولة، ثم وثبت فوقها وتمدّدت قرب الدفتر، تتابع حركة يد شجن وهي تقبض على القلم. مدّت شجن يدها تمسح على رأسها، وقالت مبتسمة: «حتى أنتِ لاحظتِ أنني لست كما كنت». فأطلقت لُجَيْن مواءً خافتاً بدا كإقرارٍ لطيفٍ بما قالت.

قالت منيرة بنبرةٍ منخفضة: «صمتك اليوم مختلف». أجابت شجن من غير أن ترفع عينيها: «التقيت شخصاً لا أعرف اسمه، لكنه ترك في نفسي أثراً أعجز عن وصفه». قالت منيرة: «وماذا حدث؟»

ردّت شجن: «لا شيء. لم يفعل شيئاً... فقط كان هناك، وكان حضوره وحده كافياً».

لم تُعلّق منيرة؛ أمالت رأسها قليلاً كأنها توارى السرّ في قلبها. رفعت شجن قلمها من جديد، وكتبت بخطٍ متردّد: «بعض اللقاءات أشبه بالانفجارات؛ تُحدث في داخلنا دويّاً لا يخفت صداها».

ظلّت منيرة صامتة وعيناها على الورق، وبينهما سكونٌ ثقيل. ثمّ أغلقت شجن دفترها، وقالت بصوتٍ يكاد يُسمَع: «أحياناً لا يكون اللقاء هو المهم، بل الأثر الذي يتركه فينا بعد أن يمضي». لم تُجب منيرة، واكتفت بابتسامة هادئة؛ لقد فهمت أكثر مما قيل. وبقيتا على حالهما: شجن تفكّر في الغريب الذي ترك حضوره في قلبها غياباً لا يُنسى، ولُجَيْن في حضنها، تدفئها بحركتها الصغيرة كأنما تواسيها بطريقتها الخاصة.

عاد راشد من المكتبة حاملاً في صدره شعوراً يعجز عن فهمه. كان وجه شجن يمرّ في ذاكرته كما تمرّ اليد على جرح لم يلتئم بعد؛ يلمسه من غير قصد فيوجعه أكثر. كلّ ما في الطريق كان يذكره بها: انعكاس الضوء على النوافذ، ودفع رائحة الورق التي لم تغادر أنفه، وحتى صمت الأزقة بدا له كأنّه رجع صداها وهي تقول:

«بعض الكتب تبحث عمّن يُشبهها».

وحين وصل إلى بيت الجدّ، فتح الباب ودخل بخطواتٍ متردّدة. نزع ثوبه وعلّقه على المشجب، ثم جلس على الأرض في الحجرة التي تزيد وحدته عمقاً. كان ضوء الفانوس الخافت ينسكب فوق الدفتر المفتوح، فيجعل الورق كأنه ينتظر اعترافاً لا يعرف صاحبه كيف يبدأه. مدّ راشد يده إلى القلم، ثم تراجع؛ لم يكن يدري ما الذي يريد قوله، ولا لمن سيكتب أساساً. حاول أن يستعيد ملامحها، لكن الكلمات التي طافت في ذهنه بدت عاجزة عن وصفها. ترك القلم جانباً، وأسند رأسه إلى الحائط، يشعر أنّ السكون من حوله لا يهدئ، بل يزيد الاضطراب في صدره. منذ عودته من المكتبة لم يذق طعم الراحة؛ كان التعب في جسده محتملاً، أمّا ما يعتمل في داخله فلا يطاق. كلّما أغمض عينيه عاد المشهد نفسه: صوت شجن وهي تتحدّث إلى الوراق، ضوء المصباح على ملامحها، وتلك الابتسامة التي تشبه القمر وهو يختبئ خلف الغيوم.

لم يفهم سبب شعوره بأنها تعرفه، لكنه واثقٌ بأنّه لن ينساها بعد الآن. حاول أن يشّت فكره بأي شيء، أن يقرأ أو يكتب، لكن كل جملةٍ تخطر في رأسه تنتهي بها.

فجأة، سمع صوتًا لم يستطع تجاهله؛ لم يكن وقع قدم، ولا صوت إناء سقط، بل نبرة خرجت من عمق البيت، كأنَّ أحدًا تلفّظ بكلمةٍ ثم ابتلع آخرها. تجمّد في مكانه وأصغى. لم تتكرر، لكنّها تركت أثرًا.

نهض على مهل، التقط ثوبه المعلق، وخرج إلى الممرّ المؤدّي إلى الفناء.

جثم الليل فوق القرية. وقف عند العتبة فرأى الغراب واقفًا على الحافة الخشبية، ساكنًا كأنّه قطعة من الليل. جناحاه مطويّان، وفي أحدهما ريشةٌ بيضاء تلمع تحت الضوء. لم ينبق ولم يتحرّك؛ إنّما كان يحدّق فيه بثباتٍ غريب، كأنّ الطائر يعرفه بطريقةٍ لا تفسير لها. شعر راشد أنّ وقفته أمامه لم تعد عادية، وأنّ الغراب يبحث عن وجهٍ بعينه. لبّث الطائر هنيهةً، ثم رفرف بجناحيه وطار نحو الزقاق خلف البيت، فعاد راشد إلى الحجرة. جلس على طرف الفراش يحاول إقناع نفسه بأنّه طائرٌ عابر لا أكثر، لكنّ الفكرة لم تُطعمه؛ فكلّ شيءٍ في هذه القرية لا يمرّ عبثًا. تقلّب في مكانه قليلًا، ثم نهض. أخذ مفتاح الباب وخرج يتمشى على غير هدى، يطلب من الليل أن يهدئ ما يعصف به. كان الزقاق خلف البيت ضيقًا ممتدًا، وصمته مطبقًا. سار راشد يحدّق في العتمة التي تتقدّم أمامه خطوة خطوة.

من بيتٍ بعيدٍ دوى ارتطامٌ غطاءٍ معدنيٍّ بالأرض، ثم عاد الصمت أثقل ممّا كان. واصل راشد السير، لا يعرف إلى أين تمضي به قدماه، لكنه شعر أنّ البقاء في البيت صار خانقًا، وأنّ المشي في الظلام أهون من مواجهة الأفكار التي ازدحمت فيه منذ غادر المكتبة.

وعند زاويةٍ قريبةٍ من الجدار، رأى رجلاً جالساً على الأرض، يسند رأسه إلى الحائط وذراعه ممدودة، بدا أن التعب قد أجهدَه. لامس بصيص من نور أحد البيوت وجهه بما يكفي لتُعرف الملامح؛ فعرفه راشد: جابر المجنون. لكن جنونه في هذه الليلة بدا مختلفاً؛ لم يكن يهذي، بل يهمس كمن يحدث الفراغ.

اقترب راشد بخطواتٍ متأنيةٍ؛ كان في هدوء هذا الرجل ما يوحي بخطرٍ أشدَّ من العاصفة. سمعه يقول بصوتٍ خفيض: «مَن غاب... هو الذي ينتظر. البحر لا يُدْفَن، وإن سكن فلأنَّ أحدهم ناداه ولم يعد». توقّف راشد، وقد سقطت الجملة في صدره، كأنها كانت تعنيه.

التفت جابر فجأة، ولأول مرة يرى راشد ملامحه بوضوح: عياناً واسعتان تتوهَّجان بوميضٍ غامضٍ كأنهما تُبصران ما لا يراه الآخرون، تحيط بهما هالاتٌ داكنةٌ توحي بطول السهر وقلة النوم، وشعرٌ منحسر، وفمٌ رفيع كأنه يطبق على سرٍّ يخشى أن يفلت.

قال جابر بنبرةٍ ساكنةٍ تخفي اضطراباً دفيناً: «هل رأيت شيئاً الليلة؟»

قال راشد متردداً: «ماذا تعني؟»

قال جابر: «ظلاً صغيراً... لا يمشي بل ينساب. يُرشد ولا يقول».

اقترب راشد خطوةً ووقف أمامه، وقال بصوتٍ هادئٍ يكاد يخفي رجفة: «ولمَ أنا؟»

أجاب جابر وهو يحدّق في نقطة لا يراها غيره: «لأنك لم تأت في الوقت الذي طُلب منك أن تصل فيه، فترك الباب مفتوحاً دون أن يُغلق». ثم صمت طويلاً، كأنّه يُنصت إلى صوتٍ لا يسمعه غيره، قبل أن يضيف: «سيهديك الذي لا يتكلّم... لكنه يرى ما لا يراه غيره».

قال راشد، وقد اختلط في صوته الفضول بالخوف: «وأين أجدّه؟».

تبسّم جابر، وقد بدت على وجهه لمحة رضا، كمن وجد السؤال الذي انتظره طويلاً، وقال: «في البيت الذي لا يدخل إليه النسيم؛ ذاك الذي يحبس أنفاسه كما تُحبس النذور في قاع البحر».

ثم نهض فجأة، كأن نداءً خفياً نفّس عنه سكونه، وتمتم وهو يشيح بوجهه: «الثالث لا يبحث عن البحر... لكن البحر يعرف طريقه». مضى متوغّلاً في عمق الزقاق، كأن الأرض تمهد له الطريق، وصوته يتلاشى حتى ابتلعت العتمة.

لم يبرح راشد مكانه بعد أن ابتلع الظلامُ المجنون، محاولاً استيعاب الكلمات التي انحدرت إلى سمعه مثل حجارةٍ صغيرةٍ. حدّق في الزقاق الخالي، حيث تلاشى جابر، ثمّ التفت إلى الجدار الذي كان يسنده، فلم يجد أثراً ولا ظلاً. أيقن أنّ الليل تغيّر فجأة، وأنّ القرية التي عرفها نهائراً ليست تلك التي تطبق عليه الآن.

سار بخطواتٍ مضطربة نحو البيت. لم يسمع من القرية إلا صرير أبوابٍ بعيدةٍ تُغلق في وجه العابرين، وحفيف أوراق شجرةٍ تتلامس كأنّها تُنصت إلى ما يجري. وحين بلغ الباب توقّف لحظةً، التفت خلفه، فلم يرَ شيئاً.

دخل البيت وعاد إلى حجرته. جلس على فراشه، لم يفتح
الدفتري، ولم يطفئ الفانوس. تجمد في حيرته، لا يعرف إن كان ما
سمعه إنذاراً... أم بدايةً لشيء أكبر منه.

لم يعرف أحد كيف جاء مناع إلى القرية؛ قيل إنه ظهر في أحد فصول الغياب، يحمل طفلاً صغيراً في حضنه، وينظر إلى بيوت الطين كمن يبحث عن شيء يعرفه ولا يراه. لم يسأله أحد من أين أتى، لأن هيئته لم تكن مريبة بما يكفي لتثير الخوف، ولا مألوفة لتبعث الطمأنينة.

كان رجلاً نحيلًا، تحيط بفمه لحية خفيفة، وعيناه الرماديتان لا تظهران انفعالاً. سكن بيتاً صغيراً مائل الجدار، بابه مصفر، نوافذه لا تفتح، ولا يبدو عليه أثر نهار أو ليل. قال بعضهم إن البيت لا يخرج منه ضوء في الليل، ولا يظهر له ظل في النهار، كأن جدرانه لا تعرف شمسًا ولا قمرًا؛ بُنيت لتُخفي ما في داخله أكثر مما تُؤويه.

ولم يقترب أحد منه؛ الأطفال إذا مرّوا من الزقاق خففوا خطاهم، والنساء يُسرعن الخطى حين يجتازن بابه المطل على الطريق. ومنذ اليوم الأول بدا البيت غريبًا؛ طينه متقشّر، وصمته أطول من ذاكرة المكان. لا أحد يعرف من بناه، ولا متى. قيل إن الضوء لا يرى فيه، وإن الأرض تحت عتبته ترتج إذا أغلق الباب. في داخله ثقل لا يشبه العزلة، بل شيء أعمق؛ كأن المكان يحتفظ بذاكرة لا تخصّه. لم تكن فيه رائحة عفن، بل أثر قديم التصق بالطين، كأن البيت لم يبرأ بعد من تاريخه.

لم ير أحد زوجته؛ لا تدخل السوق، ولا تظهر على السطح. فقط ظل يمر أحياناً من النافذة الضيقة المطلة على الزقاق.

ويُقال إنّ مناعًا يتحدث إليها ليلاً بصوتٍ مضطرب، يميل حينًا إلى الغضب وحينًا إلى الرجاء، وإنّ بعض الجيران يسمعونَه يجادل شيئًا دون أن يردّ عليه.

أحيانًا يرتفع صوته صارخًا: «أعيديه إليك... لقد أفسدت حياتي».

وأحيانًا يتمتم بحرقة: «دَسْتُ نسلي... وأنتِ تعلمين أنّ ما أنجبته ليس بشرًا كاملاً».

وفي الليالي التي تشتدّ فيها الرطوبة، يسمع المارّون من الزقاق همهمةً خافتةً تُظنّ خارجةً من الجدران نفسها، ثم سكونًا، ثم تمتمة تشبه الدعاء، تعقبها تهيدة طويلة، كأنّ البيت يحاول أن يتكلم ولا يفلح.

أمّا الطفل، فكان يجلس في زاويته على كرسيّ خشبيّ تُبَتَّت تحته عجالاتٌ بمشقة. رأسه مائل قليلًا، كأنّ عنقه لا يقوى على حمل ما يثقل ذهنه. لا تتحرك منه إلا يده اليمنى، تلك التي يرسم بها أشياء لا يفهمها أحدٌ غيره. لم يكن يتكلم؛ عيناه ترصدان.. وقلبه وحده يرسم.

طلب مناع مرارًا أن يُبعده عن النافذة، غير أنّه كان يعود ليجده في الموضع نفسه، يحدّق نحو السدرة العظيمة، ويخطّ فوق الورق خطوطًا متشابكة.

وكان كلما اقترب من الطفل، شعر أنّ عينيه المختلفتين تتناوبان عليه: الزرقاء تُشعل في صدره ضوءًا حارقًا، والسوداء تطفئه. وفي مراتٍ نادرة، يضربه لا لذنْب، بل لأنّ الطفل يبتسم ابتسامة لا تشبه ابتسامات البشر... فيها مسٌّ من الرعب، ومسٌّ آخر من المعرفة.

أما الزوجة فلا تتدخل؛ تعبر خلف الباب كظل خافت، تضع على الطاولة قطعة خبزٍ أو إناءً دافئاً ثم تختفي. لم يسمع منها مناع كلمة منذ زمن، لكنه يشعر بوجودها. وفي إحدى الليالي، سمع من مكانٍ قريب صوتاً ناعماً يقول: «لا تخف من عينيهِ؛ فهما بأبكِ، وأنت من أغلق النور فيهما». التفت فلم يرَ أحداً.

تلك الليلة جلس مناع وحده في المجلس، لا يفعل شيئاً سوى التحديق إلى الحائط. كان الطفل في الحجرة الأخرى يرسم، ولم يجبر مناع أن يسأله عمَّ يرسمه؛ لأنَّه يعلم أنَّ الجواب لا يأتي من فم الطفل، بل من مكانٍ آخر. عند الثانية بعد منتصف الليل، انشَقَّ الباب من غير يدٍ تُمسكه ولا صريرٍ يرافقه؛ بدا كأن الإرادة التي أغلقته تراجعت فجأة. تجمَّد مناع في مكانه، لم يجروْ على الحركة، وكلُّ عضلةٍ فيه تُصغي إلى ما يحدث. وما دخل البيت لم يكن برداً، بل حضوراً غريباً تمدد في صدره قبل أن يملأ الأرجاء. ثم تبع ذلك صوتٌ خُطى متقطّعة، أحسَّ معها أنَّ دمه يسير عكس مجراه، وأنَّ بيته يقف على أطراف أصابعه من الفزع.

في الحجرة، لم يلتفت الطفل. أمسك القلم ورسم دائرةً تتوسطها نقطة، ثم خطاً مشوّشاً يمتدّ منها. لم تكن الورقة في نظر مناع ورقةً فحسب، بل شيئاً يتّسع. حُيِّل إليه أنَّ الخطوط تتحرّك وحدها، تنزلق من الصفحة نحو الأرض. وأدرك أنَّ اليد التي ترسم ليست يد طفل، بل يدٌ تستعير جسده لتفتح باباً أوسع ممّا تحتمل الحجرة.

اقترب خطوةً ثم أخرى، حتى وقف خلفه مباشرة. انعكس ضوء الفانوس على العينين المختلفتين، وللحظة شعر مناع بأن صدره يضيق، وأن شيئاً خفياً يتحرّك في داخله؛ لم يكن خوفاً، بل نذيراً. توقف الطفل عن الرسم، ورفع بصره إليه بنظرة هادئة غريبة، نظرة فيها عتبٌ وكشف. عندها أدرك مناع أن ما يُرسم لم يكن خيالاً، بل طاعة لأمرٍ لا يسمعه سواه.

ثم جاء صوت الزوجة، قريباً كأنه يخرج من جوف البيت لا من فم: صوتٌ واحد حملته الجدران دفعةً واحدة، كأن المكان كلّهُ نطق في اللحظة ذاتها: «رأى ما لم أجرؤ على النظر إليه، وسيمشي الآن في طريقٍ لا رجوع منه».

سقط شيءٌ من السقف. لم يحدث صوتاً، بل لامس الأرض بلين غريب. جلس مناع لا بدافع الفضول، بل كمن رأى في الورقة صدئاً لما تحرّك في صدره ولم يعرف كيف يفسّره. كان يشعر أن البيت تبدّل، وأن صمته صار انتظاراً لما سيأتي.

وفي الخارج، لزم النسيم العتبة؛ كأنّ الريح تخشى أن تعبر بيتاً يُقال إنّ الداخل إليه لا يعود كما كان.

كان النهار هادئاً في القحمة، والشمس تميل فوق الأسطح
 الملساء التي غمرها غبارٌ خفيف. في الأزقة رجالٌ يرشّون الماء
 أمام بيوتهم، وامرأةٌ تنفض حصيماً عند العتبة، ورائحة الخبز
 تمتزج بدخانٍ يتصاعد من موقدٍ قريب. وفي آخر الزقاق الجانبي
 صاح ديكٌ، بينما تمدّد كلبٌ عند زاوية بيتٍ مشرعة نوافذه، وتلوح
 النخلات القريبة بسعفها. كانت القرية تستعدّ لصلاة الجمعة على
 طريقتها، في هدوءٍ تحرسه بسكينة مألوفة. توضعاً راشداً وارتدى
 ثوبه، ثم مضى إلى الحجرة الأخرى، فتح النافذة قليلاً ليدخل
 ضوء الصباح، وجلس على حصيرة صغيرة قريباً. سحب مصحفاً
 من الرف، مسح عنه الغبار، وشرع يقرأ ما تيسّر بصوتٍ خافتٍ
 يملأ الحجرة طمأنينة.

مضت الساعات وثيدةً قبل الظهر. جلس في الفناء يتأمل
 جدار البيت، يتابع خطّ النمل الصاعد إلى السقف، ويصغي
 إلى خشخشة خفيفة تأتي من جهة السعف حين تتلامس أوراقه
 بعضها ببعض. واقترب وقت الصلاة، فلبس شماغه وخرج إلى
 الطريق متجهاً نحو المسجد.

وفي طريقه، مرّ بجانب بيتٍ يعرفه؛ كانت نافذته مواربة، ومن
 خلفها ظهرت أمانى. رفعت بصرها لحظةً فالتقت عيناها بعينيّه،
 ثم افترّت شفتاها عن نصف ابتسامة قبل أن تبتعد عن النافذة.
 واصل سيره من غير أن يتوقف.

اقترب راشد من المسجد، وقد بدا المدخل مزدحمًا بالرجال والأطفال القادمين من كل زقاق. بعضهم يخلع نعليه عند الباب، وآخرون يتبادلون السلام قبل الدخول. لمح بائع التمر وحسن الوراق يسيران معًا نحو الداخل، وفي الصفوف الأولى رأى فارسًا يجلس إلى جوار والده، فيما كان عايض الصياد يحرك سُبْحته ويتمتم بتسبيح متواصل. وفي زاوية بعيدة من الساحة، جلس جابر وحده، يبتسم للداخلين ويقول بصوت خافت: «من دخل بقلبه خرج خفيًا». ثم يضحك لنفسه غير مبالٍ بنظراتهم.

في الداخل، كان المصلّون يجلسون في صفوفٍ متقاربة، يتبادلون التحية بصوتٍ خافت، قبل أن يعمّ الهدوء شيئًا فشيئًا في انتظار صعود الخطيب.

وبعد لحظات، ارتقى الإمام مساعد المنبر، وألقى نظرة على الحاضرين. وما إن بدأ كلامه حتى خيّم على المسجد سكونٌ مهيب، وكانت كلماته تتسلّل إلى القلوب فتزيدها إيمانًا وطمأنينة. وحين ختم خطبته بالدعاء، نزل عن المنبر، وأقام المؤذن الصلاة. انتظم الناس في صفوفٍ مترابطة، وتعالى التكبير بينهم في انسجامٍ واحدٍ يملأ المكان سكينة. وبعد التسليم، عاد الهمس الخافت إلى الزوايا، وبدأ الجمع يتفرّق.

كان جابر جالسًا عند العتبة يضحك وحده، ثم نهض فجأة وقال بصوتٍ مرتفع: «البحر لا يُصَلّي، لكنه خاشع أكثر منكم!» التفت إليه بعض الرجال وضحك آخرون. مرّ بينهم أبو فارس وقال ساخرًا: «حتى صلاة الجمعة لا تسلم من جنونه». فردّ عايض وهو يبتسم: «لا تسخر يا أبا فارس، هذا المجنون هو أعقلنا».

تبادل الرجلان نظرةً ثم افترقا، وجابر يلوّح بيده، فيما انسحب المصلّون نحو الأزقة.

عند ظلّ شجرة السدر وقف راشد يراقب المشهد، حتى اقترب منه فارس وسأله وهو يشير إلى جابر الواقف عند الباب يلوّح بيده:

«أتعرف من ذاك؟»

تابع قبل أن يجيبه راشد: «ذاك جابر... يسمّونه المجنون. كان يوماً من أعقل رجال القرية، لكنّه فقد عائلته في ليلةٍ من ليالي البحر، ومنذ تلك الليلة تبدّلت أحواله».

صمت راشد برهة، ثم قال باستغراب: «ولم تركوه هكذا؟»
أجاب فارس وهو يشيح بنظره: «ومن يستطيع أن يللم قلباً تصدّع مما لا يحتمل؟ كلّ مَنْ تحدّث إليه أدرك أنّه لن يعود كما كان».

ظلاً واقفين لحظةً، ثم قال فارس بصوتٍ خافت: «نسير قليلاً؟»
أوماً راشد، وسارا مبتعدين عن الساحة، وبينهما تمتزج الأصوات الخافتة بعبق دهن العود الذي خلفه المصلّون على العتبة.
تقدّما في الطريق، تتناثر حولهما آثار الأقدام التي تركها الناس بعد الصلاة. كانت خطواتهما بطيئةً متّزنة، والسكينة تملأ المكان. قال راشد وهو يحدّق أمامه: «القرية لم تتغيّر... حتى الوجوه كما تركتها».

ردّ فارس: «ربما نحن من تغيّر، ولهذا نظنها كما كانت».
صمتا برهةً، ثم قال فارس بنبرةٍ منخفضة: «الحياة هنا تمضي وثيدة، لكنها لا تتوقّف».

فقال راشد: «إلا البحر... يهدأ ليغدر بنا».

ابتسم فارس وقال: «ولهذا نخشاه».

انحدر الطريق قليلاً، وبدأت زرقعة البحر تظهر بين فراغات البيوت المتناثرة. في الأعلى كانت النوارس تدور مطلقاً صيحات حادة قبل أن تهبط على الصخور القريبة. وعلى امتداد الساحل بدت قوارب صغيرة مربوطة بحبالٍ غليظة تتمايل مع الموج الهادئ. توقّف فارس عند موضعٍ مرتفع قليلاً وقال وهو يشير نحو الصيادين: «سأذهب عند الصيادين... أراك لاحقاً».

أوماً راشد دون أن يلتفت، ومضى بخطواتٍ ثابتة، يسلك الطريق المنحدر نحو الرمل. امتدّ أمامه البحر ساكناً، لا يُرى فيه سوى زرقعةٍ لامعة تمتدّ على طول الأفق. في أقصى الشاطئ كانت القوارب مشدودةً إلى أوتادٍ خشبية، والحبال تتمايل مع الموج الخفيف. النوارس تلامس سطح الماء ثم تحلّق من جديد، ونسمة مألحة تلامس وجهه كأنها تعرفه. وقف عند حافة الرصيف الحجري، حدّق في البعيد، وشعر أنّ المكان يرقبه بصبرٍ عجيب.

وعند انكسار الموجة الثالثة رآها: نورة.

لم تكن قادمة من جهةٍ بعينها؛ كانت واقفة بين البحر والرمل، كأنّ الأعماق دفعتها لتقف في المنتصف. ثوبها الخفيف ينساب حول جسدها كأنّ الموج نسجه لها، وشعرها الطويل ينسدل على كتفها اليمنى، ووجهها هذه المرة واضح: عيان بلون البحر حين يصفو، وفيهما بريق يعرفه تماماً.

توقّف الشاطئ من حولها كأنه يصغي إليها قبل أن تتطرق.
نادته بصوتٍ لم يكن عاليًا، لكنه اخترق سكون الساحل:
«راشد!»

لم يتحرّك في البداية؛ حدّق إليها، ثم خطا خطوة واحدة نحوها.

قالت بنبرة حزينة: «خالد لم يذهب وحده... البحر لا يأخذ إلا مَنْ دُعِيَ إليه».

قال بصوتٍ منخفض: «ومن يدعو إلى الفرق؟»
أجابت: «مَن يوقظ البحر وهو نائم».

بدت كلماتها أقرب إلى الهمس، لكن وقعها ثقیل، كأنها تفتح في صدره نافذة على ما طمره النسيان. مدّت يدها نحوه وقالت: «اقترّب... واسمع». ثم أردفت: «بعض الأشياء لا تأتي حين نريدها، بل حين تخبو الرغبة في انتظارها».

لم يعلم إن كان يراها حقًا أم يتوهم، لكن قدميه تحركتا وحدهما حتى بلغ الماء، فابتلّت أطراف ثوبه. عندها شقّ الصمت صوتٌ من خلفه، واضحٌ مرتفع:

«دالالاشد!»

التفت بسرعة، فرأى فارسًا يركض نحوه من بعيد.

«توقّف! إلى أين تذهب؟!»

قال راشد من وسط الماء الذي وصل إلى ركبتيه: «إنني ذاهب إليها».

«إلى مَنْ؟ لا أحد هناك غيرك!» صاح فارس وهو يمسك بذراعه.

التفت راشد ثانية إلى المكان الذي كانت تقف فيه نورة، فلم يجد أحداً.. لا ظلاً ولا أثراً؛ وحده الماء يتموّج ليمحو المشهد. وقف مشدوهاً، لا يسمع إلا دقات قلبه وصوت الموج. قال بصوتٍ مبجوح: «كنت أراها... أقسم إنني رأيتهَا... كانت هناك».

لم يعلّق فارس؛ شدّ على ذراعه وأخرجه إلى الرمل، ثم وقف إلى جانبه وهما يلهثان معاً. وبعد لحظة قال: «دعنا نعد».

لم يجب راشد. حدّق في البحر طويلاً، كأنّ ما اختفى قد يعود إن انتظر أكثر.

سارا صامتتين. وعند منتصف الطريق قال فارس وهو يشيح بنظره: «سأرجع من هنا».

أوماً راشد واستمر وحده. كانت الشمس لا تزال عالية، والضوء يضرب الجدران بحدةٍ تترك في عينيه وهجاً. في داخله كان الفراغ ممتلئاً بصدى صوتٍ واحد لا يهدأ؛ كل خطوة تذكره بالبحر، كأنّ الموج لم يبق خلفه، بل يواصل السير معه. حين بلغ البيت، توقف عند العتبة هنيهة، التفت خلفه ثم دخل. نزع شماغه وعلّقه على المشجب، وجلس على فراشه. كان قلبه مضطرباً على نحوٍ غريب؛ لا خوف ولا طمأنينة. شعر بأن شيئاً فيه انكسر دون أن يُصدر صوتاً. رفع كفيه إلى وجهه، مرّهما عليه كمن يحاول استعادة ملامحه، ثم أسندهما إلى ركبتيه. سكنَ كأنه يخشى أن تتحرك الفكرة فينهار معها كل ما حاول تصديقه. كان في داخله حوارٌ لا يسمعه أحد؛ سؤالٌ يتناوب مع نفسه بلا إجابة: أكانت حقيقة أم صورة قديمة احتفظ بها قلبه وأعادها إليه البحر؟ أغمض عينيه، فاندفعت الصورة كما هي: نورة، واقفة عند

الماء، تتاديه باسمه كما لم يفعل أحدٌ من قبل. لم يكن في النداء عتاب ولا رجاء، بل يقينٌ يجذبه إلى ما لا يعرفه. همس لنفسه: «إن كانت خيالاً، فلمَ تركت هذا الأثر؟ وإن كانت حقيقة... فلمَ اختفت؟» نهض، غسل وجهه، ثم عاد إلى الفراش. تمدد، وتوسّد ذراعه تحت رأسه، وأغمض عينيه من جديد. لم يكن يشتهي النوم؛ كل ما يطلبه هو أن تهدأ. نفسه، وأن يصمت الضجيج في رأسه. ومع ذلك، حين هدأت أنفاسه، سمع الصوت ذاته يهمس في أعماقه بوضوح غامض: «لم يبدأ بعدُ ما ظننته انتهى».

لم يدرك أنه وعدٌ أم وعيد، لكنه أحسَّ أنَّ البحر لم يغادره، وأن ما بدأ هناك ما زال ينتظره في مكانٍ ما. فتح عينيه، تطلّع إلى السقف، ولم يتحرّك؛ اكتفى بأن قال في سرّه:

«أعرف».

ثم أغلق عينيه من جديد، تاركاً التعب يأخذه كما يأخذ الموج ما يخصّه.

في زاويةٍ أخرى من القرية، وبينما كانت الشمس تلملم آخر وهجها، قَبَعَ الطفل المشلول في كرسيه المتحرّك عند ناصية الزقاق المؤدي إلى بيتهم. كان منكبًا برأسه، ودفتره في حجره، وقد سَمَّرَ عينيه على الورقة يعيد رسم الجبل. لم تكن رسمة جديدة، بل استسأخًا لذلك الجبل المنكمش الذي بدا كمن أطبق فمه على سرٍّ، وتلوّث الظلال في جوفه كأنها تتهيأ للبوح. لم يكن الجبل مجرد رسم، بل شيئًا مستحضرًا من ذاكرةٍ متكرّرة ومشوّشة، لكنها واضحة لمن يعرف شكلها.

وفي الجهة المقابلة ربح الكلب مشدود الجسد، يرقب الطفل كأنه يحرسه من أي خطر. وعلى حافة الجدار وقفت الطفلة، ساكنة كظلّ يترقّب لحظته الأولى. خلت نظراتها من أي تحدٍّ، وحلّت محلها يقظةٌ حادة؛ إذ تدرك أن لحظة الانقضاض وشيكة إن اختلّ التوازن.

لم يلحظها الكلب ولا الطفل، كأنها اختارت ألا تُرى، واختار العالم ألا يلحظ وجودها.

من طرف الزقاق ظهر أبو فارس، يمشي بخطواتٍ وادعة، وظهيرٍ منتصب، ووجهٍ شاحب لا يبوح بشيء. كان كلما تقدّم ضاق صدره، كأن شيئًا خفيًا يتربّص به من موضع لا يعرفه. توقّف على بُعد خطوتين من الطفل، نظر إلى الدفتر المفتوح والذي يمسك به في حجره، ثم تجمّدت عيناه على الرسمة. قال بصوتٍ أقرب إلى الهمس: «هذا الجبل ليس من ورق».

رفع الطفل رأسه بنظرةٍ غير ثابتة، لكن عينه الزرقاء قفزت إلى وجه أبي فارس ببرودٍ يشبه انعكاس الماء. تردّد أبو فارس لحظة؛ سرت رجفة خفيفة في صدره.. قال بصوتٍ واهن: «أنت تعرف شيئاً؟»

لم يردّ الطفل.

تحركّ الكلب، عيناه على أبي فارس، ذيله يهتزّ، وزمجر بصوتٍ خافت. لم يتراجع أبو فارس؛ نظر إليه، ثم عاد ببصره إلى الطفل، وقال في نفسه: «أنا أعرف.. هذا الشكل لا يرسمه طفل. هذا ليس من خيال طفل بريء. هذا يأتي من مكانٍ أعمق.. من ظلمةٍ رآها ولم يعرف كيف ينساها».

ثم رفع بصره مباشرة نحو الطفل وأضاف ممعناً فيه: «ومن كانت أمّه جنيّة.. فلا تتوقع منه الصمت».

في تلك اللحظة أطلق الكلب صوتاً حاداً وقفز خطوة إلى الأمام، لكن الطفلة رفعت يدها من خلف الجدار، فتراجع الكلب كأنه تلقى أمراً لا يُناقش.

نحّى الطفل الورقة وأحلّ محلّها أخرى، كأنه يوارى أثر ما رَسَم. تراجع أبو فارس خطوة، ثم أمعن في الطفل والكلب اللذين يكتنفهما سرٌّ، وقال وهو يشيح بوجهه عن الورقة: «هذه ليست رسوماً من خيال.. إنها رسومات من رأى بعينه».

استدار ومضى بخطواتٍ بطيئة، كأن قدميه تفكران بدلاً منه، وفي داخله سؤالٌ لم يجروء أن ينطق به: «هذا الطفل.. يرسم ما يعرفه».

ثم أضاف في سرّه: «وإن كان يعرف.. فماذا بعد الرسم؟»

لم يتزحزح الطفل؛ اكتفى بالنظر إلى الورقة الجديدة، ثم رفع رأسه نحو زاوية الجدار؛ كانت الطفلة قد اختفت، وعاد الكلب إلى موضعه وجلس، بينما الليل يرخي سدوله بهدوء.

بينما كانت الريح لا تجرؤ على دخول بيت مناع، كان هناك بيت آخر تلعب فيه كما تشاء؛ تمرّ من تحت الأبواب، وتتسلّل من الفتحات الصغيرة، وتداعب أطراف الستائر كأنها ولدت فيه. ما كان البيت واسعاً، بيد أنه اتسع لها. بيتٌ من طابقٍ واحد، طليّ بجيرٍ أبيض نالت منه السنون، وأرضه من بلاطٍ سكّريٍّ ناعم تقطّعت أطرافه بتجاعيد الزمن. ومن نوافذه تتدلى ستائر خفيفة تتحرّك كلّما مرّت الريح. وفي الزاوية أصيصٌ فخاريٌّ فيه نبتة جافة تتشبّث بالحياة دون احتجاج.

في هذا البيت تقطن شجن بصحبة أمها وقطّتها لجين؛ بيتٌ لا تُسمع فيه الأصوات الصاخبة، وقلمًا وطئته الأقدام. كانت العلاقة بين شجن وأمها أشبه بصداقة صامتة؛ أحاديث قليلة، ونظراتٌ تغني عن الشرح. لم تكن الأم تفرض، ولم تكن شجن تتمرد؛ بينهما وئام، كأن كلّ واحدةٍ تعرف حدود الأخرى دون حاجةٍ إلى كلام. وفي بعض الليالي تجلسان متقابلتين، تحتسيان الشاي في صمت، ثم تضحكان فجأةً لشيءٍ لم يُقل، بل تذكّرتاه معاً. في حجرة شجن تكتظ الرفوف بالكتب والمجلات القديمة. وعلى الحائط ورقة كُتِب فيها بخط يدها: «أكتب لأن الأشياء تمرّ، وأخاف أن تعبرني دون أي أثر».

كانت الحجرة تشبهها: مرتّبة، متأملّة، لا تزدان بالألوان، لكنها لا تخلو من ذوق. فوق الطاولة فنجان قهوة باردة، وبجانبه شمعة صغيرة تلقي ضوءاً دافئاً على ما حولها. وعند النافذة تسكن

لُجِين، تقفز بين الرفوف وتستقرّ فوق الكتب، كأنها تختبر دفء الورق.

وحين تكتب شجن، تتمدّد القطة بجوارها، تنظر إلى السطور بعينين نصف مغمضتين، فإذا توقّفت عن الكتابة تموء بخفوتٍ وتزحف برأسها تحت كفّها، كأنما تقول:

«اكتبي... فأنا أٌصغي».

فتبتسم شجن وتهمس:

«أنتِ أصدق من بعض البشر».

كانت أمّها امرأة خمسينية، في ملامحها وداعة الأمهات، ترتدي السواد كمن التصق به الحِداد. تجلس في غرفتها معظم الوقت، تستمع إلى المذياع أو تحيك ثوبًا. لا تسأل كثيرًا، ولا تعاتب. وإن أطالت شجن الغياب، قالت بهدوء: «تأخّرتِ». وحين تعود تستقبلها برائحة البخور. تطبخ بمحبة، وتغسل الأواني كأنها تزيل عنها التعب. وفي كل صباح تمسح الأرض بماءٍ ممزوجٍ بقطراتٍ من الورد وتقول: «لكل بيت ريح أهله».

في إحدى الأمسيات، كانت لُجين تلاحق خيطًا يتدلّى من طرف الستارة، فيما جلست شجن على الأرض تقلّب كتابًا صغيرًا وجدته بين أكوام كتب أبيها الراحل. لا تتذكره جيدًا؛ مات وهي في السادسة، لكن أوراقه ما تزال تحمل رائحة تريبكها: عبق الورق القديم وعطرٌ معتّق.

على الغلاف عنوان: أسرار البحر.

ابتسمت للقطة وقالت: «حتى البحر له أسرار... وأنتِ؟ كم

سرًا تخبئين؟»

قفزت القطة إلى الكرسي، ثم إلى حافة النافذة، وجلست هناك تحدّق في الزقاق.

كان الزقاق ترابياً ضيقاً، لا يمرّ منه الناس إلا نادراً، ومعظمهم تعرفهم شجن بالاسم أو الشكل.

دخلت الأم، وقفت عند الباب لحظةً ثم قالت: «أراك شاردة». رفعت شجن رأسها وابتسمت بخفة: «لا أدري.. ربما لأنني رأيت شخصاً أثار انتباهي».

«ومن هو؟»

«رجلٌ في المكتبة. لم أره من قبل، لكن لا يبدو غريباً عن المكان».

هزّت الأم رأسها وقالت: «ربما عابر سبيل».

فأجابت شجن: «لديّ شعور غريب أنني التقيته من قبل».

ابتسمت الأم وهي تمضي نحو المطبخ، وقالت بصوتٍ خافت: «هكذا تبدأ الحكايات».

منذ ذلك المساء، وشجن تنتظر الغد الذي يحمل وجهه.

لا تفكّر كثيراً، لكنها كلّما تذكرت «المكتبة» شعرت بشيءٍ خفيفٍ يتحرّك في صدرها، كأنها تستعدّ للقاءٍ لا تعرف هل سيأتي أم لا. لم تعرف اسمه، لكنها عرفت حضوره حين جلس في المكتبة كأنه يقرؤها.

وحين هدأ البيت، تناولت دفترها الصغير وفتحته. في صفحاته جملٌ قصيرة، بعضها ناقص، وبعضها أشبه باعتراف. مرّرت أصابعها على الكلمات كما لو تمسح عنها غبار الوقت. لم تكن تكتب لتذكر، بل ل تمنع النسيان من أن يستقرّ فيها. وكانت تقول دائماً: «إذا لم أكتب، ربما لا أعرف من أنا».

على الطاولة دفتراً آخر، كتبت فيه قبل أيام:
«أنا لا أفتش عن أحد، لكنني أومن بأن مَنْ كُتب له أن يراني،
لن يضيع في الزحام».

قرأت السطر بتأناً، ثم أغلقت الدفتر. اقتربت من النافذة،
أطفأت الشمعة، وأسدت الستارة.

لم يكن القمر مكتملاً، لكنه كان كافياً ليضيء عينيها. لم تكن
تعرف أن ذلك العابر سيعود، وأن كل عودة ستكون أثقل من التي
قبلها؛ لكنها حين أغمضت عينيها شعرت بشيء في داخلها يشبه
البداية.

كَانَ صَبَاحَ الْيَوْمِ الْتَالِي يَمْرٌ بَتَانٌ، كَأَنَّ الْوَقْتَ يَخْبُو وَيَجْرُ ظِلُّهُ
فَوْقَ السَّاعَاتِ. السَّمَاءُ صَافِيَةٌ بِلَا غَيْمٍ، لَكِنَّ الضَّوْءَ بَدَأَ بَعِيدًا عَنْ
عَيْنَيْهِ؛ يَمْرٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَلَا يَرَاهَا.

اسْتَيْقِظَ رَاشِدٌ.. جَسَدُهُ فَقَطْ؛ أَمَّا رُوحُهُ فَمَا تَزَالُ هُنَاكَ، عِنْدَ
الْحَلَمِ... أَوْ عِنْدَهَا. أَعَدَّ قَهْوَتَهُ وَجَلَسَ عِنْدَ الطَّائِلَةِ. رَفَعَ الْفَنْجَانَ
إِلَى شَفَتَيْهِ، تَذَوَّقَ رَشْفَةً مُرَّةً لَمْ يُكْمَلْهَا، فَوَضَعَهُ جَانِبًا، ثُمَّ فَتَحَ
دَفْتَرَ الرَّمُوزِ. حَدَّقَ فِيهِ طَوِيلًا، قَبْلَ أَنْ يَغْلِقَهُ بِهَدْوٍ؛ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا
عَلَى الْبَدْءِ بِشَيْءٍ، فَكُلَّ مَا فِي دَاخِلِهِ مَعْلُوقٌ بِجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ مَا تَزَالُ
تَطْنُ فِي صَدْرِهِ: «كُلَّ يَوْمٍ، عِنْدَ الْمَسَاءِ، تَفْتَحُ كِتَابًا وَتُغْلِقُ الْعَالَمَ».
الْبَيْتُ سَاكِنٌ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ؛ الْأَصْوَاتُ تَتَلَاشَى قَبْلَ أَنْ تَكْتَمَلَ،
وَكُلُّ شَيْءٍ حَوْلَهُ يَذْكُرُهُ بِهَا، حَتَّى الصَّمْتُ.

لَمْ يَعِدِ الْوَقْتَ يَخْبُو عَلَى أَطْرَافِهِ بَلْ يَزْحَفُ، وَالسَّاعَاتُ تَتَسَلَّلُ
بِلَا مَعْنَى: لَا فِكْرَةَ تَسْتَقَرُّ، وَلَا شَيْءَ يَتَغَيَّرُ فِي دَاخِلِهِ. يَجْلِسُ تَارَةً
عَلَى الْكُرْسِيِّ، وَتَارَةً عَلَى الْأَرْضِ، كَمَنْ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ يَخْفِئُ وَطَاءَةً
اِنْتِظَارَهُ. فَتَحَ النَّافِذَةَ؛ دَخَلَتْ نَسْمَةٌ بَارِدَةٌ لَمْ تُتْعَشْ، بَلْ زَادَتْ اضْطِرَابَهُ.
قَالَ فِي نَفْسِهِ: «رَبْمَا لَا تَأْتِي... رَبْمَا هَذَا الْيَوْمُ لَيْسَ يَوْمَ الْحِكَايَاتِ
ثُمَّ تَخَيَّلَهَا تَدْخُلُ، تَقِفُ عِنْدَ الْبَابِ، لَا تَرَاهُ أَوَّلًا، ثُمَّ تَرَاهُ... فَتَبْتَسِمُ
كَمَا لَوْ أَنَّ الْاِنْتِظَارَ وَعْدٌ قَدِيمٌ بَيْنَهُمَا. مَرَّرَ يَدَهُ عَلَى دَفْتَرِ الرَّمُوزِ
لَكِنَّهُ لَمْ يَفْتَحْهُ. كَتَبَ فِي ذَهْنِهِ جُمْلَةً كَانَتْ سَيَقُولُهَا لَوْ حَضَرَتْ، ثُمَّ
مَحَاَهَا، وَأَعَادَ صِيَاجَتَهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا تَتَبَدَّدُ. وَحِينَ أَثْقَلَهُ الصَّمْتُ،
أَحْسَسَ بِشَيْءٍ لَا يَعْرِفُ لَهُ اسْمًا: رَعِشَةٌ خَفِيفَةٌ مَرَّتْ فِي أَطْرَافِ

أصابه، ثم صعدت إلى عموده الفقري، فنهض متثدًا يصغي إلى جسده. لم يكن بردًا، بل شيئًا آخر... قريبًا ممّا شعر به عند البحر حين سمع صدى نورة يخرج من قلب الموج. لكنّه الآن في غرفته؛ لا بحر، ولا موج، ولا صوتٌ خارجي... فقط هو وهمسٌ خافت في أعماقه يردّد: «بعض الأشياء لا تأتي حين نريدها، بل حين تخبو الرغبة في انتظارها».

ابتسم راشد دون أن يعرف السبب، ثم نهض؛ فقد استجاب جسده لنداءٍ خفيٍّ لا يعرف مصدره.

خرج من البيت متجهًا نحو السوق التي تفتح على الطريق المؤدي إلى البحر. كان النهار يذوب على مهل، والضوء يميل إلى الصفرة، كأنّ الشمس تتكئ على أسطح البيوت لتستريح. دخل راشد المكتبة؛ استقبلته إضاءةٌ هادئةٌ تتدلّى من السقف، ورائحة الورق التي يعرفها جيّدًا. الطاولات في أماكنها، والرفوف مزدحمة بالكتب، بعضها مائل كأنّ الوقوف الطويل أثقلها. في الزاوية جلس حسن الورّاق خلف طاولته، يدوّن شيئًا في دفترٍ صغير. ما إن رأى راشد، قال مبتسمًا:

«أهلاً... عدتَ قبيل المغرب؟»

ابتسم راشد بخفوتٍ وأجاب: «ما زلت أبحث عن كتاب». أشار الورّاق إلى الطاولة القريبة وقال مازحًا: «المكتبة كلّها لك اليوم».

جلس راشد في مكانه يراقب الضوء وهو يتغيّر على الرفوف، كأنّ النهار ينسحب من الكتب صفحةً بعد صفحة. لم يمكّ كتابًا؛ ترك يده ساكنة على الطاولة، وطرفه معلق بالباب.

كانت المكتبة شبه خالية؛ لا يُسمع سوى حفيف الورق، وصوت المروحة تدور بانتظام يحفظ إيقاع الانتظار. وكلّما فُتح الباب، تحرّك قلبه قبل رأسه. مرّت فتاة تسأل عن كتاب، ثم شابّ ألقى السلام وغادر. عاد الصمت كما كان.

ثم فُتح الباب.. كما تُفتح صفحة لا يعرف القارئ ما تخبئه. دخلت بخطواتٍ واثقة، مرتدية عباءة سوداء، وحجاباً بسيطاً يغطي رأسها بلا تكلف. لم تلتفت إليه، ولم يبحث هو عن عينيها، ومع ذلك شعر أن حضورها وحده كافٍ ليوقظ ما حوله. دنت من رفٍّ قريب، سحبت كتاباً وقلّبتّه على مهل، ثم أعادته. تقدّمت بخطواتٍ هادئة، بلا استعجال ولا تردّد، حتى بلغت الطاولة القريبة منه. وقفت.. وبينهما طاولة، وهدوءٌ يوشك أن ينكسر. قالت وهي تمرّر أصابعها على غلاف الكتاب: «المكان مزدحم اليوم».

ابتسم راشد دون أن يرفع رأسه وقال: «أحياناً يكفي غياب واحد... ليصير المكان مزدحمًا بالأسئلة». لم تُجب، لكنها أبقت يدها على الغلاف. صمت قليلاً، ثم أضاف: «بعض الكتب لا نفتحها لنقرأها، بل لنطمئن أن أحداً كتب ما لم نقدر على قوله». رفعت نظرها نحوه وقالت: «أو لنكتشف أن ما نبحث عنه لم يكن جديداً... بل نحن من تغيّر فقط».

فقال: «الكتب التي لا توجع... لا تذكرنا بأننا بشر». ابتسمت وقالت هامسة: «ولا الأشخاص الذين لا يتركون فينا فراغاً».

رفع رأسه نحوها؛ كان وجهها مائلاً قليلاً إلى الضوء، وعيناها شاردتين بين العناوين. فقال بهدوء: «الكتاب الجيد لا يقول لنا شيئاً... بل يردده فينا».

أجابت كأنها تكمل فكرته: «وكذلك بعض الأشخاص... يشبهون اقتباساً لا يُعرف قائله، لكنه يبقى عالماً فينا».

حلّ بينهما صمتٌ آخر... ليس ارتباكاً، بل اكتشاف: أن يجد المرء في صوتٍ آخر صدى أفكاره التي لم يُبح بها. قالت وهي تحدّق في رفٍّ بعيد: «لا أدري لماذا تبدو مألوفاً... مع أنني لم أرك من قبل».

ابتسم راشد، ومرّر إصبعه على غلاف الكتاب أمامه وقال: «ريما التقينا في صفحةٍ من كتاب ما».

نظرت إليه وقالت بصوتٍ هادئ: «ستكون كتاباً بلا عنوان». فقال بخفوتٍ يشبه الهمس: «لا يهمّ العنوان.. ما دامت القصة تستحق القراءة».

سكتت قليلاً، ثم جلست. بينهما طاولةٌ، وكتبٌ، وصمتٌ يحمل كلاماً مؤجّلاً.

قالت وهي تقلب صفحات كتابٍ بين يديها: «هناك كتبٌ لا تُقرأ إلا في وقتها... وإن فُتحت في غير وقتها، فلن تقول شيئاً».

قال وهو يتأملها: «كأنها تنتظر من يُشبهها، لا من يقتنيها».

قالت: «وأنا لا أحتفظ بالكتب التي لا تؤلمني».

ردّ: «ولا أصدّق الكتب التي لا تشبه خسارة سابقة».

ابتسمت ولم تضيف شيئاً، كأن الكلمات بلغت تمامها، أو خشيت أن تُفسد جمال اللحظة. ثم نهضت بهدوءٍ، وأغلقت الكتاب برفقٍ

كمن يخشى. أن يوقظ شيئاً نائماً فيه. راقبها راشد وهي تجمع أنفاسها، ثم قال وبسمة على شفثيه: «هل سنترك هذه الطاولة تنتظر حتى مساءً قادم؟»

ابتسمت، وقالت دون أن تلتفت: «ربما غداً في مثل هذا الوقت... إن اشتاقت الكتب، أو اشتقتُ أنا إليها».

مدّت يدها إلى رفّ قريب، وضعت ورقةً صغيرة داخل كتابٍ غلافه أسود، ثم توقّفت لحظة قبل أن تغادر. التفت نحوها، فابتسمت وهمست «اقرأها بعد أن أخرج». ثم مضت نحو الباب واثقة متزنة الخُطى، كأنها تترك خلفها وعداً لا موعّد له.

تأخّر راشد قليلاً بعد أن غابت عند الباب، كأن الغياب يحتاج إلى زمنٍ كي يُصدّق. تسمّر في مكانه، ينظر إلى الرفّ الذي وضعت فيه الورقة، ثم اتجه إلى الكتاب الأسود. مدّ يده وسحبه بحذرٍ يشبه الخوف. فتحه، فوجد الورقة الصغيرة مطويّة بعناية. فتحها وقرأ بخطّ دقيق:

«إلى الرجل الذي لا اسم له،

ربما لا أعرفك، لكنك الوحيد الذي شعرتُ معه أنني لستُ مضطرةً إلى أن أشرح نفسي».

قرأها عدة مرّات، وفي كل مرّةً أبطأ من التي قبلها، كأن الكلمات تتنفس في صدره قبل أن تصل إلى عقله. ثم طواها ووضعها في جيبه.

فتح دفتر الرموز وكتب:

«هي لم تترك أثراً.. بل جعلتني أعرف كم كنتُ قابلاً للاختفاء قبلها. كل شيءٍ فيها يشبه الفكرة التي لم تُكتب، لكنك تعرف أنها صحيحة من النظرة الأولى».

أغلق الدفتر، وترك كَفَّه فوق الغلاف لحظةً كأنه يودّع سطرًا لن يعود إليه كما كان. نظر إلى الرفوف؛ كانت الكتب ساكنة في أماكنها، لكنها بدت له أقرب من أيّ وقتٍ مضى - كأنها هي مَنْ قرأته هذه المرة.

نهض، أعاد الكرسي إلى موضعه، وألقى نظرةً أخيرة على الباب الذي خرجت منه.

في الخارج، كان المساء قد اكتمل، والضوء الأصفر من مصابيح السوق ينساب على الأرض كصفحة مفتوحة. الباعة يغلقون دكاكينهم، والأصوات تخفت شيئاً فشيئاً، حتى تبدو قادمة من حلم بعيد. مشى راشد بين الأزقة، وفي جيبه الورقة الصغيرة، كأنها قلبٌ آخر ينبض بجوار قلبه. لم يكن يفكر في شيء، لكنه شعر أنه يسير في طريقٍ يعرفه ولا يعرف نهايته.. طريقٍ بدأ من جملةٍ لم تنتهِ.

في طريق العودة، لم يكن راشد يسير كما اعتاد؛ لم يحمل فكرةً واضحة، بل رجفة شعورٍ تشبه أول الطريق نحو الاعتراف. لم تكن الورقة ما يشغله، بل ذلك الأمل الذي أطلقته: «ربما غداً».

كأنها غرست في قلبه موعداً لا يشبه المواعيد، موعداً بلا زمنٍ محدد؛ مجرد احتمال لا يُقال إلا مرةً واحدة. صار الغد في داخله نبضاً مؤجّلاً، لحظةً تتكرر كلما لمح ظلاً يُشبهها أو صدًى يقارب صوتها.

كان شيءٌ فيه يتفتّح بأناءة، يُذكره كيف يكون القلب حيًا. ذلك الشيء جعله يتوقّف عند كلّ رفٍّ يمرّ به، كأنّ الكتب تحمل إشاراتٍ منها.

فتح دفتر الرموز مرةً ثم أغلقه؛ لم يجد كلماتٍ تصف شعوره.
مدَّ يده إلى جيبه، لم يُخرج الورقة؛ اكتفى بأن يلامسها بإصبعه،
كأنه يطمئن إلى وجودها.

صار الغد لا يُقاس بالأيام، بل بالشوق... وصوتها -وإن غاب-
أعلى من صمته كله.

وكان يعرف، في أعماقه، أن ما تحرَّك فيه لم يبدأ من تلك الطاولة
ولا من الورقة، بل من نقطةٍ خفيّةٍ في داخله كانت تنتظر من
يوقظها.

حين وصلت شجن البيت، شعرت أنّ شيئاً من الخارج ما زال
ملتصقاً بها، كأنها لم تخرج تماماً من المكتبة. أغلقت الباب خلفها،
وتوقّفت لحظةً في الممرّ المظلم لتتأكد أنّ أمّها في الداخل. ومن
الحجرة المجاورة جاء صوت المذياع، خافتاً ومتصلاً، فعرفت
أنها لا تزال هناك. نزعَت عباءتها وعلّقتها على المشجب، ثم
اتجهت نحو غرفتها.

كانت القطة عند العتبة، ترفع رأسها ثم تخفضه، تراقبها
بفضولٍ خفيف؛ كأنها الوحيدة التي أدركت أن شيئاً تغيّر.
دفعت الباب، دخلت، وأغلقته.

الحجرة كما تركتها: سريرٌ غير مرتب، وكرسيٌّ مسنود إلى
الطاولة، وكتب مفتوحة، ورائحة عطرها لا تزال عالقة في الهواء.
خطٌ من الضوء المتسلّل من الشارع يشقّ الجدار قرب النافذة.
جلست على الكرسي، وضعت الحقيبة جوارها، وأخرجت دفترها
بيدين مرتعشتين. فتحتَه على صفحةٍ بيضاء وراحت تحدّق

فيها طويلاً. كانت تريد أن تكتب، لكن ما يدور في رأسها ليس كلمات، بل أصوات تتقاطع: نبرته، سؤاله الأخير، وابتسامته التي بدت كأنها فهمت أكثر مما قيل. شعرت أنّ المسافة بين الكلمة والاعتراف ضيقة إلى حدٍّ مؤلم.

مدّت يدها إلى القلم، رفعتَه ثم وضعتَه، ثم رفعتَه من جديد، كأنها تختبر قدرتها على البدء. صمتت لحظة؛ تنتظر من يمنحها الكلمة الأولى. ولَمَّا لم تجد مهرباً من الكتابة، كتبت:

«لم أكن خائفةً منه... بل من نفسي، حين شعرت أنني أريد أن أبقى أطول مما يليق بي».

رفعت رأسها، نظرت إلى الجملة طويلاً، كأنها تحاول أن تفهم نفسها من خلالها.

أغلقت الدفتر ووضعت القلم فوقه، ثم استقامت بظهرها على الكرسي. تسلّلت لُجَيْن إلى الحجرة، قعدت عند قدميها، وبدأت تمرّر لسانها على فرائها بهدوء. نظرت إليها شجن؛ لم تبسم، لكن ملامحها لانّت قليلاً. كان صوت المذياع في الحجرة المجاورة مستمراً، وفي داخلها تتردّد جملة واحدة:

شيءٌ بدأ... ولن يعود كما كان.

لم تتم القحمة تلك الليلة كما ينبغي. أغلقت شجن نافذتها على خيطٍ خفيف من الضوء، وفي بيت الجد فتح راشد عينيه على مقبرةٍ بلا أسماء. بثَّ الليل ظلاله على قلبين متباعدين، ثمَّ انكمش على نفسه تاركًا خلفه أثرًا لا يُمحي بسهولة.

انتفض راشد من حلمه قبل أن يكتمل؛ رأى نفسه واقفًا عند المقبرة: أرضٌ مبتلّة، سماءٌ رماديّة، وقبرٌ جديد لا اسم له ولا شاهد.. ترابٌ منثور، واليد التي نثرته اختفت. وخلفه طفلة بثوبٍ رثٍّ، يتقطّر شعرها ماءً، ويدها ممتدّة نحو البحر، حتى خيّل إليه أن الموج يمدّ أطرافه إلى حدود المقبرة. لم ينفتح القبر على جسدٍ، بل على صرخاتٍ متقطّعةٍ ترتفع ثم تخبو. أثارُ أقدام صغيرة على الرمل... خطوة، فثانية، فثالثة، ثمَّ تنقطع كأن الأرض ابتلعته.

عندها فزع راشد من نومه، أنفاسه مضطربة، ويده تتحسّس ما يثبت هذا الجسد الذي أفلت من كابوسٍ. جلس طويلاً، والحلم عالق في عينيه، والعرق على جبينه امتدّ أثره إلى ذاكرته. تطلّع إلى الجدار ثم إلى النافذة، دون رغبةٍ في مغادرة الفراش. مدّ يده إلى الكوب على الطاولة، شرب قليلاً من الماء، ثمَّ أعاده إلى مكانه، ونهض.

دخل الحَمّام، وغسل وجهه بالماء البارد، فانساب الانتعاش على ملامحه. مرّر يده في شعره، ثم عاد إلى الحجرة.

فتح دفتر الرموز، واكتفى بالنظر إلى بياض صفحاته، يبحث عن جملة ضاعت منه عند تخوم الحلم. رفع بصره إلى المرأة، فلم ير وجهه المؤلف؛ رأى صورة ساكنة تُذكره بما لم يهدأ منذ نظرة شجن الأخيرة، ومنذ الورقة المختبئة في جيبه. قال في سرّه: «هي الوحيدة التي تمحو أثر كوابيسي».

وقف عند النافذة لحظة، تابع الضوء المتسلل، ثم فتحها قليلاً ليدخل هواء الصباح. تنفّس بعمق، وشعر بانشرح خفيف في صدره يمنحه إحساساً بفرصة جديدة لفهم ما فاتته. ابتعد عن النافذة، سحب ثوبه عن المشجب، ارتداه على روية، رتب أكمامه، التقط مفاتيحه، وخرج.

خرج راشد إلى الطريق، والقرية لا تزال نصف نائمة؛ البيوت محاطة بالصمت، وأصوات الديكة تأتي متقطّعةً من بعيد. مضى لا يعرف إن كان يقصد مكاناً بعينه أم يترك لقدميه حرية الاختيار. الأزقة الضيقة تمتدُّ بهدوء، والنوافذ المغلقة تخفي خلفها حركة حياة تستيقظ بتؤدة.

عند الحائط في آخر الزقاق، لمح فارس جالساً على حجر، يحدّق في الفراغ بعينين مرهقتين. اقترب منه وقال: «صباح الخير يا فارس».

رفع فارس رأسه وقد بان عليه أثر السهر، وقال: «راشد؟ لم أتوقّع أن أراك في هذا الوقت».

جلس راشد إلى جواره وسأله: «لم تتم؟»

قال فارس وهو ينظر إلى الجدار المقابل: «أحلامٌ تطاردني...

كلما أغمضت عيني وجدت نفسي في مكان مجهول».

فقال راشد: «يبدو أننا نتقاسم النوع نفسه من الليالي... القهوة قد تُعيننا».

ابتسم فارس وقال: «فلنجرب».

نهضاً معاً، وسارا نحو السوق. بدا الطريق أكثر حركةً ممّا ظنّا؛ الغبار يتصاعد مع الخطى، وأبواب البيوت تتعاقب في الانفتاح، وفي البعيد تأتي نداءات البحّارة من جهة الساحل، يتنادون وهم يدفعون مراكبهم إلى الماء. كان الناس يخرجون تباعاً من بيوتهم، وجوههم نصف مستيقظة، وتحياتهم تتردّد بنغمةٍ وادعة.

ولمّا بلغا المقهى، قال راشد وهو يلتفت إلى فارس: «المقهى كما تركناه.. لم يتغيّر فيه شيء».

ردّ فارس: «مثل الوجوه».

دخلا؛ الوجوه ذاتها، وأصوات الملاعق تُحرّك السكون برنينٍ خفيف.

عند الطاولة الأولى جلس عايض الصيّاد ورجلان آخران؛ أحدهما يداعب سبحةً خشبية، والثاني يراقب المارّين من خلف الزجاج.

ألقي راشد السلام، فردّ عايض التحية، ثم أشار إليهما بالجلوس. جلسا، وطلب راشد فنجانين قهوة.

قال عايض وهو يضع فنجانه على الطاولة:

«ليلُ الأمس كان ثقيلاً.. شيءٌ يطرق الجدران ثم يمضي دون أن يدخل».

قال الرجل الجالس بقرينه:

«لا أحد ينام نومًا هانئًا في هذه الأيام».

ثُمَّ عَلَّقَ الرَّجُلُ الثَّانِي بِنَبْرَةٍ وَاهِنَةٍ: «النَّوْمُ لَمْ يَعِدْ رَاحَةً... هُوَ بَابٌ يَعِيدُنَا إِلَى مَا نَهْرَبُ مِنْهُ».

صَمَتُوا قَلِيلًا، قَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ الشَّيْخُ أَبُو سَلْمَانَ وَهُوَ يَدِيرُ فَنجَانَهُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: «سَمِعْتُ عَنْ امْرَأَةٍ فِي طَرَفِ الْقَرْيَةِ.. يَأْتُونَ إِلَيْهَا لِتَقْرَأَ الْفَالَ مِنَ الْقَوَاقِعِ وَالنَّوَى».

رَفَعَ فَارِسُ رَأْسِهِ؛ الْجُمْلَةُ لَامَسَتْ شَيْئًا عَمِيقًا فِيهِ.

تَابَعَ أَبُو سَلْمَانَ: «اسْمُهَا الْعَرَّافَةُ صَيْتَةٌ. لَا تَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ، لَكِنَّا تُنْذِرُ بِمَا يَنْتَظِرُكَ».

أَضَافَ عَايِضٌ: «يَقُولُونَ إِنَّ مَنْ يَجْلِسُ أَمَامَهَا لَا تَمْنَحُهُ جَوَابًا، بَلْ تَوْقُظُهُ مِنْ غَفْلَةٍ؛ تَرِيهِ مَا ضَاعَ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي».

حَرَّكَ الرَّجُلُ الثَّانِي أَصَابِعَهُ فَوْقَ الطَّاوِلَةِ وَقَالَ: «لَا يَطْرُقُ بَابُهَا إِلَّا مَنْ أَمْتَلَكَ شَجَاعَةٌ مُوَاجِهَةً مَا تَهْرَبُ مِنْهُ نَفْسُهُ».

نَظَرَ فَارِسٌ إِلَى فَنجَانِهِ الْفَارِغِ لِحِظَةٍ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَيْنَ تَقِيمُ؟»

أَجَابَ أَبُو سَلْمَانَ: «قَرَبَ النَّخْلَةِ الْمَقْطُوعَةِ. لَا تَطْرُقُ بَابُهَا؛ انْتَظِرْ أَنْ تَقُولَ لَكَ: ادْخُلْ».

أَوْمَأَ فَارِسُ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى فَنجَانِهِ، كَأَنَّ الْفِكْرَةَ الَّتِي رَاوَدَتْهُ وَجَدَتْ أَخِيرًا مَنْفُذًا فِي دَاخِلِهِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحِظَةِ، انْسَابَ صَوْتُ خَافَتٍ مِنْ طَرَفِ السُّوقِ؛ لَمْ يَكُنْ غِنَاءً كَامِلًا وَلَا عَزْفًا تَامًا، كَانَ نَغْمَةً وَحِيدَةً امْتَدَّتْ امْتِدَادَ تَهْيِيدَةٍ بَعِيدَةٍ. انْفَتَحُوا جَمِيعًا نَحْوَ الْمَصْدَرِ، فَإِذَا بِرَجُلٍ يَجْلِسُ فِي الظِّلِّ قَرَبَ شَجَرَةِ السِّدْرِ، سَمْسَمِيَّتُهُ عَلَى فَخْذِهِ، وَوَجْهُهُ مَنكَسٌ نَحْوَ الْأَرْضِ.

قال الصياد متنهّداً: «ذاك وضاح.. لا أحد في القحمة يمسّ أوتار الحزن كما يفعل، كلّ ما فيه انكسر، إلا سسميّته».

قال راشد: «ما قصته؟»

أسند الصياد كفّه إلى الطاولة، وصمت لحظةً كأنه ينتشل القصة من قاع بعيد، ثم قال بصوتٍ متهدّج غلبت عليه المرارة: «منذ أعوامٍ جاء وضّاح إلى القحمة يلتمس رزقاً. كان شاباً وديعاً، لا يملك من الدنيا سوى سسميةٍ وضميرٍ يعرف الطريق إلى الصدق. كان يبيع الحطب في السوق، يجرّه على ظهره، ويقف عند الزاوية ذاتها كلّ صباح، ينتظر أن يمرّ من يشتري.

وفي يوم من تلك الأيام رآها...

كانت تمرّ هناك دائماً؛ هند بنت الشيخ سراج، ابنة الحسب والمكانة، لا تبتاع شيئاً، فقط تمشي بين الناس كأنها تعالين عالماً غريباً عليها. رفع رأسه فرآها، ولم يعرف ماذا يقول.

لم تتكلم يومها، لكنها عادت في الغد، ثم في الذي يليه. لا أحد علم من أين بدأت الحكاية، ولا أحد عرف إلى ماذا انتهت. كانت تقف بعيداً وتراقبه وهو يشدّ حزم الحطب. لم يكن يجرؤ أن ينظر إليها كامرأة جميلة أو ابنة شيخ؛ كانت شيئاً يثير في القلب رهبةً تمنع صاحبه من الاقتراب.

وحين تجاسرت يوماً وقالت له أول كلمة، لم يرفع عينيه، واكتفى بأن تتمم: «إن كنتِ تسألين عن الحطب، فليس مثلك من يشتريه».

فابتسمت وقالت: «أنا لا أبحث عن الحطب، أبحث عن الاحتراق».

أحبّها وضاح كما لا يحبّ المرء إلا مرةً واحدة؛ حبًّا خاليًا من الطمع، نقيًّا، يعرف أنه لا نصيب له فيه، فيضيء لحظةً ثم يخبو. صارت تمرّ كل يوم، وتترك خلفها أثرًا: على الحطب، على الرمل، وعلى أوتار سمسميته. تغيّر كل شيء فيه؛ صار يخرج باكراً، يرتّب ثوبه بعناية، يغسل وجهه عند البئر، وينتظرها كمن ينتظر يومًا لا يبدأ إلا بطلّتها.

لكن العرف لا يصفح عن الأحلام؛ لمّا بلغ الشيخ سراج ما يدور بينهما، أغلق الأبواب عليها. وقال للناس: «كيف لابنة شيخ أن تهوى بائع حطبٍ يجرّ رزقه على كتفيه؟» وقالت أمها: «إن أحببته ضيّعت نفسك واسم عائلتك». آثرت هند الصمت، دون اعتراض أو تبرير.

توقّف. عايش، تطلّع إلى وجوه الرجال، ثم خفض صوته كمن يروي سرًّا أثقل صدره: «وفي صباح لم يهنأ به بيت الشيخ.. وجدوها في غرفتها، مسندةً إلى الجدار، وعيناها مفتوحتان، كأنهما ترفضان الإقرار بأن النهاية قد حلّت». سكت قليلًا، ثم همس: «ماتت هند».

فانكمش المقهى على صمته، وسرت في الهواء كآبة عميقة لم يجروا أحد على كسرهما.

أضاف الصياد بعد برهةٍ كأنها التقطت ما تبقي في صدره من حكاية: «أمّا وضّاح، فلم يشهد عزاءها؛ لم يظهر في السوق، ولم يُسمع له وقعٌ أو همس. اختفى أيامًا طويلة. قيل إنّه مضى إلى البحر، وقال آخرون إلى الجبل، لكن أحدًا لم يصدّق روايةً بعينها. وبعد ليالٍ من الغياب عاد... عاد حافي القدمين، خافت

الملاح، يحمل سمسمينه كأنها أثقل من روحه. جلس عند شجرة السدر التي كانت تمرّ من أمامها، وأسند الآلة إلى فخذه، وبدأ يعزف.

غير أنّ ما خرج لم يكن لحناً، بل شهقةٌ ممتدّة، خرجت من أعماقه ولم ترجع. ومنذ تلك الليلة لم يُرَ يحمل حطباً، ولا رآه أحدٌ يضحك، ولا نُقل عنه أنه نطق بكلمة. صارت السمسمية صوته الوحيد، فإذا انساب عزفه خفتت الأصوات في السوق، وانطوت همهمات التجّار، حتى جابر المجنون يصمت لكل نغمةٍ منه كانت تشييعاً متأخراً لما تبقى فيه من حياة.

سكت عايض الصيّاد، وكلماته معلّقة في هواء المقهى مثل غبارٍ لا يسقط.

كان وضاح في مكانه عند شجرة السدر، رأسه منكسّ نحو الأرض، وسمسميته مستكيّنةً على فخذه. امتدّ صوته من بعيد نغمةً واحدةً طويلة، تتقطّع وتعود، تشبه أنيناً يعرف طريقه إلى القلب دون أن يستأذن.

قال الشيخ سلمان بصوتٍ مبحوح: «الذي يعزف للحزن.. يسمعه البحر».

لم يردّ أحد. ذابت عبارته مثل بخارٍ متلاشٍ في فضاء المقهى، ثم حلّ سكونٌ أثقل من الكلام.

أمّا راشد، فقد أحسّ بأن شيئاً داخله انكسر بصمت، كأن القصة التي رواها الصيّاد عن وضّاح كانت عنه أيضاً.. عن الذين أحبّوا في الخفاء، وخسروا في الخفاء، وما زالوا يقاومون كي لا ينهار ما تبقى منهم.

رفع بصره، وكاد يراها؛ جالسةً أمامه، لا بوجهٍ ولا بملامح، وإنما بظلٍّ داخليٍّ عبره كرجفةٍ خفيفةٍ في الجسد. إحساسٌ دافئ، ناعم، يشبه حنينًا يُلامس القلب قبل أن يُسمّى. كانت هناك... لا في العين، وإنما في موضعٍ أعمق، كأنّ المقهى امتلأ بها فجأةً، وشعر بها كما يُحسّ المرءُ برائحة المطر قبل أن يهطل. قال في سرّه: «الذين لا يعبرون عمّا يشعرون به، يصبحون يومًا قصةً تُروى على ألسنة الآخرين».

حرّك الكرسي قليلًا، نهض، وقال بصوتٍ واهن: «أستأذن». غادرهم كمن لم يترك للبقاء إلّا أن يضع قلبه على الطاولة ويرحل. لم يسأله أحدٌ إلى أين؛ ربما لأنّهم جميعًا كانوا يرحلون مثله في أعماقهم كلّ يوم.

جلس فارس في مكانه يتأمّل خطى راشد وهي تبتعد، وفي صدره رغبةٌ في اللحاق به، غير أنّه أدرك أنّ بعض المسافات لا تُجتزأ بالأقدام، بل بالاعترافات المؤجّلة التي تثقل الروح أكثر مما يثقلها الطريق.

غادر المقهى، والنهار يميل إلى ضوءٍ وديعٍ ينسحب عن السوق رويدًا. خفتت الأصوات، وتفرّق الناس كل يحمل يومه كما هو؛ بلا توقٍ ولا احتجاج، كأنهم يسرون داخل قدرٍ لا يتغيّر. وعند زقاقٍ جانبيٍّ من السوق، لمح الطفلة، واقفة بصمت وتنتظر إليه بثبات.

توقّف راشد لحظةً، تلمّس غرابةً في عينيها، ثم مضت هي بين الأزقة الضيقة، فتبعها بخطواتٍ حذرة، لا يعرف إلى أين تقوده.

مرّا بساحةٍ صغيرةٍ تنتصب فيها نخلةٌ وحيدة، وبئرٌ غارت نصفها في التراب، وعلى الجدار قريباً منهما اسمٌ تأكلت حروفه حتى كاد يختفي. توقّفت الطفلة أمام بيتٍ منخفض السقف، التفتت نحوه، ثم جلست على العتبة كأنّ مهمّتها انتهت.

هناك، عند العتبة نفسها، كان الطفل المشلول على الأرض، وفي يده ورقةٌ مطويّة. رفع رأسه حين اقترب راشد، لكنه لم يحدّق فيه؛ كانت عيناه متسمرتين في فراغٍ خلفه، كأنهما تريان شيئاً خفياً. مدّ الورقة نحوه بصمّتٍ خالٍ من الرجاء أو الخوف. تردّد راشد، ثم أخذ الورقة وفتحها.

رسمٌ غامض: دائرةٌ ينقطع وسطها بخطّين متصالبين، وفوقها عينٌ مشطوبة، وأسفلها خيطٌ دقيق يتشعّب في نهايته كجذرٍ يفتّش عن تربة. لم يفهم شيئاً. حدّق طويلاً، ينتظر أن ينبثق معنى من الرموز فلا ينبثق. طواها وأبقاها مشدودةً بين أصابعه. وفجأةً شقّ نباحٌ حادّ سكّون المكان. التفت راشد، فإذا بالكلب يقف على مقربة، عيناه تتقلّبان بينه وبين الطفل كأنهما تحملان رسالةً أعمق من الصوت. نبّح ثانية؛ نبرة حادةٌ أقرب إلى تحذير صريح.

الطفلة لم تذهل، والطفل هادئ، واللحظة تعقّدت حولهم تحبس أنفاسها.

اقترب الكلب خطوةً ثم عض طرف ثوب راشد برفقٍ غريب، وجذبه نحو جهةٍ أخرى، إشارةً لا لبس فيها. تردّد، ثم اتبع نظرة الكلب، وفي طرف الرؤية لمح ظلاً يمتدّ على الجدار المقابل. ظلٌّ نحيل بدأ يتّسع ثم ينكمش، ثم انسحب فجأة، كأنّ أحداً

كان يراقبهما وتواری حین انكشف. انزلت برودةٌ حادةٌ في أطرافه. قبض على الورقة بقوة، كأنها الشيء الوحيد المحسوس في هذا الغموض. التفت إلى الطفل، فكان لا يزال يحدّق في الاتجاه نفسه، شفتاه منطبقتان، ووجهه خالٍ من أي أثرٍ للحياة أو الدهشة.

سقطت الورقة عند قدميه، فانحنى ليلتقطها، غير أنّ أصابعه لامست أرضاً باردةً على نحوٍ غريب، حتى خيّل إليه أنّ الأرض تُحذره ألاّ يمدّ يده أكثر.

وفي اللحظة ذاتها تحرّك الباب حركةً خفيفةً وأصدر صريراً حاداً، ثم خرج من خلفه صوتٌ مبحوح، واضحٌ رغم خفوته، يناديه باسمه: «راشد...».

تجمّد في مكانه، والكلب عند العتبة يزمجر بحدةٍ متقطعة، كأنه يطرد طيفاً. وبعد ثوانٍ انغلق الباب من تلقاء نفسه؛ لا يد امتدّت إليه، ولا ریح هسّت الخشب، كأن يدّاً من غياب صرفٍ حسمت المشهد.

مكث راشد واقفاً، يتأرجح بين الدهشة والخوف، والورقة ما تزال عند قدميه. ابتعد خطوة، فرأى الطفل ينحني ويلتقط الورقة، ثم يرفعها إلى فمه ويمضغها، لا كطفلٍ يلهو، بل كمن يطوي سرّاً لا يجوز لأيّ عينٍ أن تطالعه. لم ينظر إلى راشد، لكن اللمعة التي ارتعشت في عينيه قالت كلّ ما يحاول الصمت أن يخفيه.

تراجع خطوةً أخرى، حملق إليه ولم يمدّ يده ليمنعه، ثم استدار وغادر الزقاق. والكلب خلفه عند العتبة، والطفل يضغط الورقة

المبتلة بين أصابعه وأسنانه، كأنه يبتلع جزءاً من حكاية لا يريد أن يعرفها أحد.

عاد راشد في اتجاه البيت، والشمس تتسحب مثل خيطٍ يُسحب من نسيج النهار، والقرية تزداد سكوناً كلما اقترب. بدت الأزقة التي مرّ بها أضيق ممّا يتذكّر، والجدران أعلى، حتى خُيِّل إليه أنّ المكان يراقبه من علّ.

لم يسمع سوى وقع خطواته، ومع ذلك كان يشعر بأنّ خلفه خطى أخرى تُحاذيه. توقّف وأصغى، فلم يسمع سوى الصمت المتحمّز. مضى، فعادت الخطوات، خافتةً تتبع إيقاعه، ثم تختفي كأنّ أحداً ينسحب إلى ظلّ جديد. اشتدّ انقباض صدره، مرّ بزقاقٍ يعرفه منذ صباه، لكن كلّ شيءٍ فيه بدا غريباً: الأبواب كأنها أُعيد ترتيبها، والجدران كأنها انزاحت قليلاً من أماكنها. شعر للحظة بأن أحد الجدران تحرّك وهو يعبره، فمال قليلاً إلى الجانب. كانت الظلال تتداخل أمامه وتتفصل، تتحرّك ثم تسكن، كأنها أجفانٌ ترمش في العتمة.

وحين بلغ الساحة التي تسبق بيت جدّه، بدا المكان ساكناً سكوناً يخالف طبائع المساء. الضوء يتلاشى، والهواء ينكمش، وعلى السور رأى الغراب: ثابت، جناحاه مطبقان، لم ينبق قط. نظر إليه راشد وقال في نفسه: «ماذا يريد؟». بثّ المشهد في صدره خوفاً مضاعفاً، ولم يجد لسؤاله جواباً.

وحين بلغ بيت الجد، دفع الباب ودخل مسرعاً. لم يُشعل ضوءاً.. ترك الحجرة على عتمتها الأولى، واكتفى بأن جلس على الأرض قرب الصندوق القديم. أخرج الخاتم من جيبه، ورفع

أمام وجهه؛ كان بريقه خافتاً، كأنه يخفي في جوفه سرّاً. مرّر إبهامه على سطحه، فشعر بحرارة تسري في راحته، ثم خبت. لم يعرف كيف يواجه ما تراكم عليه من صور: الكلب، والطفلة، والباب الذي انغلق وحده، والصوت الذي ناداه باسمه. أحداثٌ لا رابط ظاهراً بينها، على الرغم من أنه أحسّ بخيطٍ واحدٍ خفيّ يشده إلى جهةٍ لا يعرفها.

فتح الصندوق ووضع الخاتم بين الخنجر والورقة المحروقة والصورة المطموسة، ثم أغلق الغطاء كما يغلق المرء على سرٍّ يخشى أن يذكره أحد.

أمسك دفتر الرموز، وفتح صفحةً جديدة، وكتب بخطٍّ واضح: «ما يقترب مني ليس شخصاً ولا حكاية، بل شيءٌ لا يريد أن يكشف عن نفسه. الطفل لا يرسم، إنه يحرس شيئاً لا أعرفه. الدائرة، والخطّان، والعين المشطوبة... إشاراتٌ لا تُفتح إلا من جهةٍ واحدة، ولا أعرف أين تؤدي».

توقّف هنيهة، ثم أضاف: «لم أعد إلى القحمة لأكمل ما بدأ، بل لأفهم ما لم يتوقّف».

أغلق الدفتر ووضعه إلى جوار الصندوق، ثم تمدّد على فراشه، وأطلق زفرةً طويلة كأنها آخر ما تبقى من يومه. ساد الصمتُ المكان، فأغمض عينيه، وترك نفسه لسكينةٍ جاءت متأخرة، وهو يعلم أنها، مهما طالّت، لن تمحو ما رآه اليوم.

وفي ناحيةٍ أخرى من القحمة... كان هناك بيتٌ لا ينام؛ يتهيأ لليلٍ لا يشبه سائر الليالي.

الليل في القحمة ليس كليل المدن؛ لا تغشاه الأضواء، ولا تشقّ سكينته خطوات العابرين، بل يسدل الدجى سدوله على البيوت كدثار رقيق يستقرّ فوقها، فتستعيد الأشياء ملامح سكينتها الأولى.

يمتدّ الصمت في الأزقة، والبحر - وإن احتجب عن العين - يبقى حاضراً في خفقة نافذة، وفي ذلك التوتّر الخفيف الذي يعترى الليل حين يطول.

وفي بيت أبي فارس كان الصمت على غير ما اعتادته الجدران؛ ليس هدوءاً يصفو آخر الليل، بل سكوناً موارباً يوحى بشيءٍ يقترب ولا يتجلّى. كلُّ في حجرته، ومع ذلك جمعهم الليل في صمتٍ واحد لا يعرفون له علّة، ولا يملكون القدرة على الفكّك منه.

كانت أمانى في حجرتها، جالسة على سريرها، نصفها في الضوء ونصفها الآخر في الظلّ، كأنها معلقة بين ضفتين لا تتصالحان. ضفيرتها مشدودة على عجل، وثوبها القاتم لا يشي بفرجٍ كامل ولا بحزنٍ مكتمل. فوقها فانوس ضعيف يتأرجح ضوءه كلما تحرّكت الستارة، فينسحب النور عن وجهها ثم يعود إلى يديها. لم تكن تفعل شيئاً محدّداً؛ فقط تُحدّق في الضوء، كأنها ترجوه أن يستعيد ما انكسر منها. وفي رأسها تتردّد جملة أمّها القديمة كلّما جلست هكذا: «لا شيء يعود كما كان بعد أن ينكسر».

كان البيت هادئاً، غير أنّ هذا الهدوء بدا هذه الليلة أثقل مما عهدته؛ كأن السكون لا يطمئن، بل يضغط عليها من الجهات كلّها. ضاق بها الليل حتى لم يترك لها منفذاً للهرب. تُصغي فلا تلتقط سوى خفقاتٍ بعيدة، تُخيّل إليها قادمةً من موضع مجهول، وهمسٍ متقطّعٍ يجيء ثم يخبو، يذكرّها بأن الليل -مهماً سكن- لا ينام حقّاً.

عادت إليها نظرات أبيها حين تضحك، وذلك الصمت القاسي الذي يسبق كلماته، وكيف كانت ملامحه وحدها تكفي لتعيدها إلى وقارٍ لا تدري أكان احتراماً أم خشية. سألت نفسها: متى ضحكت آخر مرة دون أن تفكّر في ما عساه يقول لو رآها؟ ولماذا صار الفرح عندها أمراً يحتاج إلى إذن، كأن الضحك في هذا البيت خطيئة لا شعوراً بريئاً؟

رفعت يدها إلى ضفيرتها ثم تركتها تنزل على كتفها. تأملت الضوء المعلق فوقها، يتراقص ويلقي على الجدار ظلّاً يتحرّك كلما مالت الستارة. أحسّت أنّ الوقت لا يمضي، وأن الليل هذه المرة أبطأ من سواء، كأنه ينتظر حدثاً لا تعرفه. مرّ بخاطرها وجهٌ رأتَه في السوق، نظرة عابرة ما تزال عالقة فيها كوميضٍ قصير لم يخمد بعد. حاولت أن تطرده من ذهنها، لكنّها أدركت أنّ تلك النظرة -على عابرية لحظتها- تركت أثراً أعمق مما ظنّت. نظرت حولها، فلم تجد إلا سكواً يزداد كثافة كلما حاولت تجاهله. عندها أحسّت بأن هذه الليلة ليست كغيرها، وأن شيئاً صغيراً تبدّل فيها، مهماً بدا العالم من حولها على حاله.

وفي الحجرة المجاورة، كان فارس ممدداً على الأرض، وسادته إلى جانبه، وذراعه خلف رأسه كمن يحاول أن يثبت أفكاره قبل أن تتفلت منه. أغمض عينيه لا طلباً للنوم، بل إطباقاً على أسئلةٍ ظلت تتخمر في صدره سنواتٍ طويلة. يضغط جفنيه كمن يجبس وجعاً يريد الانفلات، ثم يفتحهما متطلعاً إلى السقف بعينين أثقل من أن تبقيان سرّاً في داخله.

السؤال نفسه يطارده: هل رأى ما لم يكن ينبغي أن يراه؟ منذ عاد راشد، بدأ ما دفنه في الأعماق يطفو من جديد، كندبةٍ لم تُشفَ تتسرّب منها قطرةٌ من ذاكرةٍ لا تجفّ. عادت اللحظة التي ظلت تطارده، لحظة الغرق التي لم يستطع محوها؛ حين وقف خلف الأشجار يشاهد البحر يبتلع خالداً، ولا يحرك في جسده عضلةً واحدة. لا يزال يسمع ارتفاع الموج، ويرى اليد ترتفع لحظةً ثم تختفي، ويرى نفسه واقفاً على الحافة... لا يمدّ يداً، ولا يصرخ، فقط ينظر إليه وهو يغيب تحت الماء.

لم يعرف يومها ما الذي شلّه: أهو الخوف الذي كبّله؟ أم الجبن الذي استيقظ فيه حين أطلال النظر إلى البحر؟ لبث شاخصاً يتتبع خطوط السقف يلتمس منفذاً لا وجود له. شعر بجسده غريباً عنه، ثقيلًا، كأن قوةً مجهولة تشده إلى ناحيةٍ لا يعرفها؛ لا ينتمي تماماً إلى الحياة، ولا يستطيع الانفكاك منها. تعود إليه الفكرة نفسها كل ليلة، على هيئةٍ جديدة وسؤالٍ مُلح:

ماذا لو توقّف كل شيء؟

إذا سكنت الحركة.. وانطفأت الأصوات...

وأصبح الليلُ آخر ما يبقى؟

لم يكن يخطُّطُ لشيء، بل يتخيَّل تلك اللحظة التي يختفي فيها أثره من هذا العالم، كما تختفي الموجة حين تنكسر ثم تذوب في العتمة دون أن ينتبه إليها أحد.

كانت أمُّ فارس تتنقَّل بين الحجرات بخطواتٍ محسوبة، لا تبحث عن شيءٍ بعينه، غير أنها تعرف مواضع كلِّ شيء في البيت كما لو حفظته سطرًا سطرًا. وجهها شاحب؛ لا لمرضٍ، إنما لتعبٍ تراكمت طبقاته على ملامحها حتى غدا جزءًا منها. ترتب الحصرير وتسوي أطرافه، تفتح غطاء الدلَّة وتعيد إغلاقه، لا رغبةً في إعداد القهوة، إنما لتتأكد أنَّ الصمت لا يخبئ وراءه خيبة أخرى. تمرر يدها على ما حولها بلمساتٍ خفيفة، كمن يطمئن إلى أن البيت ما زال ثابتًا في مكانه. ثم تلتفت إلى الفانوس المعلق في الزاوية، تشعل فتيلته، كأنها تدفع عنه ظلمة تعرف أنَّ لها طريقًا محفوظًا إلى هذه الجدران. يتأرجح الضوء فوق محياها؛ فتبدو ملامحها مرَّةً ساكنة ومرَّةً غارقة في تأملٍ بعيد، وفي عينيها بقايا قلقٍ تعرفه جيدًا. تدرك أنَّ هذا البيت تبدل، وأن فارسًا لم يعد فارس الأمس، وأنَّ أبا فارس يخفي عنها أمرًا لا يريد البوح به. ومع ذلك تمضي بصمتها المعهود؛ لا تسأل، ولا تلاحق ما يخبئ خلف الكلمات، وتكتفي بأن تتابع الضوء وهو يخبو، ثم ترفع بصرها إلى السقف كمن يرجو أن يمرَّ الليل هذه المرَّة بسلام.

وفي الفناء، كان أبو فارس جالساً وحده على مقعد خشبيٍّ قريبٍ من الجدار. الفانوس يتأرجح كلما مرّت نسمةٌ رقيقة؛ فيضطرب ضوءه قليلاً ثم يستقيم، ويرتسم على ملامحه المتعبة خطٌ ضوءٍ يطول ويقصر. أمامه كوبٌ تركه مكانه منذ أن جلس؛ برد ما فيه حتى فقد المذاق والرغبة. عيناه معلقتان في الفراغ، لا تقفان عند شيءٍ بعينه، كأنهما تبحثان في المسافة الهادئة بين النور والظلام عن معنى لا يريد أن يتجلّى. منذ أن رأى الطفل المشلول، لم يزره النوم قط؛ النظرة التي رآها في عيني الصغير ما تزال تُطارده، كأنها تسأله عمّ يعرفه في أعماقه ولا يريد مواجهته. والرسم لا تفارقه: ذلك الجبل المرسوم بيدٍ واثقة، تماماً كما يعرفه هو، قائماً في ذهنه الآن كأنه يراه أمامه.

حاول أن يهرب من الفكرة بأن يمشي أو يتكلّم إلى نفسه، لكن الكلمات خانتَه. مدّ يده إلى الكوب ثم أعادها. أحسّ أن الليل يطول، وأن الفناء أضيق من العادة، وأنه لو أغمض عينيه ثانية واحدة فسيرى أكثر مما يحتمل. أسند ظهره إلى الجدار، وتراجع في جلسته، والضوء يتماوج على وجهه حتى غلبته رغبةٌ ثقيلة في إغماض عينيه. وكان آخر ما رآه قبل أن يأخذه النعاس خيط الدخان الصاعد من فتيلة الفانوس: خيطٌ نحيل، يلتفّ ببطء ثم يذوب في العتمة... ثم هوت عليه غفوةٌ قصيرة لم يدرك أنها فاتحة الحلم.

في الحلم، لم تكن للأرض حدود. كانت القحمة غارقةً في ضبابٍ كثيف، والبحر يتقدّم من البعيد بماءٍ لا لون له سوى عتمةٍ تعلوها ومضاتٌ متقطّعة. ومن قلب ذلك الغيم انبعث الجبل، لا

ساكنًا كما عهدوه، بل نابضًا، يلفظ هواءً حارًا كلما اهتزَّ جسده،
كأنَّ في جوفه شيئًا يستعدُّ للانفجار.

ثمَّ أبصر الطفل جالسًا عند السفح، يمدُّ يده إلى الرمل كمن
يحفر عن سرٍّ يعرف موضعه. لم يكن يرسم، بل يستخرج خطوطًا
مطمورة تحت التراب: خطُّ الجبل أولاً، ثم خطًّا تحته، فدايرةً في
وسطه، ثم عينًا وحيدةً فوقه. وكانت تلك الخطوط تتسع كلما
سكنت يده.

وفجأة تحرَّك الغراب؛ لم يهبط من السماء، إنما خرج من
ناحيةٍ مرتفعة من الأرض، مشى خطواتٍ ثابتة ثم ارتفع بجناحين
عريضين حتى بلغ قمة الجبل، وهناك وقف. كانت الريشة البيضاء
في جناحه تلمع على ضوءٍ مجهول المصدر، كأنها إشارة تحذير.
لم يُصدر نعيقًا، غير أنَّه أحسَّ بأنه يخاطبه بعينه، وأنَّ ما يراه
ليس حلمًا، بل عهدٌ قديم يعود ليتجدد.

ارتجف الجبل فجأة، واهتزَّت الأرض معه، وبين كلِّ رجفةٍ
وأخرى كان يسمع همسًا يقترب: «إذا سُفك الدم.. فلا عودة إلى
الوراء».

لم يعرف مصدر الصوت، لكن الكلمات دوَّت في صدره كصفعة.
التفت حوله، فإذا برجلين يقفان عند حافة الماء، وبينهما طفلٌ،
والبحر ساكنٌ يراقب. ومن خلف شجرةٍ قريبة لمح طرفٌ ثوبٍ
يتحرَّك مع الريح؛ امرأةٌ تختبئ وراء الجذع، لا يظهر منها سوى
ظلٍّ يرقب المشهد في صمت.

ولمَّا رفع الطفل بصره نحوه، ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ
غريبة لا تشبه سنَّه ولا ملامحه؛ بدت توقيعًا على عهدٍ لا رجوع

عنه. وفي تلك اللحظة انفجرت الأرض من باطن الرسم، وتدفق
الظلام حتى غمر كل ما حوله.

انتفض أبو فارس من نومه، جسده مبتلٌ بالعرق، وصدره يعلو
ويهبط، لا يدري إن كان ما رآه حلمًا أم شيئًا قديمًا عاد ليوقلبه.
تطلع حوله بفزع مباغت؛ الفناء ما يزال كما تركه، والфанوس يبعث
ضوءًا خافتًا يترنح مع النسيم. مرّ يده على وجهه ثم صدره،
وشعر بألم خفيف عند خاصرته، كأنّ الحلم ترك في جسده أثرًا.
تجمد في مكانه متسائلًا إن كان ما رآه رؤيا أم بقايا ذاكرة لم
تُدفن. رفع رأسه نحو السماء؛ لم يبرز الفجر بعد، بيد أنّ العتمة
بدأت تتحسر. وعند الباب وقفت أم فارس حاملةً كوب ماء. ناولته
إياه بصمت، فعبّ منه وعيناه شاخستان بالضوء المتأرجح، لعله
يستجلي فيه تأويلًا لتلك الرؤيا.

وحين وضع الكوب إلى جانبه، قالت أم فارس: «نم قليلًا..
الفجر اقترب». اكتفى بإيماءً واهنة، ونهض يجرّ خطاه. وعند
العتبة، التفت صوب الفناء؛ مستشعرًا طيفًا غامضًا عالقًا في
الهواء، كأنّ الحلم لم يغادر المكان. أوصد باب الحجرة ففرق
البيت في صمت يرقب أول خيطٍ من الفجر.

حين هبط الليل على القرية، كان بيتُ شجن آخرَ بيتٍ تُطفأ أنواره. السكينة فيه لا تُشبه سكون البيوت الأخرى؛ هدوؤه أقرب إلى لحظةٍ يُرهف فيها القلب سمعه أكثر ممّا يستسلم للنوم. في صدر حجرتها جلست بثوبٍ أخضر، وأمامها نافذةٌ مشرعة على ليلٍ لم تجرؤ بعد على إغلاقه.

لم تكن تقرأ، وإن ظلَّ الكتاب مفتوحاً أمامها منذ زمن؛ عيناها مشدودتان إلى النافذة أكثر من السطور؛ تترقب شيئاً يتحرك في أعماق الظلام. عند قدميها تمددت لُجَيْن، تنظر إليها بعينٍ ألفت التعب، ملازمة مكانها كحارسٍ أخير لليل. كانت تهز ذيلها حيناً ثم تسكن، فإذا لامستها شجن بباطن كفّها هدأت وأغمضت عينيها، ويسري الدفء من الفراء إلى قلب شجن، كأن الأمان انتقل بينهما بلا كلمة.

منذ عادت من المكتبة، لم يهدأ في داخلها شيء. الجملة التي كتبتها على الورقة تطاردها كاعترافٍ لم تتبّه إلى ثقله، وملامحه تعود إليها كلما مرّت أصابعها على الصفحة التي خبّأت بينها الورقة. لم تكتب لتعرفه بنفسها، بل لتطمئن قلبها أنها قالت ما كان يريد أن يقوله، غير أنّ الكلمات ما إن خرجت منها حتى غدت أكبر منها. ومنذ تلك اللحظة تغيّر كل شيءٍ فيها: جلستها، ونظرتها إلى النافذة، وطريقة انتظارها لليل. صارت تقف عند النافذة طويلاً، لا ترى شيئاً، لكنها تشعر بأن شيئاً في الخارج يراها. وحين يبدأ ضوء النهار يتسرّب، تجرّ الستارة وتعيد العتمة

إلى مكانها؛ فالفجر -في نظرها- يكشف ما يحاول الليل إخفاءه. لم يكن في الأمر وعدٌ ولا موعد، بل يقينٌ يشبه الانتظار أكثر مما يشبه الأمل.

ومن الحجرة المجاورة جاء صوت أمّها، دافئًا، يغلفه قلقٌ تحاول إخفاءه: «شجن، لم تُغلقِ النافذة بعد؟»

فأجابت: «لا حاجة لي إلى ذلك؛ الليل لا يؤذيني».

ساد صمتٌ هنيء، ثم قالت الأم بنبرةٍ تلامس الهمس: «صمتك يخيفني يا شجن».

لم تُجب؛ مالت برأسها قليلًا نحو النافذة، كأنها تنصت إلى شيءٍ أبعد من الكلام. حرّكت الستارة برفق، ثم أغلقت النافذة فعاد الصمت إلى حاله.

لم تمضِ دقائق على ابتعاد الأم حتى تردّد على الباب طرقٌ خفيف. ظنّت في البدء أن الريح حرّكت أحد الألواح، غير أنّ الصوت عاد بنفس الوقع الذي تعرفه. نهضت وفتحت الباب، فإذا منيرة واقفة عند العتبة، تبسم بخجلٍ كمن يريد التأكد أنّ وقت الزيارة لم يُزعج صديقتها. قالت بهدوء: «لم أستطع النوم.. ففكرت أن أمّر بك لأراك قليلًا».

ابتسمت شجن وقالت: «ادخلي.. كنتُ بحاجةٍ إلى مَنْ يؤنسني في هذا الليل».

دخلت منيرة، وأغلقت الباب وراءها. أشعلت شجن الفانوس قرب النافذة، فامتلأت الحجرة بضوءٍ دافئٍ يخفف من عتمتها، ثم جلستا متقابلتين. قفزت القطة إلى طرف الكرسي، تمدّدت بينهما بكسلٍ مطمئن... فقد حفظت مكانها كلما اجتمعتا.

في الخارج كان الليل ساكناً، كأنَّ العالم أفسح لهما مكاناً يليق بالحديث. وكان حضور منيرة بسيطاً، غير أنَّه يكفي ليخفف من وحدة الحجر.

نظرت منيرة إلى وهج الفانوس المتراجع وقالت: «ما الذي أبقاك مستيقظةً إلى هذا الوقت؟»
تبسَّمت شجن وقالت: «الليل هنا أطول مما أحتمل.. وإن أغمضتُ عيني، فإنَّ ذاكرتي لا تنام».
فكرت منيرة لحظةً، ثم سألتها:
«هل يشغلك أمر بعينه؟»

حرَّكت شجن أصابعها على حافة الكرسي وقالت: «لا شيء محدداً.. لكنَّ الصور تتزاحم حين يهدأ كلُّ شيء».
تردَّدت منيرة قليلاً، ثم تقول: «منذ يوم المكتبة وأنتِ مختلفة.. حتى صمتك تغير».

رفعت شجن عينيها نحوها، لا تنفي ولا تقر، ثم قالت بنبرة خافتة: «بعض اللقاءات لا تُنسى... ولو مرَّت مرور العابرين».
ابتسمت منيرة وقالت: «لأنها تلامس فينا شيئاً نحاول إخفاءه بابتسامة».

قهقهت شجن وقالت: «أنتِ تفهمين أكثر مما أقول».
ردَّت منيرة: «لأننا نشبه بعضنا.. كلتانا تنتظر ما لا تدري إن كان سيعود».

ساد صمتٌ رخمٍ. كانت لُجين قد غفت على طرف الكرسي، والفانوس يخفت ضوءه شيئاً فشيئاً.

تأمّلت منيرة وجه شجن، نصفه مضاء ونصفه غارق في الظل، ثم قالت بصوتٍ منخفض: «أتعلمين؟ فيك شيء لا نراه جميعاً... شيء يجعل حضورك قريباً وبعيداً في آن واحد. حتى حين تتكلمين، تبدين كأنك تُحدّثين شخصاً آخر في داخلك».

لم تُجب شجن، غير أن نظرتها وحدها كانت كافية لتجعل الظنّ يقيناً. تابعت منيرة بنبرةٍ أخفّ: «أخشى أن يبتلعك هذا الصمت يا شجن.. فالإنسان إذا أكثر الإصغاء إلى داخله كاد يسمع ما لا يُحتمل».

تهتدت شجن وقالت: «لا أخاف الصمت.. أخاف أن أفقد ما يسمعه قلبي فيه».

ظلّت منيرة تحدّق فيها برهة، ثم نهضت وقالت: «حسناً، لن أطيل الحديث.. فقط تذكّري أنني هنا إن احتجت إلى مَنْ يكسر هدوء ليلك».

رافقتها شجن إلى الباب، وتبادلتا ابتسامةً لا تحتاج إلى كلمات. أغلقت شجن الباب برفق، وعادت إلى النافذة، والفانوس يذوب ضوءه رويداً رويداً.

عجوز البحر

لا أحد يعرف كيف يبدأ الفجر في القحمة إلا عجوز البحر. كانت تقيم في بيتٍ صغيرٍ متهاكٍ عند حافة الماء، يلاصق الموج كأنه وُضع هناك ليبقى شاهداً. وحين يقترب الفجر، تجلس عند العتبة، تتكئ بثقل سنّها على الجدار، فلا يُدرى أيّهما يساند الآخر. يقول أهل القحمة إنّها تبصر ما لا يراه غيرها، وإنّ البحر إذا دنا منها هداً، كأنّه يسلم لها أسرارهِ القديمة. كانت تردد أنّ الضوء لا يولد من الشرق، وإنما من مكانٍ أعمق، وأن النهار لا يدخل القرية دفعةً واحدة، بل يتسلل إليها بتردّد، كمن يخشى أن يوقظ ما تركه الليل نائماً.

ومع كل فجرٍ، ترى ما لا يراه أحد: غريبان سوداء تهبط من جهة الجبل، وأخرى بيضاء تأتي من جهة البحر؛ تلتقي فوق البيوت كخصمين عتيقين: السوداء تسحب الليل وراءها، والبيضاء تحاول أن تنتثر الخيط الأول من الضوء. تدور قليلاً في السماء، ثم تنفصل؛ تعود السوداء إلى الجبال، وتذوب البيضاء في الأفق. تتابعهنّ العجوز بعينٍ حادة، تحفظ العدد والاتجاه، ثم تتمتم: «اليوم سيكون هادئاً». وبعدها تغلق بابها وتختفي خلفه قبل أن يلمحها أحد.

تعرف أن ما تراه لا يُقال؛ فالقحمة، مهما سمّعت، لا تصدّق إلا ما يلمس باليد ويُرَى بالعين. تحمل في داخلها علماً لا يصلح للبحر، وتعرف أنّ الصمت هو الطريقة الوحيدة للنجاة. وبعد أن تغيب، لا يتحرّك الزمن مباشرة؛ تقف اللحظة مترددة في مكانها،

كأنّها تبحث عن تفسير لما مضى، ثم تمضي تاركةً خلفها صمتاً يشبه بداية حكاية جديدة. وفي كل صباح تهمس العجوز لنفسها أنّ النور -مهما انبثق من العمق- لا يكفي وحده؛ لا بدّ أن يظلّ فيه أثرٌ من الخوف ليصدّقه الناس.

ومن هناك، من حيث يغيب البحر خلف البيوت، امتدّ الضوء نحو القحمة، زاحفاً في الأزقة، حتى بلغ بيتاً صغيراً لم يستيقظ فيه أحدٌ بعد... وكان النهار يستعدّ لبدء حكايته الأخرى.

أطلَّ خيطُ النهار من خلف الستارة إشارة خفية إلى أنَّ اليوم بدأ. فتح راشد عينيه، وظلَّ لحظةً يحدِّق في السقف قبل أن ينهض. أدار رأسه نحو الجدار فرأى الصندوق في موضعه، كما تركه أمس؛ لا يخيفه ولا يطمئنه، مجرد شيءٍ يذكره بما لا يريد أن يتذكَّره. رفع بصره إلى النافذة وقال في نفسه: «اليوم... قد تأتي شجن».

نهض واغتسل، وتهيَّأ للخروج. تحسَّس جيبه ليتأكد من وجود المفاتيح، ثم خرج إلى الحياة التي تنتظره كلَّ صباح، غريبةً وصامتةً تمامًا كما تركها.

استقبله نهارٌ صافٍ لا يشبه ليلاً ولا يوحي ببدايةٍ جديدة؛ يومٌ آخر يشبه ما سبقه. ففي القحمة تتحرَّك الأشياء متأنية، كأنَّ الحياة فيها لا تجد سبباً للركض.

مضى إلى السوق، يسير بين الدكاكين والبسطات، لا يشتري، إنما ليراقب حركة الناس. كان الهواء مشبعًا بروائح البهارات والبخور، ونحلةٌ تدور بعناد حول فوهة قارورة عسلٍ مفتوحة. وحين مرَّ أمام بائع الزيوت، رفع رأسه.. وهناك لمحها. كانت أمانى واقفة عند الدكان المقابل، تتأمل الزجاجات المصطفة كمن يبحث عن شيءٍ تنوي اقتناءه. كانت كما عهدا، وملاحها لم تبدل كثيرًا، غير أنَّ في عينيها إرهاقًا ناعمًا لا يتخفى. توقف راشد؛ شعر أنَّ الخطوة التالية قد تفتح في داخله بابًا أجَل طريقه. ومع ذلك تقدَّم.

اقترب حتى صار بينهما ما يكفي من المسافة لِيُسمَعَ الكلام دون أن يلتفت أحد. قال: «صباح الخير يا أمانى». رفعت رأسها نحوه، تأملتَه لحظة، ثم قالت بنبرة هادئة: «راشد؟ كيف حالك؟»

أجاب: «بخير. سعيد برؤيتك».

ابتسمت على استحياء، ثم قالت: «وكيف تمضي أيامك في القحمة ورتابتها؟»

قال وهو يصرف نظره ثم يعود إليها: «أحاول التأقلم. في النهاية أنا ابن هذه القرية».

مرّت لحظة صمتٍ. من خلفهما نادى البائع على زبونٍ جديد، وتعالّت رائحة الحناء من الدكان المجاور. قالت أمانى بعد أن التقطت نفساً: «أمي تسأل عنك دائماً».

قال: «بلغيا سلامي.. سأحاول زيارتها قريباً».

قالت بهدوء: «مرحباً بك في أي وقت».

لم يقل شيئاً، واكتفى بابتسامة.

وفي تلك اللحظة مرّت شجن. كانت تمشي بخطى هادئة، بثوبها الأسود وعباءتها التي تلامس الأرض، تمرّ بمحاذاة الجدار كما تفعل حين تريد ألا يراها أحد أكثر مما ينبغي. لكنّ عينيها لم تُخطئاً المشهد: راشد.. واقف وابتسم... ويحدث امرأة لها من الحضور ما يكفي لزعزعة السكون. تابعت شجن سيرها بلا مبالاة زائفة؛ كأنّ ما رآته لا يستحق الالتفات، وكأنّ الكبرياء وحدها قادرة على إنقاذ ما تبقى من قلبها. غير أنّ شيئاً في داخلها كان يتكسر مع كلّ خطوة. لم تلتفت خلفها... فقط مضت.

أما راشد فلم ينتبه إلى مرورها؛ كان منصتاً إلى أمانى وهي تتحدث عن أمورٍ يوميةٍ، كلمات رقيقة تملأ الفراغ بينهما. قالت بعد قليل: «يجب أن أعود.. أُمى تنتظرني». فأوماً برأسه وقال: «بَلِّغِها سلامي». ابتسمت ثم توارت بين الزحام.

لبث راشد هنيهة يراقب السوق، ثم التفت إلى الطريق المؤدّي إلى المكتبة وسار نحوه، كمن يمضي إلى موعدٍ لم يُحدّد له وقت. وهناك، في الجهة نفسها، كانت شجن قد سبقته بخطواتٍ قليلة، تمضي في طريقها بوجهٍ هادئ.. كأنها مرّت بعرضٍ لا يعينها، فيما قلبها وحده يعرف أثر ما رآته.

دفعت شجن باب المكتبة ودخلت. أصدر المفصل صريراً خفيفاً، فرفع حسن الورّاق رأسه من خلف الطاولة. وما إن رآها حتى ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ تحمل دفء العادة، وقال: «تأخّرتِ اليوم.. ظننتكِ لن تأتي».

اكتفت بإيماءٍ قصيرة، وتابعت سيرها بين الرفوف. غير أن الورّاق راقبها بنظرةٍ متفحّصة، ثم قال وهو يعيد ترتيب بعض الكتب: «وجهكِ اليوم على غير ما اعتدتُ... أهنّاك أمر؟» التفتت إليه مبتسمةً تخفي ارتباكها: «لا، لا شيء... فقط يوم طويل ومتعب».

هز رأسه مبتسماً وقال: «الكتب تُصلح الأيام المتعبة.. خذي وقتك».

بادلته شجن ابتسامة هادئة، ثم مضت إلى طاولتها المعتادة قُرب النافذة. وضعت حقيبتها وجلست. مرّرت أصابعها على سطح الطاولة كما لو تستعيد طمأنينة قديمة، ثم سحبت أقرب

كتاب وفتحته في منتصفه. لم تقرأ؛ تركت عينيها تتقلان بين السطور كمن يبحث في الكلمات عمّا يطرد ما يثقل صدره. كانت الصفحات تتحرك بين يديها، غير أن ذهنها علق هناك، في السوق، عند الصورة التي حاولت محوها.. ولم تستطع. قالت لنفسها همساً: «لا تكوني ضعيفة».

وبينما كانت تقلب الصفحات، انفتح باب المكتبة. دخل راشد، وألقى التحية على حسن الوراق. ردّ عليه الأخير بابتسامة وإيماء ذات معنى. تقدّم راشد بين الرفوف، لا يمدّ يده إلى كتاب، بل يمرّر عينيّه على الأغلفة كمن يستعيد علاقةً قديمة مع المكان. توقف عند رفّ في الجهة المقابلة، ثم استدار ليوصل السير.. فرأها.

كانت شجن في ركنها قرب النافذة، وملامحها ما تزال تحمل أثر حديث خافت مع نفسها.

لاحظ الوراق النظرة التي مرّت بينهما، فسارع عمداً إلى ترتيب كومة كتبٍ على الرفّ المقابل، تاركاً لهما الصمت الذي يعرف أنّهما يحتاجان إليه.

اقترب راشد، وسحب الكرسي المقابل لها وجلس. رفعت شجن رأسها نحوه. لم تكن نظرتها الأولى ترحيباً، بل شيئاً أقرب إلى الخذلان... نظرةً من لم يفاجئها الحضور، لكنها لم تكن مستعدة له أيضاً. أمّا في عينيّه فكان الشوق واضحاً، يرسم على وجهه نصفَ ابتسامةٍ تكملها الكلمات التي لم يقلها بعد. توقّف الكلام عند حافة الأفواه، وبقي كلٌّ منهما يقرأ الآخر كأنه يحاول أن يتذكّر كيف تتكوّن الكلمات حين تخرج من القلب لا من

اللسان. بدا كأنّ كلّ ما تأجّل بينهما وجد طريقه أخيراً إلى هذه اللحظة.

قال لها: «ظننتُ أنني قد لا أراك اليوم».

أجابته من غير أن تغيّر نبرتها: «والكتب؟ أما اشتقتُ إليها؟»
ابتسم بخفيةٍ لم تُخفِ ارتباكها، وقال: «اشتقتُ إليها، وأنا هنا من أجلها».

رفعت عينيها نحوه، وفي وجهها خذلانٌ ظاهر لا يخلو من فضولٍ مُرّ. صمت قليلاً، ثم قال كمن يختبر وقع الكلمة في قلبها: «في السوق التقيتُ أمانى».

لم يحاول أن يقرأ ملامحها، غير أنّها رمقته طويلاً؛ نظرةً امرأةٍ تحاول أن تخفي ما يؤلمها. قالت بصوتٍ هادئٍ يُبقي جرحه على مسافة: «وما شأني بذلك؟»

قال: «ظننتُ الأمر يعينيك».

هزّت رأسها: «ليتك لم تقل».

لم يُجبها، وارتسمت على شفّتيه ابتسامةٌ أحسّت معها أنّه يدرك حقيقة ما تكابره. ولمّا أعادت الكتاب إلى موضعه، قال: «كنتُ أظنّ أن الحقيقة، حتى إن أوجعتنا، فإنّها تُتقذنا».

ظلّ ينظر إليها، وفي صمته اعترافٌ لم يعرف كيف يبوح به.

قالت بسخريةٍ لا تشبه ما في عينيها: «رأيتكما تبتسمان لبعضكما».

رفع رأسه مرتبكاً وقال: «لم أكن أعلم أنك رأيتنا».

أجابت بعد صمتٍ قصير: «رأيت. ولم أصب بأذى، فقط أدركتُ أين أضع قدمي حين أسير نحوك».

تنفّس بعمق، وشعر بأن صمت المكتبة بدأ يضيق عليه، ثم قال بنبرة أقرب إلى التماس: «لا أعرف كيف تصدّقيني، لكنني لم أكن هناك من أجلها».

همست وهي تغلق الكتاب: «ولا من أجلي».

رفع بصره إليها: «لكنني هنا معك».

نظرت إليه، وكانت عيناها أهدأ من صوتها، غير أنّ في هذا الهدوء ما يشبه الرحيل البطيء: «قد يكون الحضور وجهًا آخر للغياب».

ثم أضافت قبل أن تغادر: «وربما يكون الغياب أرحم من حضور فاتر».

ومضت نحو الباب بخطى متّزنة، لا تُسرّع ولا تتباطأ؛ تمنح قلبها فرصةً ليتراجع.

أمعن راشد فيها، ثم نهض فجأةً واتّجه نحوها مسرعًا. ناداها بصوتٍ خافت يحرص على هدوء المكان: «شجن.. إن اشتاقت الكتب، فهل أراك هنا؟»

توقّفت، لم تلتفت، تنفّست كمن يخبئ رعدة، ثم قالت هامسة: «إن اشتقتُ أنا إليها... فساتي».

وغادرت، تاركة الباب نصف مفتوح، والضوء ممتدًا على الطاولة التي جلست عندها.

ظلّ راشد واقفًا في مكانه، ثم عاد إلى الطاولة، ومدّ يده إلى الكتاب الذي كانت تقرؤه. فتحه، فلم يجد سوى أثر دفتها في الورق، فمرّر أصابعه عليه كمن يلمس أثر يدٍ غابت.

من الجهة الأخرى، كان حسنُ الورّاق يراقبه بصمتٍ طويلٍ لا يحتاج إلى استفهام. قال بصوتٍ خفيضٍ يحمل مزيجًا من الحنان والتعب: «يتعب المرء حين يعجز عن إدراك المعنى الذي يبحث عنه».

نظر إليه راشد لحظةً، ثم أغلق الكتاب وأعادَه إلى مكانه. فقال الورّاق مبتسمًا ابتسامةً يعرفها من خبر الفقد: «وربما يكون المعنى أماننا، غير أننا لا نراه».

أومأ راشد برأسه وهمس شاكراً، ثم غادر. رمق الورّاق الطاولة الفارغة وقال في نفسه: «نهرب من الحبّ، فنلقاه في تفاصيلنا الصغيرة... في الصوت، في الرائحة، في الكتب، في الأمكنة، وحتى في صمتنا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

خرج راشد من المكتبة يجرّ خلفه شعوراً لم يتجلّ بعد،
وكلماتٍ تركت ظلالها عميقاً في قلبه.

لم يكن يمشي بقدر ما كان يطفو على أفكاره، يتحسّس صمته
كما لو أنّه جرحٌ ما زال ينزف في الخفاء. كانت الشمس في كبد
السماء، والضوء يتسرّب على الأزقة في سكينَةٍ تُشبه الهمس.
يسير تائه الخطى نحو فكرةٍ مبهمّة، كأنّه يبحث عن نفسه في
طريقٍ لا يفضي إلى أحد.

وحين بلغ المقهى عند طرف الزقاق، وجده كما تركه: ساكناً،
يشيخ مع الكراسي والطاولات، لا يستقبل غريباً ولا يودّع أحداً؛
مقهى يقوم على عادة الانتظار أكثر مما يقوم على رواده.

دفع راشد الباب، والساعة المعلقة على الجدار تدقّ بإيقاع
ثابت، كأنّ كلّ نبضةٍ اعترافٌ بأن الزمن هنا لا يتقدّم، بل يعيد
نفسه في دائرةٍ لا تنتهي. رجالٌ في الأطراف يتحدثون عن أمورٍ
فقدت أهميتها منذ زمن؛ وجوهٌ منهكة، ونظراتٌ تائهة. جلس في
زاويته، وأسند ظهره إلى الجدار، باحثاً عن سكونٍ يعجز عن
الظفر به منذ وطئت قدماه القحمة.

بعد قليل، دخل عايض الصيّاد بعصاه وخطواته المتزنة،
كأنّه لا يمشي بل يحصي ما تبقى من عمر البحر في ذاكرته.
ألقي السلام، فردّ راشد عليه. جلس قريبه، فسأله راشد بعد
لحظة صمت: «ذاك الذي مرّ أمام الباب.. جابر، لماذا يسمّونه
المجنون؟»

رفع عايض رأسه ونظر إليه طويلاً، ثم قال بهدوءٍ يشبه الخوف: «رأى ما لا يُحتمل، وما رآه لم يفارقه قط؛ تبدّل وجهه، وضلّ عقله منذ تلك الليلة».

سكت هنيهة، ثم تابع: «كان جابر من أبناء القرية؛ رجلاً فطناً يعرف البحر أكثر مما يعرف اليابسة. يخرج كلّ صباح بقاربه، ويعود عند المساء ضاحكاً محمّلاً بصيده، لا يشكو شيئاً، وكان أهل القرية يألّفونه ويثقون بكلامه. إلى أن جاءت تلك السنة... تغيّر البحر فيها، هاج غضبه بغير ريح ولا نذير؛ ارتفع ماؤه كأن شيئاً في جوفه استيقظ. ضرب الشاطئ، ثم القرية، ثم بيت جابر الذي كان الأقرب. لم يترك له فرصة للنجاة؛ اقتحم النوافذ والأبواب، وجرّ معه كلّ ما استطاع حمله: الحصير، والأثاث، والأصوات، والناس. وحين انحسر الموج، لم يبقَ من البيت إلا أرضٌ مبلّلة وذكرياتٌ معلّقة».

ابتلع ريقه، ثم أضاف بصوتٍ أثقل:

«وجدوا زوجته تحت الحطام، والطفل الأكبر معها، لكن ملامحهما كانت مطموسةً كأنّ البحر لم يكتفِ بأخذهما، بل محاه وجهيهما أيضاً. دفنوها وابنها على عجلٍ بلا صلاة، ولم يجروُ أحدٌ على البكاء. أمّا الصغير فقد اختفى... لا أثر له. ومنذ ذلك اليوم، لا أحد يعرف إن كان مات، أم أنّ البحر خبّاه في موضعٍ لا تصل إليه الأعين».

ارتشف راشد من قهوته، ثم سأل بصوتٍ منخفض يخشى جوابه: «وما الذي أغضب البحر؟»

لم يُجب عايض مباشرة؛ أدار الفنجان بين يديه كمن يفتش في قعره عن حقيقة ضاعت منذ زمن، ثم قال وهمسه يتسرّب مثل سرّ قديم: «في هذه القرية.. لا أحد يلوم البحر علناً؛ من ناداه باسمه أيقظ فيه ما لا ينام».

ثم أضاف بصوتٍ منخفض: «يمرّ على القحمة كلّ عام واحدٌ وعشرون يوماً تُفارق فيها الأسماك مياهها، وتحتطّم القوارب، وتهاجر الطيور، ويذبل الزرع. أيامٌ يختلط فيها الليل بالنهار، وتغدو الرطوبة كأنّها نزيّفٌ بطيء. لا أحد يعرف متى تنتهي الليلة الأولى، ولا متى تبدأ الليلة الأخيرة».

قال رجلٌ من الطرف الآخر للطاولة، دون أن يرفع رأسه: «في تلك الليالي لا تمطر السماء ماءً، بل دمًا صافياً يترك أثراً لا يُمحى على الجدران والوجوه». وردّ آخر بنبرةٍ متردّدة: «نفلق الأبواب وننتظر. نهرب أحياناً إلى قرى بعيدة، ثم نعود... فالقحمة، مهما فعلت بنا، تظلّ رحمنا الأول والأخير».

قال راشد بصوتٍ يكاد يتعثّر: «واحد وعشرون؟»

أجاب عايض دون أن يلتفت: «نعم.. واحد وعشرون».

شعر راشد بأنّ الرقم ينطفئ في حلقه. تكرّر في رأسه ثانيةً، كأنه يتردّد من مكانٍ لا يراه: «واحدٌ وعشرون... رقمٌ يشبه فخاً في الزمن».

ثم قال الصياد همساً: «واحد وعشرون»، ولم يقل أحدٌ بعده كلمة.

ظلّ راشد صامتاً برهة، يراقب بخار القهوة وهو يتبدّد، ثمّ سأل: «ألم يحاول أحد أن يعرف لماذا يحدث هذا؟»

سقط على المقهى صمتٌ ثَقِيلٌ، كأنَّ السؤالَ أطفأ آخرَ ما
تَبَقَّى من الضوضاء. توقَّفت الحركات، وتراجعت الهمسات، وبدا
المقهى كُلُّه على حافة حذر. أطرق عايض رأسه وقال: «كُلٌّ من
سأل... لم يعد كما كان».

رفع راشد عينيه إليه، فتابع الصيَّاد بصوتٍ يختزنُ تعباً قديماً:
«يُقال إنه في زمنٍ بعيدٍ عُقد عهد بيننا وبين البحر. لا نعرف مَنْ
وَقَّعه ولا لماذا، غير أنَّ أحداً قُدِّمَ له، والبحر لم يرض. ومنذ تلك
الليلة... نعيش، ونعدُّ، ونتفادى السؤال».

تردَّد صدى كلماته في رأس راشد كأنه ينبعث من أعماقه.
أحسَّ بشيءٍ يتحرَّك في صدره، شيءٌ يشبه الخوف، لا لأنه يسمع
حكاية، بل لأنه يشعر أنَّ الحكاية تخصُّه.

نظر إلى عايض وسأله: «من الذي وقَّع؟ ومن الذي قُدِّم؟»
طال صمت عايض، كأنه يصغي إلى أصداء لا يسمعها سواه،
ثم قال بصوتٍ واهنٍ يتردَّد في داخله أكثر مما يخرج منه: «لا
أحد يدري... ما نعرفه أنَّ القرية، منذ ذلك اليوم، لم تعد تنام
كما كانت».

لم يظهر على راشد خوفٌ صريح، غير أنَّ شيئاً في عينيه
تبدَّل. الوجوه من حوله أخذت تبهت، الأصوات تراجعت، والمقهى
ضاق حتى بدا كقبوٍ منخفض السقف. كان ما سمعه يشبه نبوءة
كُتبت له قبل أن يولد؛ لم يكن الخوف من البحر، بل من فكرة
أنَّ البحر يعرفه... يعرف اسمه، وموعده، وما فقده، وينتظر منه
شيئاً نُسي في داخله.

ظلّ الصيَّاد يحدّق إلى الطاولة، لا ينظر إليه ولا يزيد حرفاً،
ثم همس بجملةٍ بالكاد تُسمع، جملةٌ تهوي في الصدر كحجرٍ في
بئرٍ سحيقة: «هنا... لا أحد ينجو من الكلام».
وسكن المقهى كلّهُ، حتى المروحة هدأ دورانها.

كان الليل في تلك الساعة يشبه احتباساً في قلبٍ على وشك الانفجار ولا يجد منفذاً.

لم يكن سكوناً، بل امتلاءً خفياً يتسرّب في الأزقة كما يتسلّل الحذر في صدرٍ يعرف أن عيناً ما تترصّده. القرية غارقة في ظلام كثيف، والسماء صافية لكنها بلا نور؛ لا نجم يلوح ولا خيط ضوء. بدا كل ما حوله كأنه ينتظر زلّة صغيرة تكسر هذا الاتزان المرهق.

دخل فارس البيت بخطواتٍ متتدة. كان المدخل ساكناً، تتوزّع فيه ظلال الفانوس المعلق قرب الباب. وعلى الجانب جلس أبوه، أمامه فنجانٌ فارغ ومبخرة خمد جمرها.

لم يتقدّم فارس أكثر، فرفع أبوه بصره نحوه وقال بنبرة حادة: «لِمَ تقف هكذا؟ إمّا أن تدخل كابن، وإمّا تمضي كغريب».

دخل فارس وجلس قبالة. كان المكان ساكناً كأنه يتهيأ لكلام لم يقل بعد. وعلى ركبتيه دفتراً أسود مغلق، يضع كفه عليه كأنما يحرسه. وأمامه ورقة مطوية احترق طرفها. نظر إليه أبو فارس، وقال بنبرة يصعب التمييز فيها بين اللوم والتذكير: «الشجرة التي لا تُسقى تظنّ أن الجفاف طبعها».

لم يُجب فارس. ظلّ يحدّق في الأرض، وقد أحسّ أنّ المسافة بين مقعديهما أطول من الطريق الذي قطعه إلى البيت. رفع رأسه أخيراً وقال بصوتٍ ثابتٍ يخفي اضطرابه: «أريد أن أخرج الليلة».

لم يلتفت الأب، ولم يبدُ عليه أنه سمع. حرّك أصابعه فوق غلاف الدفتر، وقال من غير أن يرفع عينيه: «إلى أين؟»
قال فارس: «إلى أطراف القرية.. هناك امرأة تُدعى العرافة صيته، أريد أن أراها».

حملق الأب إليه، كأنه يمحص صدقه، ثم قال: «مَن يفتش في الأطراف، يضع عن المنتصف».

قال فارس: «ربما... لكنني سئمت هذا المنتصف».

سكت الأب قليلاً، ثم أزاح الدفتر عن ركبتيه ووضعه إلى جانبه، وقال بنبرةٍ رخيمة: «الطريق إلى بيتها ليس مجرد خطوات.. بل أسئلة».

وقف فارس وهمّ بالرحيل وهو يقول: «ولهذا سأسلكه».

وقبل أن يغادر، تحرّكت الستارة التي تفصل المجلس عن الممر. لم تُصدر صوتاً، فقط انزاحت قليلاً وظهر خلفها وجه أمانى. كانت تظن أن أحداً لم ينتبه إليها، لكن عينيها وقعتا على أبيها أولاً، ثم على فارس. توقّفت لحظة كمن يحاول أن يستوعب ما سمع. رفع فارس بصره إليها، ثم أعاده إلى الأرض ومضى. رمقها أبوها بنظرةٍ واحدة جعلتها تُخفض رأسها وتتسحب بصمتٍ إلى الداخل، وقد علق في قلبها السؤال الذي لم تجرؤ على نطقه.
توقّف فارس لثوانٍ، ثم اتّجه نحو الباب. عبر الفناء بخطوات ثابتة حتى بلغ العتبة وخرج إلى الطريق.

واصل السير من غير التفات يميناً أو يساراً، حتى وصل أطراف القرية، حيث تخفّ الأنوار ويبدأ الطريق الرملي الممتدّ نحو العراء.

عند أطراف القرية شجرةً مقطوعة منذ سنوات، جذعُها العاري مغروسٌ في الأرض. كان الناس يقولون إنّ رجلاً حاول اقتلاعها ففقد صوته، فتركها الجميع وشأنها.

تجاوزها فارس. كانت بقايا جذورها تمتدّ تحت التراب. ومن بعيد بدت له عريشةٌ صغيرة من سعفٍ وجذوعٍ متشابكة، سقفها الواطئ يميل نحو الطريق، وأمامها فانوسٌ يتأرجح بضوءٍ خافتٍ يدلّ على موضع الباب الخشبيّ الضيق. ذلك كان بيت العرّافة.

اقترب فارس حتى بلغ الباب، وقف وأخذ يصغي إلى السكون المطبوع على المكان، ثم سمع من الداخل صوتاً يقول: «ادخل». دفع الباب ودخل. كان البيت ضيقاً، سقفه من سعف النخل، وجدرانه مكسوّة بطبقاتٍ من الطين والحجارة. في الزوايا قواقع وأصداف وأحجار ملساء متفاوتة الألوان، علّقت كأنها شواهد على زمنٍ آخر. وفي وسط الحجرة بساطٌ خشن، وفانوسٌ وحيدٌ يسكب ضوءه الصافي على الأشياء. وفي الجهة المقابلة جلست عجوزٌ يغلفها وشاحٌ أسود، لا يظهر منها إلا يداها وعينان ساكنتان. أمامها طبقٌ نحاسيٌّ فيه نوى تمرٍ وبعض القواقع.

قالت بصوتٍ منخفضٍ دون أن ترفع رأسها: «اجلس».

جلس فارس كما أمرت، يحدّق إلى ما حوله، ولا يسمع سوى خشخشة القواقع بين أصابعها. قلبتها قليلاً، ثم توقّفت عند واحدةٍ منها كأنّها تُصغي إلى سرٍّ خفيٍّ، ورفعت رأسها نحوه قائلةً: «لا تسألني من أنت.. فأنت منذ زمنٍ غدوت آخر».

انزلقت كلماتها إلى صدره كأنّها آتية من مكانٍ يعرفه. لم يتكلم؛ كانت تتطرق بعينٍ تشهد، لا بخيالٍ يروي.

تابعت: «صوتك مكسورٌ في داخلِك؛ كلما هممت أن تقول شيئاً عاد إلى فمك طعمُ البحر».

رفعت إحدى القواقع، قلبتها في كفّها، وقالت: «عيناك فيهما من مات، لا من غاب. يراقبك ثلاثة: واحدٌ لم يُدفن، وواحد يسكنك ولم يستيقظ، وواحد كنته... ثم تركك وذهب».

تجمّد فارس في مكانه؛ بدت كلماتها تشقّ طريقاً في داخله.. لم يجد ما يردّ به.

قالت العجوز بعد لحظة صمت، وقد خرج صوتها أعمق: «ذاك الذي مات... لم يطلب النجدة، بل انتظرها. وكانت بينكما موجة... لا خطوة».

قال مذهولاً، وصوته أضعف مما أراد: «ماذا قلت؟»
لم تُجبه. ظلّت تحدّق في القواقع وتحركها ببطء، ثم قالت: «لا تقل شيئاً... ما تخفيه يطلّ من عينيك».

حملق إلى عينيها طويلاً وقال: «رأيتُ خالدًا يفرق. كان بإمكانني أن أمدّ يدي... لكن الماء ابتلعه وهريت. لم أخبر راشداً أنني كنت هناك، لم أخبر أحداً... لكنني أراه كلما أغمضت عيني».

أطبقت العجوز كفّها على القواقع وهمست: «الذنب لا يُدفن في الرمل... إنه يسكن في الدم».

سكتت قليلاً، ثم مالت نحو الطبق النحاسي وتابعت: «ما تهرب منه لا يفادرك.. بل يتحرّك في داخلِك».

نهضت بخطواتٍ لا صوت لها، اختفت في الظلّ لحظة، ثم عادت بشيءٍ من الزاوية. مدت يدها نحوه، وضعت في راحته فصاً من صدفٍ مثقوبٍ يشدّه خيطٌ أخضر.

وقالت وهي تحدّق في يده: «أربطه في معصمك... ليهدأ الصدى ويهدأ معه صوت البحر».

ثم التفتت عنه وقالت دون أن تنظر إليه: «لكن هدوء الأصوات لا يكفي... تحتاج إلى قلب يملك القدرة على الاعتراف والمواجهة». نهض فارس واتجه نحو الباب. وبينما يبتعد، سمع القواقع تتحرّك وحدها، كأنها تودّعه بلغتها الغامضة.

التفت فلم يجدها في موضعها. خرج بخطواتٍ متردّدة، وأغلق الباب خلفه، فابتلعه الليل كأنّ شيئاً لم يكن.

عاد فارس من عند العرّافة كمن يعود إلى نفسه بعد غيابٍ طويل. كان الطريق صامتاً، غير أن داخله يموج بما سمع. كلّ كلمةٍ منها تعود إليه كطعنةٍ باردة.

وتداخلت الأصوات حتى امتزجت بصوت خالد وهو يصرخ في قلب الموج. لم يرَ أمامه إلا الرمل، ومع ذلك أحسّ بالماء يرتفع في صدره. حاول طرد الصورة، لكن الذكرى كانت أقوى.

ولما رفع رأسه، وجد نفسه عند البيت. لم يدر كيف وصل. كان الباب شبه مفتوح، كأنّ أحداً خرج للتو.. أو كأنّ الفتحة كانت له وحده. وقف يحدّق فيها؛ بدت له كأذنٍ تنتظر اعترافه. مدّ يده ودفع الباب، فصدر صريرٌ خافت. كان الممر ساكناً، وخيط ضوء يتسلّل من غرفته.. سار حتى بلغه. كل شيءٍ في مكانه، ومع ذلك شعر بأنّ ما يراه ليس ما تركه. جلس على فراشه، أخرج الفصّ من جيبه، تأمّله طويلاً، ثم وضعه في الدرج وأغلقه.

قال في نفسه: «إن عاد الصوت.. فلن أنكره هذه المرة». تمدّد، وعيناه معلّقتان بالسقف كأنهما تخشيان الإغماض.

كان كل شيءٍ في الحجرة يترقّب معه: الخزانة، الحصير، والدرج الذي وضع فيه الفصّ. ثم جاءت خفقةٌ خفيفةٌ من مكانٍ مجهول، كأنّ أحدًا يخطو في الممرّ ثم يتراجع.

لم يدركَ أسمعها حقًا أم تخيلها، لكنه وجد نفسه يحدّق في الباب، إلى أن ابتلع الصمت كلّ شيء.

أدار وجهه نحو الجدار وأغمض عينيه، لا طلبًا للنوم، إنما لغفلةٍ واحدة لا يفكر فيها بشيء. غير أن الصوت الذي حمله من عند العرّافة لم يخفت؛ ظلّ يدور داخله همسًا ثابتًا: «تحتاج إلى قلبٍ يمتلك القدرة على الاعتراف والمواجهة».

فتح عينيه فجأة. كل شيءٍ ساكن. رفع يده يتحسّس ضربات قلبه -سريعة، متلاحقة، تذكره بما لم يُنسيه الزمن. همس: «يكفي... ليس الآن».

ثم هدأ كل شيء، لكن الهدوء لم يكن سلامًا... بل الفرق الأخير لمن يهرب من ذنبه كلما حاول النجاة.

أغمض عينيه.. لكن النوم لم يأت.

ظلّ بعيدًا، كأنه يخشى الاقتراب من قلبٍ استيقظ أخيرًا.

خرج راشد من المقهى بخطى هادئة، وداخله يعجّ بما لا يهدأ. ظلّ حديث الصياد عن 'الواحد والعشرين يومًا' يطوف في رأسه كرقمٍ لسرّ طواه الناس، ولم يُعرف بعد من سيكشفه. وجملة ذلك الرجل ما تزال تتردد في أعماقه: «في تلك الليالي لا تمطر السماء ماءً، بل دمًا صافيًا يترك أثرًا لا يُمحي على الجدران والوجوه». جملة أربكته: كيف يمكن لكلمة تُقال على سبيل الخرافة أن تستقرّ في القلب كأنها نبوءة؟

تابع طريقه نحو البيت، والليل من حوله ساكن، لا يسمع فيه سوى وقع خطواته.

وفي طريقه لمح عند مدخل المسجد الإمام مساعد جالسًا على كرسيه عند الباب، بوجهٍ مطمئنٍ هادئ. قال راشد: «السلام عليكم يا شيخ».

ردّ الإمام بابتسامة ودودة: «وعليكم السلام يا راشد... عساك بخير؟»

جلس راشد أمامه وقال: «الناس في المقهى لا يتحدثون إلا عن الواحد والعشرين يومًا... وعن أمورٍ غريبة لا تُصدّق».

قال الإمام بهدوء: «كلّ خوفٍ تكبّره الحكايات حتى يصير وحشًا. فإذا خفنا، فلنحمل خوفنا إلى الصلاة... لا إلى المجالس».

أطرق راشد، ثم قال: «أحيانًا أصلي، لكني لا أجد الطمأنينة التي أرجوها».

ابتسم الإمام وقال: «الطمأنينة لا تغيب عن الصلاة يا بني... لكنها تغيب عن القلب إذا انشغل. صلّ بقلبك قبل جسدك، وستجدها حيث ينبغي أن تكون».

أوماً راشد وقال: «دعواتك يا شيخ».

فردّ الإمام مبتسماً: «كلنا بحاجة إلى الدعاء يا راشد».

نهض راشد، سلّم عليه، ثم تابع سيره إلى البيت، يحاول أن يلملم اضطرابه.

عند أوّل الزقاق رأى الغراب واقفاً على الجدار، ساكناً لا ينطق ولا يرفرف. لم يتوقّف راشد عنده؛ اكتفى بنظرةٍ إليه ثم مضى. دخل البيت وأغلق الباب خلفه. خلع نعليه، ووضع المفاتيح على الطاولة، ثم جلس عند النافذة. لم يشغل باله البحر ولا الحكايات التي سمعها، بل شجن وحدها. استعاد نظرتها حين حدثها عن أمانبي؛ لم تكن غضباً، بل خيبة رقيقة جارحة، كأنها أبصرت فيه ما ظنّت أنه يتّسع لها، ثم رأته ينكسر بين يدي اللحظة. في نظرتها شعر بتراجعها عن المسافة التي جمعت بينهما، لا بلوم أو عتاب.. بصمتٍ يوجع أكثر مما يفعل الكلام. تساءل: «هل ستعود؟ هل ستأتي إلى المكتبة؟ هل أنتظرها؟ أم أبحث إليها؟»

أغمض عينيه: «إن لم تأتِ... فسأذهب أنا. كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ مساء، حتى يعود ظلّها إلى مكانه بين الرفوف».

وقف عند النافذة قليلاً، يراقب العتمة عسى يأتيه منها جواباً. ثمّ نهض بهدوء، أسدل الستارة، واقترب من فراشه، تمدّد

وأغمض عينيه، وأنفاسه تهدأ رويداً، كمن يُسلمّ ليل ما تبقى
منه. لم يفكر في الغراب، ولا في البحر، ولا في الغياب... فقط
في وجهٍ سيجيء إن تحقّقت الأحلام.
وبين يقظةٍ ونوم، انطفأ كلّ شيءٍ بهدوء.

كان الليل ساكناً في بيتٍ يعرف الصمت أكثر مما يعرف الكلام. جلست شجن عند النافذة تحدّق في العتمة، كأنّها تنتظر فكرة تهبط على قلبها أو طيفاً يهتدي إليها. كان الدفتر مفتوحاً أمامها.. لم تخطّ فيه، لا لغياب الكلمات، ولكن لأنّ ما تضطرب به روحها أعمق من أن يُكتب. وعلى مقربة منها كانت لجين تتمدّد في سكونٍ وادع، ترفع رأسها بين حين وآخر؛

وعند الباب ظهرت منيرة تحمل بعض الكتب. وضعتها على الطاولة وقالت «تأخّرت اليوم».

رفعت شجن رأسها قليلاً ثم أعادت بصرها إلى الدفتر صامتة. اقتربت منيرة وجلست قبالتها.. تأمّلتها، ثم سألت: «هل رأيته اليوم؟»

أجابت شجن بصوتٍ مخدول: «مررتُ من أمامه».

ارتسم على وجه منيرة مزيج بين الدهشة والشفقة: «ثم ماذا؟» هزّت شجن رأسها: «لم يكن وحده». تنهّدت.. ثم تابعت: «كانت معه فتاة لا أعرفها. مجرد حضورها كان كافياً ليذكّرني بأنّ ما ظننته لي، قد يكون مُباحاً للجميع».

لم تُعقّب منيرة؛ اكتفت بأن نظرت طويلاً نحو النافذة، ثم سألت: «هل رأيكِ؟»

أجابت شجن: «لا. مررتُ كالغريب الذي لا ينتظر أن يسمع اسمه. كنت أظنّ أنّني إن صادفتهُ ثانيةً فسأعرف ما أقول، لكنني حين لمحتّه أدركتُ أنّ الكلام نفسه صار حملاً أثقل من أن يُحمّل».

صمتت منيرة برهة، ثم قالت بحنان: «لَمْ لا تقولين له ما تشعرين به؟ لا تكتبي له.. ولا تلمحي. واجهيه».

قالت شجن، وابتسامةً حزينةً تكسر ملامحها كاعترافٍ خافتٍ بالعجز: «لأنني إن نطقت، تبدل كل شيء. أنا أحبه من الجهة التي لا يلتفت إليها أحد، من المسافة التي أحمله فيها من قلقي ومن نفسي. ماذا لو علم؟ هل أبقى كما أنا الآن؟ أم أصير هامشاً يطيح به حين يعيد ترتيب حياته؟»

سألتها منيرة: «والصمت؟ إلى أين يمضي بك؟»

أجابت شجن: «إلى المكان الذي يشبهني... إلى انتظارٍ لا يفرض طلباً، وإلى حبٍّ لا يطالب بشيء».

ساد صمتٌ طويل. رفعت شجن القلم، أدارته بين أصابعها، ثم وضعتَه كأنه يثقل يدها. همست: «أفكر أحياناً أن أكتب له، ثم أراجع. ليس خوفاً، بل لأنّ الكلام حين لا يُفهم يتحوّل إلى شكلٍ آخر من الضياع. أخاف أن أضع قلبي في جملةٍ يمرّ بها كما تمرّ الرياح... بلا أثر».

تأملتها منيرة، ثم قالت بنبرةٍ دافئة: «إذن لا تكتبي له... اكتبي لنفسك. أحياناً ما نحتاج إليه حقاً هو أن نسمع صوتنا».

ابتسمت شجن وقالت: «ربما هذا ما أفعله منذ البداية».

اقتربت لُجين، قفزت إلى حافة النافذة وجلست، تتابع بعينيها حركتهما. قالت منيرة: «وإن كان بينهما شيء؟»

قالت شجن بهدوءٍ يشبه التسليم: «لا بأس... سأضع فاصلة لا نقطة. لا وداع في الحكايات التي لم تبدأ؛ هي تتطفئ ببطء، انطفاء يشبه النهاية. أعرف كيف أغلق الأبواب دون أن يُسمع

ارتطامها. حين أخذل، لا أثير ضجة... فقط أطوي الصفحة وأمضي كأن شيئاً لم يُكسر».

ثم جذبت الدفتر إليها، وكتبت كأنها تحدث ذاتها: «بعض المشاعر تولد في الظل وتفنئ إذا سُلط عليها الضوء. هناك حبٌّ لا يُقال لأنه أعمق من الوصف، وانتظارٌ لا يجد خاتمة لأنه لم يبدأ أصلاً. وأنا؟ لستُ عاشقةٌ تُجاهر، ولا عابرةٌ تُسئ؛ أنا صفحةٌ تركت في منتصف الرواية وظلّت تنتظر أن يمرّ بها أحد». قرأت ما كتبت، ثم أغلقت الدفتر.. ختمت بين طياته سرّاً لا يُباح لأحد.

نهضت منيرة تجمع الكتب، واتجهت نحو الباب وهي تقول: «دعي النافذة مفتوحة.. لعلّ نسمة تمرّ وتذكرك بأن الليل لا يطول إلى الأبد».

أومأت شجن دون أن ترفع رأسها. همست: «كلّ الحكايات التي نطويها بالصمت، تبقى مفتوحة في قلوبنا».

عادت الحجرة إلى سكونها، لا صوت سوى اتساع الحنين، ولا شيء سوى نافذة تطلّ على ليلٍ ينتظر أولئك الذين لا يعودون.. ونحن لا نجرؤ على إغلاق الأبواب في وجوههم.

الحلم

لم يكن بحرًا ولا جبلاً ولا ليلاً؛ كان معلقاً في فضاء لا أرض تحته ولا فوقه سماء. ومضة ضوءٍ خاطفة أضاءت وجهه ثم انطفأت. حاول أن يحرك جسده فلم يقدر؛ ظل جامداً في صمتٍ لا يسمع فيه حتى أنفاسه. تطلع من حوله، فإذا الضباب يزداد كثافةً حتى غدا جداراً يطوقه. أحسَّ بحركةٍ وراءه، فاستدار سريعاً، فلم يجد أحداً.

وعلى مسافةٍ قريبةٍ أمامه، تجلّى جسدٌ بلا ظلٍّ ولا ملامح؛ هيئةٌ ساكنةٌ كأنها تنتظره منذ زمنٍ بعيد. لم يعرف من يكون، غير أنّ وجوده أخلَّ بتوازنه. أراد التراجع، غير أنّ قدميه لم تستجيبا. ظلّ يحدّق فيه، يراقب سكونه الغريب، حتى لمح في يده شيئاً يشبه ورقةً مطويةً.

كانت الورقة في يده اليمنى، لونها متسخ، وأطرافها ممزقةٌ كأنها سُحبت من تحت الرماد. لا كتابة عليها، فقط خطوطٌ متداخلة ترسم شكلاً يشبه جبلاً منحدرًا في منتصفه شقٌّ عميق. ظلّ يحدّق فيها، فرأى الخطوط تتحرك فوق الورقة، حتى خيل إليه أنّ الرسم يعيد تشكيل نفسه. حاول أن يرميها، لكن يده عصته؛ تشبّث بها لا يقوى على إفلاتها.

من بعيد، بدأ شيءٌ يتحرك وسط الضباب؛ لا يتّضح له شكل، يزحف ببطءٍ، ثم يتوقف، ثم يعود إلى الاقتراب. لم يسمع له صوتًا، لكنه شعر بثقله يقترب. كلّ خطوةٍ منه جعلت الضباب يتراقص، والفراغ يضيق. حاول أن يتراجع، غير أن جسده ثبت

في مكانه، كأن قوّة ما تشدّه من الخلف. رفع الورقة أمامه كمن يحتمي بها، فانكششت بين أصابعه.

توقّف ذلك الشيء على مقربة منه، وبدأ الضباب من حوله يتقلّب كدوّامة. شعر بجسده يهبط في فجوة مظلمة، والورقة في يده تتفتّت، تتناثر منها ذرات دقيقة كالرّماد.

أراد أن يصرخ، غير أنّ فمه لم يطاوعه، وعيناه مفتوحتان؛ يرى كلّ ما ينهار، ولا يستطيع أن يرمش. تساقطت الصور من حوله، حتى غدا كلّ شيءٍ رماديًا، ثم سكن كلّ شيءٍ.

انتفض أبو فارس من نومه دفعةً واحدة، أنفاسه متقطّعة، وملابسه ملتصقة بجلده من شدّة العرق. جلس لحظةً لا يدري أين هو. كانت الحجرة غارقةً في شبه عتمة. مدّ يده، فشعر بأصابعه منقبضة، كأنها ما تزال تعصم بشيءٍ رآه هناك. رفع رأسه فرأى زوجته إلى جواره، مستلقيةً على جنبها، تتنّفس بطمأنينة. جلس يستجمع أنفاسه، وفي رأسه صورة الجبل تعود بالراح: الشقّ العميق في منتصفه، والورقة التي تهاوت بين يديه كما يتهاوى رمادٌ شيءٍ لم يكتمل.

نهض من فراشه وثقلّ يشدّ قدميه، كأنّه ما يزال يجرّ بقايا الحلم خلفه. تقدّم نحو الزاوية التي يضع فيها صندوقًا صغيرًا، فسحبه وفتحه. في داخله دفترٌ قديم لا يلمسه أحدٌ سواه. جلس على الأرض، وراح يقلّب صفحاته صفحةً بعد أخرى؛ كتاباتٌ مهزوزة، وأسطرٌ قصيرة متقطّعة، حتى بلغ صفحةً في منتصف الدفتر فتوقّف عندها. كان فيها رسمٌ واحد:

دائرةً يتقاطع في مركزها خطّان مستقيمان. حدّق فيها طويلاً؛
شعر أنّه لا يرى رسمًا مجردًا، بل أثرًا يعرفه منذ زمنٍ بعيد.
أغلق الدفتر، وأبقى كفّه فوق غلافه، ثم همس لنفسه:
«إنه يرى». أغمض عينيه، وما كان يراه في داخله بدا أوضح
من كلّ ما حاول دفعه طوال هذه السنين. فمنذ أيام تتردّد
في صدره جملةً واحدة: «الطفل رأى ما لا ينبغي أن يراه». ومنذ أن لمح رسمة الجبل في يد الطفل المشلول، لم يذق نومًا
حقيقيًا. الطفل لم ينطق، لكنه رسم ما لا يجرؤ أحدٌ على رسمه.
الجبل الذي ظلّ أبو فارس أنّه وُرى مع صمت تلك الأعوام، عاد الآن
يطلّ من عيني الطفل، ومن أوراقه، ومن رسمه... بل من أحلامه هو.
ظلّ جالسًا لا يتحرّك، ثم قال بصوتٍ خافتٍ كاعترافٍ يخرج من
تحت الركام: «إن نطق الجبل، فلن يسكت البحر بعدها».

حين نهض راشد من فراشه كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً في السماء؛ ضوءها يتسرّب بهدوء، والصباح يتشكّل بروية. ظلّ يحدّق في السقف، يستشعر يوماً يُنسج من خيوط الأمس، لا يعدّ بشيءٍ جديد.. ومع ذلك، نهض على مضض؛ فالبقاء في هذا الصمت المثلث بوحدةٍ لا تُطاق كان أشدّ وطأةً عليه.

غسل وجهه، ومسحه بكُمّ ثوبه، ثم انتعل نعليه وفتح الباب وخرج في هدوءٍ كأن النهار لم يُخلق له. مضى كما يمضي سواه: ثقيلاً من غير تهديد، وعادياً بلا طمأنينة؛ لا جديد فيه إلا حين يتّسع داخله يوماً بعد يوم.

في الخارج، كانت البيوت ساكنة، كأن أهلها يتردّدون بين الاستسلام للصباح والبقاء في أطراف النعاس. وأصوات الدجاج تأتي متقطّعة من بيت الجيران؛ أحاديث صغيرة لا تنقطع، لكنها لا تبلغ أحداً.

مشى من غير وجهةٍ محدّدة، غير أنّ المكتبة كانت في ذهنه منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه، كما لو أنها وعدٌ قديم قطعه على نفسه في تلك الليلة التي شعر فيها أن غيابها لن يكون عابراً. قال في سرّه: إن لم تأت، فسأذهب أنا... كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ مساء، حتى يعود ظلّها إلى مكانه بين الرفوف. لم يكن واثقاً بما يشعر به تماماً، لكن شيئاً داخله كان يتّجه نحوها، نحو الأثر الذي تركته فيه، كأن اللقاءات القصيرة نثرت في صدره شعوراً يشبه الحب، أو ما يسبق الحبّ بخطوة.

ولمّا مرّ بالسوق، لمح أمانى تسير إلى جانب أمّها؛ عباءتها تغلّفها كقطعةٍ من الليل، ووجهها مضاء كقمرٍ يطلّ في فسحةٍ هادئة. التقت أعينهما؛ فرمقته بعين من يرى شيئاً عاد قبل موعده. مرّت بينهما لحظة صمت، ليست دهشةً ولا لقاءً مكتملاً، بل امتدادٌ لجملةٍ انقطعت ذات يوم ولم تُستكمل. في عينيها هدوءٌ، وفي ملامحها حنينٌ لا اسم له بعد. شعر راشد أن المشهد يتكرر؛ تذكّر لقاءهما عند الدكان.. اللحظة نفسها تقريباً: حرصٌ على تجنّب الكلام، وعجزٌ عن الإفلات من الشعور. ولهذا لم تكن نظرتها عابرة، كانت رجع صدى لما لم يُستوف، ومحاولةٌ أخيرة للصمت حتى ينطق قبل أن يُطوى كلّ شيء بلا وعد.

قال راشد: «السلام عليكم ورحمة الله».

فأجابته أمّ فارس: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، حيّاك الله يا بُني».

سأل: «كيف حالكما؟»

فقالت: «بخير... الأيام تتشابه، لكننا نحمد الله على ما يبقي فينا القدرة على الوقوف».

أمّا أمانى فنظرت إليه بلا كلمة؛ نظرة لا تخلو من الارتباك، غير أنّ فيها سؤالاً خفياً وحنيناً يتوارى. أدركت أمّ فارس ما يجري، فابتسمت ابتسامةً أمّ تعرف أكثر مما تقول، ولم تُعلق. اكتفت بقولها: «هيا بنا يا أمانى، لئلا نتأخر».

قال راشد: «طاب يومكما».

مشّت أمانى من غير أن تلتفت، غير أنّ خطواتها لم تكن كما كانت؛ فيها ارتعاشة خفيفة تشبه أوّل الاعتراف. وكانت أمّ فارس

تسير إلى جانبها، تلتفت إليها بين حينٍ وآخر، لا تقول شيئاً، لكنها ستستحضر تلك النظرة لاحقاً. وحين تحدثّ أبا فارس مساءً ستسأله: لمَ لا يكونان لبعضهما؟

لما بلغ راشد المكتبة، راح يبحث عن كتاب.. عن أثر.. عن امتدادٍ باقٍ من شجن. لم يلتفت إلى الوراق خلف الطاولة، اكتفى بتحيطه، ومضى يتجول بين الرفوف. اتجه إلى الرف الذي احتضن لقاءهما الأول، الرفّ ذاته الذي جمع نظراتهما الأولى وترك بينهما ما يشبه بداياتٍ لا تُعلن. تذكّر كيف كانت تقلّب العناوين بعينين تعرفان مقصدها، وكيف لامست كتاباً ثم تركته، وكيف جلس قبالتها يومها. واستعاد عبارتها التي ما زالت تسكن في ذاكرته: «قد يكون الغياب أفضل من حضورٍ فاتر». وقف هناك كمن يعيد مشهداً يعرفه، لكنّه حين مدّ يده ولمس الرف شعر أنّ أثرها ما يزال حاضراً، وأنها - وإن غابت - لم تغادر المكان. تأمل الكتب طويلاً؛ بعضها يعرفه، وبعضها مرّ به دون أن يفتحه يوماً. لامس حافة الرفّ، فشعر بخشونة الخشب؛ المكان هادئ كما تركه، غير أنّه لم يمنحه الإحساس نفسه.

تنفّس بعمق، ثم اتجه إلى الطاولة وجلس. أسند كفّه فوقها، وتذكّر كيف التقاها، وكيف قالت له ذات يوم: «إن اشتقتُ أنا إليها فسأتي»، وكيف تلاقت أصابعهما عند الكتاب نفسه، ثم تفرّقت دون رغبة.

نهض وسحب كتاباً وفتحه، فوجد بين صفحاته وردة جافّة. لم يعرف مَنْ تركها؛ كأنّ شجن اختارت أن تختبئ في ظلّ الورق. قلب الصفحة التالية فلم يجد سوى بقايا رائحة وردة ذابلة.

تأمل هنيهة. ساوره شعور تحرّك في داخله؛ شيء يشبه آخر ما يبقى ساكناً بعد وداع لم تكتمل كلماته. عاد إلى طاولته وجلس. لم يكن في المكان سواء... هو ورائحة الكتاب الدافئة. لم يلتفت إلى الباب، ولم يفكّر في الخروج؛ اكتفى بالبقاء، كأنّه السبيل الوحيد للحضور حين لا يعود أحد.

كان النهار ساكنًا في الحلم حين فتح فارس عينيه، غير أنَّ في داخله شيئًا يتحرَّك كأنه لم يستيقظ بعد. لم يدرِ أكان يخرج من حلم أم من ذاكرةٍ عادت فجأة. الصورة ما تزال ثابتة أمامه، لا تتزحزح: خالد واقفٌ عند الشاطئ، الموج خلفه ساكن، لا أثر لراشد، ولا لصرخةٍ ابتلعها البحر، ولا ليدٍ امتدَّت ثم تأخَّرت. بدا المشهد كلّه صامتًا، كأنَّ البحر أنكر ما حدث، وأنَّ خالد لم يذهب، وأنَّهم جميعًا أخطؤوا حين بكوه.

انتفض من فراشه وجلس، سكن لحظةً.. نظر حوله؛ الحجرة هادئة، والضوء يتسلَّل من خلف الستارة. مرَّ يده على وجهه، ثم نهض وفتح النافذة قليلًا، فاندفع ضوء النهار كاملاً إلى الداخل. وقف أمامها، ثم عاد وجلس إلى الطاولة زمناً طويلاً، يصفي إلى شيءٍ لا يسمعه أحدٌ غيره. كان الإحساس يتشكَّل في صدره، يبدأ من مؤخرة العنق، ثم يمتدُّ كموجٍ يسري في الجسد. شعر بثقلٍ غامضٍ داخله، وامتدادٍ لا يعرف مصدره. لا رطوبة في الحجرة، ولا أثر للبحر، ومع ذلك أحسَّ أنَّ شيئاً منه حاضرٌ هنا.

فتح الدرج وأخرج الفصّ، وتذكَّر كلمات العرافة: «اربطه في معصمك لتهدأ الأصوات، ويهدأ صوت البحر». أمعن فيه، ثم لفَّ الخيط حول معصمه بثبات. عندها بدأ ما في صدره يخفُّ شيئاً فشيئاً، كأن اضطرابه وجد مكانه أخيراً.

لم يسمع خطواتها حين دخلت؛ كان لا يزال جالساً أمام الطاولة، ينظر إلى معصمه حيث الفصّ يلتفّ حول جلده كأنه

جزءٌ منه. سمع صوت الباب يُفتح، فالتفت. كانت أمانى عند العتبة، وعلى وجهها ظلُّ قلق. قالت: «فارس... هل أنت بخير؟» لم يُجب، اكتفى بالتحديق في يده. اقتربت خطوة، وقالت: «إن أردت أن تتحدث... فأنا هنا».

قال بهدوءٍ لا يشبه الاطمئنان: «ليس لدي ما أقوله».

نظرت إليه مدة، ثم تراجعت وخرجت من الحجرة، وأغلقت الباب خلفها.

خرج من البيت. كان الزقاق ساكناً، والشمس تتقد حرارتها، والغبار ينهض مع خطواته. مضى نحو الطرف الآخر من القرية. وعند المنعطف المؤدّي إلى بيت مناع تباطأت خطاه، كأنما جسده يعرف أنه يقترب من شيء لا يُعبر إليه بسهولة.

بدا البيت أكثر صمّتا من المعتاد؛ النافذة مغلقة، والباب نصفُ موارب، وعلى العتبة بقعٌ غامقة لا يُعرف أهى دمٌ أم شيءٌ آخر. وأمام الباب كان الطفل المشلول على كرسيه، لا تتحرّك منه إلا عيناه تتبعان العابرين.

لكن هذه المرة كان ينظر إليه مباشرة؛ عينٌ زرقاء تلمع كبريق، وأخرى سوداء تضيق حتى تكاد تنطفئ. توقّف فارس؛ شعر بارتباك في صدره، كأنما انكشف ما حاول نسيانه طويلاً. لم يقل الطفل شيئاً، وواصل النظر إليه بعينيّ من يهدّد بصمت.

انتظر فارس أن يشيح الطفل بصره... لكنه لم يفعل. حرّك يده حول معصمه، لمس الفصّ والتقط أنفاسه. كان في صدره شيءٌ غريب يسري؛ إحساسٌ مبهم يصعب فهمه. اجتاز الزقاق المؤدّي إلى السوق؛ الحركة هناك بطيئة، والأصوات متقطّعة.

يرفع الباعة أصواتهم، والماء يُرش على التراب ليهْدئ الغبار. وفي
الجهة المقابلة خرج راشد من المكتبة بخطواتٍ متردّدة، وملامحه
تحمل أثر تعبٍ لم يُخفه. رآه فارس فتوقّف. لم يعرف ما يقول؛
الكلمات التي تأخّرت سنين حضرت دفعةً واحدة، ثم عجزت عن
الخروج. همّ أن يناديه، لكنه سمع صوتًا خلفه:
«فارس؟»

التفت. كان أبوه يسير نحوه بخطواتٍ واثقة، ظلّه يسبق جسده،
وصوته يأتي من ذلك العمق الذي لا يُخطئه. شعر فارس بانقباضٍ
في صدره؛ هذه الخطوات لم تخطئه يومًا، يعرفها منذ طفولته،
حين كانت تسبق العقاب.

قال الأب وهو يقترب: «ما زلتَ تمشي تائهاً».

لم يُجب فارس؛ فالردّ أمام أبيه مجازفة لا خيارًا.

اقترب الأب أكثر وعيناه تقدحان شررًا.. قال بصوتٍ حادّ: «ذهبتَ
إلى العرّافة إذن!»

لم ينطق فارس. نكس رأسه ومضى يسير إلى جانبه. ثقل
الصمت بينهما، التفت إليه أبوه وقال: «زيارتك لها لم تكن عابرة...
صحيح؟»

فتح فارس فمه ليقول شيئًا، ثم ابتلع كلماته؛ تعلّم أنّ كلّ جوابٍ
أمام أبيه عقابُه حاضرٌ في آخره. وفي تلك اللحظة لمح الأب
الفصّ حول معصمه؛ خيطُه يلمع تحت الضوء.. سأل بنبرة هادئة
تخفي ما وراءها: «وهذا؟ من أين جاءك؟»

أخفى فارس يده داخل كُمّه بسرعة، وقال: «شيءٌ قديم.. لا
يخصّ أحدًا».

حملق والده فيه، وقال: «إن كنتَ تحاول أن تُخفي عني شيئاً، فتيقّن أنّي سأعرفه».

هز رأسه، ثم قال وهو يحدّق في الشمس: «لنعد... الشمس بدأت تُحرق ما تبقى منّا».

ومضيا معاً؛ كلٌّ في صمته، وكلٌّ إلى جهته. كأنّ الحوار كان كافياً ليمنع أيّ منهما من قول ما لا ينبغي. كانت الظلال الممتدة أمامهما تلتقي ثم تفترق مع كل خطوة. رفع فارس كُمّه قليلاً، ونظر إلى الفصّ.. في داخله تردّد صدى جملة جاءت كأنها من عمق البحر: «لا تقلها الآن... لكنك لن تسكت طويلاً». تابع سيره إلى جوار أبيه، والقرية من حولهما تزداد صمتاً. شعر أنّ البحر، وإن غاب، ما زال يموج فيه، ينتظر اللحظة التي ينكسر فيها الصمت أخيراً.

عادا إلى البيت واجمين؛ يسيران متقاربين بخطوات منتظمة، والمسافة بينهما تضيق بالكتمان. لم يتبادلا كلمة، وكلٌّ ما يُسمع هو وقع خطواتهما على الأرض، صوتٌ قصير يتكرّر بانتظام. وصل فارس إلى الباب، فمدّ يده ودفعه ودخل. أما أبوه فوقف عند العتبة يتفحّص أرجاء البيت بعينه، ثم عبر إلى الداخل. في الفناء، كانت أمّ فارس تجلس على المصطبة الحجرية؛ الدّلة أمامها على صينيةٍ من الخيزران، والفناجين مصطفة في طرفها، تراقب الباب بين حينٍ وآخر. وما إن انفتح الباب حتى رأت فارس يدخل أولاً، يتبعه أبوه. لم تقل شيئاً في البدء، اكتفت بمتابعتهما، ثم نفضت عن طرف ثوبها الغبار.

مرّ فارس من قريبا ومضى إلى الداخل دون أن ينطق بكلمة. لم يكن ذلك غريباً عليها، فهو يفعل الأمر نفسه كلّ مرة، غير أنّها لمحت هذه المرّة في مشيته اضطراباً لا يودّ مواجهته. رفعت رأسها نحوه وقالت: «عدت؟»

أجاب دون أن يتوقّف: «نعم».

تابعت خطواته متسائلة: «هل ستبقى في حجرتك؟»

لم يرد. دخل غرفته مغلقاً الباب بسرعة غير راغب في التحدّث إلى أحد. توقّف أبو فارس يستعيد أنفاسه، ثمّ جلس قرب زوجته. ناولته فنجان القهوة.. أخذ رشفةً منه وأعادها إلى الصينية دون أي كلمة.. رمقته وقالت:

«قابلت فارس في السوق؟»

«نعم».

«وتحدّثتما؟»

«قليلاً».

«ما به؟»

«أراد أن يقول شيئاً ثم تراجع».

سكتت برهة تتأمل وجهه، ثم قالت: «لماذا تراجع؟»

«لم يبدُ راغباً في متابعة الحديث».

«لأنه يخاف منك».

رمقها، ثم نظر إلى الصينية، وقال: «الخوف لا يمنع أحداً من الكلام.. إلّا إذا كان يخفي شيئاً».

لم تعلق؛ قلبت الفناجين أمامها وقالت: «وأمانى أيضاً تغيّرت منذ مدّة».

لم يرد.

فتابعت: «أصبحت تجلس وحدها كثيرًا، وقليلة الكلام».

«البنات يتغيّرن، هذا أمرٌ طبيعي».

«لكنها ليست على حالها؛ في نفسها شيء لا تبوح به».

«هل قالت لك شيئًا؟»

«لا. لست بحاجة إلى أن تقول حتى أعرف؛ الأم تفهم ابنتها

حتى حين تتغيّر».

أطرق ولم يعلّق، فتابعت: «كنت أفكر في راشد».

رفع رأسه محدّقًا وقال: «راشد؟»

«نعم راشد. شاب خلوق ومؤدّب، والناس تذكره بالخير، وله

سيرة حسنة. ما رأيك لو...».

فهم ما ترمي إليه؛ قاطعها: «لا أراه مناسبًا لها».

«ولم لا يكون مناسبًا؟»

«لكلّ أمرٍ أوانه، وهذا ليس أوانه».

«البنات بلغت سنّ الزواج».

لم يرد، وحدث أمامه صامتًا.

فقالت: «راشد ليس غريبًا عنّا، نعرفه ونعرف أهله، وأراه شابًا

يعتمد عليه».

«قلت لك، لا أراه مناسبًا لها، وأماني ما زالت صغيرة».

قالت بنبرة هادئة: «من في سنّها يتزوّجن.. أنت فقط تراها

بعين الأب».

حملق إليها وقال بحزم: «قلت رأيي... انتهى النقاش».

لم تُجب، تركته ينهض ويعود إلى غرفته. نظرت إلى أثر جلسته، ثم أعادت ترتيب الفنجانيين على الصينية. كان في صمتها تعايشٌ مع ما اعتادته؛ فهي تعرف أن كل حديثٍ بينهما ينتهي قبل أن يكتمل. حدّقت لحظة إلى الباب الذي أغلقه خلفه، ثم تمتمت: «الخوف لا يبني بيتًا... بل يهدمه على أهله».

حملت الصينية ودخلت؛ وجهها هادئ كما كان.. فما دار قبل قليل لم يكن خلافًا، بل تكرارًا لحوارٍ تعرف نهايته سلفًا. كانت أمانى واقفة عند نافذتها، تمسك بطرف الستارة حين اخترق صوت أبيها سكون البيت: «لا أراه مناسبًا لها».

ارتجفت الجملة في صدرها كجرحٍ يُعاد فتحه؛ توقّفت يدها وانحبس نفسُها؛ فهمت ما لم يخطر لها من قبل: ما كان ينمو في قلبها قد وُئِد بكلمةٍ واحدة، وأبوها -من حيث لا يقصد- أطفأ الجزء الوحيد منها الذي بدأ يستعيد حياته.

أفلتت الستارة خامدةً في مكانها؛ نظراتها شاردة، والسكوت من حولها لم يُعد سكونًا، بل فراغًا ثقیلاً يضغط على صدرها كلما تذكّرت صوته.

في تلك الأثناء، كان فارس جالسًا على الأرض، مسندًا ظهره إلى الجدار شارد الفكر ويدور الفص بين أصابعه؛ يضعه على الطاولة ثم يعيده إلى راحته. كانت الحجرة ساكنة، أما داخله فكان مضطربًا؛ الكلمات التي لم يقلها في السوق، وما ابتلعه أمام أبيه، وما علق بينه وبين راشد... كلّها تجمّعت الآن، تضغط على صدره كصوتٍ يبحث عن منفذ. كان يسمع من مكانه همساتٍ

متقطعة من الفناء؛ كلمات مبعثرة لا يتبينها، ثم جاء صوت أبيه
واضحًا وحادًا «لا أراه مناسبًا لها».
قبض على الفصّ.. فكّر: «أنا أيضًا لا أراه مناسبًا لها... لكنني
لا أراها إلاّ معه».

خرج راشد من المكتبة كمن يغادر حديثاً ضاقت به اللغة؛ يحمل في صدره ورقة، وفي قلبه أثر وردة خلفت وزن امرأة لم تترك وراءها سوى غياب ينخر حنينه. خرج خائباً حزيناً؛ كتب تطلعت إليه لتعاتبه، ورفوف شهدت حضوره أكثر مما شهدت غيابه.

بدت القرية ساكنة؛ الطريق خالٍ، ولا صوت يوحى بصخب الحياة. عند منعطف بين بيتين توقّف فجأة؛ سمع صوتاً خافتاً، لا هو نداء ولا همس.. صوتٌ قصيرٌ يشبه خفقة تتسلل من جهة غامضة. التفت، فلم يجد أحداً. تسمع هنيهة.. عاد الصوت ثانية! فكرر برهة.. ثم تابع في الاتجاه الذي جاء منه، يجره شعورٌ بأن النداء موجّه إليه وحده.

ومع كلّ خطوة يبتعد الصوت قليلاً ثم يعود أوضح، إلى أن وجد نفسه يقترب من جهة البحر. كان الساحل خالياً؛ رمالٌ تمتدّ في صمت، ووميض ماءٍ يلمع تحت ضوءٍ مائل. توقّف حين خفت الصوت، رفع رأسه، فإذا به يقف على حافة الشاطئ. كانت هناك. كأنّ البحر ردّها إليه بعد غياب طويل؛ تتلقّى الضوء المنعكس على سطح الماء حتى بدا جسدها كأنه خلق منه، وثوبها يلامس الرمل بامتدادٍ يشبه الموج حين ينحسر. بدت كحورية خرجت من عمق بعيد، مغمورة بالضوء والماء؛ وجهٌ صافٍ يحمل سكون البحر، وشعرٌ مبتلٌ ينسدل على كتفيها، وعينان لا تشبهان الليل ولا النهار، بل الحدّ بينهما.

اقترب خطوة، وخرج صوته لا إرادياً: «نورة!»

استدارت برقّة وقالت: «تأخّرت».

وقف أمامها صامتاً؛ لا يدري بأيّ كلمة يبدأ. قالت محدّقة إلى البحر: «كنتَ تسمعني، لكنك لم تجب».

لم يرد؛ راح يراقب حركة شفّيتها، وصدى حروفها يتردد داخله. قالت: «كلّ ما تهرب منه يعود إليك.. حتى الصمت الذي تظنّه نجاةً يصير سجناً حين يطول».

اقترب خطوةً «ظننتك لن تعود».

«من يعود لم يغادر يوماً.. يترك مسافةً للإصغاء».

بحث بعينيه في ملامحها عن معنى لا يكتمل.. «لماذا عدت الآن؟».

«لأنك بدأتَ تسمع». لمست الماء بخفة «حين يخاف أحدهم من المواجهة، يترك نفسه في منتصف الحريق».

أمعن فيها؛ لم يعرف إن كانت تقصده أم أحداً آخر.. «أنا لا أخاف».

ابتسمت... «بل تخاف أن تقول فتتكسر، وتخاف ألا تقول فتتكسر... فاخترت الصمت، وانكسرت مرّتين».

تقدّم خطوة كأنّ كلماتها سحبته إليها. فقالت وهي تُمعن في البحر: «الاسم الذي تخفيه هو الذي يحميك، وحين يُقال الاسم في لحظة خاطئة، لن يُنقذك أحدٌ ممّا سيستيقظ بعده».

تردّد صوته... «أيّ اسم تقصدين؟»

لم تجبه؛ أشارت إلى البحر وقالت بنبرة هادئة كمن يهمس بسرّاً: «انظر.. وستفهم».

رفع نظره إلى الجهة التي أشارت إليها، فرأى في عمق البحر ظلاً يشبهه؛ لا ملامح له قائماً وسط الماء، كأنّ البحر نسخ هيئته واحتفظ بها في قاعه. توسعت حدقتاه مركّزاً، لا يدري إن كان ما يراه انعكاساً مضطرباً أم حضوراً آخر له في مكانٍ أبعد.

«إنّ خطوات خطوةً واحدة.. فلن يعود البحر كما كان، ولن تعود أنت كذلك».

«وماذا يحدث إن خطوات؟»

«يحترق واحدٌ منكما».

تراجع خطوة «أنا...؟»

«أو ما تمنيتَ له أن يبقى».

سكتت بعد عبارتها، وراح يحرق إليها؛ شعر أنّ ملامحها تتلاشى، والضوء الذي يحيط بها يتمدد حتى يُفِرّق وجهها. قال محاولاً الثبات: «نورة!»

لم تُجب. كانت عيناها آخر ما غاب، ثم لم يبقَ إلا دَفْق الموج. تسمّر محدّقاً في الماء الذي ابتلع صورتها، لا يسمع سوى تكسّر الموج، كأن البحر يردّد الصدى الأخير من كلماتها. لم يتحرّك؛ يثقل جسده صمتٌ لا يلين، ويضيق صدره بحمْل يعرف أنّه إن خطا بعده خطوةً واحدة تغيّر ما تبقي فيه. مكث حتى خفّ الضوء، وبدأ الأزرق ينسلّ من الأفق، ثم استدار مبتعداً؛ لا يمشي، بل يفرّ من نشيجٍ راح يهتف في أعماقه.

حين بلغ بيت الجد كان الصمت قد دخله قبله. فتح الباب ودخل؛ الحجرة على حالها، غير أنّ في هوائها يقظةً خفيفة توحى بأن شيئاً نهض من سُباته. اقترب من الصندوق وجثا أمامه،

لا يمدّ يداً ولا يزيح الغطاء؛ اكتفى بأن أصدق فيه طويلاً، كأنَّ
النظر وحده امتحانٌ لا بدّ من عبوره. بسط كفّه ورفع الغطاء.
رويداً، كمن يخشى أن يوقظ ما استقرّ في جوفه. بدت الأشياء
في مواضعها: الخنجر، والصورة، والورقة، والخاتم.. ساكنة، لكنها
بدت أقرب إلى الحياة من أيّ وقتٍ مضى.
مدّ يده نحو الخاتم، فخرّ قلبه انقباضاً حادّ، فسحب يده..
أغلق الصندوق وأبعده عنه، ثم فتح دفتر الرموز وكتب:
«بعضُ الأسماء تُحفظ لأننا لا نملك الجرأة أن ننطقها.. وبعضُ
الصمتِ يشعل حريقاً.. لا فينا، بل في كلّ ما حاولنا إنقاذه».

استيقظت شجن على غير عاداتها؛ لم يكن نومها هادئاً، بل أقرب إلى مراوغةٍ بين الأرق وفسحةٍ خاطفةٍ تستريح فيها الروح. أحسّت أن التعب ما زال عالقاً بها، وأن السكون المحيط يضاعف اضطرابها. جلست، حرّكت كتفيها كمن يطهر جسده من أثر ليلٍ طال أكثر مما ينبغي، ونهضت.

فتحت النافذة، فهبّت نسمةٌ دخلت الحجرة كإيماءٍ من صباحٍ متردّد. استنشقت نقاء الهواء، ثم مضت إلى المغسلة؛ غسلت وجهها كمن يزيل أثراً لا تلتقطه المرأة. رفعت نظرها إلى انعكاسها وهمست:

«أبدو بخير.. لكنني لست كذلك».

تهيأت للخروج كما تفعل كلما ضاق بها صدرها. تمضي على غير هدى، عسى يخفف ارتحالها ما يثقلها. ترى في المشي نجاتها؛ طريقة تُعيد بها ترتيب ما تبعثر في داخلها. وكانت لُجين تتابعها بعينيها الهادئتين، كأنهما تسألانها: «إلى أين؟»

وقفت شجن أمام المرأة، عدّلت من مظهرها، ثم همّت للخروج.. كانت الأم ترتّب البيت، ولمّا رأت ابنتها تستعد للمغادرة سألتها قلقة:

«إلى أين؟»

تردّدت شجن قليلاً ثم قالت: «سأمرّ بمنيرة».

تأمّلت الأم وجه ابنتها تحاول قراءة ما وراء الكلمات، ثم قالت: «لا تتأخري».

أومأت شجن وتقدّمت نحو الباب. وحين سمعت الأُم صريره يغلق، اتجهت إلى النافذة، أزاحت الستارة قليلاً، فرأت ابنتها تسلك طريقاً بعيداً عن بيت منيرة. تابعتها بنظرة قلقة حتى غابت، ثم أعادت الستارة إلى مكانها، وعادت إلى عملها وشيء من الحيرة على وجهها.

خرجت شجن، وكلّ ما حولها يبدو عادياً، غير أنها لم تعد تشعر بانتمائها إليه.

بدت القرية ساكنة أكثر ممّا ينبغي، والطرق خالية إلا من وقع خطواتها. كانت تمشي بلا يقين، تختبر قدرتها على المضي وإن كانت لا تعرف إلى أين.

في داخلها شعورٌ تائه؛ شيءٌ بين حنينٍ تقاومه ومحاولةٍ للنسيان. تمشي لتخفّف ما أثقل صدرها، لعل السير يعيد إليها توازناً ضاع، أو يتركها -على الأقل- أقل اضطراباً. كلّ خطوة كانت أشبه باعترافٍ مؤجّل، وكلّ منعطفٍ يقودها إلى ما تعرفه جيّداً.

ولمّا اقتربت من الزاوية المؤدّية إلى المكتبة، تباطأت حتى توقّفت أمامها. كان المكان حيّاً في داخلها أكثر من أيّ وقت مضى. وقفت عند النافذة كما لو أنها تقف أمام مرآة تستعيد فيها شعوراً بدأ هنا.

قالت في سرّها: «لم أخرج لأرام... خرجت لأبلّل قلبي بالاحتمال». وضعت يدها على صدرها، وأحسّت بنبض يتسارع، كأن شيئاً خافئاً فيها قد استيقظ عند الباب الذي تعلّمت فيه معنى الاشتياق. وقفت طويلاً؛ تعرف أنّ اللقاء ليس لهذا اليوم، غير أنها أرادت أن تشهد المسافة بين الشوق والتراجع.

ثم همست: «ما أثقل أن نشاق إلى مَنْ لا يلحظ غيابنا».

عادت شجن إلى البيت، وقد أدركت أنّ ما كانت تهرب منه يلاحقها، وأنّ السكينة التي خرجت تطلبها لم تعرف سبيلها إليها.

دخلت، وعلّقت عباؤها على المشجب، وجلست قرب النافذة. لم تكن تفكر في شيء واضح، غير أنّ اليوم بدا أثقل ممّا بدأ.

من المطبخ جاءها صوت الماء والأواني تُغسل، كلّ شيء يبدو على عادته، إلا ما يضطرب في داخلها. وبينما كانت تستعيد صورة الباب الذي تركته وراءها، نادى الأمّ: «كيف حال منيرة؟»

رفعت شجن حاجبيها برهة ثم أجابت: «بخير».

قالت الأم بنبرةٍ تحمل شكًا واضحًا: «متأكّدة أنها بخير؟»

ردّت شجن وهي تمضي إلى غرفتها: «نعم».

جلست على طرف الفراش. وبعد دقائق، دخلت أمّها وجلست إلى جوارها، وقالت بصوتٍ رقيق: «أنا أعرفك من نبرة صوتك».

أطرقت شجن، ثم همست: «أعتذر.. لم أذهب إلى منيرة».

صمتت هنيهة، ثم أضافت: «ذهبت إلى المكتبة.. ظننت أنني نسيت كتابًا، وكانت مغلقة... وعدتُ سريعًا».

لم تُعلّق الأم، اكتفت بصمتٍ ثقيل، ثم قالت: «الكذب لا يليق بك». نهضت، وغادرت الغرفة وأغلقت الباب.

بقيت شجن وحيدة، أسندت رأسها إلى الجدار، تستعيد ذلك الباب الذي تركته خلفها، وذلك المكان الذي بدا لها موحشًا أكثر من قلبها. عادت إليها تفاصيل قليلة، لكنها كافية لإيقاظ السؤال الذي ظنّت أنها دفنته: هل كانت عودتها محاولةً للشفاء، أم خطوةً أخرى نحو الفرق؟

وبعد برهنة من الصمت، فتحت دفترها وكتبت: «أحياناً لا يكون
الكذب خطيئة، بل محاولة أخيرة لنحافظ على صورتنا أمام من
نحبّ». ثم أغلقت الدفتر، كأنها تُغلق اعترافاً لا تريد أن يقرأه
أحد.

حين استيقظ راشد كان الضوء قد غمر الحجرة كلها. لم يلبث في البيت طويلاً؛ خرج وهو لا يدري أكان يبحث عن خلاص أم عن تكرار لما يوجعه. مضى بخطى ثابتة، يقوده رجاء غامض إلى ما قد يشفي قلبه، حتى وقف أمام المكتبة.

دخل، فحيّاه حسن الورّاق بتحيةٍ باسمه، فردّها عليه، ثم توجّه إلى طاولته المعتادة. جلس، ووضع كفيه على الطاولة، وأخذ يطوف ببصره في المكان كمن يفتقد شيئاً لا يعرف متى يعود. سمع تقلب صفحاتٍ في الزاوية، فاختلطت الأصوات في رأسه، وتسرّبت إليه ذكرى صوت شجن وهي تقول: «إن اشتقتُ أنا إليها فسأتى».

أدار وجهه نحو النافذة، راقب المارين، ثم نهض بعد صمتٍ طال أكثر مما ينبغي. خرج من المكتبة مثقلاً بما يفوق ما دخل به.

وفي الطريق اتجه إلى البحر؛ لم يكن يمضي بإرادته بل بدافع عادةٍ تلجأ إليه حين يضيق صدره. أحسّ أن السير يُخفف عنه بعض عبئه، ولو قليلاً. تابع طريقه حتى بلغ المنحدر الرملي المؤدّي إلى الشاطئ.

هناك رأى رجلاً جالساً على الرمل، جسده مقوّس، لا يصطاد ولا يشغل يديه بشيء، بل بدا جزءاً من المكان، كأن الصمت نُصب بهيئته. اقترب راشد، فرأى أكواباً بلاستيكية مصطفّة، ودمية ممزّقة الذراع، وملابس أطفال مطويةً قريباً. توقّف لحظة، ثم تابع خطواته. كان الرجل جابراً المجنون.

وجهه متعب، وثيابه ممزقة، غير أن مظهره لم يكن أكثر ما شدَّ راشد، بل صوته.

كان يتحدث إلى الأشياء كما يتحدث أب عطوف إلى أبنائه: «لا تشرب بسرعة يا وليد... دع أخاك يُنه حصّته أولاً». ثم مدّ يده إلى الفراغ يناول كوباً خفياً لأحدهم. أمامه ثلاثة أكوابٍ مصطفىّة بعناية، كأنها جلسةٌ عائلية لم يتبقّ منها سوى المقاعد.

ثم التفت إلى جهة أخرى وقال بصوتٍ متهدّج فيه رجاء: «كم مرّة قلتُ لك لا تقترب من البحر؟» ضحك فجأة، وضرب الرمل براحة يده: «أمّكما كانت تقول إنكما لا تعرفان الخوف». وسكت، ثم قال بصوتٍ خافتٍ منطفئ: «أمّكما رحلت». رفع كفّه إلى وجهه وبكى بكاءً يمزق القلب.

وقف راشد في مكانه؛ يشاهد ما لا يُصدّق، عاجزاً عن الاقتراب. رأى جابر يضمّ الدمية إلى صدره، يهمس لها بصوتٍ مبخوح يحمل خوفاً وحنيناً: «أنا لن أترككما».

رأى في ملامحه كلّ فقدانه: رأى أمّه تقف عند الباب تقول له: «تأخّرت يا راشد»، ورأى خالدًا يُبتلعه الموج، ورأى شجن تمضي غير عابئة بمروره.

وقال في نفسه: «الجنون ليس أن تهذي.. الجنون أن تبقى حياً بعد أن يرحل من تحبّ، وتترك وحيداً مع ذاكرتك».

لم يحتمل أكثر؛ استدار وسار مبتعداً، وكانت كلّ خطوة تجرّه إلى الوراء كأن الحزن يُمسك بثقله. لم يلتفت إلا مرة واحدة؛ كان جابر ما يزال في مكانه، يعيد ترتيب الأكواب ويضمّ الدمية إلى صدره.

عاد إلى البيت، ودخل غرفته دون أن يشعل الفانوس. جلس على فراشه ثم تمدّد كجسد أجهده الأسى. صارت اليقظة وجهًا آخر للعذاب، وصار النوم مهرية الوحيد. ونام... نومَ الذين ضاقت بهم الدنيا، فلم يجدوا مكانًا آمنًا لا فيها ولا في أنفسهم.

لم تعرف القحمة ليلاً يشبه ذلك الليل؛ البيوت غارقة في نوم ثقيل، كأنها أغلقت قلوبها قبل نوافذها، إلا بيتاً واحداً بقي موقداً كصدرٍ يُحبس فيه النبض..

تمدد أبو فارس على فراشه، وزوجته إلى جواره تنام بحذر صامت، كأنها اتفقت مع الظلام على ألا تقاطع ما يجري. غطت في نوم مضطرب؛ صدره يعلو ويهبط كمن يعبر حمى، ملامحه ساكنة، غير أن حاجبيه يرتجفان كأن شيئاً في أعماقه يقاوم الاستسلام. تراءى له سطح أبيض لا نهاية له، وفي قلبه وقف الطفل المشلول يرسم جبلاً هائلاً. وجهه مطموس المعالم، لا يلمع منه إلا عين زرقاء تشق البياض. كان يرسم بعينه؛ كلما رمش انفتح في الأرض خط، وكلما رفع جفنه تمدد الشق حتى تكوّر منه جبل نابض. لم يكن الجبل جبلاً؛ كان جسداً يتنفس، تغطيه الصخور كأضلاع تطبق على قلب يريد الفكاك. وفي أسفله فتحة تشبه فماً يتهيأ للبوح. نظر الطفل إليه بعين واحدة متوهجة، وفي إثره ظهرت الطفلة بثوب مبتل وشعر يكسو وجهها، إلى جانبها الكلب، تحمل بين يديها صخرة يتصاعد من شقوقها دخان داكن. تقدّمت ورمت الصخرة عند قدميه؛ تهشمت، وانبثق منها صوت لم يعرف مصدره؛ بدا كأن الجبل والطفلة والطفل والكلب صارت أصواتهم صوتاً واحداً يقول: «الذي يرسم.. يكشفك». تراجع أبو فارس، أراد أن يصرخ فلم يملك صوته. أحسّ بجلده يُنتزع عنه، كأن كل ما دفنه في صدره بدأ يتسرّب من مسامه، وصارت

الأسرار عرقاً حاراً. ثم جاء الصوت هذه المرة من تحت قدميه، أعمق وأقرب: «ما لا يقتلك.. يُعَرِّيك». أراد أن يهرب، لكن قدميه انغرستا في الأرض كجذورٍ لا تُقتلع.

بدأ الجبل يتقدّم نحوه، صوته يعلو كصدرٍ يتأوّه، وانشقت السماء فوقه وتطاير من فجاجها رمادٌ مضيء. اقترب حتى شعر بأنفاسه تمسّ وجهه، وفي اللحظة التي بلغ فيها الخوف ذروته... انطفأ كل شيء.

انتفض من نومه، شفق كأنّ رئتيه تفتّحتا على ألم. وضع يديه على صدره يحاول أن يستعيد أنفاسه، وجبينه يلمع بالعرق. تحرّكت أمّ فارس بجانبه وقالت همساً: «أما زالت الكوابيسُ تطاردك؟»
لم يجبها.

لم يُجب. مسح عنقه بكفّه، ثم أغمض عينيه وهمس بصوتٍ مبجوح: «ذاك الطفل.. لا يرسم. ذاك الطفل يكشف السر». نهض من فراشه، واتجه إلى النافذة ففتحها. كان الليل ساكناً، والبحر البعيد يلمع بضياءٍ خافت، غير أنّه رأى -أو خيّل إليه أنه يرى- ظلّ الجبل يرتفع في الأفق، كأنّ الليل كلّهُ يستند إليه ويراقبه بحدّة صيَّاد يترصّد فريسته. عاد وجلس على الفراش، يحدّق في الأرض طويلاً، ويمسح وجهه بكفّ مرتجفة؛ كان جلده ما يزال ساخناً من وهج الحلم.

قال في سرّه: «إن لم أتحرّك الآن... فالصمت لن يحميني». نهض ثانية؛ لم يكن في جسده ما يوحي بالقوة، لكن داخله امتلأ بإصرارٍ خفيّ يشبه الخوف إذا اشتدّ. ارتدى ثوبه، وعيناه معلقتان بالنافذة، لكنّ قلبه كان قد اختار طريقاً واحداً.

كان يعلم أنّ السكوت لم يعد ملجأً ولا حياءً، وأنّ عليه أن يذهب إلى الجبل.

كان الليل في لحظته الفاصلة: لا هو ليلٌ كامل ولا فجرٌ صادق، بل زمنٌ معلق بين حدّين متردّدين. خرج أبو فارس من البيت، وفي يده شعلةٌ: عصاً طويلة يتوهّج رأسها بلونٍ يميل إلى البرتقالي، يتصاعد منها دخانٌ ملتفٌ كفكرةٍ تلحّ ولا تتطفئ. كانت خطواته تثقل الطين تحت قدميه، وكلّ ظلٍّ على الجدران يتزحزح كأنّه يراقبه وهو يعبر الأزقة الضيقة نحو الميناء.

عند الحافة توقّف. أمامه بحرٌ ساكنٌ كصفحةٍ معدنيّةٍ مطفأة، لا يعكس نجمًا ولا وجهًا، ولا موجةً تقرع حجرًا. بدا البحر كمن حبس أنفاسه ينتظر شيئًا.

كان القارب عند طرف الشاطئ، مستسلمًا على الماء كسجيةٍ جثةٍ لم تُدفن بعد. مجدافاه مربوطان بحبلٍ شاحبٍ نهشته الشمس، وعلى سطحه بقعٌ داكنة تميل إلى السواد، كأنها دمٌ جفّ منذ زمن. مدّ أبو فارس يده ولمس حافة الخشب، ثم جذبه قليلًا حتى بلّل الماء كعبيه. وضع الشعلة عند المقدّمة وثبّتها بحجر، وأبعد اللهب عن الحافة، ثم مرّر كفّه على الخشب وقال بصوتٍ متهدّج: «لم يعد للتأجيل معنى.. ولا في التردّد نجاة».

صعد إلى القارب وجلس في وسطه، فكّ الحبل ودفع بالمجداف فابفتح الماء أمامه وتحرك القارب.

في اللحظة التي ابتعد فيها عن الشاطئ، أحسّ بظلٍّ يمر فوق رأسه. رفع بصره، فإذا بالغراب يحطّ على طرف القارب خلف الشعلة مباشرةً، يقف بثباتٍ كحارسٍ مأمور. لمعت ريشته

البيضاء لحظةً كأنها علامةٌ تُذكره بما لا يُنسى. لم يكن الغراب غريباً عنه؛ عرفه، ورآه في ساعةٍ تشبه هذه. خالَج صدره صوتٌ لم ينطق به: «ما كان ينبغي أن أراك الليلة».

ظلَّ الغراب يحدِّق في الشعلة، لا يتحرَّك ولا ينعق، حتى خُيِّل له أنه تمثالٌ من ظلمةٍ لها ريشةٌ واحدة مضيئة. ثم رفرف فجأة، تاركاً أثر جناحه فوق اللهب، كأنه أطفأ شيئاً من نوره.

عندها التفت أبو فارس إلى البحر. كان الماء يلتفّ حول القارب في دوائر هادئة؛ لا تدفعه ولا تعيقه، بل تحمله كمن يعيده إلى طريقٍ يعرفه وحده. شدَّ على المجداف، وأحسَّ أن البحر لا يعانده، بل يسوقه من تحته، كأنه وصيٌّ على سرٍّ لا يريد له أن يضلَّ. ظلَّ القارب يمضي، والماء من حوله يزداد ثقلًا، فيما كان الجبل أمامه؛ لا يراه بعينه، بل يشعر به ينهض داخل صدره قبل أن يمتدَّ في الأفق. ضرب بالمجداف ضربةً أخيرة، ورفع بصره إلى العتمة التي تتقدَّم نحوه. استمرَّ القارب يشقُّ الماء، وكلَّما ابتعد ميلاً ازداد البحر سكوناً، وازداد الجبل قريباً، وصارت الظلمة أصفى وأعمق. بدا الجبل في الأفق واضحاً؛ كتلةً صخريةً داكنة ترتفع خلف الشاطئ كأنها كتفٌ شقَّت قاع البحر وصعدت منه. اقترب، والماء حوله ساكنٌ لا حياة فيه سوى تموجٍ خفيف يصنعه المجداف. وحين بلغ حافة اليابسة، خفَّت حركة القارب، فغرس المجداف في الرمل ودفعه حتى استقرَّ. نزل، وقد بلَّل الماء أطراف ثوبه، ووقف لحظةً يتفقد المكان قبل أن يمضي بخطوات حذرة فوق الرمل. كان الطريق من الشاطئ إلى الجبل صامتاً إلا من حفيف ريحٍ تتسلَّل بين الصخور.

عند السفح كانت الصخور ملساء، بعضها مغطى بطحلب رطب، والرائحة مزيجٌ من ملح وفضلات طيور. توقّف عند صخرة منخفضة، مرّر يده عليها كمن يتفقد درّبًا يعرفه قديمًا، ثم تابع صعوده في ببطءٍ حتى بلغ الموضع الذي يختبئ فيه الكهف.

كانت الفتحة خلف كتلة كبيرة من الصخور لا تُرى لمن ينظر من بعيد. وحين وصل لاحظ أنّ الصخرة التي تسدّ الباب الحجري مزاحة قليلًا. اقترب، وضع كفيه على الحافة، وسحبها بقوة. تحرّكت ببطءٍ، وانفتحت بما يكفي ليمرّ.

قبل أن يدخل، أبصر جسد الحارس عند المدخل؛ ممدّدًا على الأرض، رأسه مائلًا إلى الخلف، وذراعه على صدره. انحنى فوقه، حرّك كتفه وقال: «سالم؟ ... سالم!» لم يجب. أعاد هزّه، فخرج من الحارس أنينٌ خافت. نهض أبو فارس، التفت إلى ظلمة الكهف، ودخل.

كان الداخل معتمًا، رائحته خانقة، وقطرات الماء تهوي من السقف على الأرض في إيقاعٍ رتيب. تقدّم متبّعًا الخيط الضعيف من الضوء المتسرّب من الفتحة خلفه. رأى سلسلة حديدية مطروحة على الأرض، وقيدها مفتوح، والجدار الذي كانت تُشدّ إليه أملس لا يحمل أثرًا لشدّ أو كسر. لحظتها أدرك أنّ السجين قد هرب.

تجمّد في مكانه لحظات، يحدّق في القيد والأرض المبتلة من حوله. قال بصوتٍ مسموع: «هرب؟ ... بعد كلّ هذا؟» ثم همس لنفسه: «كيف خرج؟ الباب لا يُفتح من الداخل!»

اقترب من الجدار؛ لا أثر لكسرٍ أو خدش، سوى موضع الحديد يلمع كأنه ما يزال يحتفظ بحرارته. خرج من الكهف، فعاد إلى الحارس فوجده قد بدأ يفيق. اقترب منه، وسكب قليلاً من الماء على وجهه. فتح الحارس عينيه مذعوراً، وحاول النهوض، لكن أبا فارس أمسك كتفه، وقال بصوتٍ ثابتٍ حادّ: «أين السجين؟ هيا، أخبرني!»

تلثم الحارس قائلاً: «كا.. كان الباب مغلقاً يا سيدي. تر.. ترجّاني أن أفتح له قليلاً ليستنشق الهواء، ثم لم أشعر إلا بضربةٍ على رأسي. حاولت النهوض، وطلبتُ منه العودة.. ثم أغمي عليّ». سأله أبو فارس بحدّة: «إلى أين ذهب؟»

قال الحارس: «اتجه نحو البحر... واختفى بين الصخور». ساد صمتٌ ثقيل، ثم شدّ أبو فارس قبضته وقال بنبرةٍ قاسية: «أنت السبب. فتحت له الباب ثم غفلت عنه. ستبقى هنا مكانه حتى يعود. وإن لم يعد... فلن تخرج من هذا السجن حتى تموت». تركه، وجلس عند الفتحة، يحدّق في العتمة أمامه، وقال همساً: «لو دفتّته بدل أن أحبسه... لما وصلت إلى هذا».

نهض بعد لحظات، واقترب من الحارس، أمسك ياقة ثوبه وجرّه إلى داخل الكهف. انفلت صوت سالم بالبكاء، تشبّث بثوب أبي فارس وهو يرتجف: «سيدي... لا تتركني هنا، أرجوك! سامحني... لم أقصد. أقسم إنني لم أعلم أنه فكّ القيد». كان صوته ينقطع بين كلمةٍ وأخرى، والدموع تسيل على خدّه الملطّخ بالتراب. نظر إليه أبو فارس بعينٍ جامدة لا تحمل ظلّ رحمة، وقال بصوتٍ منخفضٍ ثابت: «ستدفع ثمن خطئك». ثم دفعه دفعةً عنيفة ارتطم

معها بالحائط وتهالك على الأرض يصرخ. لم يلتفت إليه، أمسك طرف الصخرة ودفعها حتى أغلقت الفتحة تمامًا. ارتجّت الصخرة في مكانها، وارتدّ صدى الإغلاق في الجبل كأنه باب أُطبق على أنينٍ طويل.. ثمّ عمّ صمتٌ مطبق.

ترك سالمًا في الداخل، ونزل المنحدر نحو البحر. ركب القارب دون أن يلتفت، ومع ابتعاده بدأت الأمواج تمحو آثار الأقدام من الرمل، كأنّ أحداً لم يمرّ هناك قط، وكأنّ الكهف لم يُفتح يوماً. ومع كلّ ضربة مجداف كان يشعر أنّ ما هرب لم يكن رجلاً، بل سرّ قديم انفلت من بين يديه ولن يعود.

حين بلغ الميناء، سحب القارب حتى لامس الأرض. وقف يتنفس بعمق، ثم مضى. كانت الأرض ليّنة تحت قدميه، والرمل يلتصق بنعليه، وكلّ ما يريده أن يبتعد... أن يجعل بينه وبين الجبل مسافةً تكفي ليُخرس صوته. البيوت التي مرّ بها لم يرها، ولم يسمع صوتاً واحداً؛ بدت القرية كأنها غابت عن الوجود. كان يمشي كمن يسير وحده في عالمٍ خالٍ، لا يسمع إلا وقع خطواته ولا يشعر إلا بثقلٍ يزداد في صدره. كلما اقترب من بيته، اشتدّت عليه الصور التي حاول أن يتخلّص منها: يرى ناصراً وهو يفرّ من الباب الحجري، وسالماً يبكي عند قدميه، ويرى نفسه وهو يدفع الصخرة إلى مكانها. حاول أن يبعدها، فلم يستطع؛ كان الجبل قد غرسها في عينيه. أدرك أنّه لم يترك شيئاً هناك... بل حمله معه.

ولمّا بلغ بيته التفت خلفه؛ خيّل إليه أنّ شيئاً يتعقّبه. لكن لم يكن هناك سوى أثر نعليه. فتح الباب ودخل. كانت أمّ فارس في

الفناء، وما إن رآته حتى شعرت بأنّ ملامحه تحمل شيئاً غير مألوف.

قالت بصوتٍ مرتفع: «وجهك متغيّر... ماذا حدث؟»
لم يُجب.

قالت بعد لحظة: «أين كنت؟»

قال وهو يمرّ بجانبها: «كان عليّ أن أنهي أمراً».

اقتربت منه خطوة، حدّقت في وجهه وقالت بقلقٍ: «هل هناك ما يجب أن أعرفه؟»

قال بصوتٍ مُنهد: «أريد أن أرتاح... دعيني وشأني».

تراجعت خطوةً، تراقبه وهو يبتعد نحو الحجرة؛ جسده يترنّح كأنّ التعب يجرّه من كتفيه. رفعت يدها إلى فمها تكتّم ارتباكها، وقالت في سرّها: «هذا ليس وجهَ رجلٍ أنهي أمراً... هذا وجهُ رجلٍ يخفي سرّاً».

حين يلتقي التوقان

هي لم تتم؛ تدرك أنّ الحلم لا يعوّض الغياب.
منذ أن عادت من المكتبة، والليل ليس ساعاتٍ تمضي، بل ثقلٌ
يتراكم كلما حاولت التظاهر بالهدوء؛ كضيقٍ جثم على صدرها لا
يزول، يجرّها من فكرةٍ إلى أخرى.

كلّ ما في الحجرة كان مرتباً إلّا مشاعرها. جلست قرب
النافذة متكورّة، تخشى أن تتحرّك فتفلت من ذاكرتها صورة
وجهه. الفانوس بجوارها يلقي ضوءاً واهناً، عباءتها مطويّة على
الكرسي، ولّجّين تجلس عند رف الكتب تحدّق إليها
على الطاولة ورقة صغيرة:

«إن اشتقتُ إليها فسأتي».

قرأت الجملة مراراً؛ وعدّ قالتّه له، ثم صار أقوى من قدرتها
على التراجع. لا تعرف اسمه، ولم تسأله، ولم تنتظر أن يبوح
به، لكنها تعرفه من رجفة القلب، من اضطراب النظرة، من تلك
المسافة التي ظلّت قائمة بينهما كخطّ هشٍّ، مسافة لو مُدّت
خطوةً واحدة فقط لتغيّر كلّ شيء.

قالت في نفسها: «إن جاء... فلن أعود كما كنت، وإن لم يأت...
فلن أبرأ بعدها».

ثم قامت ومشّت في الحجرة كما لو أنها تخرج من جسدها نحو
اعترافٍ لا مفرٍّ منه. تقدّمت نحو المرأة؛ لم ترَ وجهها، رأت الانتظار.
رأت فتنة الاحتياج، وملامح لا تريد أن تُقنع أحداً بالقوّة، بل بالحبّ.
كلّما حدّقت أكثر، رأت احتمالاتٍ تنهار، ووجهها لم يعد يشبهها.

قالت بصوتٍ تخنقه الحيرة: «ما جدوى الكبرياء إن خسرنا الأمل؟ وما فائدة الصبر إن لم يأتِ أحدٌ ليرى كم انتظرنا؟»

كانت حيّةً بما يكفي لتتذكّر، وصامتةً بما يكفي للاحتمال، لكنها كانت تتأكل ببطء. وحين غفّت، لم يكن غياباً تاماً، بل مهلة قصيرة من التفكير. لم تدم غفوتها؛ أفزعته يقظةٌ قاسية كمن يُنتزع من حلم غارق. فتحت عينيها، فإذا الضوء منتشر في الحجرة، لا يشبه فجراً، بل نهاراً تأخّر عنها. أحسّت أنّ العالم مضى دون أن ينتظرها.

غسلت وجهها، ترتّب ما تبقى من صباحها، وارتدت عباؤها ثم خرجت. في المجلس، كانت أمّها أمام الدلّة، تشرب قهوتها بهدوء الصابرين.

قالت شجن: «صباح الخير.. سأذهب إلى المكتبة».

رمقتها الأم بنظرةٍ، ثم قالت بهدوء: «لا تتأخري يا شجن».

أومات، وخرجت.

كان النهار قائماً في كلّ شيء؛ الضوء يملأ الطرقات، والنسيم يحرك أطراف العباءة، وهي تمشي تتمم بكلماتٍ مبعثرة لتخفف تلك الرجفة التي لم تفارقها منذ أيّام.

مشّت مترقبة لقاء لا تعرف إن كان سيأتي، لكنها تعرف جيداً كم تنتظره.

وعند الزاوية، لاح لها باب المكتبة موارباً. اقتربت، ودفعته كأنها تدخل المكان هذه المرّة بقلبٍ مكشوف. مشّت بين الرفوف، تنظر إلى الكتب كما لو أنّها تذكّرها بفوضى شعورها. لم تأتٍ لتقرأ... أتت لتلمس أثراً تركه في قلبها منذ اللقاء الأوّل. جلست

في مكانها، وأغمضت عينيها؛ لا لرغبة في النجاة من هذا
الشعور، بل لتتركه يتمدد كما يشاء.

قالت في سرّها: «إن دخل... فسأعرف أنّي لم أكن وحدي في
انتظارنا. وإن لم يدخل... فسأترك هذه اللحظة معلقة، كجرحٍ لا
يُشفى».

كانت تعلم أنها لا تنتظر لقاءً مؤكّداً، بل وعداً لم يُنسَ،
واحتمالاً معلقاً بين الأمل واليأس.

لم يستيقظ راشد لأنه شَبِعَ نومًا، بل لأنَّ حنينه أيقظه.
فتح عينيه على سؤالٍ ينهض معه: هل تمضي الحياة دون أن
نُحب؟ وهل يُعدّ هذا الذي في صدري «حبًا» حقًا؟ أم وهماً اختار
أن يتجمل ليبقى؟

ارتدى ثوبه يتهيأ للقاءٍ لا يدري إن كان مقدّرًا، ووقف أمام
المرأة لحظة، ثم أشاح بوجهه وقال في نفسه:
«لا وقت للمرأة اليوم.. أنا لا أبحث عني، بل عنها».
فتح الباب وخرج إلى الحياة بحثًا عن بصيص لقاء.
في الهواء شيءٌ لا يُشبه نسيم الصباح؛ رجفةٌ تسبق لحظة
طال انتظارها. الطرقات لم تكن ترابًا، كانت ذاكرة تمشي معه.
والمكتبة التي لم يدخلها إلا قليلًا، بدت له الآن الملجأ الوحيد
الذي يسكن احتراقه.

مشى مثقلًا بما في داخله؛ كل خطوة مزيجٌ من خوفٍ وشوق،
من رجاء أن يراها، وخشية أن يخذله الأمل. مع ذلك استمر، لأنَّ
الشعور هذه المرة لم يكن عبثًا، بل نداءً في صدره بات يؤلمه
ولا يهدأ.

وحين بلغ باب المكتبة، شعر أنَّ العالم كلّهُ اختُصر في هذه
العتبة الضيقة. مدَّ كفه نحو الباب كما يريّت المرء على قلبٍ
يخشى انكساره، وهمس: «إن لم تكوني هنا... فلن أحتمل أن تكون
الحياة كلّها انتظارًا».

ثم فتح الباب كما يُفتح بابٌ للأمل.

خطا كما يخطو الحنين حين يجد طريقه.

ثم... رآها.

كأنَّ القصائد كلها عادت تبحث عن بيتٍ ناقص فوجدته في عينيها.

رأى فيها كلَّ ما لم يفهمه في الحبِّ من قبل؛ كأنَّ العالم انكمش فجأة ليمنح قلبه نافذة.

هي لم تكن شكلاً يُنظر إليه، بل انكشافاً. حضورها بدا له كأنَّه نهاية كلِّ انتظار طويل. لم يسأل نفسه عن هذا الجمال، فقد بدا الجمالُ أمام دهشته شيئاً بسيطاً.

كانت كما تُتخيَّل النساء في القصائد.. لكنها تتسف كلَّ معنى للجمال.

ابتسم قلبه قبل فمه، كما يتسم من رُدَّت إليه الحياة بعد يأس. وامتلاَّت عروقه نشوة وفرحاً ومشاعر لم يعرفها من قبل؛ تلك التي تتبع من الحبِّ ولا نعرف كيف نُفسرها للآخرين. توقّف عند الرفِّ، لا يجرؤ على الاقتراب؛ خشية أن يُفسد لحظة حلم بها طويلاً.

لم تكن المسافة بينهما خطوات بل خفقة. تقدّم نحوها، وكلَّ خطوةٍ منه اعترافٌ يتكوّن. وقف على بُعد خطوة، ثم قال بصوتٍ يكاد يُسمع من نبضه:

«كنتُ أظنُّ أن الانتظار لن يُثمر.. حتى دخلتِ، وامتلاً قلبي بك».

رفعت رأسها، وفي عينيها كلامٌ أعمق من العبارة التي نطقت بها:

«لم أשא أن أتأخّر... أردتُ فقط أن أصل حين يكتمل قلبي بك».

كان الصمت بينهما ممتلئاً، نبضاً يعيد ترتيب نفسه في قلوبهما معاً.

جلس، كأن الطاولة بينهما خشبة مسرح لا يؤديان فوقها دوراً، بل يعيشان لحظة لم تكن تحتاج إلى نصّ. كلُّ منهما يحتضن الآخر بصمته، ولا تلتقي أيديهما... كان الحبّ يمشي بينهما.

قالت شجن: «أقنعتُ قلبي أن الغياب لن يؤلمني... لكنه كان يراك في كل لحظةٍ حاولتُ أن أنساك فيها».

قال وهو يحدّق في دفّتي الكتاب كمن يخشى أن يصيبها بنظرة: «كنتُ أتمسّك بالحياة خوفاً من السقوط... حتى جئتُ، فعرفتُ أنّ السقوط قد يكون أجمل بداية».

قالت بخجل: «لم أكن شجاعةً بما يكفي.. لكنني جئتُ، لأنك بقيت داخلي رغم كل المسافات».

ابتسم، لأوّل مرّة منذ أيّام، وقال: «كلّ ما فيّ كان يرتجف حين رأيته... ليس خوفاً، إنما لأنني شعرتُ أنّني وصلتُ إلى نفسي أخيراً».

صمتٌ... صمتٌ يُعلّم الاثنين كيف يُصغيان إلى نبضٍ لا يحتاج إلى شرح.

مرّت فتاة تتفحّص رفّاً قريباً، نظرت إليهما نظرةً عابرة وابتسمت دون أن تقول شيئاً.

أنزلت شجن بصرها قليلاً، ثم همست: «عيناك تُريكانني».

قال، وهمسه يشبه انكساراً: «أنا غارقٌ بكِ يا شجن... كيف لا تُربِككِ نظرةٌ تمتدّ من الأعماق؟»
قالت همساً: «أنا... كلما حاولتُ أن أعود إلى نفسي، وجدتُك تسكنني أكثر».

لم يردّ؛ فقط أغلق الكتاب ووضعه جانباً، ثم همس كمن يحمل تردّدَه أكثر من كلماته: «كم مرة وصلتُ إلى الباب ثمّ تراجعت... ليس لأنّي لا أريدك، بل لأنّي خفتُ أن أصارحك... فأفقدك».
قالت، ونظرتها تهرب منه ثم تعود إليه: «وأنا كنتُ أعلمُ قلبي كيف يعتاد غيابك.. لكنه كان يعود إليك كلّما نبض».
قال: «شجن... هل تعرفين ما أشدُّ من الفقد»
قالت: «أن ترى نفسك في عيني أحد... ولا تجرؤ أن تُسمّي ذلك حبّاً»

أوماً.

نظرت إليه، ثم قالت بنبرة ترتجف، كأنها تمشي فوق خوفها أخيراً: «اليوم... لن أختبئ وراء الخوف. وإن ارتجفتُ، فلتكن يدي في يدك».

ثم مدّت يدها، بهدوء يشبه العناق، ووضعتها على يده.
حُبست أنفاسه.

قال بصوت متكسر: «هذه اليد تتشلني من شيء... لم أكن أعرف أنني غارقٌ فيه».

«ربما جئتُ متأخرة... لكنني لم أمدّ يدي لأحدٍ قبلك».
«وهل تظنّيني حيّاً قبلك؟»

قالت، وفي صوتها بقايا دمةٍ لم تنزل: «لا أعلم... لكنني أعرف الآن كيف يُبعث أحدٌ من رماده».

ظلَّ يحدّق في يدها فوق راحته، كأنّ الدفء الذي انتقل منها استقرّ فيه إلى الأبد. لم يجرؤ على الكلام؛ خشي أن يلمس اللحظة فينكسر شيءٌ لا يتكرّر، ذلك الارتجاف الهادئ الذي يُقيم فينا حين تلامس يدُ من نحبّ يدنا.

قالت همساً، كأنها تنتزع اعترافاً ظلّ عالقاً في صدرها: «أردتُ أن أراك... قبل أن يبرد اسمي في ذاكرتك».

رفع عينيه إليها، فكّر قليلاً، ثم قال: «أيُّ ذاكرةٍ تلك التي تُطفئُ اسمكِ؟ وأنا منذ غيابكِ الأخير كلّي اشتعالٌ إليك».

لم يكن الصمت بينهما حاجزاً، بل ممراً خافتاً تتسلّل فيه المشاعر التي تعجز الكلمات عن حملها.

قالت، وعيناها تلوذان بالفراغ: «قلتُ لنفسي: إنِ اشتقتُ.. فسأتى. وما ظننتُ أن الاشتياق قد يغلبني بهذه السهولة».

قال، محاولاً أن يخفي رعشة صوته: «قلتُ إنكِ اشتقتِ.. أمّا أنا فكنتُ أعيش على هذا الاشتياق وحده، كأنه ما تبقى من حياتي».

سكتت كمن يعرف أنّ الكلام لا يكفي.

نظر إليها كما ينظر من وجد نفسه بعد ضياع طويل، وقال: «منذ لامست يدك يدي.. أشعر أنّي أريد أن أكتب شيئاً حقيقياً للمرة الأولى».

قالت، وعيناها ما تزالان على يده: «وما هو؟»

قال بصوتٍ منخفضٍ يشبه اعترافاً: «أنّ هناك يداً واحدة.. تمسككِ بطريقةٍ تجعل العالم أقلّ ضجيجاً وأكثر احتمالاً».

سكتت؛ بدت ملامحها كمن وجد في الجملة ملاذاً آمناً.

الريح تمرّ قرب النافذة، والزمن واقف؛ يخشى أن يريك لحظة تشكّلت أخيراً.

«أليس مؤلماً أن نصل بعد أن ظننا أنّ الطريق لم يعد لنا؟»
«الحبّ لا يتأخّر... هو فقط ينتظر أن ننضج بما يكفي لنحتمله».

في عينيها لحظةٌ لا تشبه الفرح ولا الحزن، لحظة امرأةٍ قرّرت أن تحبّ دون أن تتوقّع.

«وأنا نضجتُ بالخوف... لا بالسنين».

«وأنا لم أرد أن أكتب قصة حبّ... بل أن أعيشها».

«وهل نحن في بدايتها أم في ذروتها؟»

«لا أعرف إن كنّا بدأنا أم لا.. لكنني أعرف أنّني وجدتني حين رأيتكِ أوّل مرّة».

ظلّت يدها فوق يده، كتربّيةٍ من الحياة.

لم يقولوا شيئاً؛ الصمت يعلو على أيّ كلام.

قال، وهو يحدّق إليها بعينين تفيضان حبّاً: «أتدريين؟ ربما يكتبون عنا يوماً».

قالت، وهي تسحب يدها برفق: «لا أدري إن كانوا سيكتبون عنا.. لكنني أعلم أن لحظة كهذه لا تُتسى».

نهضت كمن يُهيئ نفسه للمفادرة، فقال قبل أن تخطو، كأنّ شيئاً فيه يأبى الانطفاء:

«شجن؟»

التفتت إليه.

تابع بعد ترددٍ: «إن عدتِ غداً.. فساكون هنا. لا بوعدٍ، بل بقلبي. وإن حدثَ أيُّ شيءٍ.. فسابقى أحبكِ». لم تُجب؛ نظرت إليه كمن يخاف أن يفوته شيء، ثم همست مرتعشة:

«هل تحبني؟»

قال، وصوته مفعمٌ بعاطفته: «هل يكفي أن أُلقي بنفسي في البحر.. لأثبتَ لكِ كم أحبكِ؟»

نظرت إليه نظرةً تكاد تُشبه حُضناً. ثم حرّكت شفّتيها بهمسٍ كأنها تقول «أحبك» لتبقى الجملة حيّةً في قلبه، بلا نهاية.

تنفّست بعمق، وخرجت من المكتبة.. تاركةً نصفها هناك.

بعد خروجها، تذكرت فجأة أنها لم تسأله عن اسمه. توقّفت لحظة، كأنّ السؤال صعد إلى شفّتيها ثم ابتلعتة خجلاً؛ لم يكن الوقت يسمح إلاّ للمشاعر، وكلّ شيءٍ فيها كان مشغولاً بما هو أعمق من الاسم.

أمّا راشد، فقد ظلّ جالساً بعد خروجها لحظة، كأنه لا يصدّق أنّ المقعد الذي كان بينهما قد صار فارغاً إلى هذا الحد؛ كان يضمّ الفراغ بعينيّه.

ثم أغلق الكتاب، ووضع كفه على الطاولة ليقنع نفسه أنّها ما تزال هنا، كما كان يشعر بها قبل لحظة.

نهض بعد ذلك، كما ينهض من مشى طويلاً داخل فكرة، لا يزال وقعُ خطاها في قلبه لم يغادره.

ومن خلف الزجاج في نافذةٍ جانبيّةٍ من المكتبة، كان أحدهم واقفاً لا يتحرّك. لم يكن ماراً، ولا عابراً عشوائياً؛ لم تكن عيناه تتجوّلان، بل كانتا تتابعان بدقةٍ وحذر.

راقب خروج شجن، والتفاتتها الخفيفة، وتوقّفها القصير. ثم تابع راشد وهو يغلق الكتاب ويغادر.

لم يبرح الظلّ الواقف خلف الزجاج مكانه، كأنّه يحمل سرّاً، وينتظر اللحظة التي تنتهي فيها الحكاية.. لتبدأ حكايته هو.

خرج راشد من المكتبة، وفي قلبه ثَقُلٌ لم يعتده؛ كأنَّ قلبًا آخر نبت في صدره، لم يعد يشبه ما كان عليه، ولا يقبل بأن يعود كما كان. كان يمشي وفي صدره أثرٌ نديٍّ، فالكلمة التي سمعها لم تكن اعترافًا، بل بَعْثًا. لم يكن ينظر حوله، كان يحتفظ بها في عينيه. في الطريق المُفضي إلى المقهى، لمح وضاح جالسًا عند الشجرة. لم يكن يعزف هذه المرّة، بل كانت السمسمة على ركبتيه كجنازةٍ لا يُراد لها أن تُدفن. وجهه شاحب، وعيناه سارحتان في الفراغ، كأنه يُشاهد ذكرياته.

اقترب راشد، وقال: «أستطيع الآن، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أن أفهم لماذا كلّ هذا الحزن يا وضّاح... لأنّ الحبّ يا وضّاح لا يُشفى، ولا يُنسى، ولا يُستبدل. هو الشيء الوحيد الذي يُبقي الندبة حتى بعد أن يبرأ الجرح».

لم يرفع وضّاح رأسه، فقط حرّك إصبعه على وتر، فصدر صوتٌ حزين، كأنّ روحًا بكت.

سكت راشد، ثمّ تابع طريقه دون أن يقول وداعًا.

لم يكن في مزاج المقهى، لكنه لم يرغب في الرجوع إلى البيت. دخل وجلس في الزاوية، طلب قهوة، وجاءه الصيّاد بعد دقائق.

دخل جابر المجنون فجأة، وجلس عند الطاولة دون استئذان، وأخذ يهمهم بكلماتٍ لا يسمعها إلّا هو، ثم رفع رأسه وقال: «سكينة البحر ليست سلامًا بل حيلة».

ضحك بعض الرجال، وقال الصياد: «لا تضحكوا، إنه أكثرنا عقلاً وبصيرة».

همس جابر: «رأيتُ ظلاً لا ظلَّ له يمشي خلف رجلٍ خرج من الحبِّ للتو».

شعر راشد بشيءٍ يتجمّع في صدره، لكنّه لم يُظهر شيئاً. خارج المقهى، عند ظلِّ جدار، وقف أحدهم.. مبهم الملامح. ما كان وجوده جديداً؛ بل هو الظلُّ عينه الذي تبع راشد مذ غادر المكتبة، ورابط عند السور حين وقف قبالة وضّاح. كان يتظاهر بأنه يستظلّ. جسده ساكن، وعيناه لا تفارقان باب المقهى، كأنهما زرعتا فيه انتظاراً لوجهٍ بعينه. لم يكن يلتفت؛ وقف كما يقف من يحفظ ملامح فريسته قبل أن يُكمل خطواته الأخيرة. وفي اللحظة التي رفع فيها راشد يده لطلب الحساب، كان الليل قد أرسل أوّل خيطٍ من ظلاله نحو القحمة.

الحريق

غادرَ راشدَ المقهى وقد أوغلَ الليل؛ باسطاً سلطانَه على القرية. أخذت الشوارع تخلو رويداً، والنوافذ توصد، معلنةً تشاؤمَ البيوتِ استعداداً للنوم. مضى وفي صدره شعور جديد؛ يهيم في طيف شجن، ويستشرف مآلاتِ حياته عقبَ لقاءِ المكتبة، بخطواتٍ غدت نبضات حبٍّ نقيٍّ.

خلفه، في الظلام، لاحقه ظلٌّ؛ لا يقترب كثيراً، ولا يبتعد حتى لا يفقد أثره، يتلوّن بلون الجدران ويتقلّب بصمتٍ من زاويةٍ إلى أخرى. وعند أوّل منعطف، رأى راشد شيئاً يتحرّك: الطفلة. لم تخرج من بابٍ أو زقاق.. انبثقت من العدم. رمقته بنظرة، ثم استدارت ومضت.

اقتفى راشدُ أثرها صامتاً. جهلَ السبب، غير أنه أيقن أن ظهورها ليس عبثاً. وقبيل أن يطبق على خطاها، التفت؛ خلا الزقاق تماماً. ثمة لحظاتٌ لا تستدعي رؤيةَ أحدٍ لتستشعر أعينا تراقبك. مشّت الطفلة أمامه، تقوده بثقة العارف، وتتحكّم بخطواته يقيناً أنه سيتبعها. وعندما بلغت باب بيت الجد توقفت، ثم نأت واختفت، مؤذنةً بانتهاء المهمة.

عند الباب، تسمر الطفل المشلول المقعد على كرسيه، يحدّق في المدخل كأنه ينتظر راشد منذ زمن. وإلى جواره انتصب الكلب، وفي حجر الطفل ورقةٌ طُويت بعناية.

اقترب راشد، وشعر بانقباضة حادة في صدره حين وقع بصره على الطفل. أطلّالَ الطفلُ النظرَ إليه، ثم أوماً برأسه نحو الباب يدعوه إلى الدخول.

وعند العتبة لمح راشد شيئاً على الأرض؛ كان منديلاً أبيض مطوياً بعناية، تتدلى من زاويته وردة صغيرة مطرزة بخيط أحمر. انحنى والتقطه. لم يعرف لمن يكون ولا كيف وصل إلى هناك. دسّه في جيبه، ثم مدّ يده إلى الباب ودخل.

كان البيت ساكناً كالمقبرة، وفانوس معلق في الزاوية. الطفل في كرسيّه عند المدخل، ورأسه مائل قليلاً، وعيناه متناقضتان حدّ الفزع: واحدة زرقاء، والأخرى سوداء. لا خلل فيهما، بل توازن مربع، كأنّ النور والظلمة استقرّا معاً في وجه لا يجد لغةً للكلام. لم تكن نظرتة طفولية، بل نظرة من رأى سرّاً خطيراً وصمت؛ لأنّ الصمت آخر ما يملكه ليبقى حياً.

ازداد ثقل الصمت في البيت. حاول راشد أن يقول شيئاً، لكنه ظلّ واقفاً يحدّق في الورقة المطوية، كأنه يخشى أن يكشف ما خُطّ فيها، أو أن تحوي شيئاً يفزع أكثر مما يفهمه.

خارج الباب، بدأ الكلب يزمجر، ثم انطلق نباحه فجأةً حاداً كإنذار. وفي اللحظة نفسها شبّ حريقٌ من الجهة الأخرى من البيت. لم يشتعل مصادفةً، بل بفعلٍ مقصود؛ فقد أشعله ذاك الذي كان يراقبه، بيدٍ لم تتردّد، وقصدٍ لا يحتمل الغفران. بدا كأنه يعرف البيت ومنافذ ضعفه، فنثر ما يكفي لخلق كارثة لا تُطفأ. لم يكن الأمر انفجاراً، كان شرارة أولى تحوّلت إلى لهيبٍ صغيرٍ يزحف عبر السعف اليابس والحصير، ويتمدد كأنّ البيت كان ينتظر فقط تلك الشرارة.

في الخارج، اقترب ذلك المجهول من الباب، طرق ثلاث طرقات، ثم مضى نحو ممرّ جانبي.

سمع راشد الصوت، فهرع ليفتح، لكنه لمح من خلال شقوق النافذة ظلًا ينسحب.

فتح الباب، ورآه يبتعد كأنه يتعمّد أن يترك أثره. وما إن لمح راشد هيئته حتى اندفع خلفه.

ناداه: «من هناك؟»

لكن الظلّ تلاشى بين الأزقة، كأنه يعرف كلّ منفذ للهرب. وخلفه كانت النار تلتهم البيت.

ركض راشد خلف ذلك الظلّ الذي كان يجيد التوغّل بين العتمة، يتحرّك بخفّة من يعرف أزقة عاش فيها دهرًا. وكلّما اقترب منه، فقدّه عند أول تفرّع. وحين ظنّ أنه أوشك أن يلحق به.. اختفى؛ كأنّ الأرض انشقت وابتلعتة.

توقّف راشد يلهث، يتلفّت، والعرق يتصبّب على جبينه. وبينما كان يحاول استيعاب ما حدث، اخترق أذنيه صوتٌ يمزّق السكون: «حريق! حريق!»

لم يكن مجرد نداء، بل صرخة امرأة تطلقها من نافذتها بعدما رأت البيت المشتعل. تردّد صداها في الأزقة كصفعةٍ على وجه القرية.

التفت راشد جهة الصوت، فرأى وهجًا برتقاليًا يتسلّل من خلف البيوت، يتمدّد على الجدران، وكلّما اقترب، ازداد اتّساعًا ووسطوة.

تتبّع راشد وهج الحريق وهو يركض ويلهث، وصدره يضيق مع كل خطوة. وكلّما اقترب، كانت الرؤية تتّضح، وكان قلبه يتوتّب بين أضلعه كأنه يريد أن يسبقه. وحين وصل... كانت الصدمة: لقد احترق بيتهم!

كانت النار تتفجّر من النوافذ كألسنةٍ هائجة، والدخان يصعد كثيفاً يخنق الهواء. كان اللهب ينهش الحافات الخشبية، ويغمر الداخل بضوءٍ غاضب.

اقترب راشد مذعوراً، تدفعه غريزة النجاة لا لنفسه، بل لمن في الداخل.

ومن الزقاق الجانبي خرج أبو فارس وهو يصيح: «هل في البيت أحد؟»

جاء سؤاله سريعاً، حاداً، كأنه اختبار لحظةٍ مصيرية.

أجاب راشد، وهو يكاد يختنق بأنفاسه:

«الطفل المشلول... إنه في الداخل!»

اندفع راشد ليدخل، لكن أبا فارس قبض على ذراعه بقوة:

«توقّف! النار تلتهم المكان. لن تُنقذه، بل ستموت معه!»

صرخ راشد: «لن أتركه!»

اقترب أبو فارس منه، وانحنى عليه وهمس بعينين صارمتين:

«لا تدع أحداً يراك. إن خرجت الآن، فسيُتهمونك. سيقولون إنك

أشعلت النار، وإنك كنت الوحيد هنا. ستُسجن... وربما تُعدم.

أفهمت؟»

تراجع راشد خطوةً، لا اقتناعاً، بل ذهولاً من هول ما يسمع

وما يرى.

أضاف أبو فارس: «امضِ معي... هذه اللحظة لا نجاة فيها».

تجمّد راشد في مكانه، يحدّق في اللهب كما يحدّق المرء في

حلمٍ ينقلب كابوساً أمام عينيه.

بدأ الكلب خلفه ينبح بجنون، وكأنّ في نباحه توبيخاً. وقف عند باب البيت، ينظر إليه تارةً، وإلى راشد تارةً أخرى، ثم يعاود النباح.

اشتعلت الزاوية وسقط الفانوس، فابتلعت النيران الستارة وأكلت الحصير. قفز اللهب إلى السقف، وارتفعت التشققات على الجدران.

كان بيت الجد ينهار قطعةً قطعة، وذكرى بعد ذكرى؛ الأبواب تتفصّد عن مفاصلها، والنوافذ تلفظ زجاجها، والدخان يصعد ملتويًا كروحٍ فارقت جسدها.

انتقل اللهب من حجرةٍ إلى أخرى، كأنه يعرف الطريق، وراح السقف يتصدّع.

انعكس ضوء النار على وجه راشد، فبدأ كمن يشهد احتراق عمره وهو عاجز. خلفه، الكلب لا يزال يركض أمام الباب، يراوح بين النباح والجلوس، ثم يحدّق إليه برجاءٍ صامت.

استدار راشد دون أن ينبس بكلمة، وعيناه تفيضان دمعًا. ومضى مع أبي فارس، كتفًا إلى كتف، لا يقول شيئًا، ولا يدري أين يُساق، حتى بلغا بيت أبي فارس، والقرية خلفهما تختنق بالدخان، وفي مكانٍ ما خلف الدخان تصحو لعنةٌ خرجت للتوّ من قفصها.

وصل راشد إلى بيت أبي فارس يتعثر بأنفاسه، وجهه مغطى
برماد الدخان. كانت كتفه تلامس كتف الرجل الذي انتشله من
موتٍ مؤكّد، لكنه لم يدرك بعد: أنقذه حقاً، أم قاده إلى مصيرٍ
أشدّ قسوة؟

وقبل أن يمدّ يده إلى الباب، قال أبو فارس بصوتٍ لا يعرف
الشفقة: «هذا بيتك الآن، وما سيحدث بعده لا رأي لك فيه. دع
الأمر لي، وسأحميك بطريقتي. وإن سئلت، فقل إنك كنت في
بيتي، لا أكثر ولا أقل».

فتح الباب، ودخل راشد كمن يدخل تابوتاً. كانت أم فارس
واقفة عند الفانوس المعلق، يدها معلقة في الهواء، كأنها على
وشك أن تقول شيئاً ثم ابتلعت. ارتجفت شفتاها، ثم أنزلت يدها
صامتة.

أما، ما إن وقعت عيناها عليه حتى شهقت، وسقطت المعلقة
من يدها على الطاولة، فشقّ رنينها الصمت الساكن.

أمّا فارس، فنهض بارتباك، كأنّ دخول راشد أيقظ جرحاً
خفياً لم يتصالح معه بعد.

توقّف راشد في مكانه؛ لم يتوقّع أن يواجه العائلة كلّها دفعةً
واحدة.

نظرات أم فارس حملت خوفاً مشوباً بالحدز.

قال أبو فارس: «هو ضيفنا الآن، وللضيف حرمة».

لم يُضف أحد كلمة، لم تفهم أمني ما يجري، فشددت طرف ثوبها بقلق.

وقبل أن يُكمل راشد شهيته، شقَّ صراخ الخارج:

«البيت! البيت! النار تأكله!»

خرجوا جميعاً إلى الفناء. كان الدخان يرتفع بكثافة، والناس يهرعون، يُسكب الماء من الدلاء، والصراخ يختلط بالدعاء.

قال فارس: «ذاك بيت الجد!»

قال أبو فارس بحزم: «لا تقترب الآن، دعهم يطفئوا النار...

ثم نذهب».

وقبل أن يستوعب راشد الحادثة، أحس بانكسارٍ مباغت في دمه. لم يكن غضباً، بل برودة ثقيلة دبَّت في أطرافه، وأطفأت كل ما تبقى فيه من مقاومة.

البيت يحترق، وكلُّ ما يربطه به يحترق معه: الخنجر، والصورة، والورقة، والصندوق، والذكريات... والطفل المشلول الذي يحمل أسرار الرسم الذي لم يفهمه بعد.

وحين وصلوا، كانت النار قد بدأت تخمد، وبقيت في الهواء رائحة الجلد المحترق.

تراجع الناس خطوة؛ ليس لأن الحريق انتهى، بل لأن شيئاً آخر بدأ يتشكّل.

كان الكلب واقفاً أمام الباب، ينبح كما لم يفعل من قبل، موجّهاً صوته نحو هيئةٍ متفحّمة ذابت فوق الكرسي.

اقترب الناس، ثم توقفوا فجأةً مُتسمرين.

قال أحدهم: «ذاك الطفل المشلول أعرفه من كرسيه!»

وقال آخر: «رحمتك يا الله! ما زال جالسًا، لم يسقط!»
وعندما رأى بعضهم راشدًا قادمًا مع أبي فارس، وفارس من
جهة أخرى، خفتت الهمهمات، وبدأت الظنون تتراجع رويدًا. لم
يكن في موقع الحريق، بل في مكانٍ آخر. ومع ذلك... لم يسلم
عليه أحد.

تسريت الهمسات بين الأفواه:
«لم يكن في البيت؟ إذًا... ما الذي كان يفعله الطفل وحده في
الداخل؟»

وبما أنّ الشكَّ مُعدٍ، راح بعض الرجال يراقبون راشدًا بأعين
جانبية؛ يختلسون النظرات، لا يملكون شجاعة الاتهام، لكنهم لم
يعودوا مطمئنين.

كان الطفل المشلول جالسًا على كرسيه، وتحتَه خشبٌ يتقشّر
ويتكسّر كأنه يئن من وطأة الجحيم. رأسه مائلٌ، وذراعه متدلّية،
وجلده قد اسودّ وذاب، كأن النار التهمتَه على جرعات.
الكلّ صمت... حتى النحيب توقّف، ولم يبقَ سوى نباح الكلب،
الذي انقطع أخيرًا.

ثمّ سكت الكلب فجأة.
صمت حادّ جعل بعضهم يرتجف، كأن الكلب أدرك شيئًا لم
يدركوه.

وفجأة، ظهر رجل بثوبٍ رمادي، يمشي بخطواتٍ هادئةٍ إلى
حدّ القسوة.

إنه مناع، والد الطفل المشلول. حين رأى ابنه لم يصرخ،
ولم يركض، بل شقّ الصفوف ببطءٍ حتى بلغ الجثة. كان الناس،

من هول صدمتهم، متسمّرين في أماكنهم، كأنّ أرجلهم التصقت بالأرض، وكأنّ أعينهم لا تصدّق ما ترى. لا همسات، ولا بكاء.. حتى الأطفال سكتوا، والنساء تراجعن خطوتين إلى الوراء.

بعضهم أغلق فمه بكفّه، وبعضهم تراجع خطوةً دون أن يحوّل بصره عن الجثة، كأنهم يرون شيئاً لا طفلاً. كانوا يعرفون أنه مات، ومع ذلك لم يطمئنوا إلى موته.

لم يبكِ مناع، ولم ينهر، ولم يرفع صوته كما توقّع بعضهم. انحنى أمام جسد ابنه، وضع يده على صدره المحترق، ثم قال بصوتٍ عالٍ:

«انفضوا! هو ابني، وسأدفنه وحدي».

ثمّ استدار ومضى عائداً إلى بيته، وحيداً، تاركاً الجسد يتفجّم في مكانه، مودّعاً إياهم بعينين لا تعرفان البكاء.

وبعد دقائق عاد، يحمل حصيراً مطويّاً تحت ذراعه. فردّه بهدوءٍ مُرعب إلى جانب الجسد، ثم رفع ابنه كما تُرفع حمولةٌ من تراب، ووضعه فوق الحصير، ولفّه كما يُلفّ جُرحٌ مفتوح.

شدّ الحصير بإحكام، ثمّ أمسك طرفه، وبدأ يجرّه على التراب، متجاوزاً أهل القرية الذين وقفوا مذهولين. كان الحصير يُصدر صوت احتكاكِ خشن، وكلما تقدّم، ترك خطّاً واضحاً على الأرض، أثراً مستقيماً يمتدّ خلفه كندبة.

لم يوقفه أحد، ولم يجرؤ أحد على سؤاله عن تلك القسوة التي عامل بها طفله. وكلّ من حاول الوقوف في وجهه، تنحّى حين التقت عيناه الرماديتان بعينيّه.

جرّ الحصير حتى نهاية الزقاق، ثم انحرف نحو بيته، صاحباً
الجسد المتفحّم دون أن يلتفت ولو لمرة واحدة.
ولمّا وصل إلى باب بيته، ترك الحصير على العتبة، ثم دخل
وأغلق الباب كأن شيئاً لم يكن.

همست امرأة عجوز لابنتها: «هذا الطفل لم يكن عادياً».
ظلت جُثّة الطفل المتفحّمة وحيدة عند العتبة؛ تتصاعد منها
رائحة الاحتراق، ويتسلّل رمادٌ خفيف من أطراف الثوب المحترق.
وكانت أعين أهل القرية مذهولة إلى حدّ الهلع: كيف يمكن
لأب أن يملك كلّ هذا البرود في موت طفله الوحيد؟
قال أبو فارس: «هيا... لنعد».

عادوا دون أن يلتفتوا، وانفضّ الناس عن الحريق، وفي المكان
الذي احترق فيه الطفل لم تبقَ نارٌ ولا دخان، فقط كرسيٌّ محترق،
وتحتّه رمادٌ لا يزال دافئاً.

عاد الثلاثة إلى بيت أبي فارس، لم يتحدث أحدهم في الطريق، ولم يُسمع سوى وقع خطواتهم الثقيلة، كأنَّ الحريق لا يزال يلاحقهم. كان الليل خانقاً، تتدلى من ساعاته الأخيرة رهبة لا تنكسر.

عند وصولهم، تقدمهم فارس وفتح الباب، وتبعه راشد بوجهٍ ممتنع وعينين تائهتين أرهقهما التعب. أمّا أبو فارس، فكان يجزّ خيبات يومه على كاهله؛ أغلق الباب، ليخيم صمت ثقيل على المكان..

نزع أبو فارس شماغه، ورمى ابنه قائلاً: «سينام راشد في غرفتك»، ثم آوى إلى حجرته.

قاد فارس ضيفه إلى حجرته، وبسط له فراشاً آخر إلى جانبه، قائلاً: «ارتح هنا». جلس راشد متجرداً من كل شيء إلا ثيابه التي عليه؛ إذ التهمت النيران كل ما يملك.

تمدد والتحف غطاءه، محدقاً في السقف، كأنَّ أسماء من فقدهم نُقشت في عتمته: خالد، وأمه، وأبوه، والطفل، والبيت. رفع يده إلى وجهه ثم أسقطها، وقد غصّ بتفكيره.

قال بصوت متهدج: «غرق خالد.. ولم أودّعه».

لاذ فارس بالصمت.

«أمّي لم تمسك يدي قبل أن تموت، وأبي غاب ولا يعرف أحد مكانه، والطفل.. لم أعرف حتى اسمه». أغمض عينيهِ وهمس: «والبيت.. ذاب أمام عيني».

بعد هنيهة، قال فارس: «سيُصلح كل شيء».

صمت راشد. التفت فارس ناحية دُرج بجانب فراشه، بدا كأنه يسمع شيئاً أقرب إلى هدير موج. أخرج الفصّ، وربطه حول معصمه، ثم دسّ يده تحت الغطاء.

أدار راشد وجهه نحو الجدار، وتذكّر كلام نورة:

«إن خطوات خطوة واحدة، فسيحترق أحدكما».

كان يحسب جملتها تخويفاً، لكنه أدرك الآن أنها تحذير. هل

كانت تقصد الطفل المشلول؟!

أطفأ فارس الفانوس، غير أن الكرى جافى الجفنين؛ لم تكن الأعين وحدها المستيقظة في بيت أبي فارس، بل القلوب أيضاً؛ كلٌّ يحمل احتراقه بصمت.

في الجانب الآخر من البيت، تسمّرت أمانى بكامل حيرتها؛ إذ بدا الجدار الذي تستند إليه الثابت الوحيد في ليلاها المضطرب. تنأهى إلى سمعها صرير الباب، وميزت وقع الخطوات، فكانت كل دقة تعصف بصدرها، ثم ميزت صوتًا ثالثًا لا تُخطئه.

أغمضت عينيها متسائلة: «أعاد معهم؟ إلى هنا؟ إلى بيتنا؟» هوت على فراشها، وتشبّثت يداها بطرفه بحثًا عن توازنٍ في لحظة شتات. لم تتسّ تلك الليلة، حين وقفت خلف الستارة لتسمع الجملة التي حطّمت أحلامها: «لا أراه مناسبًا لها». نطقها أبوها بقسوة لم تحتملها ولم تستطع نسيانها.

وها هو راشد يحلُّ في الحجرة المجاورة. لا زائرًا ولا خاطبًا، بل لاجئًا خسر كل شيء، ولم يبقَ له مأوى إلا هذا البيت. تفاقمت حيرتها؛ كيف لأبيها الذي رفضه بالأمس أن يؤويه اليوم تحت السقف نفسه؟ هل غيّر رأيه فجأة؟ أم أنّ للأقدار خططًا لا نعلمها؟

اتجهت نحو النافذة؛ كان الليل في داخلها كثيفًا، والضوء عاجزًا عن تبديده. أحكمت حجابها حول كتفيها؛ تحاول أن تُثبّت ما يتقلّب داخلها. في الجهة الأخرى من البيت، يرقد راشد، وربما يحمل في قلبه جرحًا يشبه جرحها.

لكن هل من حقّها أن تشعر؟ أن تهتزّ؟ أن تخاف عليه؟ همست لنفسها: «ربما لا ينكسر القلب دفعةً واحدة، بل يتفتّت إلى أن يهدم للأبد».

ونَهَضت مجدداً، مشّت داخل الحجرة، توقّفت أمام مرآتها، نظرت إلى نفسها، دون أن تفكّر في جمالها، أو في حزنها، أو كيف يراها.

قالت: «لماذا لا أقدر على تجاهله رغم أنّه لم يلتفت نحوي قط؟»

نزعت وشاحها، وتركته على الكرسي، كما تترك الفصّة في آخر الكلام دون أن تخرج.

بينما تمدّدت تنظرُ إلى السقف، شقّ فكرها طريقه نحو الحجرة الأخرى. مرّت لحظةً طويلة لم تشعر بها، وكلّ إحساس فيها كان يشير إلى شيء غريب، كأنّ هذه الليلة ستكسر شيئاً، أو تبدّوه. وأنّ راشداً، وإن لم يكن لها، فقد صار الآن جزءاً من اضطرابها؛ لم يكن ما تهدّم في داخلها تلك الليلة حلماً، ولا حباً، بل شقاً غائراً ظلّ يتّسع كلّما توهمّت أنها بخير.

مكتبة

t.me/soramnqraa

كانت شجن تمشي، كأنها تمسح ذاكرتها على سجاد الحجر،
وجسدها يحتفظ ببقايا اللمسة، وبروح اللقاء. تحاول أن تتذكر
دون أن تتسى، وأن تهدأ دون أن تخمد.

تراقبها منيرة من فوق فراشها، كمن يرقب شخصاً غارقاً في
حلم، تنتظر اللحظة التي ينكسر فيها الصمت. قالت منيرة: «ما
اسم ذاك الذي أخذكِ من بين الكتب؟»

استدارت شجن نحو منيرة، ومشّت حتى جلست على الأرض
قرب الفراش.

قالت: «لا أعرف له اسماً، فقط ملامح تشبه لحظة كنت
أبحث عنها منذ زمن».

شهقت منيرة، ضاحكة: «أقسم إنكِ مجنونة».
ضحكت شجن، ضحكة فيها خجلُ الاعتراف: «لم أسأل عن
اسمه لأنّ الشعور كان أكبر من أن يُختصر بمعرفة اسمه».
قالت منيرة: «وهل نظرتِ إلى عينيه طويلاً؟»
قالت شجن: «بل عشتُ فيهما».

«وهل قالها؟»

«نعم... بصوتٍ خافتٍ كمن يُنزل سلاحه».

كورت شجن جسدها، مسندةً خدها إلى ركبتيها، وأردفت:
«وضعتُ كفي فوق كفه، فرفع طرفه إليّ وقال إنّ الحياة بدأت
من هنا».

مالت منيرة نحوها وسألت بفضول: «وماذا فعلتِ؟».

قالت شجن: «لم أنطقها بصوتٍ مسموع.. همستُ بها، كأنّ كلمة أحبك خرجت من قلبي لا من فمي».

في تلك الأثناء، ماءت لجين كأنها استشعرت ميلاد حب جديد، ولا يدري أهو بدايةُ فرحٍ طويل أم حزنٍ قادم؛ مواءً مشوباً بدهشة صغيرة، دهشة من يملك قلباً وإن عجز عن الإدراك. دنت لجين من شجن وتوسدت حِجرها، كأنما آثرت المبيت قرب اعتراف أرجئ طويلاً.

سألتها منيرة: «وهل ستعودين لرؤيته؟»

أجابت شجن: «حتمًا؛ فقد تركتُ يدي في يده، وزرعتُ قلبي عند أطراف أصابعه». ثم همست: «إن اختفى، فلن تخبو جذوة أشعلها في قلبي، وسيبقى حبّه يتوهّج فيّ، وذلك يكفيني عمرًا». «وماذا إن عاد؟»

«سأجتو أمامه، وأقول: أكملني، فقد غدوت نصفًا مذ عرفتك». قطعت الأم خلوتهما، دخلت مرتدية عباءتها، قابضة على منديلٍ أزرق النقوش، وقد كسا القلق ملامحها. بادرت قائلة: «ألم تسمعا؟»

اشْرَأَبَت منيرة متسائلة: «نسمع ماذا؟»

فأوضحت الأم: «شب حريقٌ مجهول السبب في طرف القرية». قالت منيرة: «هل أصيب أحد؟»

لاذت شجن بالصمت دون حراك، ومسحت على شعر قطتها متممة: «ربما كان البيت فارغًا».

أجابت الأم: «الناس في ذعر؛ يُقال إن الطفل المشلول قضى نحبّه متفحمًا داخل البيت».

سكتت شجن، لم يبدر منها أيُّ ردة فعل.

خفضت الأم نبرتها موصية: «إياكما والخروج المتأخر، يكفي ما يحدث هذا الأيام»، ثم انصرفت.

خيم السكون على الحجرة إثر خروجها. لم تقل شجن شيئاً.. راحت تمرر يدها على شعر لُجين، كأنها تطمئن أن العالم لا يزال يحتفظ بشيءٍ من دفئه.

قالت منيرة: «أعرفين ما يُخيفني؟»

قالت شجن: «ماذا؟»

قالت منيرة: «أن نحبّ، ونتعلّق، ثم يأتي القدر ويُطفئ كلَّ نور أضاءنا للحظة».

ردت شجن: «إن كان ما بيننا وهماً، فهو أجمل أو هامي».

نهضت صوب الرفّ قرب النافذة، وسحبت كتاباً وقالت: «لا أعلم إن كان سيعود، لكنني أعلم أنني لن أبقى في مكاني بعد الآن؛ علّمني الحبّ أن أمضي -ولو لمرة- حيث أريد».

عادت لتمدد جوار منيرة صامتة، فيما عبقت سماء القحمة برائحة الحريق.

أطلَّ الصباح على استحياء، كمن يعتذر عمّا حدث ليلة أمس؛
فالشَّمس ترتعش فوق السقوف، تُلامس الرماد ثم تتحسر، مترفّعة
عن إضاءة بقايا الفجيرة.

في الزقاق الضيّق، جرّ مناع الحصير بوجه بارد ويدٍ ثابتة،
كأنه يجرّ عارًا لا جثة.

من نافذة بيت أبي فارس، التهم راشد المشهد بعينين تائهتين
حدّ الألم. لم يرَ مجرد حصير يُسحب، بل تاريخه الشخصي
يُسحل معه جرحًا بعد جرح، ومحاكمة صامتة هو متهمها الأوحـد.
كلّ تفصيلة في الحـصير كانت تنهش ضميره بما لم يجروْ على
فعله لإنقاذ الطفل.

أيقن أن ما يُجرّ ليس جسد الطفل المتفحم، بل الحقيقة التي
وأدها بالصمت، والذنب الذي لم يعترف به. لم يكن الحـصير
يسحب جثة محترقة، بل يجره هو، كما يُقتاد من أدين بجُرم.
كانت تلك اللحظة عقوبةً بلا محكمة، واعترافًا لم يُنطق به،
اعترافًا خطته الأرض برماد الحريق.

زجره أبو فارس بـحدة: «لا تتبعه.. دع الأمر ينته هنا».
لم يُجر جوابًا.. شرع الباب وانطلق خلف مناع، مدفوعًا بقلب
ضاق بالكتمان، وعينين انكسر فيهما الضوء. وفي فمه قهرٌ لا
يجد له مخرجًا.

جهل راشد وجهة مناع، لكنه قفا أثره كمن يلاحق توبةً أفلتت.
لم يكن يسعى لمواساة أبٍ مكلوم، بل سيق إلى محكمةٍ خرساء،

قَضَاتِهَا الموتى. كل خطوة كانت تمحو وهم نجاته؛ فهو لا يتبع
مناعًا، بل يتقفى أثر ذنبه. ورغم أنه لم يضرم النار، فإن خذلانه
للطفل صيره شريكًا في الجرم.

تجاوز راشد الأبواب الموصدة، حيث تسربت الهمسات كالرصاص
الغادر. عرت الريح سوائته، وكان كل حفيف للحصير على التراب
صفعة تذكره بجُبنه. عند العتبة، تسمّر أبو فارس يرقبه، وقد
كفّ عن المنادة.

خلف الأبواب، تلاشت الأجساد وراء الستائر؛ نساءً أجمن
أفواههن بأكفٍ مرتجفة، وأطفال يختلسون النظر بوجوه مذهولة،
لم تدرك بعد هول أن يقضي المرء حرقًا وهو مقعد.

همس شيخ مخنوق الصوت: «كأنه يوارى حملاً ثقيلاً لا ابنًا».

وتساءلت امرأة: «أي ذنب اقترفه هذا الصغير ليُقبر هكذا؟»

ناعت الأرض بخُطى خائفة، وباتت الطرقات ممرات للهمس،
وبدت الأشجار واجمة، والبيوت منكشّة على نفسها، كأن جدرانها
تحفظ أسرارًا ترفض الاعتراف بها. وحده الحصير خطّ في
التراب شقًا كالسكين، حاملاً عارًا تتناقله الريح من باب إلى
آخر، بينما أشاح المارة بوجوههم عجزًا لا توقيرًا.

دنا مناع من المقبرة، لكنه لم يدخلها دخول المودّعين؛ انحرف
عن ممرّاتها وسار بمحاذاتها، كأن الطفل لا يستحق مجاورة موتى
آخرين. اختار زاوية نائية تظلّلها شجرة، وشرع يحفر، لا كمن
يودّع ميتًا، بل مسارعة إلى مواراة خطأ يخشى افتضاحه.

خلا تحرّكه من الشفقة، وسادته عجلة باردة للتخفف من عبء
تأخّر في رميه؛ لم يكن يحفر لابنه بل ليوارى عجزه، ووهمه

الطويل بالأبوة. كان يدفن ما يراه الناس طفلاً، لكنه يعلم يقيناً أنه يدفن كابوسه.

تقدم راشد يخطو ببطء نحو مشهد ينوء به قلبه ولا يملك التراجع عنه. لمح من بعيد جسد الطفل ملفوفاً، اعتراه حزنٌ جارح، وذهول ممزق، كأن صخرة جثمت على صدره فحبست أنفاسه. اقترب وشعورٌ بالتفكك يجتاحه، بينما تقوده قدماه نحو حقيقة واحدة لا مفر منها: أنا سبب موته.

حفر مناع حفرة ضيقة، في جوفها حجر عريض وجذور ملتفة. لم يزح شيئاً ولم يسوِّ القبر؛ ألقى الجسد فيه كما تلقى القمامة. لم تشبه الحفرة القبور، بل بدت قراراً نهائياً بمحو أثر الطفل من ذاكرة العالم. رآه راشد يطوي الجسد المحترق داخل الحصير طي السر خشية انكشافه، ثم رفعه وقذفه في الحفرة دون أن يتفقد سعتها.

وقف راشد على بُعد خطوات يراقب الحفرة التي لم تكن قبراً، بل جرحاً نكئاً من جديد. شرع مناع يغرف التراب بيديه وأظافره ويهيله حفنة تلو أخرى؛ غطى الطين يديه كأن الذنب غادر صدره ليلعلق بأصابعه. لم يستخدم معولاً؛ رغبةً في استشعار ثقل الدفن، كأنه يرفض أن يشاركه أحد في مواراة الجثمان.

نهض دون أن ينظر إلى القبر نظرة أب، بل كرجل تخلص من عبء أرَّقه طويلاً. التفت ليرى راشد، فالتقى طرفاهما لثانية اختزلت كل شيء: الحريق، والرماد، والرسم، والورقة المطوية التي التهمت النيران قبل أن يراها.

ابتعد راشد، لكنه تسمر فجأة بعد بضع خطوات، ثم التفت. رأى خيط دخان يتصاعد من القبر، كأنه يتسرب من جوفه. تجمد مكانه واتسعت عيناه في ذهول؛ فما رآه لم يكن وهماً، بل كابوساً يتشكل كأن الأرض لفظته. توقف قلبه للحظة، إذ لم يكن ما يبصره مجرد دخان أو جسد مكتمل، بل شيئاً ذا هيئة غريبة، فأدرك أن ما يتشكل فوق القبر لا ينتمي إلى هذا العالم.

بقي مناع واقفاً عند القبر، لا يُبدي ذهولاً أو فرعاً، ناظرًا إلى الحفرة بألفة، كأنما يتقرب لحظة الظهور.

أخذ الدخان يلتف ويتموّج، ثم تكثّف متخذاً هيئة امرأة غائمة الملامح، ذات شعر طويل يرفرف في الهواء، وجسد مهتز، وذراعين تمتدان إلى السماء تستحضران الغيب، قبل أن ينبعث الصوت.

انطلقت من جوف الدخان صرخة واحدة لا تشبه الأصوات البشرية، بل تحاكي نداء مخلوق آخر. لم تكن بكاءً بل غضباً؛ كأن الجنية الأم ظهرت لتشهد دفن طفلها، وتعلن للعالم أن انتقامها يبدأ من هذه الحفرة.

لم يكن صوتاً عادياً، بل نذير عقوبة تتريص بأهل القرية. أيقن السامعون أن ما اجتمع فوق القبر ليس عزاءً، بل احتجاج من عالم آخر.

تراجع الواقفون عند أطراف المقبرة بذهول. قال أحدهم: «إنها الجنية أمّ الطفل». وهمس آخر: «كأنّ الجن اجتمعوا لتقديم العزاء».

ظل الدخان يلتف فوق الحفرة ويتصاعد، ثم تلاشى فجأة،
مخلفاً بخاراً ساخناً ينبعث من التراب، ورائحة لا تنتمي إلى هذا
العالم.

من الجهة المقابلة، لاح ظل يتحرك بثبات نحو راشد؛ كان أبو
فارس يتقدم بخطى وثيدة، غير عابئ بما رأى، وعيناه تقدحان
شرراً بملامح مشدودة. ناداه بصوت جاف: «يا راشد!»

لم يُجب؛ إذ تسمّر مكانه مذهولاً، لا يميز بين الخيال والحقيقة.
اقترب أبو فارس مسرعاً، وقبض على ذراعه بعنف هامساً من
بين أسنانه: «حذّرتك منذ البداية... لا تتبعه».

عجز راشد عن الرد لعدم استيعابه الموقف.

ساد الصمت طريق العودة، وأبو فارس يجره كمن ينقذ غريقاً
من حافة الجنون، بينما بقي القبر خلفهما دافئاً، وبقايا الدخان
عالقة في الهواء.

عند اقترابهما من البيت، توقف أبو فارس وسأل بصوت حاد
كالنصل: «أتريد أن تلحق به؟»

لم ينبس راشد بحرف، واكتفى بالتحديق فيه بعينين فارغتين
كأن كل شيء فيه انطفأ، ثم دلفا إلى البيت في صمتٍ ثقیل.

الجبل

لم يتنفس الفجر بعدُ حين فتح ناصر عينيه على جدار صخريّ مشبعٍ بالرطوبة. ليل الجبل لا يشبه ليل الخارج؛ ففي جوفه يسكن الظلام ككائنٍ حيّ يتنفس عبر الشقوق. لم يكن السكون هدوءًا، بل كمينًا؛ الجدران ترشح ماءً باردًا كأنّ الجبل يتصبّب عرقًا، وكل قطرة تهوي تُصدر وقعًا لا يشبه الخريف، بل وقع خطوةٍ قادمة من العمق. تضخمت الأصوات في جوفه، فسمع دقات قلبه كقرع طبول. لم يكن ناصر سجينًا فحسب، بل عالقًا داخل صدرٍ حجريّ هائل، ينقبض كقلبٍ باردٍ يعاند الحياة، ثم يضيق كما يضيق الحلم حين يستحيل كابوسًا. لم يكن الجبل يؤويه، بل يتهيًا لابتلاعه.

جلس يتلمّس بصبرٍ ثقیل السلسلة المشدودة إلى قدميه، والمثبتة بحلقةٍ حديدية في الجدار، كمن يُنقب في جلدّه عن مخرج ما. قضى ليالٍ طويلة يوهن نقطة اتصال السلسلة بالجدار؛ يحتكّ بها، ويشوّه حلقتها، مفرغًا إيّاها من تماسكها حتى غدا موضعها هشا.

لم ينفصل القيد تمامًا، لكن ناصرًا بات قادرًا على انتزاع السلسلة من الحائط، بينما بقي الغلّ مشدودًا إلى قدميه، فظلّ يجرّ ما تبقى منها خلفه كذيلٍ مهزوم. ورغم انتزاع السلسلة، ظلت الصخرة تسدّ المدخل، مستعصيةً على الفتح إلا من الخارج. وكان يعلم أن الحارس يحتفظ بمفتاح القيد في حزامٍ جلديّ حول خصره.

جلس الحارس على حجرٍ قرب المدخل، مائلَ الرأس يغالبه
النعاس دون أن يستسلم له تمامًا؛ عيناه نصفُ مغمضتين، وقبضته
مشدودة على رمحه.

قال ناصر بصوتٍ يوشك أن ينهار: «يا سالم... أرجوك، أزح
الصخرة قليلاً، إنني أختنق وأحتاج أن أستنشق هواء... أرجوك».
تجاهله الحارس، ثم فتح عينيه ببطء وتطلّع إليه مرتاباً، وقال:
«في هذا الوقت من الليل؟ عد إلى نومك يا ناصر، ولا تُغضبني».
أجاب ناصر بصوتٍ منكسرٍ صادق النبرة: «دقيقةً فقط... لا
أطلب أكثر. أشعر أنني أختنق».

صمت الحارس لحظة، ثم نهض متثاقلاً كمن يعاند حدسه.
دنا من الصخرة، ومدّ يده إلى حافتها ليزحزحتها، فاحتكّ الصخر
محدثاً صريراً خشناً مزّق سكّون الجبل. حينها، كان ناصر قد
حرّر السلسلة من الجدار، وإن بقيت تقيّد قدميه. بدا كمن ينتزع
قدمه من فخٍّ؛ بحركةٍ مؤلمة والحديد يعضّ اللحم. أمسك طرف
السلسلة بيده، وأخفاه خلف ظهره كي لا يلحظه الحارس.

وما إن انفرجت الصخرة، حتى وثب ناصر بكلّ ما يعتمله من
قهر. قبض على السلسلة ولوّح بها عالياً، ثم هوى بها على رأس
الحارس بقوةٍ من يثأر لحياته كلها.

ارتطم رأس الحارس بالصخر؛ تشنّجت قدماه لوهلة، ثم ارتخى
جسده وهوى على جنبه. فقد وعيه بعد لحظات، فيما رنّ صدى
المفتاح الساقط أرضاً.

انقضّ ناصر على المفتاح انقضاض الغريق على طوق النجاة،
وأداره بيدٍ تحترق ولا ترتجف. تحرّر تماماً؛ أطلق الحديد صريراً

يشبه شهقة حرّة، وسقط الغلّ عن ساقيه الداميتين. لم يتأكد من موت الحارس؛ فالهرب أسرع من التفكير. دفع الصخرة ولاذ بالفرار، لا قاصداً وجهة، بل هارباً من كلّ ما خلفه: الجبل، والصمت، والظلمة، والخوف، والموت، والسلاسل، والحارس، وأبو فارس. لم يكن الهرب قراراً بل غريزة. لفح الهواء وجهه، ومزقت الريح أسمال ثيابه، لكنه واصل العدو بتعثّر، كأن جسده يسبق وعيه، وكأن البقاء رهنٌ بالأ يتوقف.

شقت الصخور باطن قدميه، وتفاقم عرجه والدم ينزف، لكنه لم يتباطأ؛ فالألم مؤجل لما بعد النجاة. ورغم بُعد البحر، اقترب صوته مع كل خطوة، كعقبة أخيرة تتهدده بالابتلاع كما كاد الجبل يفعل. وحين انقشعت عتمة السماء، لم يكن النور راحة بل انكشافاً. ناصر-الذي يجهل أين تقذفه الأقدار- لم ينشد وجهة بعينها بل مهرّباً؛ مستعداً لخوض البحر أو الاختفاء في أي مكان، شريطة الابتعاد عن الجبل وسجنه، وعن كل ما أماته وهو حيّ. رقد البحر داكناً عميقاً خلف انحناء صخرية، كحارسٍ لآخر أسرار الجبل. وحين دنا ناصر، بزغت الشمس مترددة من خلف الغيوم، ونثرت ضياءها على صفحة الماء كاشفة عن موجٍ أزرق. فاحت رائحة الملح، وتناثرت الطحالب على الصخور، فيما علا هدير الموج متقلّباً؛ ينساب تارة ويرتدّ فجأة كأنما اصطدم بجسمٍ غاضب.

دنا من الشاطئ بخطى متعثرة بلا ظل؛ فالشمس تتسلّق السماء بصعوبة كأنّها ترفض شهادة ما سيحدث. جثا على ركبتيه، وغرس يديه في الرمل المبلل، ثم رفعهما إلى وجهه موقناً أنه لا يحلم.

تلفت حوله، فأبصر لوحًا خشبيًا طافيًا مكسور الطرف،
بدا من بقايا حطام قارب. جرّه نحوه واحتضنه، ملصقًا وجهه
بالخشب كأنما يلتمس منه النجاة.

أسلم نفسه للبحر؛ لم تكن السباحة قرارًا بل الخيار الوحيد،
فخطر الموج أهون من جحيم السجن. خاض الماء فلطم الموج
ساقيه، ثم خاصرته وصدره. شهق حين غمرته البرودة، وواصل
التقدم متشبثًا باللوح تشبّثه بحافة العالم. كان البحر باردًا متقلبًا،
يضره ويسحبه، لكنه لم يتوقف. طفق يجذّف بيديه وساقيه
مبتعدًا عن الجبل، وحذوه انطلقت سمكة طائفة شقت سطح
الماء، ثم اندفعت في الهواء كسهم قبل أن تغوص مجددًا في
ومضة.

أحسّ بلمسٍ ناعم على ساقه تبعته لسعة حارقة. التفت
فرأى قنديل بحرٍ أبيض شفافًا يطفو بجانبه. كتم صرخة الألم؛
فلا وقت للتوجع. كانت عضلاته تتنفض إعياءً، والملوحة تحرق
شفتيه، والبرد يتسلل من مفاصله إلى قلبه. مالت السماء إلى
الزرقة، وحلّق فوقه نورسٌ رماديّ الرأس، دار دورتين ثم أطلق
نعيقًا مفاجئًا، فرفع ناصر عينيه إلى الأفق، كأن الصوت اخترق
سمعه فاستعاد شتات انتباهه.

ارتفعت شمس الصباح، وتراءى له شبحٌ في الأفق، حتى بانَت
اليابسة أخيرًا: جزيرة «كُدْمُبُل» المهجورة؛ داكنة، غامضة، شاطئها
ساكن، بلا أثرٍ لخطو، ولا بشر، ولا دخان، ولا حياة.

كان البحر لا يزال يزفر آخر موجاته خلف ناصر حين دنا من اليابسة، وجسده المنهك ممدّد فوق اللوح الخشبي، لا يدري أنقذه البحر أم قذفه ليستكمل موته، بينما يدفعه الموج كحشرة ضئيلة فقدت وجهتها.

ما إن لامست قدماه الرمل حتى خذلتاه، فهوى كومة من لحم وعظم، وغاصت يداه في الرمل مستسلماً بلا مقاومة. تنفّس بصعوبة ثم بشراهة؛ أنفاس متقطّعة تُتنزع من صدرٍ مجطّم، وشهيق يشبه محاولة يائسة للبقاء. رفع رأسه قليلاً ليواجه أرضاً عراء؛ جزيرة صغيرة مكشوفة بلا ظلٍّ ولا مأوى، وتراباً أصفر ضارباً إلى البني.

ومن جهة طوّقتها الرمال في شبه قوس، انتصب جبلٌ بركانيّ داكنٌ ناتئ الصخور، كأنه وُلد من خاصرة اليابسة. احتشدت فوق قمّته أسراب نوارس ترقب البحر انتظاراً لشيءٍ ما، بينما حلّقت الصقور على ارتفاع أدنى؛ تتاور وتتقض ثم ترتفع، في مشهدٍ بدا كفرقتين تستعدّان لقتال، والنوارس حائرة في وجهتها وموعد فرارها. التفت ناصر إلى الخلف فلم يبصر شيئاً؛ لا قارباً ولا سفينة ولا أثراً لبشر. قذفه البحر وانسحب، تاركاً إيّاه للمكان... وللموت. حاول الزحف فكانت حركته أشبه باحتضار؛ جسدٌ متيبّس وأعضاء لا تطاوعه. كتفه اليسرى تؤلمه، ويده اليمنى تنزف، ووجع فخذه يشتد كلما اتكأ عليه؛ لم يكن زحفه تقدّماً، بل صراعاً بين الإرادة والألم. زحف ببطءٍ تُثقله كلّ حركة، كأن التراب يمتصّ عزيمته. لمح يساراً حطام قاربٍ غارقاً في الرمل تكسوه طحالب سميقة،

وبجواره أخاديدُ رملية ملتوية نحتها الماء والريح. وعلى الجهة المقابلة، خرجت سلحفاةٌ بنيةٌ من ظلِّ صخرة، وسارت نحوه ببطءٍ ثم توقفت. رفعت رأسها قليلاً قبل أن تعود أدراجها دون أثر. توقفتُها والتفاتتها أثارا فيه تساؤلاً: هل رآه أحدٌ أخيراً؟
لم يحتمل ناصر؛ شهق بقوة وتقلصت معدته، ليتقيأ ماءً أصفر مرّاً، ثم انقلب على جنبه يلهث.

صرخت جوارحه طلباً لقطرة ماء، أو ظلٍّ يؤويه، أو مُنقذٍ ينتشله، لكن الجزيرة لاذت بصمتها، ناظرةً إليه بلامبالاة. تحامل على كفه لينهض وجسده يرتجف؛ قدماه بالكاد تحملاونه، وظهره منحني، لكنه وقف أخيراً وخطا على الرمل متثاقلاً كمن يتعلم المشي من جديد. خلّفت خطواته أثراً هشاً تمحوه الريح فوراً، كأن الجزيرة ترفض الاعتراف بمروره، فتزيل وجوده لحظياً.
جال ببصره في كلّ اتجاه باحثاً عن ظلِّ صخرة، أو انحناء أرضٍ للاتكاء، أو بقعةٍ رطبة تشي بماء، أو أيّ علامة توحى بمرور بشر. لم يستبعد العثور على صيادٍ تائه، لكنه لم يبصر سوى رمالٍ ملساء، وأرضٍ ساكنة، وجبلٍ يشقّ الأفق. دنا من سفح الجبل حيث انتصب نتوءٌ صخريٌّ يواجه البحر، فجلس عليه وأسند ظهره... وترك كلّ شيء.

سكن الجسد، غير أن الألم ظلّ ينبض في القدمين، وموضع القيد، والكتف التي استعصت حركتها. جرّت الريح على جلده أثراً يُحاكي صرير السلسلة، ولسعت الشمس جفنيه. لم يكن يفكر، بل يتأكل. وحين فاق التعبُ احتماله، انطفأت عيناه؛ فمال جسده وتهاوى أرضاً في لحظةٍ فقد فيها كلّ شعور.

صباح الرماد

لدى عودتهما من المقبرة ودخول البيت، لم يتبادلا كلمة؛ لا في الطريق ولا في الفناء. خيم الصمت بينهما، مُثْقَلًا بما عجزت الألسن عن قوله.

جلس أبو فارس صامتًا، كأن جلسته إعلان موقف؛ فما سينفجر لاحقًا يتطلب تمهيدًا بالصمت قبل رشق الكلمات. جلس راشد في الطرف المقابل، ضامًا يديه في حجره كأنهما آخر ما تبقى له ليتماسك.

أطال أبو فارس النظر إليه بنظرةٍ خلت من الاتهام، لتحمل ما هو أسوأ، ثم قال أخيرًا بصوتٍ خشنٍ: «أنت لا تدرك ما تفعل». لم يرفع راشد عينيه، لكن حاجبيه اختلجا كمن أفيق من غيبوبة.

تابع أبو فارس: «تسير خلف مناع، وتتبع الطفل، وتركض وراء جثة.. كأنك تعلن أنك السبب».

وقعت الجملة كحجرٍ في بركةٍ عكّرت صفو السكون. تمتم راشد: «وجدتني أسير خلفه بلا شعور».

ابتسم أبو فارس ساخرًا: «لا تكذب». ثم استدار إليه بجسده كاملاً: «أنت سقت نفسك إلى المقبرة، ووقفت تراقب القبر». رفع راشد رأسه محدّقًا فيه، وفي عينيه رمادٌ يتوهّج لا نار، وقال: «تبعته ولا أدري أكنت أبحث عن الغفران أم العقاب».

«وهل تظن الناس تفهم؟»

لاذ راشد بالصمت، فأردف أبو فارس: «الناس لا تحب الفهم، بل الكلام».

نهض وراح يذرع المكان جيئةً وذهاباً أمام راشد، كمن يرسم دائرة لا مفرّ منها: «الكل يتهامس، وما من بيتٍ إلّا وعقد مجلساً يتردّد فيه اسمك».

توقّف ورمقه بحدّة: «وأنا؟ أنا وحدي من زعم أنّ راشداً كان عندي حين وقعت الكارثة».

طالعه راشد بعينين مجهدتين؛ حائراً بين شكره والخوف من جميلٍ يلتف حول عنقه كالقيد.

قال أبو فارس: «أخبرتهم أنّ راشداً لا يحرق طفلاً، وليس مجنوناً ليضرم النار في بيت أبيه وجده». ثم انحنى نحوه: «لكن هل تصدّقني إن قلت إنهم كذّبوني؟»

ابتلع راشد ريقه، فتراجع أبو فارس قليلاً وقال: «سأملّي عليك ما تفعل».

حدّق فيه بثباتٍ وأكمل: «لن تغادر البيت؛ لا سوق، ولا مقهى، ولا مكتبة، ولا أيّ محفلٍ للناس». وأضاف: «خروجك إلى المسجد فقط ثم تعود، ريثما ينسى الناس».

تقلّص وجه راشد، وهمّ بالكلام لكنه آثر الصمت.

قال أبو فارس: «الوقت كفيلاً بالنسيان». ثم عاد ليجلس أقرب من ذي قبل: «افهم يا راشد، ثمة لحظاتٌ إن لم تغلق فيها فمك، فتحوا هم أفواههم».

لاذ راشد بالصمت، بينما تتصارع في جوفه مشاعر الخوف والشوق والحبّ. استعاد بشجنٍ تلك اللمسة التي لم تبرد، والنظرة

التي لم تُنسَ، وكلمة «أحبك». تذكر وعده بأن يزور المكتبة بقلبه، ويظلّ على حبّها مهما حدث. وها هو ذا الآن حبيس بيتٍ لا يرى فيه سوى الجدران، وتعمّل في صدره ناران: نار الضمير، ونار القلب.

قال أبو فارس مغادرًا الفناء: «ستبقى هنا. هذه ليست نصيحة». ثم مضى خارجًا.

تسمّر راشد مكانه؛ لم يلتفت نحو الباب المغلق، ولم يحاول تبديد صدى الكلمات الأخيرة، كأن كلّ شيءٍ تجمّد في صدره. لم يكن البيت فارغًا، لكنه بدا مهجورًا تمامًا.

لاح ظلّ خفيف عند إحدى الزوايا؛ إنها أمانى.

تقدّمت بخطواتٍ محسوبة متّزنة، كمن يسير على وترٍ مشدود بين الخوف والمواساة، مداريةً ارتباكها بثباتٍ مصطنع. قبضت يَمناها على طرف عباؤها، بينما ارتجفت يسراها قليلًا، محاولةً التماسك أمام هشاشة اللحظة، خشية أن تُفسد شيئًا مكسورًا بالفعل.

توقّفت وسط المسافة، ونظرتها القلقة تبحث عن ملاذٍ آمن للحزن، ثم قالت بصوتٍ كالنسيم يلامس جراح القلب: «لا أحد يستحق أن يحمل ذنبًا لم يرتكبه».

رفع عينيه نحوها كغريقٍ يطفو على السطح، وحدّق فيها دون أن يطرف له جفن. لاحظت انكسار ملامحه فأردفت: «أعلم أنّك لست السبب، وأبي يعلم أيضًا، لكنه يجيد إخفاء وجهه الآخر». نظرت إلى يده وتابعت: «لا تنهر بصمت؛ لن يمدّوا إليك يدًا ما داموا يسيئون الظن، فلا تؤكّد ظنونهم بصمتك».

حاول الكلام فخانهُ صوته. حرّك يده قليلاً ثم أراحها على ركبته إقراراً بالهزيمة. فقالت أمانى: «لا أطلب منك شيئاً، فقط لا تحمل العبء وحدك».

هز راشد رأسه بلا نفي أو إيجاب، كأنما استوعبت جوارحه ما قيل وعجز لسانه عن التعبير، وهمس بصوتٍ بالكاد يُسمع: «شكراً أمانى».

لم تُجِب؛ التقت نظراتهما لحظة، ثم أشاحت بوجهها ومضت إلى غرفتها، موصدة الباب على سرٍّ لا يعرفه، لكنه شعر أنّه دافئ.

في زاويةٍ قصيةٍ خلف ستارةٍ خوص، وقف فارس يراقب؛ يرى ويسمع، ويقرأ ما بين السطور. لم يقصد التجسس؛ بل قاداته المصادفة لحظة خروج أمانى. أغمض عينيه متراجعاً، وعاد إلى غرفته.

بقي راشد وحيداً في الفناء كأن العالم انفضّ من حوله. تناهى إلى سمعه من خلف الجدران نباحٌ بعيد، أخذ يقترب شيئاً فشيئاً. إنه النباح ذاته الذي شقّ سكون ليل الحريق؛ عاد الآن ليعاتبه ويلومه.

سدّ أذنيه بكفيه. ورغم خفوت الصوت، كان وقعه واضحاً؛ كأن الكلب يقول: «كنتَ هناك، تعلم كلّ شيء، ولم تُنقذه». ضغط على أذنيه بقوة، ثم تحرّك مطارداً بصدى النباح، ولاذ بحجرة فارس.

جهلت شجن سرّ خفة خطواتها ذلك المساء، كأن شيئاً في قلبها سبقها إلى المكتبة. لم تكن عودتها قراراً، بل استجابةً لنداء صامت يسكن الرفوف، والمقعد، ولحظة ميلاد الحبّ. سلكت الطريق نفسه وحدها، بخطى تفضح ترددها، متأرجحة بين احتمالين: إمّا أن تجده، وإمّا أن تعود بخيبة تعجز عن إخفائها. بلغت المكتبة وقد غمر الشوق كلّ زواياها. دخلت دخول المنفيّ العائد إلى وطنه، تسبقها اللفظة إلى مهد أنفاسها، وخفقات قلبها، وارتباك كلماتها الأولى، وإلى رجلٍ تجهل اسمه لكنها تألفه منذ زمن. جلست في مكانها المعتاد، وضعت حقيبتها، ثم نهضت لتتقي كتاباً من الرفّ. عادت لتفتحه، فطالعت الصفحة الأولى بشرود، ترفع رأسها نحو الباب كلّ بضع دقائق؛ فالقراءة مجرد ذريعة، وقلبها مشغولٌ بغير الكلمات.

سمّرت عينيها على الباب وهمست لنفسها: «سيأتي»، كمن يُطمئن قلبه بأنّ الرجاء لا يضلّ الطريق.

انقضت عشر دقائق، ثم عشرون. دخل أحدهم ولم يكنه، تلاه آخر غريب، ثم عبرت امرأة رمقت شجن بنظرةٍ ومضت دون سلام.

حاولت إقناع نفسها بذرائع واهية: لعلّه جاء في وقتٍ آخر، أو مرّ في غيابها، أو انتظر ومضى، أو أنّها تأخّرت. لكنها تدرك يقيناً أنّها لم تتأخّر؛ فهي في الزمان والمكان ذاتهما.. ومع ذلك لم يأت..

أغمضت عينيها، لا لطول الوقت، بل لنفاد الصبر. شعرت
بوخزٍ في المآقي، كأنّ مكبوتًا يبحث عن مخرج.
احتبست الدموع وترقرقت، كما تتجمّع الظنون حين يُخلف
الوعدَ مَنْ تنتظره.

فتحت دفترها وخطّت: «لو أنّي أعرف اسمه لسألتُ عنه، ولو
عرفتُ بيته لقصدته، لكنني لا أملك منه سوى هذا المقعد وهذا
الانتظار. ما طلبتُ وعدًا، ولا انتزعتُ اعترافًا، إنّما انتظرتُ فقط
أن يَتَمَّ أحدهم اللقاء».

رفعت عينيها تخاطب الغياب:
«أهذا هو الغياب؟ أن يُعلّق القلبُ عند لحظةٍ واحدة، ثمّ
تُسى؟».

استعادت لمسة يده، وكلماتٍ لم تدرك معناها إلّا في غيابه.
تذكّرت نبرته ونظراته؛ كيف كان يؤثرها بلحظة الرحيل، لعلّه
أنّها تفضّل الانسحاب الصامت بلا وداع. لم يكن هو من يغيب،
بل كانت هي من تغادر أولاً.

وها هي ذي قد عادت، وتخلّف هو.

جلست طويلاً فوق احتمالها، ترقب الباب ساعات؛ ومع كلّ
حركةٍ له، ينسلّ من روحها خيطُ أمل. فعادت لتكتب:
«أحيانًا، لا نُمنح حتى شرفَ الوداع. نُعلّق على مشجبٍ صمتٍ
طويل، ونظّل نراهن على مصادفةٍ تأبى الحدوث».

نهضت...

ألقت نظرةً أخيرةً على المكان والمقعد الذي ظلّ فارغًا، كأنّ
جزءًا منها لم يأت.

قبل المغادرة، توقفت عند رفّ جانبي. ودون نيّة مسبقة، مدّت يدها إلى كتابٍ نحيلٍ أزرق الغلاف، عُنون بخطّ عريض: «الانتظار». مكتبة سرّ من قرأ

ورغم جهلها بمحتواه، بدا العنوان مكتوبًا للحظتها تلك. حملته معها؛ لا بحثًا عن حكاية، بل عن جملةٍ واحدةٍ تواسيها.

غادرت المكتبة كأنّ الخيبة تتشبّث بطرف ثوبها، تجذبها إلى الورا كلما همّت بالمضيّ. غير أنّ جزءًا منها بقي هناك؛ فلم يكن المقعد وحده خاويًا، بل روحها كذلك.

لعلّه الانتظار، أو اسمه المجهول، أو اللحظة التي توهّمت تكرارها فلم تتكرّر. ولعلّ خيبتها الكبرى تكمن في أنّ من علم بموعد اللقاء أثر الغياب.

مضت كأنها تتسلخ عن جزءٍ من ذاتها خلّفته هناك عمدًا، عسى أن يعود الغائب إليه. لم يكن سيرًا، بل فرارًا من أمنيّةٍ وُئدت وهي قيد التشكّل.

لم يتبعها سوى ظلّ لا يواسيها ولا يؤنس وحدتها؛ مجرد صدى خطوةٍ خافتة، وارتجاف شعورٍ يفتقر إلى الاحتواء. جاءت وحيدةً بشوقٍ نقيّ زاهد، وانتظرت وحيدةً متسلّحةً بالرجاء. وها هي ذي تعود منهكة القلب؛ لا لتعثّر اللقاء، بل لأن الأمل وحده بقي مرابطًا عند الباب.

خطت بخفّةٍ من ألف الخسارة، حاملةً في صدرها شقاءً من وشح صمته بالحنين؛ فقد أحبّت بصمت، وخسرت بصمت، ولم تُجد من طقوس الحبّ سوى صمته.

بدت السوق هذا المساء كجسدٍ مبتور الأطراف، ومع ذلك ظلَّ يتحرَّك. الناس يسيرون، يبيعون، يشترون، يهمسون، ويتبادلون النظرات كمن يستنطق الأعين بديلاً عن الألسنة.

الموازين ترتفع وتنخفض، وسخام الحريق ما زال عالقاً بجدران البيوت، مخيماً على حكايات النساء. حتى الرُّطب في صناديقه بدا فاقد النكهة، كأنه قُطف قبل أوانه.

عند المدخل، اصطفت جرارُ العسل كجنودٍ بلا معركة، وعلت وجوه الباعة ملامحٌ مستحدثة منذ احتراق الطفل. يلعب الأطفال، لكنَّ أعين أمهاتهم لا تفارقهم.

في إحدى الزوايا، ساوم رجلٌ بائع التمر وهو يلتفت دقيقةً تلو أخرى صوب المقهى، كأنما يترقب موعداً. لمح رجلاً صامتاً يقلِّب قهوته أكثر ممَّا يرتشفها. وحين بدأ السوق يستعيد همسه المرتبك، دخل أبو فارس.

دخل بخطواتٍ ثابتة، وعينان تجولان في الوجوه دون استقرار. لم تبدُ عليه أمارات حزنٍ أو قلق، لكنَّ الرائيين استشعروا أنه يعلم أكثر ممَّا يقول. توقَّف لحظةً أمام دكان خضار، ثمَّ واصل سيره حتى بلغ المقهى.

غصَّ المقهى بالرواد والوجوه المترقبة، بعدما قلَّ زبائنه في الأيام الخوالي. جلس أبو فارس أمام طاولةٍ شهدت أسراراً لا تُحصى. تلاه الإمام مساعد بوقاره، فصافح أبا فارس وجلس بجواره، مسلماً على الصياد الذي سبقهما إلى الطاولة حاملاً سبحةً طويلة يداعب حبَّاتها دون توقُّف.

أمامه فنجانٌ فارغ، ووجهه شطرَ الباب، كأنه يترقّب قادمًا.
دخل جابر المجنون دون أن يُسلم، وتوقف برهة عند الباب، ثم
اتجه صوب الكرسيّ الأخير في الزاوية، وجلس وحيدًا لا يلتفت
إلى أحد.

تعالّت الهمسات، وتناهى صوت صاحب المقهى إلى الجالسين
حين تساءل أحدهم: «أمرُ الحريق محيّر، هل عُرف الفاعل؟»
ردّ الإمام بنبرة هادئة: «كثيرًا ما تبدأ الفتنة من زاويةٍ مظلمة،
وما يُطفئها إلا الإعراض عنها».

كتم أحدهم ضحكةً باغته بها نظرة أبي فارس الحادة. فقال
الصياد وهو يمرّر سبحته: «لماذا لا نُخمد هذا الحديث بدل أن
نزيده حطبًا؟»

عقب أبو فارس: «نحن نعرف البيوت وأهلها. وبعضُ الأسئلة،
إن قيلت الآن، تفتح بابًا نعجز عن إغلاقه».

خيم الصمت على الجميع.

توقّف عابر سبيلٍ بباب المقهى، ورفع صوته قليلًا مخاطبًا
رفيقه: «كان الطفل في بيت راشد، وفي ذلك دلالة».

تجاهله الجمع، لكنّ الأعين رمقته ثم تراجعَت.
قال الإمام: «البلاءُ امتحان، والمصيبةُ لا تعني ذنبًا. كم من
بريءٍ حُرق وهو يصلي».

عدّل أبو فارس جلسته وقال بنبرة صافية مشوبة بغضبٍ
هادئ وثقة: «لو كان في قلب أحدكم شكٌ في راشد، فليأتني به،
وسأكون أول السائلين».

ردّ الصياد: «راشد من بيتٍ نعرفه ونعرف معدنه؛ لا يتركون ناراً خلفهم، ولا يشعلونها في دروب الناس».

فجأة، نطق جابر المجنون دون أن يلتفت: «أحياناً لا يهتمّ من أشعل النار، بل من كان وراءها».

ثمّ ابتسم كأنّه يلقي تهمة: «ولقد شهدتم ما حدث عند القبر. تلك التي خرجت من قبر الطفل لن تترك المتسبّب، وإن اختبأ بينكم أو غيّر وجهه... ستعرفه، كما تعرف النار نافخها».

خيّم الوجوم على المقهى؛ استوطن الرعب أعين الرجال، وتشبّثت الأصابع بالفناجين. تغفل الصمت في العظام، حتى هوى فنجانٌ من يدٍ مرتجفة، فارتطم بالأرض محدثاً صوتاً حاداً مزّق السكون.

ابتسم الإمام قائلاً: «أحياناً ينطق المجانين بما لا يجرؤ العقلاء على قوله».

نهض رجلٌ مفادراً وتبعه آخر. لم يتحرّك أبو فارس؛ اكتفى بتحديثٍ خاطف في الجدار كأنما يرى ما لا يراه غيره، ثم قال: «الحرائق تقع، لكن السؤال الحقيقي: لِمَ تختار بيتاً دون سواه؟» أجابه الإمام: «لأنّ البلاء لا يميّز بين البيوت، لكنّ اليد الآثمة قد تفعل».

صاح صوت المؤذن من بعيد، فانفض الجمع.. غادر البعض مسرعاً، وتسمّر آخرون كأنما أرادوا البوح بشيء، غير أن الخوف ألجم الألسنة، وأبقى الكلام معلقاً بين الطاولات.

لازم جابر مكانه مترقباً، بينما تعلّقت نظرة أبي فارس بالباب، قبل أن ينهض ويغادر دون كلمة أو سلام، مخلفاً وراءه طاولةً باردة

وكلماتٍ محتبسة. ساد المقهى توجُّسٌ ثَقِيلٌ، وخوفٌ خَفِيٌّ يسكن الصدور.

تحاشى الجميع ذكر ما شهدوه في المقبرة؛ لا حديث عن الدخان الفائض من قبر الطفل، ولا عن الظلّ الذي تشكّل هيئة امرأةٍ فوق منّاع، كأنهم تواطؤوا على الإنكار، أو خافوا التصديق.

كُدُّ مُبِلٌ

جففت الريح فمه، والتصق الرمل بوجهه قناعاً. سكن كل شيء فيه حتى الألم. بدا أن جسده اكتفى من التوسل، فاستسلم للصمت واستحال هيكلاً ممدداً تحت شمس لا ترحم. لم ينم، بل غاب عن الوعي كما يُغيب الجوع والعطش صاحبهما، ممدداً بلا حراك، والحياة تتسحب منه ببطءٍ دون أن تُتَهيّه.

باغتته نقرة خفيفة، كأن القدر أعاده إلى الحياة. كان طائر نوء؛ أبيض الريش، رمادي الظهر، طويل الجناحين، حاد المنقار. يعلو صوته ويقصر، فلا يمتد امتداد صياح النوارس، وإنما يمزق السكون بنبرة سريعة مزعجة.

نقر جبهته بإلحاح، ففتح عينيه مباعثاً بدفقة من الألم. زمّ شفّتيه اليابستين ورفع يده ليدفع الطائر بوهن. شهق حين ثاب إلى وعيه ليرى شيئاً جائئاً على وجهه.

رفع رأسه فداهمه دوارٌ كأن الأرض تدور به، فتمايل ثم تهاوى مجدداً. خلّفت الصخرة الساخنة أثراً أرجوانياً في خاصرته. تحرّك بحذر فانكشفت كتفه وتلوّى الألم في عظامه. فتح فمه وأغلقه؛ لم ينو النداء ليقينه بخلو المكان، لكن دافعاً غامضاً حرّضه، كأنما ليختبر قدرته على الصراخ وإن بلا مجيب.

تحامل على ذراعه ليرفع جسده، فتراقص وهج أبيض في عينيه؛ لا يدري أهو ضوء الشمس أم بقايا الدوار. ارتجفت يداه محاولتين تثبيتته، وكلما اتكأ شعر بانزلاق الأرض تحته. احترق جلده، ونفرت عظامه تحت الجلد المنهك، كأن الجوع والعطش

جُرْدَاه من لحمه . توارت ملامحه خلف طبقةٍ من العرق والتراب والملح، ثمَّ شرع يزحف . بالكاد تقوى ذراعاها على سحب جسده، وركبته تحتكّان بالحصى .. زحف مدفوعاً بغريزة البقاء باحثاً عن ماءٍ أو ظل . توقّف إثر حرقّةٍ صعّدت من جوفه؛ لم تكن قيئاً بل احتجاجاً من أحشاء خاوية تقلّصت جوعاً، إذ لا شيء فيها ليُلَفِّظ . واصل الزحف متثاقلاً؛ كتنفاه تهويان إلى الأرض ويداه تعجزان عن الدفع، محرّكاً جسده بآليةٍ تجاوزت الأمل، موقناً أن التوقّف إمضاءٌ على وثيقة موته . تمدّد على جنبه، ثم تحامل واتكأ على كوعه حتى جلس . سكن لحظةً وعيناه تلاحقان أطيافاً وهمية، قبل أن تمتدّ يده إلى قطعة خشبٍ جواره، تحسّسها كمن عثر على طوق نجاة . نهض رغم الدوار واحتجاج جسده الصامت، ووقف مترنّحاً يبحث عن احتمالٍ حياة .

خامره ظنٌّ بوجود نبعٍ أو بقايا مياهٍ تحت الرمل . فرك أصابعه، وتنفّس بعمقٍ ضحل، ثم التقط الخشبة وراح يبيري طرفها بحجرٍ حادٍّ لتغدو أداة حفرٍ بدائية . قبض عليها كأنها أمله الأخير، وغرسها في الأرض .

شرع في الحفر . كانت الأرض هشّةً يغلب عليها الرمل، وكلّما تعمّق انهارت الرمال على يديه، كأنّ الجزيرة تأبى البوح بأسرارها . واصل العمل رغم تهاوي الحافات، والعرق يلسع عينيه، وأنفاسه تتلاحق مع كلّ حركة . حفر بكفّين جائعتين كمن ينقّب عن حياته . خابت الحفرة الأولى؛ لا شيء سوى طبقاتٍ ترابٍ ناعم، ورائحةٍ خانقة تضيق بها أنفاسه . لا ماء ولا أثراً لحياة؛ أرضٌ جدباء لا تخفي في جوفها شيئاً . أغمض عينيه هنيئاً ثم تهاوى على

ركبتيه؛ يدها متورمتان وظاهره منحني. مسح جبينه بذراعه وتحامل لينهض، مبتعداً بضعة أمتار ليحفر مجدداً. غرس أدواته الخشبية في التراب ضربةً تلو أخرى. تفاقم ألم يده، وازداد ثقل الخشبة، والرمل ينهار بعناد، لكنه لم يتوقف.

فجأة، اصطدم طرف الخشب بجسم صلب. جثا مسرعاً يكشط التراب بأصابعه، كاشفاً ما لا يشبه الحصى. إنها عظمة. تجمّد في مكانه.

مدّ يده وانتشلها: عظم حوض، فضلع، فجمجمة. أطلق صرخةً مدويةً وارتدّ فزعاً ليسقط على جنبه متشبّثاً بالعظم؛ إذ ارتجفت يده عاجزةً عن إفلاته. بأنفاسٍ لاهثة، تحامل على كوعه وأعاد الرفات بيده المرتعشة إلى مرقده، ملقياً إياه في الرمل كمن يردّ مسلوباً لصاحبه. نفّض يده بقوة كأنّ أثر الموت علق بجلده. شحب وجهه وازرقّت شفّته، وصدره يعلو ويهبط باضطراب. بصق على الأرض باشمئزاز؛ فجسده يرفض ما اقترفت يدها. ما الذي فعله؟ وكيف آل به الأمر إلى نبش القبور بيديه؟ جال ببصره حوله، فلاح له رفاتٌ آخر متناثرٌ ومطمورٌ جزئياً، كأنّ هذا الركن من الجزيرة ليس أرضاً بل مقبرة قديمة. هنا، في هذا المنفى القصي، دُفن من أريد لهم الاختفاء. لعلّهم غرقى، أو منسيون لفظتهم سفنٌ عابرة، أو ممّن تولّى البحرُ دفنهم بنفسه؛ بشرّ مرّوا ذات يوم وتركوا عظامهم شاهداً أبدياً.

حسب أنّه نجا، لكنّه أيقن الآن أنّه لم يبتعد عن الموت، بل وقف فوقه.

جلس جوار القبر مهتدل الكتفين، خائر القوى، وانحنى هامسًا:
«خرجتُ من موتٍ إلى موتٍ آخر، وما حسبته طريقًا للحياة لم
يكن سوى معبرٍ للدفن».

تحامل على نفسه لينهض؛ وقفّة هشة كمن يخشى التكسر.
ساقاه ترتجفان، لكنّه اضطرَّ إلى المسير؛ لا طلبًا للخلاص، بل
فرارًا من البقاء. سار بين الصخور يتحسّس موطئه كالأعمى، لا
ينشد وجهة بل رمقًا من حياة، والبحر يطوّقه من كلّ صوب.

في شقّ صخري، لمح قاربًا مائلًا؛ نصفه مدفونٌ في الرمل
والآخر عالقٌ بين الصخور، حافاته متأكلة ومساميره ناتئة كأنّها
تحاول الفرار. اقترب يتفحص ملامح القارب بعينين أثقلهما
الإعياء. انحنى ورفع لوحًا مخلوعًا بأصابع متخشّبة تخشى
انكسار الأمل، فوجد قرية ماءٍ مربوطةً بخرقة، جافة الأطراف
منتفخة الوسط. هزّها فسمع خضخضة خافتة؛ فيها ما يكفي
لإنقاذه. فتحها وقربها، فانسكب الماء في جوفه ليطفئ لهيب
عطشه.

تجرّع الماء ببطءٍ حتى هدأ لهائه، ثم أبقى القرية في حضنه
دون إفراغها؛ لإدراكه ندرة الماء. أسند ظهره إلى صخرة، وتمتم
بصوتٍ متقطّع: «من نسي الحياة هنا؟»

شدّ القرية إلى خاصرته ونهض. استجابت قدماء بعد الارتواء،
فغدت خطواته أيسر. سار نحو البحر كأنّ الطريق بات ممكنًا.

جثا على الشاطئ، والبحرُ يمدّ ذراعه ثمّ يسحبها. انتظر.
تأمل ظلّه المنعكس في الماء، وركّز في حركة الموج. ثبت
قدميه، وعيناه تلاحقان تموجّ السطح. أحكم قبضته على العود،

ورمق المكان. انزلقت الرمية الأولى في الفارغ، وارتطمت الثانية بصخرة، وفي الثالثة اهتزَّ العود، وتغيَّر لون الماء، فجذبه ناصر لتخرج سمكة تتلوى. أطبق عليها بيده مستشعرًا نبضها وعينيها الشاخصتين. زفر بهدوءٍ كمن يتصالح مع الأمل، وسالت دموعه صامتة؛ فقد أدرك متأخرًا أنَّه لم

يكن يعيش، بل كان ميتًا على قيد الحياة. حين هدا، نظر حوله ليستعيد معنى الأشياء. جمع عيدانًا يابسةً متناثرة، وكوَّمها في دائرة صغيرة قرب صخرة. التقطَ حجرين، وشرع يضرب أحدهما بالآخر؛ ضرباتٍ متقطَّعة في البداية، ثمَّ اشتدَّت. يدها يابستان لكنه واصل بثبات. تطاير شررٌ خافت ثمَّ انطفأ. كرَّر المحاولة حتى انبعث دخانٌ، فنفخ فيه طويلاً حتى توهَّجت الجذوة، وامتدَّ اللهب ليلتهم الأعواد.

تسلَّل الليل بهدوءٍ، وانسحب الضوء من أطراف الجزيرة، حين وضع ناصر السمكة فوق النار. طقطقت قليلاً، وتسرَّب الدخان من جوانبها، وجعل يتأمَّلها كمن يرى طعامًا حقيقيًا بعد أيَّام من الهروب في الجبل. التهمها كما يأكل من عاش طويلاً على حافة الموت. لم يستسغ طعمها، لكنَّه كان مرغماً على أن يبتلع شيئاً يبقيه حيًّا. بعد أن فرغ، نهض يبحث عن قطعة خشبٍ كبيرة بين الصخور. كسرهما، ثم رصَّ الشظايا حول الجمر الخافت ونفخ فيها، فشبَّت النار وراقص لهيبها وجهه النحيل.

جلس قبالتها، مادًّا ساقيه، ويداه على مقربةٍ من وهجها. النار تشتعل، وهو يلاحق توهَّجها بعينين مستسلمتين. لم يتحرَّك؛ اكتفى بمدِّ كفيِّه نحو الضوء، كمن يتعلَّم الدفء من جديد.

لم تكن النار مجرد دَفءٍ، بل أشبه بـ «النبض الأول»؛ شعلة
تقاوم العتمة، وتبعث الحياة في أوصالٍ رضضها التعب. وفي
فرارة نفسه لم يشعر أنه عاد إلى الحياة، بل اخترعها من جديد.

زفاف العتمة

خيّم السكون على الليل، وغرق البيت في هدوءٍ لا راحة فيه. امتدّت ظلال الأعمدة على أرضية الفناء، يتسلّل بينها ضوء الفانوس المتدلّي من السقف، راسماً خيوطاً خافتةً فوق الحصير. تحديق في فئجائها الفارغ بوجوم، فيما تلوذ أمانى بطرف الستارة، حاضرةً غائبة. بدا المكان مستقرّاً، غير أنّه يضمّر توتراً.

دخل أبو فارس مثقلاً بما سمع. لم يبدُ عليه التعب بقدر ما كان متجهماً، كمن غادر معركةً لم يخضها لكنه حمل وزرها. ألقى شماغه جانباً، ونادى بصوتٍ جهوريٍّ ملأ الفراغ: «يا راشد، تعال».

لم يمضِ وقت حتى مثّل راشد أمام الباب. كتم اضطرابه بوقفة متماسكة، واختلس نظرة إلى أبي فارس قبل أن يُطرق رأسه. أشار إليه أبو فارس بالجلوس، فامتثل صامتاً. قال أبو فارس بهدوءٍ، متجاهلاً النظر إليه: «منذ الحريق، لم تعد القحمة كما كانت».

ثمّ أردف بنبرةٍ ثابتةٍ: «الناس يتحدّثون، لكنّهم لا يواجهون؛ كلّ ما يقال يدور خلف الظهور».

لاذ راشد بالصمت، وعيناه تجولان بين ملامح الرجل وطرف المجلس، يوازن بين ما يسمع وما يعجز عن تصديقه. استطرد أبو فارس بنبرة حادةٍ: «دافعت عنك. قلت إنّ راشداً منّا وفيّنا. لكنّهم يهمسون، والهمس قد يستحيل وشايةً، ثمّ قضيةً، فحكماً».

رقمه بنظرةٍ فاحصة، كأنه اكتفى بما قال، تاركًا الباقي لفطنة راشد.

استمرّ صمت راشد، وإن لاح في عينيه طيف فزع، لكنه لم يجر جوابًا.

قال أبو فارس: «قلتُ لهم ما كان لراشد أن يحرق بيتًا فيه طفل. فردّوا: إذن كيف انتهى المطاف بالطفل في بيته؟»
صمت برهة ثمّ أضاف: «ثمّة من اقتنع، ومن صمت... والصمت أحيانًا أشدّ وظأَةً من الاتهام».

صوّب نظره إليه، وقال حاسمًا: «لا وقت للتردد يا راشد. علينا حسم الأمر».

تململ راشد في مقعده ثمّ اعتدل، محاولاً مواراة اضطرابه خلف قناع من الهدوء.

قال أبو فارس بصرامة: «لنوصد هذا الباب، علينا إثبات أنك من أهل البيت، لا غريبًا عنه».

أضاف بلهجة حاسمة لا تقبل الرفض: «عليك أن تتزوَّج أمانى».

وتابع بنبرة قاطعة: «لا بقاء لك هنا، في بيتٍ فيه نساء، وأنت غريب عنهنّ».

وقعت الكلمات عليه كالصاعقة. عجز عن الردّ، وحدّق في وجهه كمن لم يستوعب ما سمع، ثمّ همس بذهول: «زواج؟»

«نعم».

استدرك راشد كمن يسابق الزمن: «الآن؟»

عاجله أبو فارس: «تأخّرنا بما يكفي».

همّ بالكلام ثمّ أحجم، قبل أن يتمتم: «لكن...».

قاطعه الأب بحزم: «لا تقل شيئاً، واسمعي. أنا لا أعرض ابنتي، ولم أتخيلكما معاً يوماً، بل لا أراك كفتاً لها. غير أنه لا مفر؛ اليوم لا أبحث عمّن يليق بها، بل عمّن ينجينا».

خفتت نبرته قليلاً: «في مواقف كهذه يا راشد، لا نملك ترف العاطفة ولا المنطق... نبحث عن النجاة فحسب. وأماني ابنتي وأنا أخبرها؛ قد لا تكون مستعدة، لكنها لن ترفض».

خلف الستارة، كانت الأعين تترقّب عبر الشقّ. أمسكت أمّ فارس كفّ ابنتها وهمست: «الحمد لله». أمّا أماني، فتسمّرت نظراتها؛ لا ابتسامة، لا دمعة، ولا إيماءة. مجرد نظرة معلقة، كأنّها تنتظر من يملئ عليها شعورها.

باغتتها المفاجأة، لا سيّما أنّ الطلب لم يأت من راشد. ما الذي بدّل رأي أبيها؟!

استطرد أبو فارس: «أريد موافقتك الليلة. لا مجال للتأجيل؛ فكلّ تأخير سيُفهم تهرّباً، وكلّ تهرّب إدانة».

أطرق راشد، كأنّ شيئاً في داخله يوشك أن ينهار. سأل بيأس: «أهذا هو السبيل الوحيد؟»

أجاب أبو فارس: «لا. لكنّه السبيل الأوحّد الذي لا يفضي إلى السجن أو حبل المشنقة».

أيقن راشد أنّ حياته سُلبت منه، وباتت معلقةً على حافةٍ لا يدري أهي نجاةٌ أم نهاية.

ظلّت أماني شاخصةً، لا يطرف لها جفن، كأنّ صدى الجملة يتردّد في رأسها: «قال لأمي إنّه لا يراه كفتاً، والآن يعرض عليه الزواج بي!». لم تكن حزينة، بل مأخوذةٌ بدهشةٍ مجهولة المصير.

رفع أبو فارس رأسه نحو السقف وقال: «لن تكون أوّل زيجةٍ
تبدأ بقرارٍ وتنتهي بنجاة». .
نهض وغادر، تاركاً راشد مسمّراً في مكانه من هول ما سمع،
يتمنى لو يستفيق ليجد أنّ ما حدث مجرد حلم.

لم تكن المرة الرابعة، ولا الخامسة، ولا حتى السادسة.
 لم تعد تحصى مرّات عودتها إلى هناك؛ الزاوية ذاتها، والبرف
 عينه، والمقعد الذي حفظ أثر كفّها حين وضعتها على كفّه يوم
 قال: «ثمّة يدٌ واحدة فقط تمسكك بطريقة تجعل العالم أقلّ
 ضجيجًا وأكثر احتمالاً».

كانت تذهب وتعود وحيدة. لم يسقها الفضول بل الافتقار؛
 وخطواتها نحو المكتبة لم تكن بحثًا عن كتاب، بل عمّن أوهمها
 أنّ الكتب تشبه القلوب: بعضها يفتح مرّة، ثمّ يوصد إلى الأبد.
 تتناقل في مشيها كأنّها تأبى الوصول، بينما يمتط الطريق
 المسافة ليمنحها مزيدًا من الوحدة. تحمل حقيبة تحوي ثلاثة
 كتب لم تخطّط لاقتنائها، ولا شعرت بحاجة إلى قراءتها.
 كانت تتوق إلى ما يريّت عليها ويمدّها بالأمان؛ يدٌ تبحث عن
 أخرى تعيد إليها طمأنينة اللحظة الأولى. كلّ ما تبقى منها يتكئ
 على فراغ يشبه الكتف التي خذلتها حين كانت في أمسّ الحاجة
 إليها. كانت الكتب خفيفة لكنّها تشبه خيبتها: مغلقة، صامتة،
 وثقيلة رغم فراغها. كلّما أخرجتها من الحقيبة، أعادت ترتيب
 خذلانها. لم تكن كتبًا، بل شهودًا صامتين على الغياب.

لم يأتِ.

لم يأتِ.

لم يأتِ.

مرّ الوقت، وتغيّر طقس الأيام، ومرّ بقلبها أكثر من صباح كان
 يمكن أن يكون له. لكنّه اختار الغياب... فاستفحل.

بقي السؤال غصةً في حلقها تخجل من صوتها: هل كان كاذباً؟
أم صادقاً فخاف؟ أم أنها بالغت فحسب؟

فتحت باب غرفتها، ألقت الحقيبة على الفراش، وأوصدت الباب خلفها. رفعت لُجَيْنَ عينيها من طرف الرف، ثم نهضت تتمسّح بها بخفةٍ كأنما تقول: «أنا هنا حين يخذلك العالم». افترشت شجن الأرض، وأسندت ظهرها إلى الجدار، ثم سحبت دفترها. بدت الصفحة بيضاء إلا من نقاطٍ ثلاثٍ خطتها بالأمس؛ حسبتها مستهلّ شيء، فإذا بها نهايةٌ أخرى. كتبت:

«هل أحببته حقاً وأنا لا أعرف اسمه؟ وهل يمكن لرجل أن يخفي الكذب في عينيهِ، ثم يلمع فيهما وعداً كأنه حقيقة، فإذا صدّقه اختفى؟»

بعد دقائق، تنامت إليها طرقاتٌ خفيفةٌ على الباب، وصوتٌ ينادي:

«شجن؟»

كانت منيرة. فتحت لها، فدلّفت تحمل قهوةً وتمرّاتٍ، قائلةً: «جئتُ أطمئنّ عليك».

جلستا في الزاوية ذاتها التي اعتادت شجن الكتابة فيها بجوار الجدار.

رمقت منيرة الكتب الملقاة على السرير وسألت: «ذهبت اليوم أيضاً؟»

أومأت شجن: «نعم. وهذه المرة لا أعلم، ربما السابعة». «وفي كلّ مرّةٍ لا يجيء؟»

«لم يأت».

«وأنتِ؟ هل كنتِ تذهبين فقط لتعذبي نفسك أكثر؟»

«لا أعلم... كلما ذهبتُ، كنتُ أحاول أن أكون بخيرِ دونه، لكنَّ كلَّ غيابٍ جديد كان يُعمِّق في داخلي الوحدة أكثر من قبل».

قالت منيرة: «أتعرفين؟ حين نحبَّ من لا نعرفه، نغدو أكثرَ عُرضة للخذلان. لا لكونه مجهولاً، بل لأننا نحبُّ الصورة التي رسمناها له، لا حقيقته».

أجابت شجن: «حسبتُ الحب لا يحتاج إلى اسم، لكنه غاب، كأنَّ اللحظة التي جمعتنا كانت خطأ في مواقيت قلبه».

«ربِّما خاف».

«ممن؟ مني؟ من نفسه؟ من مشاعره؟ هل أربكه حضوري؟ أم أنه حين لمح الحب في وجهي خاف أن يراه في نفسه؟»

«لكنَّك قلتِ إنَّه تغيَّر حين لمس يدك».

«نعم... ارتعشت يده، وكان قلبي بين أصابعه. رأيتُ في عينيه ارتباك رجلٍ يوشك أن يقدِّم كلَّ شيءٍ من أجلي... لكنه أثر الغياب».

«إذن؟»

قالت شجن بصوتٍ متهدِّج: «بعض اللحظات تُضيء ولا تُكمل، وبعضُ القلوب تُوقظها اللفتة ثم تتركها وحيدة. الحبُّ ليس شرارةً تخبو، بل اشتعالٌ يوميٌّ للبقاء».

رفعت لُجين ذيلها وعبرت فوق الدفتر، كأنَّها تحاول إغلاقه.

قالت شجن: «أرأيت؟ حتَّى لجين تريدني أن أكفَّ عن هذا».

ردَّت منيرة: «لا، وإنَّما لا تطيق رؤية دموعك».

هزّت شجن رأسها: «لست أبكي، إنما أتشظى. شيء ما في داخلي يتناقص... صار الانتظار عادة».

«ستذهبين غداً أيضاً؟»

أطالت النظر إليها ثم قالت: «لا أدري. لم أعد أبحث عنه، بل أذهب لأتأكد أنّ الغياب ما زال يتّسع. أراقب مكانه الفارغ، لأعرف كم تبقى من قلبي قبل أن ينكسر تماماً».

طال الصمت، وتبادلتا النظرات.

نهضت منيرة، وحملت الفنجان والصحن، غير أنّها توقّفت عند الباب، والتفتت صوب الدفتر سائلة: «ستكتبين الليلة؟»

رفعت شجن طرفها، وفي عينيها دمةٌ حبيسة: «أولئك الذين لا نستطيع أن نعيش معهم في حياتنا... نعيش معهم في الكتابة».

قالت منيرة: «لهذا، اكتبني... اكتبني لتتجي بنفسك منهم».

ابتسمت وغادرت.

همست شجن: «أيعقل أن يبعث رجلٌ فيك الروح ثم يمضي؟»

كأنّ انبعاثك من الرماد كان خطأً؟

ثم كتبت:

«أحياناً.. لا نحبّ الأشخاص لذواتهم، بل نحبّ ما نكون عليه معهم. وأحياناً، لا يخدعنا الغياب بقدر ما يخدعنا الأمل بأنّه مؤقت».

أغلقت الدفتر، واحتضنت لُجين، وتمتمت: «لن أذهب غداً... أو ربّما أذهب... لكنّي لن أنتظر هذه المرّة».

أغمضت عينيها، لا لتتجو من الوحدة، بل لتكفّ عن مقاومتها؛ فالراحلون لا يغادروننا، بل يبقون في التفاصيل.

جفا النوم جفني راشد؛ تمدد فوق الفراش كتمدّد الجرح على حافة الوقت. عيناه مطبقتان، ورأسه يموج بوجهٍ واحد: شجن. كانت تعبر ذاكرته ولا تستقرّ.

انتصف الليل، فانتفض واقفاً كمن طعن في صدره. جلس في العتمة يزفر بصوتٍ مسموع، ومسح وجهه. في الغرفة ذاتها، تلملم فارس في فراشه؛ لم يكن مستغرقاً في النوم، فأحسّ بحركة راشد المباغته.

«راشد، إلى أين؟»

«سأخرج قليلاً... أكاد أختنق».

لم يُعلق فارس، وأغلق عينيه ثانية، مدركاً أنّ ثمة أحزاناً لا يليق بها إلا الوحدة.

في الجهة المقابلة، تطلّعت أمانى إلى السقف تترقب شيئاً لا تعرفه ماهيته. وما إن سمعت صرير الباب حتّى وثبت تقترب من النافذة. رآته يتأهب للخروج، وتحقّقت من نوم والديها، ثمّ عادت تراقب عبوره العتبة وحيداً.

لحظةً خاطفة، لكنّها كفت لتوقظ في قلبها كلّ الأسئلة المؤجلة، ومخاوف لا مبرّر لها. ارتدت عباؤها، وانسلت خلفه في صمت، بخطواتٍ تشبه الحزن.

لم يشعر بها، بل لم يشعر بنفسه؛ كان يسير على حافات قلبه. قصد السوق متجاهلاً الوجوه، سالكاً الأزقة التي حفظت ملامحها.

بلغ المكتبة، فإذا هي موصدةٌ كقلبٍ فقد نبضه. لم يبتغِ كتابًا، بل بحث عن ظلّها بين الرفوف، وعن طيفها في الزاوية. سبقته ذاكرته، نفذت من شقوق الباب، وجلست في ركنها، تنتظره ليرمم الحنين من حيث انكسر.

وقف أمامها، كأنه يراها تجلس هناك، تقلّب صفحات كتاب، وتنسى العالم.

أخرج المنديل من جيبه، وكأنّما تذكّرتّه أصابعه فجأة. كان أبيضٌ مُطرزًا بوردةٍ حمراء على الزاوية. رفعه أمام عينيه وحدّق فيه طويلاً، ثمّ تساءل: «ماذا لو كانت شجن هي من وضعته عند الباب؟»

لم يعرف صاحبة المنديل، بيد أنّ الفكرة زلزلت كيانه. شعر أنّه لا يحمل قطعة قماش، بل سؤالاً لم يجد له جواباً: «هل علمت بوجودي؟ وهل أرادتني أن أجده؟»

من بعيد، كانت أمانى تراه. رأت كيف انحنى جسده فجأة، وكيف وضع المنديل على وجهه، وظلّ واقفاً، متسمّراً في مكانه. قالت في نفسها: «ما الذي جاء به إلى المكتبة؟! ربما كان يجد في الكتب عزاءً يبدّد حزنه».

تحرك في قلبها شعورٌ غريب؛ خليطٌ من شفقةٍ، أو حبٍّ، أو توجّس... لكنّها لم تكن تعرف أنّه يبكي شجن. بكى راشد بكاء المخدول من قلبه لا من غيره. سالت دموعه بلا نحيب، وارتعدت كتفاه تحت وطأة سنواتٍ عجاف.

شهدت المشهد عن بعد، ولم تجرؤ على الاقتراب. بقيت في الزاوية، تفكّر في عدد المرّات التي تجرّع فيها هذا الألم وحيداً.

مسح وجهه بالمنديل، وأعادته إلى جيبه كمن يخفي سرًا، ثم استدار ويمّم وجهه شطر البحر. حينها، أدركت أنّ لا حقّ لها في التلصّص على حزن غيرها. قفلت راجعة، وكلّ خطوةٍ منها تعتذر عن تطفّلها.

سار كمن يحمل نغشه على ظهره. زاده الليل حنيًا، وبدا الصمت اتفاقًا بينه وبين العالم: لا أحد يتكلّم.

تخلّل البيوت والأزقة الضيّقة والأضواء الخافتة، حتّى لاح له البحر، فخفق قلبه كمن يقترب من حضيّ لا يعانق، لكنّه يجيد الإصغاء للانكسار دون سؤال.

لم يرَ ماءً، بل مرآةً مظلمةً عكست وجوه من فقدهم، والأبواب الموصدة، والطرق التي قطعها وحيدًا. كلّ خطوةٍ تتقص منه شيئًا، كأنّ الذكرى تذوب في الطريق، والماضي يسير أمامه. سار متبلّدًا، بينما تعتمل في داخله صرخةٌ حبيسة.

تحسّست أصابعه المنديل تارةً بعد أخرى، تتأكّد من وجوده، وتتعلّق بالشيء الوحيد الذي لم يحترق. تباطأت خطواته قرب البحر؛ وقف لحظةً عند الحافة، ثمّ قصد صخرةً مشرفةً على اللسان الممتدّ في الماء، وجلس جلسة من يبتغي الوحدة، ويصارع للبقاء حيًّا ليبوح لقلبه.

أخرج المنديل مجددًا، بسطه على فخذه، وهمس:

«شجن... أنا آسف».

«أقسم إنّي كنت سأعود، لكنّهم أوصدوا الباب وقالوا: اختر».

ابتسم بسخرية: «أيسمّى اختياريًا إن كان بين الموت والزواج؟»

أمعن في المنديل، وطواه بلطفٍ كمن يُكفّن قطعة من روحه.

«اغفري لي إن لم أعد... وسامحيني إن عدت».

رفع طرفه إلى السماء «سأظلُّ أحبُّك كما وعدت».

نظر إلى البحر كمن يودعه سرًّا: «لن أظلم أمانى... سأمنحها

اسمي، أمّا قلبي فلك يا شجن».

في تلك الليلة، حسم راشد أمره: سيعيش بجسد رجل، ويحمل

قلب آخر. لا نسيانًا، ولا انهزامًا، بل إرغامًا على استكمال الحياة

بقلب ليس له، وصوت لا يشبهه، وخطى تغاير دربه. أثر التخلّي

عمّا يحبّ، حمايةً لمن لا ذنب لها، مبقياً في جوفه وعدًا لا

يبلى... وإن عاش منكسر الاسم، منطفئ النظر، يبتسم لوجوه

تجهل خسارته، ولا تدرك أنه يبتسم ليوصل المسير دون سقوط.

في بيت أبي فارس، كانت أمانى قد وصلت للتوّ. جلست قرب

الфанوس شاردة، تسترجع ما رأت، حتى لمعت في بالها فكرة: «لم

لا أقصد المكتبة غدًا وأشتري له كتابًا؟ لعلّه يقرؤه فيفرح».

ارتسمت على ثغرها ابتسامة غابت منذ أيام، ثم نامت.

عند أطراف القرية، كان راشد لا يزال قابلاً فوق الصخرة،

وفي قلبه شجن.

لم تكن حينئذٍ عابراً، ولا ذكرى تتكرر؛ كانت هي الوجد

الصامت، والفراغ العصيّ على الامتلاء. كانت الوعد المنكوث،

والكلمات التي تأخّرت ماتت في قلبه.

كلُّ ما فات، وما فاته، كان يعبر من خلالها.

لم يكن جالساً أمام البحر فحسب، بل كان يستعرض خسارته،

واحدة تلو أخرى، كأنّ الموج يدوّن له قائمة الوجد. كانت شجن

آخر الأسماء وأولّها... جلّ ما أراد، وأفدح ما خسر.

استيقظت أمانى مبكرةً، كأنَّ الليل خبأ في طياته وعدًا صغيرًا للصباح.

هبت من فراشها كمن يخشى أن تسبقه الحياة، ثمَّ ابتسمت لتتأكد من قدرتها على صنع شيءٍ جميل، ولو كان بسيطًا.

ساد السكون الغرفة، بينما داعب النسيم المتسلل من النافذة أطراف الستارة. رفعت الغطاء، ولامست قدماها الأرض بحذر خشية إيقاظ الحنين الغافي. مكثت على طرف الفراش هنيهةً تتأمل يديها، وسرحت في خيالها: تخيلت وجه راشد يبتسم للكتاب، وسكونه حين يصمت، وانسحابه من الحديث تاركًا فجوةً لا يملؤها شيء.

فتحت الدرج، أخرجت دهن العود المحبب إليها، مسحت قطراتٍ منه خلف أذنيها وعلى رسغها الأيسر، ثمَّ توجهت صوب حجرة أمها.

واربت الباب وقالت: «صباح الخير أُمي. هل يمكنني الخروج قليلًا؟»

رفعت الأم رأسها ورمقتها بنظرة ريبة: «إلى أين؟» أجابت. والابتسامة تفضح سرورها: «إلى المكتبة؛ سأشتري كتابًا.»

«كتابًا؟!»

«نعم.»

صمتت الأم لحظة، ثمَّ أومأت بالموافقة دون تعليق.

خرجت أماني تتلمّس الحياة في السوق؛ تحسّست الأقمشة بأطراف أصابعها، وتوقّفت عند العطار تستنشق العبير دون سؤال عن السعر. كانت تتذوّق اللحظة، وتلملم شتات قلبها قبل الوصول. بلغت المكتبة، توقّفت قليلاً ثمّ دلفت. لم تعد ارتيادها، غير أنّها شعرت بحاجة ملحّة إليها اليوم.

في الزاوية، جلست فتاةٌ وحيدةٌ تعكف على كتاب. لم يكن وجهها مألوفاً، لكنّ طريقتهما في التشبّث بالغلاف أثارت فضول أماني. اجتاحتها شعورٌ غامضٌ تجاهها.

اتّجهت صوب رفّ الروايات، تناولت كتاباً ثمّ أعادته؛ كانت حائرة، وعيناها التائهتان تمسحان الأغلفة.

رفعت شجن طرفها، فسرت الدهشة في عروقها؛ لم تتوقّع رؤيتها هنا. إنّها الفتاة ذاتها التي رأتها بجواره ذاك اليوم، حين اختصر العالم في وقفتهما.

حدّقت إليها تحاول استيعاب تقاطع المصائر العجيب. ورغم وخز الغيرة، قرّرت الاقتراب بخطى ثابتة، وقالت: «أراك حائرة.. هل أساعدك؟»

رفعت أماني عينيها وابتسمت بخجل: «نعم، في الحقيقة لا أحسن الاختيار».

«هل الكتاب لك؟»

«لا، لشخص سأرتبط به».

رفّ جفن شجن، لكنها تماسكت: «وهل تعرفين ما يفضل قراءته؟»

هزّت رأسها: «ليس تماماً لكنني أعرف أنه يحب الكتب».

مَشَتْ شَجْنٌ نَحْوَ الرِفِّ وَقَالَتْ: «انْتَقِي لَهُ كِتَابًا يَشْبِهُ الْاعْتِرَافَ
الْأَوَّلَ... يَشْبِهُ الْحَبَّ فِي بَدَايَاتِهِ».

تَنَاولَتْ كِتَابًا وَنَاولَتْهَا إِيَّاهُ: «جَرِّبِي هَذَا».

قَلْبَتَهُ أَمَانِي بَيْنَ كَفَّيْهَا وَسَأَلَتْ: «هَلْ قَرَأْتَهُ؟»

أَجَابَتْ شَجْنٌ وَعَيْنَاهَا سَارِحَتَانِ: «نَعَمْ، حَفَظْتُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ».
ثُمَّ ابْتَسَمَتْ وَأَرْدَفَتْ: «إِنْ لَمْ يَحْبِكْ بَعْدَ هَذَا الْكِتَابِ... فَالْمَشْكَالَةُ
لَيْسَتْ فِي الْكِتَابِ».

ضَحَكَتْ أَمَانِي وَشَكَرَتْهَا، لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهَا اخْتَارَتْ كِتَابَهَا مِنَ الْفَتَاةِ
الَّتِي يُحِبُّهَا رَاشِدٌ. وَحِينَ هَمَّتْ بِالْمَغَادِرَةِ، التَفَتَتْ بِلُطْفٍ وَقَالَتْ:
«لَمْ أَسْأَلِكِ عَنْ اسْمِكَ».

ابْتَسَمَتْ شَجْنٌ بِهَدْوٍ: «أَسْمِي شَجْنٌ».

ثُمَّ سَأَلَتْهَا بِصَوْتٍ خَافِتٍ وَهِيَ تَعُودُ لَتَجْلِسَ: «وَأَنْتِ.. مَا
اسْمُكِ؟»

أَجَابَتْ مِبْتَسِمَةً: «أَمَانِي».

تَبَادَلَتَا ابْتِسَامَةً مَقْتَضِبَةً، كَأَنَّ مَا بَيْنَهُمَا لَا يَحْتَمِلُ الْمَزِيدَ، ثُمَّ
مَضَتْ كُلُّ مَنَّهُمَا فِي سَبِيلِهَا.

غَادَرَتْ أَمَانِي الْمَكْتَبَةَ، تَحْمِلُ كِتَابًا يُشْبِهُ الْاعْتِرَافَ بِالْحَبِّ.
أَخَذَتْهُ لِيَقِينَهَا أَنَّهُ يَحِبُّ الْكِتَابَ. فَكَانَتْ كَمَنْ يُخَبِّئُ قَلْبَهُ دَاخِلَ
غِلَافٍ.

تَسَمَّرَتْ شَجْنٌ فِي مَكَانِهَا، وَعَيْنَاهَا مَسْمَرَتَانِ بِأَثَرِ خَطَوَاتِ
أَمَانِي. كَانَتْ الْغَيْرَةُ تَتَهَشَّرُ رُوحَهَا بِصَمْتٍ، وَتَخْدِشُ كَبْرِيَاءَهَا.
شَعُرَتْ بِالْحِكَايَةِ تَمَرُّ بِجَوَارِهَا، تَهْمَسُ بِاسْمِهَا، ثُمَّ تَتَجَاوَزُهَا إِلَى
سِوَاهَا.

لم يكن اللقاء محض مصادفة، بل طعنة ناعمة؛ أن ترى امرأة تُهدي كتاباً لرجلٍ تجهل ما يعنيه في قلوبٍ أخرى. لم تدرِ شجن تفاصيل ما يحدث، غير أنَّ غيرَ أنَّ غيرَ الأنثى حين ترى ما يشبهها يُمنح لغيرها.. موجعة. حدّقت في الغلاف، كأنها تشهد سرقة صامتة لا شهودَ لها.

استعادت المشهد في مخيلتها: امرأتان في مكانٍ واحد؛ إحداهما تمضي بقلبٍ يجهل ما يحمله، والأخرى تمكث بقلبٍ يدرك تمامًا ما فاتته. لا ذنب لهما، وإنما هي الأقدار حين تتبدّل. تردّدت في سريرتها عبارةً أبت أن تهدأ:

«بعض القصص لا تحتاج إلى بطلين... لتغدو مأساة».

انتصفت الشمس كبد السماء، وفاح البيت بعبق السمن واللحم الطري؛ رائحة تسري في الممرّ توحى بأن غداء اليوم مختلف، وأن ما سيجري على المائدة قد يغيّر ما بعدها.

في المجلس، بُسط الحصير فوق السجاد الأحمر، وتوسطته المائدة الأرضية: صحن كبير من الأرز الأبيض تكمله قطع اللحم اللامعة بالدهن، وتحفّه أطباق المرق والسلطة واللبن البارد، فيما تغفلت روائح التوابل واللحم المطهوّ بين الأواني ممتزجة بحرارة الطعام.

تصدر أبو فارس المجلس مستقيم الظهر، عاقداً ساقيه، وعيناه تضبطان حافات المائدة كمن يزن الكلام قبل البدء. وعن يمينه جلس راشد مكتفياً بالنظر إلى الصحن الكبير، يلامس حبات الأرز بطرف أصابعه، لا يبدأ الأكل قبل إشارة صاحب البيت كما جرت العادة، أما عن يساره فجلس فارس مترقباً. مدّ أبو فارس يده إلى الصحن وقال: «هيا، لنبدأ الأكل».

حينها امتدت الأيدي في آن واحد. طفق راشد يلتقط الأرز، يأكل زهيداً وعيناه على موضع يده، لكن في مقلتيه بحرّاً يموج بالحركة. بينما اقتطع فارس لقيمات صغيرة من اللحم والأرز يلوكها بوتيرة ثابتة. خيم صمت ثقيل لا يقطعه إلا صوت المضغ، ونظرات حذرة، وانتباه مشدود كأن الجميع في انتظار أمر جلل. ظلّ كل واحد يأخذ من الجهة الأقرب إليه، فبدا الطعام يتناقص من أطراف الصحن أكثر من قلبه، والبخار يتصاعد سحابة صغيرة تذوب بين الوجوه.

ومع هدوء حركة الأيدي، كفَّ أبو فارس يده، ومسح أصابعه
بطرف المنديل، ثم قال بصوت منخفض لكنه حازم:
«يا راشد، هل فكّرت في موضوع الزواج؟»

جمدت يد راشد فوق الصحن، ورفع رأسه مثبتاً نظره على
حافة السجادة: «فكّرت» صمت قليلاً: «أنا موافق».
انتفض رأس فارس، وراحت نظريته تتردد بين الاثنين: «أيّ
زواج؟»

لم يلتفت أبو فارس، بل ترك السؤال معلّقاً للحظة، ثم قال
بثبات: «أماي».
أسند كفّه إلى ركبته، وأضاف دون أن يلتفت إليهم: «بعد ثلاثة
أيام».

أحدثت العبارة في المجلس أثراً لم يظهر إلا في الأيدي التي
تباطأت، والوجوه التي زاغت عنها النظرات. شلّت يد فارس،
ووضع ما بين أصابعه جانباً؛ هي اليد نفسها التي عجز عن
مدّها يوم الفرق. ذكرى ظلت طيّ كتمانها، ولم يجرؤ على البوح
بها لراشد؛ إذ أيقن أن كشفها سيُعكّر صفو مصاهرة أخته، فأثر
الصمت وتركها حبيسة صدره.

استأذن فارس وغادر المجلس، دون أن يستوقفه أحد بسؤال
عن وجهته. استأنف أبو فارس طعامه كمن يعيد الحكاية إلى
مسارها؛ التقط لقمة دون أن ينظر إلى راشد، وقال:

«ثلاثة أيام تكفي. سيكون الزفاف صامتاً؛ بلا طبل ولا صخب،
يأكل الناس وينصرفون. ستتولّى أمّ فارس تجهيز العروس،
وسأتكفل بك. بعدها، تغادران القرية بعض الوقت، ريثما تخرس

الألسن ويطوي النسيان سيرة الحريق. حينها فقط، ستعودان
لبدء حياتكما على أرض ممهدة».

قطب راشد حاجبيه مصدومًا «نسافر؟ ولماذا بعد الزواج
مباشرة؟»

مال أبو فارس نحوه وقال: «لأن البقاء وسط الأعين المترصدة
والأفواه المشرعة سيحيل أيامكما جحيماً. السفر وقاية لا فرار
يا راشد؛ ابدأ بعيداً عن النار قبل أن تلتهم ما تبقى. وحين تهدأ
النفوس، ستعودان إلى قرية تستقبلكما بالترحيب لا الاتهام».

سكن راشد، وقد تردّد في صدره صدى الكلمات أشد من
ضجيج الحريق. لمس في نبرة أبي فارس تحذيراً مُغلّفاً بالمنطق؛
كلمات سدت أبواب الرفض، ولم تترك أمامه سوى ممر إجباري.
ترأى له خياران: بقاء قد يفضي به إلى السجن، أو سفر
مجهول النهاية. ساوره خوف من عواقب البقاء لا من الرحيل،
فأوماً برأسه مختاراً أخفهما ألماً، وإن جهل المآل.

في تلك اللحظة، أطبق الحزن عليه؛ ينهش كتفيه، ويملاً صدره
بضيق خانق. تعلقت عيناه بمدى بعيد لا يراه سواه؛ إذ تقف شجن
في ذاكرته صورةً باهتة، لكنها الوحيدة التي تمنحه دفئاً. كان حبها
يخبو في قلبه شمعاً يبتلعها الظلام، وهو عاجزٌ عن حمايتها من
الانطفاء، متذكراً وعده لها، وكيف يواريه القرار المفروض عليه.
أحسّ بروحه تُسَل من بين جنبيه شيئاً فشيئاً، وأن المنتزع منه
أكبر كثيراً مما يُبقى له.

نهض أبو فارس بعدما فرغ من غدائه مغادراً المجلس، فبقي
راشد وحيداً يحدّق في الفراغ، مراقباً انسحابَ حياته من بين

يديه . لم يكد يلتقط أنفاسه حتى انفرج الباب، ودلفت أمانى تحمل كتاباً .

رمقته لحظة ثم أطرقت خجلاً، وقالت بصوت مرتجف: «اشتريته لك.. أرجو أن تُحبّه».

تتأهى صوتها إلى سمعه كأنما يأتيه من بعيد؛ المسافة ذاتها التي تقبع فيها شجن بقلبه، تراقبه بصمت لا يسمعه سواه.

لمح في وجه أمانى بعض ملامح شجن، فازداد قلبه اضطراباً، واختلطت الصور بين الحاضرة والغائبة؛ بين يدٍ تقدم الكتاب، وأخرى أمسكها يوماً في المكتبة. مد يده وأخذ الكتاب، كأن بين الغلاف وراحته بحرّاً من الحزن.

تردد لحظة قبل أن يتمتم: «كتاب؟»، ثم أضاف مغالباً غصة في حلقه: «شكراً يا أمانى».

ابتسمت وغادرت، كأن الكتاب آخر الشهود على حب يحتضر في داخله، يعجز هو عن إنقاذه.

قبل أن يشرع في البحث عن ماء، طفقت عيناه تمسحان الجبل من السفح إلى القمة، كأنه يواجه كائنًا صامتًا في قلب الجزيرة، تحيط به نتوءات كالسكاكين الحجرية. كان صوت البحر يخفت ويعلو مع الموج. وقف أمام صخرة عريضة، تلمّس سطحها الأملس، ثم التقط حجرًا حادًا، وتنفّس بعمق، قبل أن يشرع في حفر خطوط حاسمة، كأن أصابعه تعرف كيف تُخطّ الرسائل على الحجر. رسم موجات متلاحقة، وثلاث قمم بحرية يفصل بينها خط أفقي؛ لتوحي بأن البحر ها هنا ليس زينة، بل نداء حياة، وإشارة تحمل سرّ الخلاص والنجاة لمن سيأتي بعده. ثم خطّ خنجرًا بحدّ مشروح، وإلى جانبه رسم خاتمًا بانحناء، دائرة يتدلّى من جانبها خط صغير كندبة غائرة. وأخيرًا كتب:

«دماؤنا ليست لنا»

مرّر أصابعه على الرموز، موقنًا أنها ستبقى، وإن جرفته الأمواج، أو طمرته الرمال، أو مرّ عليه الزمن. ترك الصخرة خلفه أثرًا لمن يعرفه، ورسالة لابنه إن وصل يومًا إلى هنا؛ إذ ساوره شعور بأن موته بات أقرب من نجاته. سار بمحاذاة الجبل، والنهار يوشك أن ينقضي، والشمس تلسع بضرباتها كتفيه، والملوحة تتسلّل من شفّتيه إلى حلقه اليابس. ثقلت خطواته، وراحت عيناه تمسحان الأرض والصخور كمن يفتّش عن حياة بين الرماد.

واظب على البحث عن الماء. جرّ قدميه صوب منحدرات، ونبش التراب محاولًا الوصول إلى مبتغاه، لكنه لم يجد سوى

خليط من الرمل الجاف والصخور والطحالب، ولا أثر لماء عذب. تابع تسلقه بين نتوءات الصخور، يمدّ يده إلى تجاويف صغيرة، فيلبي رطوبة مالحه، يذوقها بطرف لسانه قبل أن يمجّها سريعاً. تحامل صاعداً نحو قمة صخرية أعلى، وقد أخذ الليل يتسلّل إلى أطراف النهار، ولم يجد في الشقوق الصغيرة إلا ماءً آسنًا لا يروي ظمأً. تمتم: «ليس هذا ما أنجوبه».

تناول رمح الصيد ويَمّ شطر البحر، غرس قدميه في الرمل، مترصداً ظل السمك. طعن مرة فأخفق. أعاد الكرة، فظفر بسمكة تتلوّى. عاد إلى موضع النار، وضع صيده على الجمر، وشواها حتى اسودّ جلدها. أكل نصفها؛ لقمة تقيم صلبه لا أكثر.

التفت صوب النار؛ إذ عنّت له فكرة، حسبها الفرصة الأخيرة للنجاة. التقط خشبةً طولها ذراعٌ، ودسّ طرفها في الجمر حتى اتّقدت. تراقص اللهب أمام عينيه، فحاطه بيده قليلاً؛ كي لا تطفئه الريح. شرع يرتقي الجبل، يتشبّث بيدٍ بالصخر، وبالأخرى يقبض على الشعلة. كانت الرياح تتناوب بين إذكاء اللهب وخنقه. وحين بلغ موضعاً مرتفعاً، ركّز الخشبة بين حجرين، وانتظر.

البحر ممتدّ، لا شراع يلوح، ولا قارب، ولا أثر لحياة. مكث بضع دقائق، ثم هبط. كرّر المحاولة ثانية، بيّد أنه لفّ طرف الخشبة هذه المرة بليفٍ نباتي وجده يابساً. أشعلها من جديد، وارتقى نقطةً أعلى. ثبّتها، وحدّق في المدى... فلا حياة تعبر من هنا.

وفي المحاولة الثالثة، كان الليل قد أطبق، والظلام يغشى الجبل والشاطئ. نصب الشعلة في أعلى نقطة بلغها، وركّزها

بإحكام. نظريّم البحر وهتف بصوتٍ مبحوح: «إن لاح شراعٌ من بعيد، فليعلم أن ها هنا روحًا تتشبّث بطرف حياة».

طُفق يهبط، وخطاه تتأقل فوق الصخور. وعند حافةٍ موحلة، زلّت قدمه بفتةً، فارتطم رأسه بحجرٍ ناتئ ارتطامًا حادًا؛ فارتجّت الدنيا في عينيه وتهشّمت الصورة. سال الدم على صدغه حارًا يناقض برودة الليل، وخرّ على الأرض سقوطًا مدوّيًا. وبإرادة منهكة تتشبّث عبثًا بالبقاء، همس: «ماء». ثمّ غاب وعيه.

ظلّ مطروحًا قرب السفح، جسده ممدّد، كجثة مهملة على شفا النسيان. في القمّة، النار تضطرم وتتفت دخانًا كثيفًا. وفي السفح، بقايا عظام السمكة ملتصقة بالرماد، والموج يكرّ ويفرّ بإيقاع ثابت. كان الدخان لائئًا من البحر، بيد أنه لم تلتقطه عينٌ بشرية.

بدت السطور أمامه باردة، لا أثر لدفعٍ فيها، لكن صوته
قرأها كما لو أن شجن هي من تقولها. لم تكن الكلمات منها،
لكن وقعها عليه كان كأنما خرجت من فمها، بحزنها، وبنبيرتها
التي يعرفها. أغمض عينيه هنيهة، وأعاد الجملة الأخيرة، يختبر
وقعها لو جاءت من مكان آخر، على لسان غيرها. وحين فتحهما،
لم يجد إلا كتاباً بين يديه؛ هديةً جاءت من أمانى.

مدّ يده إلى الغلاف، مسح حافظته، فأحسّ ببرودة زحفت
إلى صدره، وتسَلَّلت من أطرافه حتى استوطنت قلبه. لم يشأ
الاستخفاف بمشاعر أمانى؛ فقد انتَقَتِ الكتاب بعناية، وربما ظنَّت
أنها بذلك تقترب منه خطوة. حاول إقناع نفسه بالرضا بما كتبه
القدر، وأن يتعاطف معها بوصفها قدره المحتوم. لكن قلبه، كلما
التفت إلى الصفحات، وجد طريقه إلى شجن.

إلى جواره، ينام فارس، فجأةً أيقظه نباحٌ آتٍ من بعيد. جاء
الصوت متقطعاً في البداية، تتكسر أنفاسه بين كل نبحةٍ وأخرى.
رفع راشد رأسه عن الكتاب، وأصغى. لم يكن هذا النباحُ غريباً،
بل حمل في حنجرتِه رماذٍ ليلةٍ لم ينسها: ليلة موت الطفل
المشلول في الحريق.

اشتدَّت حدَّةُ النباح، ودنا الصوت أكثر، فوضع الكتاب جانباً
وقصد نافذة الحجرة المطلّة على الخارج. من وراء الستارة،
أبصر الكلب عند الباب، متسمّراً في مكانه تحت ضوء فانوسٍ
معلّق فوقه، عيناه تشعّان في العتمة، ونباحه يعلو كأنه يوبّخ الباب
الموصد.

في تلك الأثناء، خرج أبو فارس صوب الباب، قابضاً على رمحٍ لامع النصل. تقدّم بخطواتٍ وثيدة، يده مشدودة على الرمح، وعيناه مثبتتان على الكلب الذي لم يتراجع. بدا الموقف كأن ثأراً قديماً تجدد: أعينٌ حذرة، وصمتٌ مشدود، وكلٌّ منهما يتربّب حركة الآخر.

دنا أبو فارس أكثر، ثم انقضّ بغتةً، غارساً النصل في خاصرة الكلب.

نبحةٌ عالية شقّت سكون الليل، وارتدّ صداها بين البيوت. راشد، من خلف النافذة، شعر ببرودةٍ تسري في عروقه، ورأى الدم يلعب على التراب، والكلب يحاول التراجع وهو يئنّ، ثم رفعه أبو فارس على سنان الرمح كمن يحمل صيداً، وألقاه في زقاقٍ جانبي. وبقيت بضع قطرات على الأرض تمتصّها التربة.

من طرف الزقاق، لاح جابر المجنون؛ كتفاه متقوّستان، وفي عينيه لمحةٌ اتهام خفيّة. وقف على مبعده، نظر إلى أبي فارس، ثم إلى الدم الذي لم يجفّ بعد، وتمتم بصوتٍ هادئ كأنما يحدث نفسه: «النباح لا يُخيف، لكنه قد يوجّه سهام الاتهام».

لم يغيّر أبو فارس وقفته. ردّ دون أن يشيح بوجهه: «عن أيّ تهمةٍ تتحدث؟ هذا كلبٌ شرّس، حاول مهاجمتي مراراً».

ابتسم جابرُ المجنون ساخراً، وتمتم وهو يتابع سيره: «كلّنا مرضى نفسيّون في نظر أولئك المرضى النفسيّين». ثم توارى بين الأزقة.

لما عاد أبو فارس وأغلق الباب، ابتعد راشد عن النافذة وعبر الممرّ الداخلي حتّى وصل إلى الفناء، ثم تقدّم لملاقاته، وسأل بحدة: «لِمَ قتلتَه؟»

توقّف أبو فارس، ونظرَ إليه ساخطاً: «منذ جئت بيتي وهو
ينبُح عند الباب، كأنّه يقولُ إنَّكَ مُشعلُ الحريقِ وقاتلُ الطفلِ
المشلول. أتريدُ دليلاً آخرَ لإدانتِكَ؟»

قبض راشد على يده: «كان مجرد كلب».

اقترب أبو فارس خطوة، وقد ازدادَ صوته صلابة: «الكلبُ يا
راشد يعرفُ المتسبّب في موتِ الطفلِ المشلول. ولو تركناه للفت
الأنظارَ إلينا. أنا أدفعُ التهمَ عنكَ... وأنتَ تعترض؟»

سكت راشد، وقد امتزجت ملامحه بالصدمة والغضب. شعر
بأن الفناء ينكمش من حوله، وأن صوته المبحوح يتعثر في
حنجرته، في حين يختلط نباحُ الكلب وأنينه العالقان في أذنيه
بصمت الليل. كان صدى صرخته الأخيرة يجلجل في داخله،
وصورة الكلب الممدّد بلا ذنب تحفر في ذاكرته جرحاً عصياً
على النسيان. لم يعد البيت كما كان لحظة دخوله.. بل صار
شيئاً آخر: فيه حارسٌ يترصد، وسلاحٌ يقطر دمًا، وجثةٌ ملقاة
في الخارج تأبى أن تُمحى من الذاكرة. ظلّ واقفاً للحظات يتنفّس
بصعوبة، ثمّ انسحب بخطواتٍ مهزومة نحو الحجرة، مخلفاً وراءه
الفناء مسرحاً لجريمةٍ ارتكبت أمام عينيه، وقد عجز عن إيقافها.

لم تكن الحجرة سوى صدَى لصمتها. فعلى الطاولة الصغيرة كتب متناثرة، تشهد على محاولات يائسة للفرار من الغياب؛ بعضها متراكم، وبعضها شُرِّعت صفحاته ولم تُغلق. تكوَّرت شجن قرب الرفِّ، تطوَّق جسدها بذراعيها، وتحاولُ لملمةً شظايا قلبٍ انكسر منذ أيام طويلة، باحثًا عن جوابٍ لا يجيء.

تمدّدت لُجَيْنٌ على الفراش، تُراقبها بعينين ساكنتين يلمع فيهما بريقٌ خافت؛ كأنما تعي الحكاية قبل سردها، وتترقب اللحظة التي تفيض فيها الكلمات.

قالت شجن، والكلمات كصخرةٍ عالقةٍ في حلقيها: «رأيتها اليوم».

رفعت منيرة رأسها عن الكتاب، وضيقَّت عينيها ناظرةً إليها: «مَن؟»

تهدّت شجن، وأطرقت هنيهةً ثم رفعت بصرها: «تلك الفتاة التي رأيتها معه أمام المكتبة.. كانا معًا حينذاك. أما اليوم فكانت وحدها، جاءت إلى المكتبة لتختار كتابًا، فعرضت عليها المساعدة، فأجابت بأنها تبحث عن كتابٍ لرجلٍ سترتبط به. لا أعلم إن كان هو... لكن شيئًا في صدري تفتّت».

أغلقت منيرة كتابها ونحّته جانبًا، ثم اعتدلت: «وما أثر ذلك فيكِ؟»

هزت شجن كتفيها، وصوتها يتهدّج: «شعرت بالغيرة.. بالخوف.. وبأنني بلا أهمية. لا أعلم لمن الكتاب، لكن وقوفها

هناك جعلني أوقن أنّ كلّ ما أنتظره يتبخّر. الرجل الذي علقت به قلبي ما يزال حبيسَ الغياب، ولا أجد تفسيراً... أنسحب؟ أكان يكذب عليّ ليُبقيني معلقة؟ أم أن طارئاً حدث له؟»

قالت منيرة بنبرة هادئة: «من يختارك... لا يتركك تتاكليين. التعلّق كشرب الماء المالح: تظنين أنك تروين ظمأك، بينما تزدادين عطشاً».

نكّست شجن رأسها، ومسحت بيدها على شعر لُجين التي دنت منها ووسّدت رأسها في حجرها. ثم همست: «أحبيته... وفي حضوره شعرتُ بالحياة حقاً. كيف أتركه الآن دون أن أفقد جزءاً مني؟»

أجابت منيرة: «قد يكون الموت مرةً أهون من الموت ألف مرة. والحزنُ العابر أرحم من حزن مقيم».

رفعت شجن طرفها، والدمعُ يحتبسُ في مآقيها متشبّثاً بالرمق الأخير قبل أن يفيض ويهمي: «لُجين لا تفهم ما أقول.. لكنها لا تغدر. أتعلمين؟ هي على الأقل لا توهمني ولا تعدني ثم تختفي».

قالت منيرة: «لأنها لا تعرف الكذب ولا الخداع.. وهذا ما تستحقينه: شخص لا يختفي حين يشتدّ بك الضعف».

خيم الصمت هنيهة، ثم أردفت منيرة، وعيناها تفتّشان في ملامح شجن عن طمأنينةٍ مفقودة: «لملي شتاتك يا شجن... فإن عاد وجدك ثابتةً وقوية، وإن لم يُعد تكوني قد استرددت ما سلبه الغياب منك».

لم تُجب شجن، وراحت تمسح على فراء لُجين، كأنما تستمدّ من لمستها عزماً.

انفتح الباب قليلاً، ودلفت الأم تحمل صينيةً بها حلوى وشاي،
وضعتها برفق على الطاولة، وقالت: «لا تطيلا السهر».
تناولت شجن الصينية بابتسامةٍ متعبة، وهمست: «حسنًا يا
أمي».

أجالت الأم بصرها في الكتب المبعثرة، ثم انصرفت دون أن
تقول شيئاً.

التفتت منيرة نحو شجن لتؤكد وصيَّتها: «تأخّر الوقت..
سأدعُك الآن، ولكن عي ما قلته جيِّداً».

غادرت، كأنما سلبت معها آخر عزاء لشجن، تاركةً في الروح
فراغاً يطبق على بقايا الصبر. مكثت شجن وحيدة تُحدِّق في
الكتب، وإلى جوارها أُجِين رابضةٌ كظلٍّ وفِيٍّ، تحرس ما تبقى
من قلب أضناه الوجد. تسالت الوحدة بين ضلوعها كصقيع ليلٍ
سرمديٍّ لا فجرَ له؛ توقنُ أنَّ الصبحَ آتٍ، بيدَ أنَّ الغيابَ أطول،
وأنَّه مقيمٌ فيها كجرحٍ ينكأُ كلما رامتِ النسيان.

دخل الحمام كأنه في حضرة اعترافٍ لا شاهد فيه سوى ماءٍ ينساب، ومرآةٍ تواجهه بلا رحمة. أدار الصنبورَ يرقبُ الماء، ثم رفع رأسه. لم يعرف الرجلُ في المرآة تمامًا، أو لعله عرفه أكثر مما ينبغي فلم يحتمل النظر.

وقف قبالة المرآة، فشطّر الضوء المتسلل من النافذة الجانبية وجهه عالمين: نصف في النور، ونصف في الظل. في الشق المضاء بانّت عين بنية غائرة، يحيط بها هذب كثيف لا يخفي شحوب الإعياء، ونصف جبين عريض تخذد بخطوط دقيقة من سهر طويل، وأنف مستقيم، وخدّ مشدود، ونصف شفيتين دقيقتين تتحني عند زاويتيها انحناءة لا تكاد تُرى حين يتكلم، ولحية كثة. أمّا النصف الغارق في الظل، فبدت الملامح فيه كأنها تطل من خلف زجاج رطب: عين أكثر قتامة، ونصف فك يبدو أصلب من حقيقته؛ نصف وجه آخر يلازمه، لا يجادله بل ينازعه حقيقة وجوده.

بلّل أصابعه وخلّل بها لحيته، ثم قبض على الموسيقى. دنا من بشرته دنو المرء من سرٍّ يخشى افتضاحه. مرّر النصل على مبسم اللحية، فسمع كشطًا حادًا.

حلّق الشارب أولًا، فتكشفت زاوية فمه علامةً فارقة، ثم انحدر صوب الوجنتين، ليتجلّى وجهٌ أشدّ وضوحًا مما خال. كان وسيماً بعمق، وسامة رجل ناء بحمل الأسئلة، فلم يعرف الغضب، وحين أحبّ، أحبّ حدّ الانكسار.

أوقف الماء، ومسح ما تبقى براحته. حدَجَ صورته ثانيةً وهمس: «مَن ذا الذي سيخرج إلى يوم لا يخصّه؟» مسح المرأة بطرف المنشفة، فبقي نصف الوجه مُضاءً والآخر معتمًا، كأن المرأة تلقّنه درسًا: لن تكتمل ما دمت مكسورًا.

عاد إلى حجرته، وفتح الدولاب، وأخرج ثوبًا نظيفًا. استبدل بثوبه المتغضّن آخر مهندمًا، وانتعل صندله، ثم حمل كيسًا وخرج. كان الصباح استتبّ في الطرقات، والسوق يزفرُ أنفاسَ الازدحام الأولى، ودكاكين الأقمشة تشرع أبوابها عارضة أثوابًا ناصعة على واجهات خشبية. انسَلَّ بين الوجوه كأنه لا ينتمي إليها، ووقف أمام دكان للأزياء الرجالية الفاخرة. أشهر البائع شماغًا أحمر وهتف بحماسة: «هذا سيليق بك».

أومأ راشد دون تعليق، وتحسّس نسيجَ الشماغ خيطًا خيطًا، كمن يختبرُ متانة قيدٍ سيعقُد به يومًا لن ينفلت منه. سأل البائع باسمًا: «للعريس؟»

خرج صوته خافتًا: «نعم، للعريس».

وضع الشماغ في الكيس، وأردفه بعقالٍ أسود ناعم، نقدَ البائع الثمنَ وانصرف.

عندَ متجر الثياب وقف، فركَ القماشَ بينَ أصابعه، وانتقى ثوبًا أبيض مُطفأً، وتفحّص طول الكمّ بعينٍ خبيرة ألفت مثل هذا الرداء، ثم أشار للبائع بطيئه ووضعه في الكيس.

في دكان الأحذية جرّب صندلًا، وخطا به خطوتين. لم يبدِ اعتراضًا، دفعَ الثمنَ وغادر.

أما العطر.. فكان الخيار الأصعب. دنا من طاولة زجاجيّة اصطفّت عليها قوارير ذات أغطية نحاسيّة.

شرح البائع: «هذا نفاذ، وهذا هادئ، وذاك يبقى أثره طويلاً».

ردّ راشد: «أريدُ عطرًا لا يترك أثرًا».

ابتسم الرجل غير مدرك المغزى، ثم ناوله قارورةً تحوي زيتًا خفيفًا، يفوحُ بعبقِ الخشبِ ونفحةِ التوابل.

نزع راشد السدادة، واستنشَقَ عبيرَ العطرِ برفق، ثمَّ أحكمَ إغلاقَ القارورةِ ودسَّها في الكيس مع بقية الأشياء. غادرَ ميممًا شطرَ الزقاق، والشمسُ أخذتْ ترتفع. في الجهةِ المقابلةِ كانتِ المكتبة، حيثُ أَلِفَ قلبُه الوقوف. ما عقدَ العزمَ على المرورِ بها اليوم، بيدَ أنَّ قدميه ساقطاهُ إليها خطوةً تلوَ أخرى، كأنَّ طريقَ السوق قد عُبِدَ ليفضِي بهِ إلى ذلك البابِ حصراً.

جمدَ قبالةِ الواجهة: زجاج يعكس وجوه المارة، ومن خلفه تراءتْ شجن. لمحها تتحرَّك عند الرفِّ الثالث، قبلَ أن تلفت انتباهه يدها الممتدَّة إلى كتابٍ أزرق. لم تكن تتكلَّفُ الأناقة، إلا أنها بدت من الحُسن ما يكفي ليشعر أن الكون كله اتَّسع من حوله، ثم انحسر ليضيّق في عينٍ واحدة: عينه.

كانت هناك، وكثفها اليسرى أقرب إلى الضوء، مُسبلةً حجابها الأسودَ وعباءتها. وشتَّ عيناها بحزنٍ دفين. أدنت الكتاب قليلاً، وتتشبَّعت صفحاته كما تفعل كلما رامت استكشاف كتابٍ جديد. حينئذ، أيقن أنَّ العطرَ الذي ابتاعه للتو لم يكن سوى وهمٍ أمام ما ينشده حقاً؛ كان يقتضي أثرَ دفءٍ كفَّها، وعبقٍ يدها وهي تحتضن يده. بينما امتدَّت يدهُ إلى المقبض، اختلجت عضلةً دقيقةً في ساعده كأنما تعي ما سيكلِّفه الدخول. أمعنَ في النظر إلى الزجاج؛ كان انعكاسُ الطريقِ يوشى وجهها، ويشطرُّ ملامحها

بخطوطٍ عابرةٍ كأطرافٍ راکضة. باغتته حقيقةً مفادها أنّ المسافةَ بينهما ليست بُعداً مكانياً، بل حياةً كاملةً تحولُ بينَ ضفّةٍ وأخرى. نكسَ يده، واستند بكتفه إلى الجدار. ودَّ لو ناداها. تذكّرُ وعوده؛ تلك الجملة حُبستْ في صدره حينَ كانا معاً: «ليس في قلبي ما يكفي لأقسمه بينك وبين سواك».

تذكّر قولها: «أنا نضجت بالخوف لا بالسنين». وتذكّر كيف خرجت من المكتبة وهو يظنّ أن العالم ابتدعَ طريقةً جديدةً للحياة، ليدرك بعدها أن عليه تعلّم العيش وحيداً.

مرّت أمامه امرأة تحمل كيسين من قماش، فصدّمته بكتفها عرضاً؛ اعتذر وتحنّى جانباً. كانت شجن قد انزوت في الركن ذاته الذي شغله يوماً، مسندةً رأسها إلى راحتها، مستغرقةً في القراءة. عاودَ النظرَ علّها تلمحُ طيفه في الزجاج، أو تشعر بوجوده، فتقوم وتخرج إليه. غير أن هذا الاحتمال أخافه: إن خرجت الآن، فماذا سيقول؟! ماذا عسى أن يقول رجلٌ مرتبطٌ بامرأة لا ذنب لها؟!

تجرّع غصّة الحنين، وأشاح بوجهه عن المكتبة.. بيدَ أن عينيه خانتاه، فاختلستا نظرةً أخيرةً خاطفةً عبّر الزجاج. لمح شجن ترفع رأسها بغتة. وجف قلبه. أراته؟ أم أحسّت به؟ لا يدري.. جل ما أدركه حينذاك أنّه مضى دونَ التفات.

في الزقاق الضيق احتدمَ الزحام، وتعالّت أصواتُ الباعة، وامتزجت الروائح: فاكهة، وخبزٌ طازج، وتوابل. ألقى نفسه يبكي. انهمر الدمعُ مدراراً، كأن كل دمعَةٍ تودّعُهُ ذنباً لا يد له فيه. كفكف دمعته بكمّته، وواصل المسير، محتضناً الأكياس كمن يوارى نعشاً صغيراً عن الأعين.

لدى وصوله بيت أبي فارس، توقّف دون العتبة، ورمق السماء بلا مسوّغ. كان الغيم رقيقاً، والزرقة ما تزال وادعة. فجأة، حلق فوق السطح غرابٌ أسود، في جناحه الأيمن ريشةٌ بيضاء. لم ينق، بل لفّ نصف دائرة، ثمّ ضمّ جناحيه كالمتهبّ للهبوط، قبل أن يستأنف الطيران ويختفي خلف الحافة. شيعه راشد بنظرة حتى غاب. لم يفكر في تفسير، غير أنه استشعر أنّ قدرًا ما يقتفيه، يضيّق عليه الخناق، دافعًا إيّاهُ قسرًا نحو مسارٍ لا يبتغيه.

دخل البيت، ووضع الأكياس على طاولة جانبية في الفناء، ثم جلس. فضّ الكيس الأول، واستخرج الشماع الجديد؛ بسطه على ركبتيه، وتلمّس طرفه الموشّى بخيطٍ أحمر دقيق، قبل أن يطويه بعناية ويعيده إلى الكيس. تناول الكيس الثاني: الثوب الأبيض، معدّ لليلةٍ جافاها الحبّ. أغلقه، وأخذ قارورة العطر، نزع سداداتها، وقطرَ قطرةً على رسغه. تضوّع العبير، فأحكم إغلاقَ القارورة وأعادها إلى الطاولة، ثم أطبق بكفه عليها كمن يغطّي جرحًا نكأه الألم فوق الاحتمال.

أغمض عينيّه، فتردّد في رأسه نباح بعيد ينبعث من أغوار الليل، محتجّجًا على نهارٍ يهْمُ بالبزوغ. جاهدَ لإسكاتِ الصوت، وفتحَ عينيّه، لتتجلى أمامه صورةُ المكتبة والزجاج.. وشجن. همسَ لنفسه بعبارةٍ وحيدة:

«سأمضي كأنّني اخترت، وإن كنتُ مكرهاً».

ذهب إلى الحجرة، وجلس على الفراش. تسلّل عبر النافذة شعاعٌ شمسي ضئيل، شطر الحجرة نصفين كما شطرت المرأة

وجهه آنفًا. وعلى الطاولة المجاورة منديلٌ طويٌّ بإهمال، يجهل صاحبه. شَخَصَ ببصره نحو السقفِ هُنيهةً، ثمَّ عاودَ النظرَ إلى المنديل. لا وقتَ اليومَ لتأويلاتٍ تتكاثرُ في لحظاتِ الوهن. غداً عليه ارتداءُ البياض، واعتصابُ الرأسِ بالشماعِ الجديد، والمضيُّ قُدُماً نحو ما يسمّونه زفافاً. سيقفُ جوار أُماني، مبتلعاً كلماتٍ ادّخرها لشجن. سيوزّعُ الابتساماتِ على الحضور، ثمَّ يأوي إلى غرفته؛ حيثُ القارورةُ ترتقبُ إصبعاً تسرُّ إليها بالحكايةِ كاملة.

تأرجحَ الفانوسُ معَ نسماتِ المساءِ، راسمًا بوجهه ظلالًا تراقصت على الجدران، لتحيطَ ملامحَ أُماني وأُمِّ فارسٍ بهالةٍ من السكينة. وعلى مشجَبٍ خشبيٍّ، أُسدَلُ الفستانُ الأبيضُ بعنايةٍ، مناسبًا كصفحةٍ ناصعةٍ تترقَّبُ أن تُخطَّ عليها حكايةُ العمر.

تربعت أُماني على الفراش، منتصبَةً القامة، وفي مقلتيها بريقُ حلمٍ أينعَ بعدَ طولِ انتظار. راحت أناملُها تعبثُ بحافةِ الوسادةِ لا شعوريًا، وبينَ الفينةِ والأخرى تختلسُ النظرَ إلى الفستان، فتبتسم، ثم تعودُ لتتفرَّسَ في وجهِ أُمِّها، كأنَّها تشدُّ يقينًا بأنَّ ما تعيشُه واقعٌ لا خيال.

ناولت أُمِّ فارسٍ ابنتَها كوبًا من العصير، وراحت تتأملُ وجهَها مليًا، كمن يحفرُ الملامحَ في ذاكرتهِ تأهبًا ليومٍ يقلبُ الموازين. سألتها بصوتٍ مترعٍ بالحنو: «غداً تبدأ حياتكِ الجديدةَ يا ابنتي... أنتِ مستعدة؟»

ضحكت أُماني في خجل، وأطرقت برأسِها نحو الفستان، ثم رفعت طرفها: «وكيف لا أكون؟ لطالما حلمتُ بهذه اللحظة».

دنت أُمِّ فارسٍ منها، واحتوت كفيها بينَ يديها ضاغطةً برفق: «الزواجُ يا ابنتي ليسَ فستانًا أبيض، ولا ليلةً تُروى. إنَّه رحلةٌ زادها الصبر. والرجلُ حينَ يُحبُّ لا ينشدُ الكمال، بل يرجو فيك ملاذًا يأوي إليه حينَ يضيقُ به العالم».

انثالت الكلماتُ كوصايا مقدَّسة، ومنحَ الدفءُ الكامنُ في نبرةِ الأُمِّ اللحظةَ جلالًا وبهاء. أومأت أُماني، وعيناها تبرقان: «سأغدو سكَّنة، وأمانه، ومسرَّته.. وسأصونه ولن أخذله أبدًا».

ابتسمت الأم، ومسحت شعرَ ابنتها: «راشدٌ رجلٌ صالح، وستسعدين في كنفه».

مالت أمانى صوبَ صدرِ أمها هُنيئة، ثم هبت نحو الفستان. رفعت طرفه، وتأملته كما يُتأملُ لواءٌ يُرفعُ في ساحةٍ احتفال. أعادت تعليقَه، فغمرَ ضوءُ الفانوسِ بياضَه لينيرَ أركانَ الحجرة، متسللاً عبرَ الجدارِ بلمسةٍ دفءٍ تعدُّ بصباحٍ بهيج.

ومن خلفِ النافذة، حملت رياحُ المساءِ لغطَ السوقِ البعيد، وضحكاتِ نسوةٍ آياتٍ من زيارة، فيما تسربَّ نسيمٌ عليلٌ عبرَ الرواقِ مداعباً أطرافَ الستائر. بدت الليلةُ كأنها تمهدُ السبيلَ لغدٍ مختلف، والبيتُ يتأهبُّ لاحتضانِ حياةٍ وليدة.

أمّا في الحجرةِ المجاورة، فكانَ الصمتُ مطبقاً، لا يخدشه سوى زفراتِ راشدِ الجالسِ على حافةِ فراشه. يدٌ تتكئُ على فخذه، والأخرى تسندُ خدّه، وعيناهُ مسمرتانِ في الأرض، تحاذرانِ التقاطَ أيِّ طيفٍ قد يرسلُهُ الضوءُ المتسللُ من أسفلِ الباب. كانَ قلبُه هائماً في مكانٍ آخر؛ حيثُ طيفٌ شجن ما يزالُ ماثلاً رغمَ البعد، في حينِ يسوقُه القدرُ قسراً نحو عتبةِ أمانى.

في حجرةِ أمانى، عكفت الأمُّ على تسويةٍ وشاحٍ أبيضٍ فوق هامِ الفستان، فيما راحت الفتاةُ تسردُ تداييرَ الغدِ بشغفٍ: تنتقي الأقراط، وتفاضلُ بينَ الأساور، وتختارُ العطرَ وتسريحةَ الشعر. تقاذفتا أطرافَ الحديثِ الممزوجِ بضحكاتٍ مقتضبةٍ ونظراتٍ حبور، كأنهما تتقاسمانِ سرّاً بهيجاً تأييانِ انقضاءه.

ولمّا أنبأت عقاربُ الساعةِ بانتصافِ الليل، رمقت أمُّ فارسِ ابنتها وقالت: «آنَ أوانُ الراحة، فغداً يومٌ طويل».

أومأت أمانى باسمه، بيد أن طرفها ظلَّ سارحاً بالفستانِ حتى
وهي تتوسدُ فراشها. بدا محياها طافحاً ببشرٍ غامر، في حين
كان النسيم في الخارج يلاطفُ النوافذَ برفق، وتزفُّ دعاءً صامتاً
لبيتٍ يفتتحُ غده بالفرح.

في عُبابٍ مترامي الأطراف، تراءت السفينة ظلًا عملاقًا
يزحف على أديمٍ حالك، ويشقُّ في الماء أخاديدَ تُخلف وراءها
ندوبًا غائرة.

على سطح السفينة، ترنّحت فوانيسٌ صغيرة، تشقُّ العتمة
بمساراتٍ واهنةٍ ثم تخبو، وتعود لتتوهجُ كلما هبت ريحٌ باردة.
أصواتٌ بشرية تُسمع متقطعة: تسابيحُ هامسة وسعالٌ ونداءاتٌ
مقتضبة للبحارة ووقعُ خطواتٍ حافية على الألواح ونباحٌ متوتر.
انتصب الرّبان عند الدفّة بجسده العريض ولحيته الشعثاء
وعُمامته الملفوفة بإحكام.

قال دون أن يلتفت وهو يراقب نجمة خافتة تتسلّق السماء:
«ندنو من القحمة وسنحاذي كُدمل قريبًا، استراحةٌ قصيرة ثم
نُكمل إلى اليمن».

ردّ البحّارة: «عُلم»، وانهمك كلٌّ منهم في عمله: هذا يتفحص
حَبلاً سميكا، وذاك يرمّم شقًا صغيرًا في لوحٍ قرب المقدمة،
وثالثٌ يملأ القِرب.

بدا الإعياء على وجوه الحجاج من رجالٍ ونساءٍ وأطفال، كانت
ملاحمهم مُتعبة لكن في أعينهم وميضٌ عزيمةٍ طال انتظارها.
امرأةٌ تُهدد طفلًا في حضنها وتُردد آيةً بصوتٍ منخفض، وشيخٌ
يلوح بمسبحته ثم يخبئها في كفّه، وشابٌ يستند إلى الحاجز
الخشبيّ، يغمض عينيه متظاهرًا بالنوم.

مرقطٌ بين أقدام الناس، وقفز إلى جوار صرةٍ تمر، شمّها ثم ابتعد. وفي زاويةٍ مظلمةٍ تحت السلم أعينُ جردانٍ تبرق، تتربّصُ بفتاتٍ يسقط من يدٍ أحدهم.

تحرك الكلبُ بين الممرات الخشبية على جانب السفينة، يقلّب أنفه في الهواء، ويجرجرُ سلسلةً قصيرةً مربوطةً بعمود، كأنه يحاولُ إقناع أحدهم أن يطلقه. دنا منه بحارٌ نحيل وجثا أمامه، ثم عقد السلسلة بحلقةٍ أقرب إلى الحاجز، وقال مبتسمًا: «اهدأ.. لا شيء هنا سوانا».

هزّ الكلبُ رأسه، وحدّق إلى وجه الرجل كأنه غير مقتنع، فجأةً ارتجّت السفينة رجة خفيفة، لكنها تُوَقِّظُ النائمين.

صاح بحارٌ من المؤخرة: «السارية الجانبية لا تتحرّك يا سيدي!»

التفت الريانُ بسرعة، نظر إلى الحبال، ثم إلى سواعد الرجال، وقال: «خففوا الشراع، لا نريد المغامرة، نقترُبُ من جزيرة كُدْمبل، وسنرسو هناك مؤقتًا».

تحرك الرجالُ كجسدٍ واحد: حلُّ وربطٌ وسحبٌ ودفع، هبطت الأشرعة شيئًا فشيئًا وانحرفت السارية قليلًا، وخضع المَاءُ جوانب السفينة كأنها تُدافع عن نفسها أمام حافةٍ صخريةٍ تنهيا لاستقبالها.

من بعيد، برزت جزيرةٌ معتمةٌ ككتلة حجر مبلل، لا أنوار فيها ولا ظلّ بنيان، فقط نتوءاتٌ سوداءٌ تلمعُ لمعانًا خفيفًا، قال أحدُ الحجاج بصوتٍ وَجِل: «أهذه هي القحمة؟»
أجابه الريان مَادًّا ذراعه كمن يرسم خطًا مستقيمًا في الظلام:

«لا، هذه كُدْمُبُل، أما القحمةُ فتقع على مسافة قصيرة من هذا الاتجاه، نصلحُ العطب ونمضي».

أُلقيت المرساة فغاصت بجلبةٍ ثقيلةٍ في الماء، وتردّد صداها بين السفينة والكتلة الصامتة، ثمّ ساد السكون إلا من همهمة الرّكّاب، أنزل السلمُ الخشبيّ، وتقدّم بحاران بفئيلٍ مشتعلٍ في يدٍ وسطلٍ في يدٍ أخرى، قال الرّبان:

«لا أحد ينزل دون إذني، نُنزلُ أولاً زادنا وماءنا، ثم نستكشف الأرض».

تأفّف شابّان عند السياج وتراجعا إلى الداخل، كأنهما نسيا أن للبحر قوانينَ لا تُخالف، كان الكلبُ أسرعَ من الجميع، فحين لمحهُ أحد البحارة ينسلُّ من طوقه، حتى اندفع عبر السلم كسهم انطلق من قوسه، تراجعَ بحارٌ كي لا يسقط، وصاح: «أمسكوا به!» لكن الكلب وثب إلى الرمل، وعدا كمن يألف المكان؛ يتشمّم الأرض، ويقتفي أثرًا لا يراه أحد، وما هي إلا لحظات قليلةٌ حتى توارى بين الصخور المنخفضة القريبة من الجبل.

حدّق الرّبان إلى الجهة التي ذهب إليها وقال: «عجيبٌ أمرُ هذا الكلب».

ثم التفت إلى رجلين أمرًا: «اتّبعاه، ولا تبتعدا».

هبط الرجلان يحمل كلُّ منهما عصاه، وتبعهما ثالثٌ يحملُ قربةً ماءٍ صغيرة. استند الأطفالُ إلى الحافة ينظرون إلى الظلام، ويتأملون ملامح الجزيرة المترسمة بين الرمل والموج الهادئ، فجأة دوى نباحٌ حادّ متكرر مثل صرخات قصيرة متتابعة تصعد وتهبط، تساءل أحد الحجاج وهو يلتصقُ بالخشب: «ما خطْبُهُ؟»

أجاب بحارٌ: «لعله وجد سمكةً قذفتها الأمواج».

لكن الريان لم يطمئن، شدَّ عمامته، وقال بصرامة: «اذهبوا، واستقصوا سبب النباح».

تسلقوا نتوءاً صغيراً، والتفوا حول صخرةٍ طويلةٍ حتى انكشف ما خلفها، ظهر أمامهم جسدٌ ممددٌ على الرمل، ونصف وجهه مضرَّج بدمه، شعره ملتصقٌ بجبينه، وملابسه ممزقة عند ركبته وكتفه، كان الكلبُ يحوم حوله، ويدسُّ أنفه في كتفه ثم يرفعه لينبح باتجاه البحر.

ركع حاملُ القرية بجانب الرجل الملقى وصاح:

«هنا رجل ميت!»

اندفع ثلاثة آخرون ومعهم الريان الذي دنا من رأس الرجل، ووضع كفه على صدره، تحسَّس نبضا واهنا قبل أن يسمع حشرجة: «ماء».

صب الماء على وجهه، فانتفض الرجلُ وشهق كمن بُعث من قبر. حرَّك رأسه، ثم فتح عينه التي لا يغطيها الدم، ورمقهم بنظرة باردة أول الأمر، ثم زادت فيها شرارة خفيفة. هتف أحدهم: «إنه حي».

فأمر الريان: «اسقوه».

أدنى البحارُ القرية من شفثيه، فعبَّ منها، ارتجف حلقه وهو يشرب كأنما يغسلُ جوفه من ملوحة البحر. تشبَّث بالقرية بيده المرتعشة خشية أن تُتنزع منه، وشرب حتى سال الماء على لحيته وصدره.

سأله الرِّيانُ لَمَّا سَكَن رَوْعُهُ: «ما اسمك؟»

حرّك شفّتيه وتمتم بصوتٍ أجش: «ناصر، اسمي ناصر».
صمت الرّبان برهةً ثم سأله: «ما الذي حدث لك؟ وما الذي
جاء بك إلى هنا؟»

حدّق ناصر إلى الظلام ولم يُجب، بدا كمن يسمع سؤالاً
يخصّ شخصاً آخر، فقال الرّبان مشفقاً:
«حسنًا، لن نُثقل عليك الآن، ستدفأ وترتاح ثم نتكلم».

أمر بإشعال نارٍ قريبةٍ عند الشاطئ، جمعوا حطباً ثم أضافوا
إليه بعض الحبال اللينة، وما هي إلا لحظاتٍ حتى توهّج اللهب.
دثر أحدُ البحّارة ناصرًا ببطانية، فجلس صامتًا يمدُّ كفيه للنار،
فيما ناوله حاجٌ رغيّفاً وتمرات.

قضم ناصر لقيماتٍ ببطءٍ شديد، جلس الرّبان قبالته -يفصلُ
بينهما اللهب- وقال: «سنبقى هنا بقيةَ الليل، ونبحر فجرًا إلى
القحمة. فإن كانت وجهتك، فقد بلغتْها».

صوّب ناصر نظره إليه، ثم قال بخفوتٍ كمن يُفضي بسرّاً: «أنا
هارب من رجل في القحمة يريد قتلي».

انعقد حاجبا الرّبان، لكنه أثر الصمت أمام الجمع، واكتفى
بأن مال نحوه هامسًا: «إذن سنحميك».

همس أحدُ البحّارة في أذن الرّبان: «لو رآه أهلُ القحمة هكذا
سيسألون، وربما...».

قاطعهُ الرّبان بإيماءة: «أعرف سنخفيه حين نقترب في تابوتٍ
من تلك التي نحملها على متن السفينة لنقل المتاع، لن يفتشه
أحد».

رفع البحّار حاجبيه: «تابوت؟»

أجاب الريان بهدوء: «ذاك الصندوق الكبير المسند بالمعدن نسميه تابوتًا مزاحًا، سيحجبه عن العيون، فنحن ضيوف ولا نريد أن نتورط».

ثم التفت إلى ناصر وسأله بوضوح: «هل تثق بنا حين نخفيك في تابوت؟»

قال ناصر: «إن كان في ذلك نجاتي فافعلوا».

ران صمتٌ طويل لم يقطعه سوى قطعة النار وهي تلتهم الحطب كأنما تعيد ترتيب وحشة الليل.

رفع ناصر رأسه فجأة وقال: «أريد أن أمضي إلى الطرف الآخر من الجزيرة، دقائق وأعود، نسيت شيئًا».

سأله الريان بحدة: «ماذا نسيت؟»

ردّ: «صخرة».

كبت بحارٌ شابٌ ضحكته، لكن الريان اكتفى بالقول: «لا تُبطل». أوماً ناصر، وتحامل على نفسه لينهض، حاول الوقوف فترنح قليلاً حتى استعاد توازنه.

سار بمحاذاة خطٍّ من الحجارة تلمع بين ثناياه أصدافٌ بيضاء مهشمة، ثم التفت حول نتوء صخري وتسلق بصعوبة منحدرًا قصيرًا يُفضي إلى شقٍّ بين صخرتين، حتى لاحت له الصخرة المنشودة، مدّ كفّه إليها، لا تزال الكتابة كما تركها، لمسها بأصابعه ليطمئن قلبه، وتمتم: «ما زالت واضحة».

وعندما همّ بالعودة استوقفه بريقٌ خافتٌ بين صخرتين كأنه شيءٌ معدنيٌّ، اقترب فبان له طرفٌ صندوقٍ ذهبيٍّ مائل، نصفه مدفونٌ بالرمل ونصفه عالقٌ بنتوءٍ صخري. ركع ناصر وأزاح الرمل

والحصى بكفه، ثم أدخل أصابعه تحت الغطاء ورفع، فصرت مفاصله الصدئة ثم انفتح، لمعت داخله جواهر كثيرة: لآلئ كقطرات ضوء متجمعة؛ وسلاسل ذهب ملتفة على بعضها كأفاع نائمة؛ أحجار كريمة متناثرة كنجوم أسقطت في قعر صغير، فاحت من الصندوق رائحة غريبة كأن القدماء عبروا من هنا وتركوا شيئاً من ليلهم فيه. التقط خاتماً ذا فص من عقيق أحمر قاتم، نقش على جانبه وشم دقيق لا يكاد يظهر، قلبه في راحة كفه، ثم دسه في إصبعه، فانزلق بسلاسة غريبة كأنه صمم له، ارتعشت أصابعه، ثم سكنت. أطبق الغطاء محدثاً نفسه: «سأخفيه الآن لأعود إليه في وقت آخر».

تحرى المكان، فوجد خلف الجبل فجوة تشبه فماً حجرياً صغيراً، حفر بقطعة خشبية كانت بجواره، والعرق يتصبب من جبينه، وكتفاه تهتزان من التعب، أنزل الصندوق بحذر، وواراه التراب حتى اختفى، ثم التقط حجراً كبيراً أملس من جهة وخشناً من جهة أخرى، ووضعه قائماً على موضع الدفن كعلامة ثم نفذ كفيه من الرمل، وعاد أدراجه.

سمع النداء من بعيد: «يا ناصراً! عُد! سنغادر!»

رد عليهم: «قادم، قادم».

كان في صوته شيء من حياة استعادها فجأة، ربت أحد المرافقين على كتفه: «أسرع».

عند الشاطئ كان الحجاج يتهيئون، والبحارة يوثقون الحبال، وقد استحال جمر النار رماداً.

أشار الريان إلى الصندوق الخشبي:

«هنا، ادخل برفق، سنترك فتحةً صغيرةً للهواء والماء والطعام». نظر ناصر إلى الصندوق ثم إلى البحر، ثم صعد وتمدد داخله على جنبه، أطبق البحارة الغطاء تاركين فجوةً ضيقةً عند حافته، قال الربان وهو يريّت على الغطاء: «بعد قليل سنكون في القحمة».

ردّ ناصر من الداخل: «حسنًا».

ثم سمع وقع أقدام فوقه، وصوت الحبال وهي تُشدُّ، وصريّر الخشب. ارتفعت المرساة من القاع بأنيّ مسموع، وبدأت السفينة تستدير، انقشعت العتمة رويدًا، وانبلجت خيوطُ النور، كانت القحمةُ هناك، تنتظرُ فجرًا سيحلُّ مع ضيوف البحر، بدأ السواد يفارق وجه الماء شيئًا فشيئًا.

من بعيد بدت سواحلُ القحمة مثل ذراعٍ ممدودةٍ بالترحاب: شريطٌ رمليٌّ طويلٌ تحفّه نباتاتُ الشورى على امتدادٍ واسع، وأشجارٌ نخيلٍ نحيلةٌ تتمايلُ بنعومة، وأشجارُ الدوم ترفع تيجانها الكثيفة، وعلى الطرف الآخر من الشاطئ انبسطت غاباتُ القرم كأصابعٍ خضراءٍ تتشابكُ في الماء، تُواري داخلها أسرابًا من الأسماك، حيث تمتزج رائحة الطمي بعبق الملح، وتتعالى أصوات الطيور البحرية في طبقاتٍ متداخلة. في الواجهة بدا الميناءُ خليةً استيقظت لتوها: قواربُ صيدٍ مصفوفةٌ على صفين، بعضها مطليّ بألوانٍ باهتةٍ من أثر الشمس، وشباكٌ مرفوعةٌ على أعمدةٍ خشبيةٍ، ورجالٌ يشدون الحبال.

اقتربت السفينة، حيّا مشرفُ المرسى القادمين، فردّ الربان برفع راحته، وأصدر أوامره: «أحكموا الحبال وجهزوا المرساة».

لم يدر في خلد أحدٍ من أهل القحمة أن في جوف السفينة رجلاً مسجىً في صندوق، يتنفس بحذر، ويتأمل مصيره إذا ما رُفع الغطاء.

انزلقت السفينة في مرساها كمن يعثر على مقعده بعد طول ترحال، رُميت الحبالُ إلى الرصيف، وأُحكمت العقد، وسكن كل شيء إلا قلوب خفقت لغايات شتى. كان الفجرُ قد اكتمل، وكسا الوجوه نورٌ كشف تفاصيلَ غابت في الليل: آثار الملح على ملابس البحارة ووجوههم؛ وثنيات عمائم الحجاج، ولمعاناً يعلو قمم أشجار القرم.

لم يكن يوماً عادياً، فالقحمة تتجهز لزفاف راشد وابنة أبي فارس كاتب القرية وكبيرها.

وما إن طلع النهار حتى قُرع دُفٌ ناحية السوق، وتبعه منادٍ يدعو الناس لحضور العرس هذه الليلة.

في داخل التابوت، أغمض ناصر عينيه؛ تذكر الصخرة التي ترك عليها رسالته، وبريق العقيق وهو ينزلق في إصبعه، والنار التي استحالَت جمرًا يذوي مخلفاً رائحةً لا تُتسى، ثم زفر نفساً طويلاً. سمع دبيب أقدام فوقه، وأصواتاً تتبادل إشارات مقتضبة، لاح وجهٌ غامضٌ في ذاكرته، لم يتبين إن كان حلمًا أم أثر حياةٍ سابقة.

لكنه حدث نفسه: «سأخرج حين يحين الوقت».

ولم يكن الوقتُ بعيداً لأن القرية كلها تسيرُ إلى قدرٍ واحد، وإن تعددت عليه الأقدام.

عند الرصيف انشغل الناس بالترحيب ونقل المتاع، وفي ركنٍ ظليل على سطح السفينة، وقف الربّان مع بحّارين، قال أحدهما: «وعهدك للرجل؟»

أجاب الربّان: «سيظلُّ في مأمن».

على الشاطئ بدت القحمة أجملَ مما تخيله القادمون: امتدادٌ من البيوت ذات الجصّ الأبيض، وأبوابٌ خشبيةٌ قديمة، ونوافذٌ ضيقةٌ مؤطرةٌ بخشب الساج، وساحاتٌ صغيرةٌ تزدان بالنباتات، وعصافيرٌ تحطُّ على حبال الفسيل وتطير، وقواربُ الصيادين تستعدّ. ليوم طويل، والميناء يتلألأ ببريق خافت كمرآةٍ تلتقطُ أولَ الضوء وتوزّعه على وجوهٍ كثيرةٍ متعبةٍ وسعيدة. لم يشعر أحدٌ بأن السفينة حملت معها شيئاً غير الناس والزاد، ولم يدركوا أن ناصرًا وصل في ساعةٍ تُشبه الفواصل بين الأنفاس؛ وأن خطأً رفيعاً رُسم بين جزيرةٍ ابتلعت الأسرار ورجلٍ سعيدهُ ترتيب الحكاية، بما سيحدث حين يُفتح الغطاء وتتعانق المفارقات: زفافٌ يُطرقُ له الدفّ، ونجاةٌ جاءت على حين غفلة، وخاتمٌ سيذكره أن للبحر ديوناً تُستوفى حين يشاء. هدأت الأصوات قليلاً، رفعت الشمسُ جبينها وراء البيوت، تراجع ظلُّ السفينة عن الماء فتجلّى أسفلها الداكن، اقترب رجلٌ من الربّان، حياه وسأله عن الرحلة.

أجابه الربّان مبتسمًا: «عبرنا بما كتب لنا، ووجدنا في الطريق ما لم نبحث عنه».

ولم يزد.

وفي قلب السفينة، ظلَّ ناصر كما هو: يُصغي إلى صوتٍ واحدٍ لا يسمعه غيره، وينتظر.

أما كُدمبُل فقد خبأت في بطنها سرًّا جديدًا، تحت حجرٍ لا
يفك رمزه إلا كاتبه، والبحرُ كعادته يمحو آثار الأقدام، ويترك في
الأرواح أثرًا لا يزول.

ليلةٌ شَدَّتِ القريةَ فيها صوتها كي لا يفلت قلبُها..

امتلأت ساحة الرجال أمام بيت أبي فارس مبكراً: رُصَّت المقاعدُ على عجل، وجُرِّيت الطبول استعداداً للحفل، توافد الناس من الأزقة المتفرعة: يحيى صاحب محلّ التمر يحمل على كتفه سلّة تمرٍ فاخرة كأنّها بطاقة تهنئة، والصيّاد بجلده الذي لوحته الشمس وتقاسيم وجهه التي تشبه الشباك، جابر المجنون بأظماره المتربة ونظرتيه التي تميل بعيداً ثم تعود كأنّها تبحث عن فكرةٍ سقطت منه، الإمام مساعد بخطواتٍ هادئة ووجهٍ سَمَح، وضاح يجلس وسمسميته في حجره، وأصابعه تداعب أوتارها وتقيس حزننا لا يريدُه أن يخرج.

توسّط أبو فارس الجمع مديراً شؤون العرس بابتسامةٍ مقتضبة؛ يصافح بيدٍ ويشير بالأخرى إلى مجالس الضيوف، تواترت عبارات التهنئة:

«مبارك يا أبا فارس».

«الله يتمم بخير».

تعالَت الضحكات، وتكاثرت المجاملات، حتى ضبط الدفُّ

إيقاعه، وتبعته السمسمية، فتمايلت الرؤوس طرباً..

دخل راشد الساحة يتقدّمه رجلان يحملان مبخرةً ومرشّ عطر، فالتفت إليه الوجوه، وانهالت عليه التهانِي:

«مبارك يا راشد».

«الله يوفقك».

«جعل الله لكم العُقْبَى بالذرية الصالحة».

لم يطل راشد النظر في الوجوه كأن وجهه يتعلم الابتسامة من جديد ويخونها في اللحظة نفسها. وفي غمرة الزحام لاح له خيال لا يراه غيره يشق الصفوف بلا صوت، ويتوقف عند الدفوف، كانت نورة تقف عند طرف الساحة، شعرها ينسدل كسواد الليل، وعيناها حادثان تحملان عتاباً واضحاً، رفعت بصرها إليه، وحركت رأسها حركة صغيرة كأنها تقول:

«ألهذا تُساق؟»

لم تقترب، ظلّت بينهما مسافة تُشبه وعداً لم يُوف.

أطرق راشد، وحين رفع بصره كانت نورة قد اختفت كفقاعة حين يلمسها الإصبع فتذوب.

انحنى الإمام مساعد على أبي فارس وقال هامساً: «بارك الله لكم، ولعلّ الله يجعلها سَكينة».

أوماً أبو فارس: «آمين».

في زاوية الساحة، انزوى مناع كمن لم يأت إلا ليشهد ما يكره، عيناه الرماديتان تتقدان غيضاً، وشفته مزمومتان، لا يُهنئ ولا يبتسم ولا يُسلم. مرّ جابر المجنون قُربه، وتمتم: «بعض البيوت تُضاء حين تحترق بيوت أخرى».

لم يجبه مناع ولم يلتفت، فقط شدّ كفه فوق ركبته.

اقترب فارس من راشد دون أن يقول شيئاً، واكتفى بأن وقف قريباً إلى أن شعر راشد بأن ظلالهما تلامس بعضها، ثم قال أخيراً:

«أتمنى أن تكون حياتك سعيدة».

«ولك أيضاً يا فارس».

شيّعَه بنظرة طويلة وهو يبتعد، نظرةً من يخشى الغياب الذي لا رجعة بعده.

صاح غناءً رجاليّ قصير، واشتدّ التصفيق وقرع الدفوف. تمايل وضّاح في مكانه، وأصابعه تلامس أوتار السمسمية بخجل فلا يخرج اللحن كاملاً، بل مجرد نغمةٍ يتيمة تخجل أن تتكاثر. لم يكن يرغب في العزف، لكنهم طلبوه باسمه وألحوا عليه. قال أحدهم: «يا وضّاح، الليلة تُغني، الليلة فرح».

ابتسم وضّاح، وقال بنبرةٍ تمزج المزاح بالألم: «الفرح يعرف طريقه لكنّه يتحاشاني».

خلف الساحة كان بيت أبي فارس يموج بأصوات النساء، زينت الحجرة الكبرى على عَجَل: مفارش بيضاء، وصواني قهوة وشاي، وطبق حلوى يتوسّط المائدة، وفستانٌ معلق بانتظام يشبه سحابةً تمشي على الأرض، توسّطت أمانى الحجرة بوجه مشرق وابتسامةٍ لطيفة، وإلى جانبها أمّ فارس تعتي بالتفاصيل الصغيرة: خيطٌ يجب قصّه، طرْفٌ وشاح يُعاد ترتيبه، نظرةٌ تُطمئن أن كل شيءٍ في مكانه، دخلت مريم صديقةً أمانى تحمل علبةً أنيقة، وفتحتها أمامها: «هذه هديّتي لك».

عقدُ رقيق فضّي اللون، فيه حجرٌ صغيرٌ أزرق.

لمعت عينا أمانى: «شكراً يا أعز صديقة».

قالت مريم: «الليلة ستبدئين حياة جديدة».

عقبت أم فارس بحنان: «وتدخلينها بقلبٍ مطمئن».

ضحكاتٌ قصيرة تتناثر، وبعض الهمسات، ثم دخلت جارةٌ تحمل طبق حلوى مهنئة:

«مبارك يا أم فارس».

«اللّٰه يبارك بعمرك».

تتاهى صدى الطبول والأهازيج إلى داخل الدار، فأخذ من الحجرة شيئاً وترك فيها شيئاً آخر، وبين جملةٍ وجملة دلفت امرأة إلى الحجرة تختصر المسافة من الباب إلى منتصف المكان، وجهها متقلّصٌ قلقاً:

«سمعت؟»

سألتها أخرى: «ماذا؟»

«يقولون شبّ حريقان في القرية واحدٌ عند الحظائر، وآخرٌ عند أطرافها».

تبادلت النساء نظراتٍ متوجّسة. قالت ثالثة: «ومن أضرّهما؟».

قالت الرابعة: «يقولون ربما بفعل فاعل، وربما أولادٌ يعبثون».

هزّت امرأة رأسها: «أو غضبٌ حلّ بنا».

رفعت أم فارس يدها بحركة تُعيد الهدوء:

«الليلة ليلةٌ فرح لا ندخل في قلوبنا ظناً. الخير يُغطّي، والبلاء

يمضي».

تبادلت أمانى ومريم نظرةً قصيرة، همست لها مريم: «لا

تفكّري إلا بما يسعدك».

أومأت أمانى، وأعادت بصرها إلى الفستان.

على الرصيف القريب من الميناء، كانت السفينة التي جاءت من جهة كُدْمبل لا تزال راibضة، كأنّ البحر يمسك بها ليؤخّر رحيلها، وفي مخزنها الداخلي تابوتٌ فوقه قماشٌ غليظ.

كان البحّارة يتنقلون بصمتٍ عمليٍّ، يتفقدون الحبال، ويصلحون ما يحتاج إلى إصلاح.

خرج الرّيان متجهًا إلى العرس تلبيةً لدعوة أبي فارس، دون أن يدري أنّ التابوت الذي جاء به من الجزيرة يحمل أبا راشد، في المخزن مرّ رجلان أمام ذلك التابوت دون أن يلتفتا، وفي عتمة التابوت عينا مفتوحتان على ظلام دامس، وأنفاسٌ تُلفُّ بقطعة قماش كي لا يسمعها أحد.

وصل الرّيان إلى العرس، وصافح أبا فارس:

«مبارك يا أبا فارس».

«الله يبارك فيك، شرفتنا».

عاد الصوت إلى الساحة أعلى قليلاً.

«مبارك، الله يتمم فرحكم، الله يُسعدكم».

انعقدت حلقةٌ صغيرة للعرض الشعبي، دخل فيها شابان يخطوان بخطى متقابلة، ويتبادلان النداءات، فاشتعلت الحماسة، في أثناء ذلك أقبل رجلٌ من طرف الأزقة وهمس في أذن صديقه: «أخمدت الجرائق، والحمد لله».

«كيف اشتعلت؟»

«لا أحدٌ يدري، البعض يقول ربما أطفال يعبثون، والبعض يقول

إنها الجنية تصب غضبها على القرية»

التفت الثاني نحو مناع كأن اسم الجنية سقط عند قدميه، ولم يقل شيئاً..

وقف الإمام مساعد، ورفع صوته بحكمة:

«يا قوم، الفرح طاعةٌ إذا أدَّى بحقّه، نهنيّ ونذكر، ونحمد ونشكر، ومن كان في قلبه خوفٌ أو ظنٌّ فليدعه في سرّه». انخفضت الأصوات هنيهة، ثم عاد الإيقاع.

في تلك الأثناء، كانت شجن في غرفتها تفتح كتاباً على صفحةٍ تركتُ فيها علامة، لم يكن ثمة من يُخبرها أنّ الطبول التي تسمع صداها في حنايا قلبها ليست خيالاً يشتدُّ عند المساء، بل زفاف يُقام في الطرف الآخر من القرية، عضت شفرتها، وأغلقت الكتاب على مهل.

تنهدت بعمق وقالت: «متى تأتي؟»

في بيت أبي فارس، نادى أم فارس: «جهّز العروس». تحلّقن حول أمانى، يُسوّين وشاحها ويُعطّرنها، فيما تلهج عجوزٌ بدعاءٍ خافت.

ابتسمت أمانى وقالت لمريم: «ابقي قريبة».

«أنا هنا، لن أترككِ».

رغم غياب نورة أحسّ راشد بطيفها يمرّ قرب كتفه، فاستقر اعتراضها الذي لم تتطرق به في صدره، كان يوزّع السلامات ويأخذ التهاني، ومع كل يدٍ تُصافح يتذكّر يدًا أخرى لم تُمسك به «يد شجن وهي تمرّ ولا تلتفت»، تصرّم الليل ودنا من آخره، وخفّت الأصوات تدريجياً. مدّ أبو فارس يده ووضعها على كتف راشد، لم تكن يدَ تهنئةٍ فقط، بل يدَ وصيّة.

قال بهدوءٍ: «يا راشد، تذكر أنني ما زوّجتك ابنتي إلا لأنقذك من ورطتك».

أطرق راشد، لم يجد جملةً يُوازن بها هذا الكلام، فقال:
«سيظل جميلك هذا في رقبتى».

شدّ أبو فارس على كتفه مرةً ثانية، وعلى مسافةٍ وقف فارس
يرمق راشد بنظرةٍ مودّعٍ يحاول أن يحفظ صورةً لوجهٍ قد يغيب،
دون أن ينبس بكلمةٍ.

كان في عينيه كلامٌ يضيق عنه لسانه كأنّه أراد أن يقول:
«إن غبت، فابقَ حيًّا هناك، وإن بقيت، فلا تمت هنا»، ولمّا لم
يجد كلمات تُطلق هذه الجملة كما يريد، اكتفى بابتسامةٍ، وتمتم:
«أتمنى لك السعادة».

ابتسم راشد له ابتسامةً صادقةً هذه المرة، لأنها وجدت
طريقها عبر صديق.

انتهى العرس بعد أن بدأت الحرائق تنتشر في ليل القحمة،
دون أن يعرف أحد سببها؛ شررٌ شبّ في أطراف الأزقة، ورائحةُ
دخانٍ ترحف من الحظائر، وصيحاتٌ متقطّعةٌ تعلو فوق ضرب
الطبول. تناقل الرجال الخبر على عَجَل، فهرع بعضهم بالدلاء
نحو العتمة، وأوصد آخرون أبوابه، انفضّ الرجال على دفعات،
وانسحبت الدفوفُ إلى صمتها الأول.

خلا المكان؛ حتى وضّاح مضى مع آخر الخارجين وهو يخفي
في يده نعمةً مبتورة، وبقي البيت وحيداً يلتقط أنفاسه.

أوى راشد وأماني إلى غرفتهما المُجهّزة في بيت أبي فارس،
وساد سكونٌ سبق الفجر.

وعند الفجر، وقفوا عند الباب: أبو فارس، أم فارس، فارس،
راشد وأماني.

لا أحد سواهم، لا طبول ولا تهليل.

قال أبو فارس بصوتٍ خافت: «لا حاجة إلى أن أوصيك أن تعتني بها».

قال راشد: «في العين والقلب».

وربّت أم فارس على خدّ ابنتها: «حماكما الله».

أودعت حقيبتان في صندوق سيّارة راشد، أدار المحرّك، وانطلقت السيارة برّا نحو قرية أخرى. سفرةٌ قصيدةٌ بها أن تتسى القرية أخبار الحرائق وأن يبرّد الكلام.

لوح فارسٌ بيده وهو يتمتم:

«رافقتكما السلامة».

وفي البعيد من جهة الميناء، انطلقت صفّارةٌ خافتة تشقّ آخر ما تبقى من الليل.

أنّت المراسي، وانزلقت الحبال على أديم الخشب، واهتزّ الرصيف اهتزازة الوداع. أبحر الرّيان -ضيف العرس والمهنّي- وسفينته تحمل تابوتًا واحدًا. جهل أهل القرية أنّ جوف السفينة يطوي ناصراً، وأنّ ابنه يغادر برّا في اللحظة نفسها إلى جهةٍ لا يرى منها سوى خيطي ضوء يحرثان الدّجى.

في البرّ كانت مصابيحُ سيارة راشد ترسم على الطريق شرائطَ ضوءٍ متقطّعة؛ نافذةٌ نصفُ مفتوحة، ونسمةٌ فجرٍ باردة، ووجهان يصمتان أكثر ممّا يقولان. شدّت أمانى وشاحها، وحدّق راشد أمامه طويلاً خشية أن يلتفت فيعيده الحنين.

وفي البحر كان ناصر يحصي الوقت، وعرقه يتجمّع عند جبينه، وطرقعةٌ خفيّة في ضلع التابوت كلّما مالت السفينة إلى جهة، خاف حتى أن يسعل، شدّ قبضته وقال في داخله:

لا تتكشف، لا تتكشف. ولم يدرك أن هذه الجملة ستصير قدراً
لغيره.

هدأ الطريق، وتنفّست البيوت. وعلى رف صغير وضعت شجن
كتابها جانباً، وجلست أمام نافذتها ترقب خيط الصباح وتنتظر.
وهكذا انتهى اليوم: فرحٌ تحضره المباركاتُ وتغيب عنه
المعاني، وعريسٌ يمضي براً إلى بدايةٍ لا يعرف شكلها، وأبٌ يشقُّ
البحرَ وحيداً في تابوت، وشجن في غرفتها لا تزال تنتظر..
تنتظر راشد الذي سافر دون أن يترك سبباً واحداً لكل هذا
الانتظار الذي حطمها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الواحد والعشرون يومًا (بعد شهرين)

جلس الصياد تحت ظلّ شجرة السدر العظيمة عند طرف القحمة، ملقياً عصاه على فخذه، وعينه على امتداد الماء، البحر أمامه صفحةٌ تتدرّج ألوانها من الأزرق العميق إلى الفاتح حيث تلامس الأمواج حجارة الرصيف. خلفه اصطفت عتباتٌ حجرية متتابعة لبيوتٍ متلاصقة، ومن البعيد تتصاعد أصوات السوق، وتتعاقب في موجات قصيرة، لم يكن يستدعي شيئاً من ماضيه؛ فحسبه أن يسند ظهره إلى جذع السّدر ويترك صدره يهدأ. ثم رأى ما يخشاه كل أهل القحمة: نقطة صغيرة استقرّت عند طرف ثوبه فوق الركبة. نظر إلى لونها، لا يشبه طيناً ولا صبغةً، مدّ إصبعه ومسّ الأطراف بلطف، عندما سحبه رأى الأثر على الجلد كخيطةٍ قانٍ رقيق، ثمّ لمحت عينه نقطة ثانية تهوي على التراب عند قدمه، وثالثة على حاشية النعل، رفع بصره إلى السماء؛ لا غيم في السماء ولا طائر، همس لنفسه والهلع يعقد لسانه:

«دم! لطفك يا رب! بدأ الواحد والعشرون يوماً!»

نهض ملتقطاً عصاه، وأسرع الخطى نحو المسجد. عند العتبة الأولى رأى أثراً دقيقاً، وعند الثانية أثرين متباعدين، جاءه رجل يركض من الجهة المعاكسة، يرفع طرف ثوبه عن الأرض المرطبة ينقط مبعثرة، صرخ وهو يلتفت: «بدأ مطر الدم!»

هرع الصياد؛ لم يكن في اللحظة متسعاً للكلام، كان المؤذن عند باب المسجد يحمل خرقةً بيضاء، يلمس بها العتبة ويرفع

نظره إلى الأعلى بوجوم. خرج الإمام مساعد على الأثر، وقف على درجة الباب، وانحنى قليلاً، نظر إلى السماء ثم إلى الأثر على الخرقه، لم يطل الكلام، التفت إلى المؤذن آمراً: «نادِ الناس بالسكينة، وليبقَ كلُّ في بيته».

ثم وجَّه حديثه للصياد: «اذهب إلى السوق، قل لهم أن يفلقوا المحلات، ويعودوا إلى بيوتهم».

لم تكن نبرة تحذيرٍ صاخبة، بل جملةٌ مقنَّنة تعرف موضعها. اتَّجه الصياد إلى السوق، كان الخبَّاز يرفع صينيَّةً إلى الداخل، ورجلٌ يسأله: «هل نأخذ رغيفين أم أكثر؟» أجابه الخبَّاز: «خذ حاجتك فقط».

في الجهة المقابلة أغلق حسن الورَّاق باب المكتبة، وتأكَّد من القفل، ثم مضى دون أن ينظر خلفه، هدأت الأصوات دفعةً واحدة كأن السوق كلُّه أصيب بالخرس، أعينٌ تتبادل النظرات المذعورة، إشاراتٌ قصيرة، وأكفٌ تمتدُّ إلى الأقفال، وأقدامٌ تسوق الخطى إلى البيوت.

وقف جابر في الممرِّ الضيق بين دكانين، عيناه تُحومان كطائرٍ لا يستقرُّ، رفع رأسه إلى الأعلى، والتقط براحته قطرةً هبطت على جبينه، ثم قال مخاطباً الفراغ: «ذوقوا ما ذقته».

شدَّ رجلٌ على كتف ابنه وقال: «إلى البيت».

طوت امرأةٌ قطعة قماشٍ على عجل وقد علق بها أثرُ قانٍ صغير، عند الميناء ارتفع الماء مقدار ذراع عند الحافات، انحلَّ رباط حبلٍ عند عمودٍ، فانحنى شابان وأعادا الشدَّ، تأرجح قاربٌ فطَرَقَ لوحاً بآخر؛ نادى صاحب القارب على صاحبه وأمره بعبارة مقتضبة، فأحكم ربطه، تسَلَّت رائحة ملوحةٍ ثقيلة إلى الأزقة.

دلف الناس إلى بيوتهم سريعاً بلا جلبة: أمٌ تسحب ابنها من عتبة الباب وتقلقه، رجلٌ يختبر نقرة القفل مرتين. اتسع شق في جدار أحد البيوت ونزل ماءٌ كدر، رفع صاحب المقهى إبريق الشاي عن الجمر، وأدخل الكراسي إلى المقهى، وأسند اللوح المائل في السقف بعضاً طويلة، ثم قال لثلاثة كانوا على الطاولة: «قوموا».

نهضوا بلا نقاش، أغلق الباب وهو يناول أحدهم فنجانه ليفرغه في الخارج.

قال أبو فارس لزوجته وهو يقف عند النافذة: «أغلقها».

دفعت الدرفة بقوةٍ حتى التصق الخشب بالخشب، ومسحت شرائط رفيعة من البلل سالت عند الحافة، وقف فارس عند الشق بين لوحين يراقب المارة المهولتين، شاهد امرأةً تشدّ غطاء السطح بحبل، وطفلاً ينتبه إلى بقعةٍ على حجرٍ ويشير ثم تدخله أمّه، لم يقل فارس شيئاً، وضع الأب يده على كتفه ونظر إليه بصمتٍ.

كانت منيرة في بيت شجن حين بدأ المطر، ولما همّت بالعودة، قالت أم شجن وهي تضع يدها على رأسها: «تبقين الليلة هنا».

لم تجادل منيرة، نظرت شجن إلى النافذة ثم إلى لجين وقد اختبأت تحت الطاولة ولم تخرج رغم النداء، وقالت بصوتٍ منخفض: «سنكون بخير».

لم تطل زخات المطر، توقّف كما بدأ: على دفعاتٍ قصيرة، ثم أقلعت السماء. لكن الأثر بقي: نقاطٌ على الحجارة، أطرافٌ قانية عند حواشي الثياب، خطٌّ رفيعٌ داكن على عتبة هنا، وموضعٌ صغير على سطح قارب، وعلى واجهات البيوت. نادى المؤذن نداءً

مقتضبًا: «الزموا بيوتكم، واذكروا الله».

انكششت الأزقة على نفسها؛ أحكمت الأبواب أقفالها، وأخذت الفوانيس عند بعض المداخل تخفت وتتقد على إيقاع الريح الخفيفة، كان ذلك اليوم الأول، لم يسقط بيت، ولم يفرق أحد، لكن شيئاً تغيّر في القلوب صار للنهار ظلٌّ ثقيل لا يتسلل إلى الجدران بل يتغلغل في النفوس.

اليوم الثاني - صباح حذر

انحنى الرجال عند العتبات يبحثون عن أثرٍ متبقٍّ، يفتح الخبّاز مبكّرًا لكنه يكتفى بإخراج صينيّتين فقط، يقول لكلّ من يشتري منه: «خذ حاجتك ودع لغيرك».

يرفع الورّاق الباب قليلاً، وينفض الغبار بكفّه، ثم يفتحه كاملاً لساعةٍ واحدة وأغلقه.

يقف الإمام عند باب المسجد يقول لمن يسأله: «الطمأنينة لا تعني الغفلة احذروا».

في الميناء يسير وضاح بمحاذاة القوارب، يتفقدوها واحداً واحداً، يمسّ الحبال ويشدّ العقد أكثر من اللازم، ويوصي رجلاً ألاّ يقترب من البحر.

في بيت منيرة كانت الجدران رطبة والنوافذ مغلقة.

بقيت منيرة في بيت شجن نهائياً آخر، وأمّ شجن تقول لابنتها:

«لا تفتحي الباب إلا بعد أن تسألني من الطارق».

تتحرك لجين هي العجزة بثباتٍ حذر.
تجلس أم فارس أمام فنجانها البارد، وتحقق إلى الجدار
المقابل، تسمع وقع خطواتٍ داخل البيت فتعرف صاحبها دون
أن تراه، تقول في سرّها: «عاد من البحر لكنه ليس كما ذهب».
يتكور فارس على نفسه واضعاً كفه على الفص.
هذا اليوم في القحمة لم يكن عادياً؛ كانت القرية برمتها
تحبس أنفاسها وتحصي أيامها وتتأهب.

اليوم الثالث

ترتفع أسعار بعض السلع قليلاً، يصير الرغيف أقلّ لمن يطلب
أكثر، يأتي رجلٌ بعربةٍ صغيرة يحمل عليها متاعاً؛ لم يقل صراحةً
إنه سيفادر، لكنه ترك المفتاح لجاره وقال: «إن احتجت إلى شيء
فخذ من المخزن ما تحتاج إليه».
في السوق يمر جابر متمهلاً، ينظر إلى مواضع جفّ عليها
الأثر، ويقول لنفسه: «البدايات لا تُكذّب».
لم يعد الناس يقفون في مجموعاتٍ طويلة؛ فالكلمة تمرّ
بسرعة، والوجوه قليلة الكلام.
يخرج أبو فارس إلى العتبة، يراقب زحف الماء، ويتفقد
الأبواب، ثمّ يجلس قليلاً بلا حديث، تفرش أم فارس حصيراً
وتجمع أفراد البيت في حجرة واحدة.
«الحذر» كما تقول، لا أحد يعترض؛ فالحذر لم يعد عادة بل
ضرورة.

اليوم الرابع

صلاة موجزة في المسجد، وخطبة قصيرة لا تتجاوز ما يقال في موقفٍ عارض.

يقول الإمام: «من سأل الله السلامة رُزق ثباتاً على ما يكره، ومن شكر على القليل عُصم من الجزع».

لم يتحدث عن الغيب، لم يوقد في الناس ناراً جديدة؛ يعلمهم أن يغلقوا أبواب الفزع قبل أبواب البيوت، بعد الصلاة يقف الصياد عند شجرة السدر ويضع يده على الجذع لحظة، ثم يمضي.

في السوق عرض الوراق كتابين على صبيين جاء يسألان: واحدٌ عن قصص المواني، وآخر عن طبائع البحر، يأخذان الكتابين ويعدان بإعادتهما غداً، بيتسم الوراق ويقول: «غداً حسنٌ إن عشنا».

اليوم الخامس

تتقاسم العائلات الخبز والأرز، تطرق امرأة باب جاريتها وتقول: «هل عندك قليل من الطحين؟»

تأولها الجارة ما يكفي وتقول: «فلنتقاسم القليل».

يضع وضاح كتلة خشب تحت سقف المقهى المتصدع مع صاحب المكان، يسندها من الجهتين، ويمرر كفه على العارضة ليتأكد من ثباتها.

يظهر المجنون عند الزقاق ثم يختفي، يضع كفه على حجرٍ بقيت عليه بقعة صغيرة، لا يسأل أحداً ولا يجيب.

اليوم السادس

كان الليل أهدأ، لكن الانتباه مُشدّد، يتأوب الرجال على الوقوف عند العتبات حين يتأخّر أحد الأبناء خارج البيت. في بيت شجن تقول منيرة: «أريدُ أن أعود إلى البيت». ترد أمّ شجن: «ننتظر الصباح، ويمكنك العودة». تقبّل شجن جبين أمّها قبل النوم؛ تقف لجين عند الباب قليلاً كأنّها تفكّر في الخروج، ثمّ تعود إلى الداخل وتتمدد عند قدمي شجن.

اليوم السابع

يفتح السوق على مهل. يزيد الخبّاز عدد الأرغفة، ويفتح الورّاق نصف ساعةٍ لا أكثر. يتفقد الصيّاد الميناء، يقف عند حبلٍ شدّته يدها قبل يومين، يختبره ثم يتركه، يصعد أبو فارس إلى السطح، ينظر إلى الأفق، ثمّ يعود إلى الداخل، تعدّ أم فارس العدس على نارٍ هادئة، تقطع البصل وتقول لفارس: «لا تغادر البيت اليوم». يلزم مناع بيته، النافذة نصف مفتوحة، صوته لا يسمعه أحد، وخطواته قليلة.

يراه الصياد مرّةً عند العصر يمرّ من طرف الزقاق بعينين مطفأتين، فيغمض عينيه لحظةً ليدعو له، يجلس المجنون على حجرٍ عند أطراف السوق، يراقب ظلال المازين، يكتفي أن يقول لطفلٍ اقترب:

«الظلُّ أطول من قامتك».

يمضي الطفل دون أن يرد عليه، فيعيد وضّاح شدّ حبلٍ عند المقهى ويجرّبه، ثم يتركه في مكانه.

عند انتهاء الأسبوع، أصبحت القحمة مختلفة، ما زالت البيوت قائمة، والسوق موجودة، والمسجد مفتوحًا، والميناء لا ينام، لكن النظرات تغيّرت: باتت الأعين تتفقد السماء سريعًا قبل أن تواصل الطريق، صار الرجال يتفحصون الأقفال أكثر، والكلام مختصرًا، والطلبات محدودة، والابتسامات أقرب إلى إشارةٍ مفهومة منها إلى زينة. بقي في الأزقة أثرٌ خفيف من اللون، لا يراه إلا مَنْ يعرف مكانه؛ خطُّ بنّيٍ نحيل عند حجرٍ، بقعةٌ تميل إلى السُمرة فوق عتبة، أثرٌ على سطح قاربٍ ممسوحٍ نصف مسحة.

لم يعد المقهى كما كان: أصبح السقف مسنودًا من الداخل بعصوين، والطاولات مرتّبة على حذرٍ لا على عجل، صار الورّاق يفتح ويغلق كمن يقيس نبض المكان ساعةً بساعة، والخبّاز يوزع أرغفةً تكفي الناس بلا إسراف، يكتفي الإمام بكلماتٍ قصيرة، لا يبنى أسطورة ولا يفتح باب تأويلٍ غامض، بل يذكرهم بما يروونه بأعينهم: أن اجتماع البيوت يحفظهم، وأن الانتباه عبادةٌ أخرى، الصياد الذي بدأت عنده الحكاية، صار كلّما مرّ بالسّدر وضع كفّه على الجذع لحظةً ثم مضى، لا يطلب من الشجرة شيئاً،

بل يترك لها صمتها، ويأخذ منها ظلًا يمشي فيه إلى السوق أو الميناء.

في بيت شجن، انضبطت الأنفاس على إيقاع واحد: أم تُحكم إغلاق الباب بعد المغرب، وشجن تجمع تفاصيل نهارها في سطرين لا تكتبهما، ومنيرة ترتب ما استطاعت وتستعد للرحيل إلى بيته في الصباح، تعود لجين إلى عاداتها القديمة: تقف عند النافذة، تتشمم الخارج لحظة، ثم تعود إلى مكانها. وفي بيت أبي فارس يلتم الشمل مساءً في حجرة واحدة. يُطيل أبو فارس النظر إلى سقف البيت قبل النوم؛ لا ليبصر شيئاً، بل ليستجلي فيه ما عزم على إنفاذه غداً طيّ الكتمان. وتدأب الأم على وضع الماء قرب العتبة -في عادةٍ استحدثتها مؤخراً- وهي توصي فارساً: «إياك والخروج».

يجيب: «لن أخرج».

تناهت من الخارج أنباءٌ شحيحة عن عائلةٍ آثرت النزوح مؤقتاً إلى أقاربها في قرية مجاورة، لم تغير هذه الأخبار سلوك الناس كثيراً؛ فالباقون ليسوا أبطالاً، والمغادرون لم يجانبوا الصواب، كل ما في الأمر أن القحمة تعلّمت في أسبوعٍ واحد أن تُصغي أقل إلى ضجيجها لترهف السمع إلى نبضها الداخلي وتدرك حدودها.

مع غروب اليوم السابع وقفت امرأةٌ عند عتبتها، نظرت إلى السماء، لم تر شيئاً غير لونٍ برتقاليّ خافت، ثم فتحت الكف قليلاً كمن يختبر قطراً غير موجود، ابتسمت وأغلقت الباب. في السوق رفع صاحب المكتبة الباب نصف رفعة ثم أعاده وأقفل، ومسح العتبة بيده ومضى.

هكذا انقضى الأسبوع الأول: لا وابل ولا صواعق، بل بداية صغيرة على قدر قطرة، غير أن ما استقر في الصدور كان أوضح من كل أثر على الحجر: حذرٌ حلّ في البيوت ضيفاً ثقیلاً الصمت، لا يلجّ بالكلام لكنه حاضر. لا أحد يعرف ماذا يُسمّى ما حدث، ولا يحتاجون إلى تسميته، فالمهم أن يتهيئوا لما بعده، وأن يظلّوا معاً حين تتفرّق السبل، وإن كان الأسبوع الأول قد علّمهم شيئاً، فهو أنّ القلوب حين تجتمع تحت سقفٍ واحد، تُحصي الأيام بطريقة تُبقيها قائمةً حتى إذا مرّت بها الريح مرّةً أخرى لم تقتلع ما أمسكته الأيدي، أما السماء التي أرسلت قطرتها ثم سكّنت، فقد صارت تُتظر كلّ صباح نظرةً قصيرة، ثم تُترك لشأنها، لأن الناس تعلّموا في سبعة أيّامٍ أن يُكملوا حياتهم على قدرٍ جديد من الانتباه، وأن يضعوا بين النداءات والردود مسافةً صغيرة اسمها: «لن نستبق الرعب، ولن نتهاون».

ميناء مصوع

خرجت السفينة من ظل الميناء، تتمايل وهي تُوازن ثقلها على الماء قبل أن تستقيم، الأشرعة نصفُ مرفوعة، والحبال ممدودة كعروقٍ نافرة، على الميسرة غالب فانوسٌ وحيدٌ العتمة، يصرّ على أن يمنح الليل ما تبقى من ضوء، يخبو تارةً ويتوهج أخرى، فيما تمتزج رائحة القطران برائحة الملح، شقّ السكون كاشطٌ حديدي وهو يُسحب على سطح الألواح، ثمّ خشخشةٌ لسلتين من التمر تُوضعان قرب العارضة، وفوق ذلك صوتٌ رخيم للبحر إذا لامس جسم السفينة من الجانبين. اقترب الرّبان مروان من فتحة المخزن، وكشفه منحنيّتان من أثر العمر والبحر، ومع ذلك كانت في مشيته بقية من عنفوان الشباب، كان يعرف أنه أخذ رجلًا من يد رجلٍ آخر، وأن البحر حين يأخذ سرًا لا يُعيده كما كان، انحنى عند الفتحة، لم ينادِ، بل نقر نقرتين على التابوت، ثم قال: «هيا اخرج».

وبعد لحظة سُحب الغطاء إلى الجانب، فانبعث هواءٌ محبوس ممتزج برائحة العرق، برزت يد ناصب تتلمس الحافة، تلاها وجهٌ مثقلٌ بالإعياء والقلق، لم ينهض دفعةً واحدة، بل حرّك جسده، رفع نصفه أولاً، ثمّ جلس على الحافة مدليًا ساقيه، وبعد لحظة انتصب واقفًا، وأطلق زفرةً طويلة.

كان التابوت ثابتًا في مكانه، موثّقًا من الجانبين بحبلين، تفرّس ناصب في وجه الرّبان، فلمح في عينيه مزيجًا غريبًا: صرامةٌ بحّار لا تعرف اللين، واعترافٌ خفي بأن ما يحدث هنا

يتجاوز حدود التجارة، أوماً الرِّيانَ إيماءً قصيرة، وقال: «ما دُمنّا خرجنا من البرِّ، فليس لأحدٍ عليك سبيل، لا تُكثر الكلام، البحر لا يحبّ الذين يشرحون له».

هز ناصر رأسه، لم يكن لديه كلامٌ زائدٌ، مرّ بحاران من الخلف، توقفاً هنيئاً ثم مضيا. في طرف السفينة عند الحاجز الخشبي، كان بعض الركاب قد استيقظ من نومٍ متقطّع: رجلٌ يتدثر ببطانية سميقة، يههم بشيءٍ ثم يعود إلى النوم مرة أخرى، امرأةٌ تحمل سُبْحَةً في يدها فيما تخفي الأخرى وجهها يحتاج إلى مزيد من النوم، وصبيٌّ ينظر إلى الماء كأنه يبحث عن سمكة، لم يجهل أحدٌ على هذه السفينة أن هذا التابوت لم يكن لميت، فالكل شهد في كُدْمبل، خشبٌ يحمل بشرًا، ورجالٌ لا يسألون كثيرًا، ومع ذلك تواطأ الجمعُ على الصمت مُسلمين أمر الفجر للبحر وأمر الرجل للريان، وما بينهما السمع والطاعة.

تقدّم ناصر إلى الحاجز، وضع يده على الخشب فأحسّ ببرودة، امتدّ البحر أمامه عاريًا بلا بيوت ولا مقابر، بلا باب يؤوب إليه، شعر لوهلة أن النجاة ليست بلوغًا لمكان، بل ابتعادٌ كافٍ عن آخر، نظر إلى الأفق الذي لم يتّضح بعد، وقال في نفسه: «هريتُ منك أم مني؟»

لم يملك جوابًا يسند السؤال، صار لكل دقيقة على السفينة وجه، صباحٌ يتشاءب قبل أن يفتح عينه، لم يعد ناصر غريبًا تمامًا لكنه لم يصبح واحدًا منهم، جلس يحصي الوقت بطرقة الخشب كلما اشتدت الرياح، ويراقب ترتيب أعمال البحارة: رجلٌ يختبر الجبال بكفٍ خبيرة، يسمع الصوت كما لو كان حوارًا بينه وبين

الليف، وآخر يقلب دلاءً فارغة ثم يملؤها ماءً عذباً من قرب معلّقة، وثالثٌ يمسح ظهر السفينة، تعلّم أسماء لا تُتأدى: اسمُ العقدة إذا انعقدت في المكان الخطأ، واسمُ البكرة إذا أحدثت ضوضاء، واسمُ الزرقة حين تتبدّل نحو الشحوب، لم يكن يتكلم كثيراً، لكنه كان يردّ السلام حين يُلقى عليه، ويمدّ يده إن احتاج أحدهم إلى مساعدة، ذاتَ لحظة زحزح قفصاً صغيراً من السمك المملّح لامرأةٍ لم تستطع رفعه وحدها، فقالت وهي تلتقط أنفاسها: «بارك الله فيك».

اكتفى بأن هزّ رأسه، لم يكن يريد أن ينبت في القصص التي تلوكها الألسن، كان يريد أن يعبر بينهم مثل ظلّ خفيف لا يزعج أحداً، جلس قرب رجلٍ في منتصف العمر، يعلو وجهه الأسمر آثار سفرٍ طويل، وفي عينيه سكينٌ لا تشبه صخب البحر، كان يقطع التمر نصفين، يقدم نصفاً لنفسه ويمنح الآخر لجليسه دون سؤال، وضع نصفاً أمام ناصر دون أن يقول شيئاً.

تناول ناصر التمرة ومضغها متفرساً في الرجل، لم يكن فيه ما يبعث على الريبة: كتفان عريضتان ككتفي فلاح لا يرفع صوته، وكفّان فيهما قسوة العيش لا قسوة القلب، وابتسامة صغيرة لا تزهو ولا تتسوّل، وملامح تبعث على الارتياح. سأله الرجل:

«أمن أهل البحر أنت؟»

قال ناصر: «أنا من أهل البرّ الذي لم يعد لي».

قال الرجل:

«البرّ لا يُسمّى بيتاً إلا إذا سمعت فيه صوتك كما هو، أما البحر فيسمعك، لكنه يُعيدك إليك بصيغةٍ أخرى».

التفت ناصر إليه، لم يتوقع كلامًا كهذا من رجلٍ يقسّم التمر بعفوية، أردف الرجل: «اسمي صالح».

ردّ ناصر بعد ترددٍ: «أنا ناصر».

لم يمدّ أحدهما يده للآخر، ففي البحر بعض المصافحات تُوجَل، ليس لأنها لا تستحق، بل لأن الوقت يُؤثر أن يختبر صبر الناس قبل أن يوقّع على صداقاتهم، تكررت جلساتهم، كان صالح يتحدث قليلاً، يسأل عن النوم، عن الدوار إن كان قد زال، عن وجع في مفصلٍ، وناصر يجيب بجمالٍ قصيرة منضبطة كمن يزن كلماته قبل أن ينطقها. وبالقرب من الحاجز كان بحارٌ شابٌ يعلم صبيًا ربطَ عقدةٍ لا تتحلّ بسهولة، يضحكان حين تقلت من الصبي، ثم يعاودان الكرة، والسفينة تمضي على خطٍ طويلٍ يشبه سطرًا طُبع على لونٍ لا يريد أن يظلّ ثابتًا، ثم حدث شيءٌ صغير لا يحدث عادةً دون أن يترك أثرًا، أنت البكرة أنينا غريبًا، فتوقف رجلان عن الكلام، ورفع ثالث رأسه كأنه سمع اسمه، في تلك اللحظة وضع ناصر يده على إصبعه، وتحسّس خاتمًا لا يعرف متى صار جزءًا من جلده أكثر مما هو حلية، وخيّل إليه أن شيئًا سيسقط من علو، أحسّ به كأن مسارًا دقيقًا انحرف شعرةً واحدة، والشعرة هذه إذا تُركت صارت خيطًا، التفت إلى صالح دون أن يدري لماذا، وقال بصوتٍ منخفض: «قف مكانك، لا تتقدّم نحو الظل».

لم يفهم صالح لكنه توقّف، وفي اللحظة التالية هوت قطعة خشبٍ من الأعلى، لم تكن ثقيلة بما يكفي لتؤذي رجلًا، لكنها كانت كافيةً لتترك على كتفه أثرًا أرجوانيًا لو كان تحرّك خطوةً

واحدة، نظر صالح إلى ناصر لا إلى الخشبة، وقال بدهشة: «كيف عرفت أنها ستسقط؟»

قال ناصر: «لا أعلم!»

لم يشرح، والبحر كما قال الرّيان لا يحبّ الشروح، منذ تلك اللحظة لم يعد صالح يجالسه كعابر سبيل يشاركه التمر، بل كمن يحرس شيئاً عزيزاً عليه، أصبحا حديثهما قليلاً، لكن حين تُقال كلمةٌ تذهب بعيداً، وفي سكون المساء إذا هدأت الأقدام على الألواح، كان ناصر يسمع في أصابعه وجيباً لا يشبه النبض كأنه إشارةٌ تأتي من جهةٍ لا تُحدّد بالبوصلة، لا هو ألمٌ ولا لذة، شيءٌ غريب، يدعو إلى الانتباه، وفي مرّةٍ أخرى حين كانت امرأةٌ تعبّر بطفلها قرب حافة السطح، التفت بسرعة ومدّ كفه، ومنع قدم الطفل أن تتزلّق، قالت المرأة: «جزاك الله خيراً».

اكتفى بالسكوت، كان يشعر أن الكلام إذا أُطلق في غير مكانه يُثير جدلاً عقيماً. صار لصالح وناصر مكانٌ معلوم، يضع صالح نصف تمرة، ويضع ناصر نصف صمته، يلتفتان إذا صاح صوتٌ غير مألوف، ويتبادلان نظرةً خاطفة إذا كان في الهواء تغييرٌ خفيف. قصّ صالح شيئاً من حياته: قال إنه جرب البرّ طويلاً، وأنه حين وطئ البحر أول مرة لم يكن يريد أن يعود، ليس لأن البحر أفضل، بل لأن البرّ في ذلك الوقت كان ضيقاً على صدره، سأله ناصر:

«هل يعود الناس حين يتسع البرّ؟»

قال صالح: «أحياناً، لا يعودون حين يتّسع، بل حين تتسع

رؤاهم».

لم يعلق ناصر، لكنه شعر أن جملةً مثل هذه لا تُرمى للهواء، بل تُخزَّن في شفاف القلب لاستعمالٍ لا يعرف مواعده. لم تكن السماء مختلفة كثيرًا، لكن الريح تحوّلت، هبّت من جهةٍ لم تأتها من قبل، فحرفت الأشرعة إلى زاويةٍ أخرى، وجعلت الموج يجرّ سفينتهم نحو مساراتٍ يجهلها الرّبان، وقف الرجل عند الدفة مقلّبًا بصره بين الغرب والجنوب، ثم استعاد هدوءه.

كان يألف هذا النوع من الأيام، فيها ريحٌ لا تُخيف، لكنها تنظر إلى السفينة بأعينٍ هادئةٍ وتقول: «لماذا لا تجرّب هذا الطريق؟» يفقه البحّارة لغة الريح، بعض القرارات لا تُتخذ لأن الرّبان يحبّ المغامرة، بل لأن الريح إذا أوصت لا تُخالف، مالت السفينة برفق، وانعطفت في قوسٍ طفيفٍ نحو الجنوب الغربي، كان في الأعين سؤالٌ لا عتاب فيه:

«هل اليمن طريقنا، أم إلى سواحل أخرى؟»

لم يقل الرّبان كثيرًا، اكتفى بأن قال لمن سألته: «سنمرّ حيث الماء يرفق بنا».

شعر ناصر أن سكينه حلت في صدره، لم تكن إحساسًا بالأمان، بل تصالحًا مع فكرةٍ لا يستطيع مشاركتها، فالطريق التي تُجبر على سلوكها قد تكون قدرك المنتظر وأنت لا تدري، نظر إلى صالح فوجد في عينيه التفاتةً تشبه الموافقة، لم يتفقا على شيءٍ، لكنّ كليهما أحسّ أن المسار الجديد ليس نزوةً في عقل رجل، بل استجابةً لنداءٍ ريحٍ لا يسمعه إلا من أتقن الإنصات، اشتدّ الهجير، ولمع السطح من كثرة الدهانات المجففة على الشمس.

انكفأ بعض الركاب إلى الظلّ قرب المخزن، وتوزّع البحّارة على أعمالٍ تُشبه الرقصات المتكرّرة التي لا يملّها أصحابها. شارك ناصر في نقل قفصين من المؤن إلى موقعٍ أكثر أمناً مع ميل الظلّ، لم يظهر أنّ البحر أنهك جسده، وحين مرّ قرب العارضة الكبرى، رفعت الريح رده، فلامس الخاتم ضوءاً خفيفاً، وانعكست منه ومضةٌ ليست حادة، لكنها واضحةٌ لمن ينظر إليها. لم يكن في السفينة من يعلّق على خواتم الرجال، فالبحر يعرف أن بعض الأشياء تلبس للذكرى وليست للتباهي، مع ذلك كان هناك في طرف السطح رجلٌ يراقب الأشياء الصغيرة بعينٍ خبيرة، ويعجب كيف أن الأشياء وهي صامتة تقول أكثر من أصحابها حين يتكلمون. ومع انحناء المسار تغيّر شيءٌ في البحر، صار صوتُ اصطدام الموج بالألواح أعمق، وتباعدت المسافة بين الأمواج كأن البحر يفتح ممراً عريضاً لمن لا يريد الاصطدام بأحد، أشار الرّبان إلى نقطةٍ في الأفق لا تُرى إلا إذا اعتدت قياس المسافات بالأعين، وقال لمن بجانبه:

«نقترب من طريقٍ يُريح السفينة، سنتزود فيه بالماء والطعام».

لم يقل إلى أين، لا حاجة إلى هذا التفصيل الآن، في السفينة يكفي الناس أن يعرفوا إن كانوا ذاهبين إلى تعبٍ أشدّ، أو إلى راحةٍ ساعةٍ ثم تعبٍ بعده، فساعةٌ من الراحة كافيةٌ ليعود الرجاء إلى بعض الوجوه. جلس صالح قرب ناصر لكن بلا تمر، جلسا صامتين دقيقتين، ثم قال صالح:

«حين تتغيّر الريح، يتغيّر الناس معها، ليس لأنهم بلا عزائم، بل لأنهم يعرفون بأن العزيمة في غير موضعها عناد».

قال ناصر: «في البرّ يسخرون ممن يغيّر رأيه، أما في البحر
فالثابت على رأيه يغرق».

ابتسم صالح، وسرح بنظره في الأفق، وقال: «إذا دخلنا في
طريق الماء الرقيق، سنرى سواحل لا تلوّح لنا بأيديها، بل بجبالٍ
تشبه ظهرَ بشري نائم».

لم يسأله ناصر كيف يعرف، ففي عيني الرجل محطاتٌ
أكثر مما في دفاتر البحّارة من خرائط، وكان ناصر يشعر أن
هذه المعرفة لا تُقطف دفعةً واحدة، بل تُؤخذ كما يُؤخذ الدواء:
جرعاتٍ صغيرةً في أوقاتٍ محدّدة، كان الهواء بارداً بما يكفي
ليوقظ الذكريات، وداقناً بما يكفي لترك الناس ينامون دون أن
يتلّووا. تمدّد ناصر على لوحة خشبية قريبةٍ من الحاجز، ليست
بعيدةً عن التابوت الذي بات مجرد صندوقٍ فارغ زالت حاجته،
أغمض عينيه، ولم يعد يرى المقبرة التي خبأ فيها نفسه بين
لوحين، ولا الرصيف الذي ودّعه بصفّارةٍ قصيرة، بدت السفينة
أخفّ وزناً كأنما ارتدت معطفاً على مقاسها، انحنت الأشعة إلى
زاويةٍ رضي عنها الرّيّان، وانتظمت حركة البحّارة على السطح،
أفاقت امرأةً واضعةً يدها على صدرها وقالت: «يا رب، خيراً».
قال رجلٌ وهو يفرّغ دلوّاً: «حين يرضى البحر، تطمئنّ الناس».

وفي غمرة هذا الرضى الخفيف الذي لا يُسرف في الوعود،
لمح ناصر بعيداً عن حدّ العين خطأ داكناً يبزغ من قاع اللون:
ليس جزيرة واضحة، ولا ضباب عابث، شيءٌ بينهما، لم يقل كلمة،
فقط وضع كفّه على الحاجز، والتفت إلى صالح، فوجد الرجل
قد سبقه إلى النظر، قال صالح دون أن يرفع صوته: «هنالك ماءٌ

نَشْرَبُ مِنْهُ، وَظَلُّ نَرْتَاحُ فِيهِ سَاعَةً، ثُمَّ تَعُودُ السَّفِينَةُ كَمَا وَعَدَ الرَّبَّانُ».

سَأَلَ نَاصِرُ: «هَلْ يَفِي الْبَحْرُ بِالْوَعْدِ؟»

قَالَ صَالِحُ: «الْبَحْرُ لَا يَعِدُ، الْبَشَرُ يَعِدُونَ بِاسْمِهِ».

عَادَ الرَّبَّانُ مَرَوَانَ فَوْقَ قَرِيبًا مِنْهُمَا، لَمْ يَقْصِدِ الْحَدِيثَ، لَكِنَّهُ قَالَ كَأَنَّهُ يَخَاطَبُ سَفِينَتَهُ لَا النَّاسَ: «نَمْرُ، ثُمَّ نَمْضِي».

لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ. مَكْتَبَةُ سُرْمَنْ قَرَأَ

كَانَتْ الْإِجَابَةُ فِي انْحِنَاءِ اللُّوحِ، وَفِي ارْتِخَاءِ الْحَبْلِ، وَفِي صَوْتِ الْبَكْرَةِ الَّذِي صَارَ عَلَى نَفْمَةٍ يَعْرِفُهَا كُلُّ مَنْ اعْتَادَ هَذِهِ الْمَهْنَةَ، وَحِينَ تَحَرَّكَتِ السَّفِينَةُ إِلَى الْيَسَارِ أَكْثَرَ، حَدَثَ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ الدَّقِيقَ الَّذِي لَا يَلْتَقِطُهُ إِلَّا الَّذِينَ تَعَلَّمُوا الْإِصْفَاءَ: صَارَتِ الْأَمْوَاجُ تَدْخُلُ تَحْتَ الْبَطْنِ وَتَخْرُجُ بِانْسِجَامٍ أَوْضَحَ، وَصَارَ صَوْتُ الْمَاءِ إِذَا كَسَرْتَهُ الْمَقْدَمَةُ أَقْرَبَ إِلَى هَمْسٍ طَوِيلٍ لَا يُتَعَبُ صَاحِبُهُ، وَفِي صَدْرِ نَاصِرٍ حَدَثَ تَغْيِيرٌ آخَرٌ، غَابَ الْوَجِيبُ الَّذِي كَانَ فِي أَصَابِعِهِ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ سَكُونٌ لَا يُفْزَعُ، كَأَنَّ الْيَدَ الَّتِي كَانَتْ تُنْذِرُ اكْتَفَتْ الْآنَ بِالْإِشَارَةِ، التَفَتْ إِلَى التَّابُوتِ الَّذِي صَارَ جِزْءًا مِنْ قِصَّتِهِ لَا مِنْ الْمَكَانِ، ثُمَّ أَعَادَ نَظْرَهُ إِلَى خَطِّ دَاكِنٍ يَكْبُرُ.

هَكَذَا وَلَجَتْ السَّفِينَةُ مَسَارَهَا الْجَدِيدَ دُونَ إِعْلَانٍ كَبِيرٍ: لَا طَبُولَ، وَلَا صِيحَاتٍ، مَجْرَدُ رِيحٍ فَهَمَّهَا الرَّبَّانُ، وَقُلُوبٌ فَهَمَّتْ مَا تَقُولُهُ الرِّيحُ حِينَ تَغْيِيرِ مِيلِهَا، وَمَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ تَرَكَ عَلَى جِلْدِ الْيَوْمِ نُدْبَةً خَفِيفَةً، وَمِنْ هُنَاكَ مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي تَحْبِسُ ظِلَّهَا عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ قَلِيلًا، كَانَ مَا يَنْتَظِرُ نَاصِرَ أَقْرَبَ مِمَّا يَظُنُّ، وَأَبْعَدَ مِمَّا يَرِيدُ، أَمَّا الْقَحْمَةُ فَتَلَاشَتْ خَلْفَهُمْ حَتَّى غَدَتْ طَيْفًا بَاهِتًا.

بان ظهرُ اليابسة، نتوءات صخرية، وشريطٌ رمليّ، وبقعُ خضرةٍ متناثرة، ومن خلفها عمرانٌ منخفضٌ تهطلُ فوقه ظلالُ النخيل، تقدّمت السفينةُ بحذرٍ، والريحُ تميلُ بها إلى زاويةٍ تُرضي الأشربة، عبق الجو برائحة البنّ المحمّص والبخور كأن اليابسة تُرسل تعريفها قبل أن تُسلمَ المرسى. تفحص الرّبان العلامات: منارة بيضاء تعلو مبنىً مسقوفاً بقبوٍ حجري، قوارب صغيرة تروح وتجيء، رجالٌ على الرصيف يلوّحون بمجاديفهم. أشار بيده إشارةً هادئة، فانخفض الشراعان، وانزلت السفينةُ في ممرٍ مائيّ ضيّقٍ، ارتفعت الأصوات كأن اليابسة ترحب بأهلٍ عادوا أو غرباءً حلّوا، رسّت السفينةُ في «ميناء مصوع الإريتري».

لا لافتات كثيرة، ولا أعلامٌ عالية، بل حركةٌ بشريةٌ متينة: حمّالون مفتولو السواعد، ونسوةٌ يبعن الخبز في صحون قصدير، ورجالٌ يشعلون جمرًا صغيرًا تحت دلات القهوة فتنتشر رائحةُ تريح الصدر، وأصواتٌ تتداخل بين العربية ولهجاتٍ أخرى، وإشاراتٌ أيدٍ تفهم بعضها بعضًا وإن اختلفت الألسن، صاح الرّبان برجاله: «ماءٌ وطعام وما ينقصنا، ساعةٌ ونمضي».

ثم التفت إلى ناصر: «إن أردت أن تمشي، فامش قريبًا، اجعل البحر في عينيك، ولا تُطل الغياب».

نزل ناصر مع صالح إلى رصيفٍ مشبع بالبرطوبة وضجيج الباعة، عن اليمين تداخلت أكواخ السوق تحت سقوف خشبية عتيقة، تتدلى من عوارضها جبالٌ وشباكٌ قيد الإصلاح وقلاذاتٌ

من صدف البحر وبسط ملونة وأقراط نحاسية، الحركة هنا لا تهدأ؛ صبيّ يجرّ قفص دجاج والناس تتبادل التحيات بود، وفي الزقاق مقهى ضيق نوافذه خشبية مثقبة، ينبعث منه بخار القهوة، ورنين الملاعق المعدنية والكؤوس.

قال صالح وهو يتقدم: «نأخذ ماءً وشيئاً من الطعام، ثم نعود». وافقه ناصر: «حسناً».

مرّاً بدكانٍ يبيع أدوات صيد: خطاطيف معلقة، وشباك مطوية، وحبال تشبه الأفاعي النائمة. كان صاحبه أسمر البشرة عريض الكتفين، عيناه سوداوان. ما إن وقع بصره على الخاتم في يد ناصر حتى تجمدت ابتسامته، ثم عاد لعمله متصنعاً أنه لم ير شيئاً، لم يتكلم، لكنه أرسل نظرة أخرى خاطفة كنقرة سريعة. التفت ناصر فلمح عند باب المقهى شيخاً نحيلاً بلحية بيضاء يتكئ على عصا، يثبت نظره على يد ناصر، ثم يصرفه كما لو أن العين تخفي ما أخذته للتو. لم يطبلا الوقوف، اشترى صالح قربة ماء صغيرة وخبزاً، وعادا إلى الرصيف، حيث كانت قوارب الصيد تؤوبٌ مُثقلة السمك، والماء المالح يسيل على ألواحها ليترك خطوطاً بيضاء عند الأطراف، وفي غفلة انقضّ نورسٌ ليخطف كسرة خبز من كفّ طفل؛ فضحك الصغير للوهلة الأولى قبل أن يجهش بالبكاء، ضمته أمّه وهي تزجر النورس بكلمات لا يفهمها.

قال ناصر: «هذه الأماكن تعرف الوافدين من وقع خطواتهم».

رد صالح: «والمواني تحبّ من لا يطيلُ المكوث».

قال ناصر: «فهمت».

عادا إلى السفينة محمّلين بما يكفي. كان الرّيان يحصي المؤن على عجل: ألواحٌ وماءٌ وقليل من الزيت وبضعة أشياء أخرى، لم يسألها أين ذهبا، يكفيهما أنهما لم يتأخرا، رُفع الحبلُ الثخين، وانزلت السفينة قليلاً، ومع أوّل دفعةٍ ريحٍ من جهة البحر، تخلّت الياينة عن يدها. لمّا خرجوا من حضن الميناء صار اللونُ واحداً والنسيمُ أشدّ نقاءً كأن السفينة تستردّ صوتها بعد صخب. وقف ناصرٌ وصالحٌ عند الحاجز، وعلى صفحة الماء انبسطت مرايا قصيرة تختفي سريعاً تحت ظلّ الشراع، وفي الخلف تناهى صوتٌ دلوٍ يُفرّغ، وصدى ضحكٍ يتلاشى.

قال ناصر: «إن افترقنا، فاقصد راشد وقل له: أبوك لم يتخلّ عنك، وإن حال بيننا البحر فليس البحر عذراً بل طريقاً».

قال صالح: «أبلغه إن استطعت، ولكن كيف أجده؟»

قال ناصر: «سيجذك إن لم تجده، ادخل القحمة وسل عن راشد بن ناصر، وسيأتيك من يعرفه».

تأمّل صالح البحر لحظةً، ثم قال:

«سأفعل، والبحرُ يشهد».

رفع ناصرُ كفه، وتلمّس الخاتم، امتزجت برودة المعدن بدفء جلده، وحين أطبق أصابعه، فعاد إليه الإحساس: إشارةٌ تحذيرية غريبة، تدوّن في جسده ما لا تقوله الريحُ، لم يشأ أن يشرح، فقد قال الرّيان يوماً: البحر لا يحب الشروح.

قال صالح: «لَمْ بدا عليك الخوف حين كنّا في الميناء؟».

قال ناصر: «لأن الخوف يُلازم من يظنّ أنه يملك ما لا يُقدّر

بشمن».

سكت صالح، ولم يزد. مالت السفينة قليلاً، والريّانُ يأمر
برفع الشراع تارة وإرخائه تارة أخرى.

وفي الأفق رسمت الريحُ للمسافرين درباً نحو الشمالِ
الشرقيّ: اليمن.

كان على الوجه ماءٌ غزير، وعلى القلب سؤالٌ عسير: أيعود
الرجلُ حين يصل، أم يضيع حين يقترب؟

جلس بعضُ الحجاج في ظلالٍ قصيرةٍ صنعوها من قففٍ مقلوبة،
وتلا رجلٌ بضعة آياتٍ ثم نفخ على كفه ومسح وجهه، كان صالح
يوزع الماء، وناصرٌ يعينه صامتاً، لاحت سفينةٌ بعيدة بلا راية،
تمضي إلى غايةٍ لا ينازعها فيها أحد، تحت سماءٍ تفرقت غيومها
خيوطاً واهية.

وحين لانت حدة الشمس عصرًا، ومالت الأشرعة إلى وضعٍ
رضته الريح، جلس ناصرٌ وصالح عند مؤخرة السفينة، أخرج
صالح تمرًا وقسمه بينهما، والسماءُ تتباطأ في الانطفاء. ارتفع
خطٌّ من البرّ من جهةٍ يعرفها البحّارة، اتّسع شيئاً فشيئاً حتى
صار شريطاً واضحاً، تتناثر فوقه بيوتٌ ذات أسطحٍ بيضاء، ومن
خلفها مآذنٌ خفيفة: «ميناء الحديدة، اليمن».

سبقت رائحةُ البهارات مشهدَ السوق: فلفلٌ وكُمونٌ وقرفة
ورائحةُ سمكٍ طازجٍ تُذكرُ الناس أن البحرَ يهبُ الأرزاق لا الكلام.
دخلت السفينةُ الممرَّ المائي، فباغتها ضجيجُ الميناء قبل أن ترى
الوجوه: نداءاتُ حمّالين، وصريرُ عجالاتٍ، وصفيرُ صبيٍّ يتسلّى
بزجاجةٍ فارغة.

على الرصيف طيورٌ سمينة من كثرة ما أُطعمت، تنقر ثم تنقر
إلى سماءٍ أعلى. وعند السلالم رجالٌ يساومون على أجرَةٍ تُقال
على أصابع أكثر مما تُقال بالأفواه.

هبط ناصِرُ مع صالح، وما إن لامست قدماه الحجر الساخن
حتى دبت فيه الحياة كأنه نفّض عنه رُقَادًا طويلًا. تداخلت
الأصواتُ حتى صارت طبقةً واحدةً متماسكة لا تُفهم منها كلمةٌ
كاملة، لكن أثرها تُدركه الكتفُ إذا احتكَّت بأكتاف الناس. مضيا
بتمهّلٍ بين الأزقة التي تخرج من الرصيف إلى عمق السوق، إلى
اليمين بائعُ مسابح، وإلى اليسار عطارٌ يزن عودَ صندلٍ ويختبر
رائحته بأنفٍ خبير، وعلى السقف ألواحُ خشبٍ تُلقي ظلًا منقطًا،
وعلى الأرض خطوطُ ماءٍ تُتّبّه الأقدام إلى حذرٍ لازم. عند زقاقٍ
يُتّسع قليلًا وقف شيخٌ مسنٌّ مهابٌ في وقفته، ليس طويلًا ولا
قصيرًا، عينُه تلمع كعين قاطعٍ حُجْرٍ يعرف درجاتَ البريق، حين
وقع بصرُه على الخاتم في يد ناصِرٍ توقّف وتقدّم خطوة، ثم هال
بصوتٍ واثقٍ هادئ:

«من أين لك هذا الخاتم؟»

أجاب ناصِر: «من بيتٍ لم يبقَ منه إلا أثرُ الملح على الجدران».
قال الشيخ: «بعضُ البيوت تُحفظ صورُها في الذهب لا في
الحجر».

قال صالح بنبرةٍ قريبةٍ من التحفظ: «لا شأن لنا بالذهب،
نبتغي ماءً ونمضي».

التفت الشيخ إليه دون أن يخفي ابتسامته القصيرة: «الماءُ
طريقٌ، والذهبُ علامة، ليست كلُّ العلامات للزينة».

لم يُطَل الشيخ الوقوف، مضى في طريقه لكن عينه لم تفارق يدَ ناصر حتى غاب عند الزاوية. قال صالح: «هذا رجلٌ يعرف مراده قبل أن يقوله».

قال ناصر: «ومثله لا ينسى ما رآه».

عادا إلى السفينة، وعند منعطف السوق توقف الشيخ يرمقهم بنظرة أخيرة، عيناه مثبتتان على خاتم ناصر ثم انصرف إلى خانٍ قديم، وهناك فتح مخطوطة قديمة على نقشٍ يطابق الخاتم تمامًا، وتمتم بهدوء: «سنلتقي، الطريقُ واحدةٌ لمن يعرف العلامات».

وعلى حافة الرصيف تأهب قاربٌ شراعيٌّ صغيرٌ لتعقب السفينة كظلٍّ صامت.

غادرت السفينةُ الحُديدة، وسار خلفها طيلة الليل فانوسٌ بعيد على صفحة الماء، يظهر ويختفي مع حركة الموج، لا يقترب ولا يبتعد، تبادل صالح وناصر نظراتٍ صامتة، وكلُّ منهما يدرك أن هذه المرافقة لم تكن مصادفة، ولكنَّ أيًّا منهما لم يَنطِق بتلك الحقيقة.

دخلوا المُخا، حيث يعبق المرسى برائحة البن، وتُظلل شرفات البيوت الخشبية الأزقة. لم يُطَل الانتظار، على الرصيف أشار أحدُ رجال الشيخ إلى الرِّبان إشارةً قصيرة، انفضَّ عنه رجلان من المرسى، واقترب الشيخُ نفسه خطوةً، ثم انفرد بالرِّبان عند العارضة، لمعت صُرَّةٌ صغيرة في كفٍّ ليست غريبةً على حساب المواني، عاد الرِّبانُ بوجهٍ جامدٍ أمرًا ناصرًا: «ستمشي معي إلى خانٍ وراء السوق».

قال ناصر: «وعلى أيِّ شيءٍ نمشي؟»

قال الرّيان: «كلمةٌ ونمضي».

قال ناصر: «حسنًا لكن بشرط، يرافقني صالح».

قال صالح: «إن كان لا بُدَّ، فلن أشاركك».

تقدمهم الرّيان، ومن خلفهم رجلان يكتنفان ناصرًا؛ لا يقيدانه، بيد أنهما يطبقان الحصار على كتفيه. كان الخانُ واطئُ السقف، يتسلل الضوء كسيرًا عبر نوافذه الخشبية المشبّكة، وفي الركن دلةٌ سوداء تنفث بخار القهوة.

اعترض الممرّ رجلٌ قصير سدّ المنفذ بكتفه، بينما تصدّر الشيخ المجلس، يحيط به رجلان، وأمامه صُرّة ذهب، وإلى جوارها المخطوطة الجلدية مشرعة على صفحة الخاتم. أشار إلى الرسم وقال هادئًا: «ما جئنا لنبتاع الرجال؛ إنما نشترى الدليل إلى كنزٍ محجوب».

قال ناصر وهو يقرب يده من صدره: «الخاتم ليس للبيع». ابتسم الشيخ ابتسامة لم تبلغ عينيه وعقب: «ونحن لا نبتاع الخاتم وحده، فالأثر لا يفارق صاحبه، والعلامة لا تعمل إلا بيد تألّفها.. نحن نبتاع العلامة وحاملها».

هنا، دلف الرّيان نافضًا الغبار عن كُمّه، ثم زان كيس الذهب بيده، وقال وهو يرمق ناصرًا: «قُضي الأمر».

تجمّد الدم في عروق ناصر، كأن الهواء سُحب من العالم بُغْثَةً. لم يستوعب في اللحظة الأولى، لكن رؤية الذهب يتدلّى من يد القبطان، وتلك اللمعة الغادرة في عينيه، أكّدتا الحقيقة: لقد بيع. كما يُباع صندوق شاي أو حبل المرسى أو أي شيء لا قيمة له.. كيف أسلمه القدر من الموت إلى العبودية!

قال بصوت يخنق، كأن صخرة تحطمت في صدره: «هكذا إذن؟ من التابوت إلى الرق؟ حَسِبْتُكِ مِثْلَ أَمِينٍ لَا سَوْقًا، تحسبتُ للغدر من البحر، لا منك يا رِيَّان».

أشاح الرِيَّان بوجهه مبرِّراً: «الذهب يا ناصر أبقى، والفاقةُ تريق ماء الوجه. أنا رِيَّانٌ ولستُ قاضياً، والسفينة لا تحمل هموم الناس فوق حمولتها».

ردَّ ناصر: «لم تبع خاتماً.. لقد بعْتَ رجلاً استأمنك».

قاطعه الرِيَّان بخدة: «بعْتُ ما يقي السفينة شراً مستطيلاً.. هذا ثمن نجاتك».

اندفع صالح، رفيق التمر والخوف، وقد زاغ بصره، فصدّه أقرب الرجلين، فصاح بالرِيَّان:

«دونك ذهبي، وجهدي شهرين أو ثلاثة بالسُّخرة، ولا تبعه».

رفع الرِيَّان يده بحزم: «وعودك لا تَزِنُ الذهب.. اصعد، وإلا تركناك هنا بلا مأوى».

التفت ناصر إلى صديقه؛ فرآه مغلوباً على أمره، يرفع كفيه المرتجفتين عجزاً، ونظراته تدور بتوترٍ مذعور. قال صالح واليأس يعتصره: «سامحني... لا أستطيع.. سأبحث عن راشد».

فأجابه ناصر: «قل له: البحر لا يعذر من يعرف الطريق».

في تلك اللحظة، تداعى العالم في عينيه. وجه الرِيَّان الخائن، ووجه الصديق العاجز؛ غدوا علامةً واحدةً لسقوطه في قَدَرٍ مظلّم. وشعر بمرارةٍ حارقة تتجمع في جوفه؛ لم تكن بكاءً، بل انهياراً صامتاً لكل يقين.

أوماً الشيخ، فأطبق الرجلان على ناصر وأوثقا يديه بوثاق يكفي لمنع الهرب، ثم التفت إلى الربّان وأمره ببرود: «قيّدوا في الدفتر: رأسٌ واحدٌ مع العلامة».

مدّ صبيّ لوحًا صغيرًا ودفترًا سميكا، فانحنى الشيخ وكتب السعر، ومهر القصاصة بختم من شمع، ثم أطبق الدفتر قائلًا: «صار مُلْكنا».

قبض الرِّيان حصته بيدٍ ثابتة، واستدار مخاطباً المرسى دون أن يلتفت إلى ضحيته أو يبيدي أسفاً: «موعدُ الرحيل بعد قليل».

اقتاد الرجلان ناصراً إلى حجرةٍ على طرف الخان ذات باب حديدي ونافذةٍ عالية تُشرف على زقاقٍ ضيق. في داخلها حصيّرٌ خشنٌ وكوزٌ ماء. وقبل أن يوصد الشيخ الباب، همس محذراً: «لا تؤذ نفسك.. فالخاتم معنا ما دام في إصبعك».

على الرصيف تأهبت السفينة للرحيل جنوبًا: شدّ الرجال الحبال، وانطلقت صفارة قصيرة. حاول صالح التقدم فمنعه البحّارة، فصرخ ملء صوته: «ناااصر!».

لم يردّ أحد، الردّ الوحيد كان اهتزاز الشراع.

منذ تلك اللحظة صار ناصر اسمًا في دفتر، وسجينًا في دار مُغلقة، وعلامة في إصبع، والبحر يمضي كعادته لا يحفظ إلا الطريق.

العودة إلى القحمة

انزلقت السيارة من الزقاق الأخير، وامتدَّ الطريقُ أمامهما مثل شريطٍ طويل لا ينتهي، كانت السكينة التي تعقب الفجر قد استقرت على الإسفلت، وعلى أكتاف البيوت التي ظلَّت واقفة كأنها تراقب خروجًا لا تريد أن تشهده، جلس راشد خلف المقود، كتفاه مشدودتان، وعيناه على الخط الأبيض المتكرر، يراه كنبض لا يهدأ، وإلى جواره أمني، يداها متشابكتان في حجرها، تنظر مرّة إلى الطريق، ومرّاتٍ إلى وجهه كأنها تحاول أن تحفظ ملامحه في زاوية آمنة من قلبها. تحرّكت السيارة، وتضاءلت القحمة وراءهما. لم يتكلما، وتركّا صوت المحرّك الرتيب يملأ الفجوة بينهما، تسالت الريح عبر النافذة المفتوحة قليلاً، محدثة رنة خفيفة عند حافات الزجاج، ومبعثرة رائحة الملح التي لا تخطئها ذاكرة راشد، رفع يده ليعدل المرأة الداخلية، لا ليرى الخلف، بل لأن يده احتاجت إلى شيء يفعله كي لا يضطرب.

ابتدأ الطريق في داخله قبل أن يمتد أمامه، تراءى له أبوه أولاً:

صورته وهو يمشي بعيداً، لا يلتفت إلا مرّة واحدة، بعينين تخفيان ما لا يريد لأحد أن يراه، استعداد تلك الليلة عند باب البيت، حين توقّف أبوه وقد سمع سعال أمّه، عاد خطوة ثم مضى، لم يكن راشد يومها يعرف معنى الرحيل؛ واليوم يعرفه أكثر مما ينبغي.

اعتصر المقود بكفه، فتلاشى طيف الأب كطائرٍ غاب بين الجبال، ونهضت أمّه من فراشها إلى الذاكرة، جلست على حافة العمر وهمست له قبل أن ترحل عن صندوقٍ لا يجوز أن يُفتح إلا حين يبلغ السؤال نهايته، لم تكن الكلمات كثيرة، لكن أثرها ظلّ طويلًا في صدره، أدار وجهه قليلًا شطر البحر الذي يلوح من فجوات الطريق، ثم أعاده إلى الخط الأبيض، لاحظت أمني شروده، فمالت نحوه قليلًا، لكنه لم ينتبه.

ثم لاح طيف خالد الذي تلاشى تحت الماء، لم يكن المشهد واضحًا دائمًا، أحيانًا يراه يضحك، وأحيانًا يراه يلوح من تحت صفحةٍ لا تُطوى، وأحيانًا يسمع فقط. وقع صمتٍ يخلفه الغياب حين يدخل البيت ولا يجد صاحبه، مرّ بالذاكرة وهو يمسح على رأسه، ثم يختفي تاركًا طعمًا مرًا في الحلق.

لم يكن راشد بالشخص الذي يبكي عادةً، لكن عينيه لمعتا الآن، لم تكن دموعًا على وشك أن تنزل، بل جسدٌ يتذكّر ما يأبى نسيانه. ثم حضر طفل مناع، الطفل المشلول الذي لم يكتب له أن يخرج من عتبة الليل إلى عتبة النهار، رآه راشد كما رآه آخر مرة: يجرّ الحصير ممسكًا بالورقة التي التهمت النار قبل أن تبوح بسرّها، شمّ رائحة الرماد كما لو أنها التصقت بجلده.

ومرّت في صدره تلك اللحظة التي ظنّ فيها أن العالم يمكن أن يعود خطوة إلى الوراء لو أمسك بيدٍ ما في الوقت المناسب، لكن العالم لم يعد، ولم تُمدّ يدٌ. شعر راشد بأن أنفاسه تتقطّع كأن صدره يضيق بما يحمله، وعقله يفقد ما تبقى من توازنه، فأغلق النافذة قليلًا.

انحرفت السيارة يساراً قليلاً لتتفادى حفرةً صغيرة، فقفزت إلى الذاكرة أنَّه الكلب الذي قتله أبو فارس، لم يكن نباحاً، بل أنيناً يتيماً تلاه صمتٌ مطبق. كأنه أطفئ بلا ضجيج. كان الكلب يومها واقفاً أمام بيت أبي فارس، ينبح بلا سبب ظاهر، والطفلة تلتفت وتبتسم، ثم تختفي في زقاق ضيق. مرّت الصورة سريعاً حتى خُيِّلَ لراشد أن الطفلة تقف الآن على حافة الطريق، شعرها مبلل، وثوبها يلتصق بساقيها، وابتسامتها لا تشبه ابتسامات الأطفال، بل تشبه علامةً وُضعت ليهتدي بها من لا يُحسن الاتجاه. أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما سريعاً، وأعاد عينيه إلى الخط الأبيض.

«هل رأيت شيئاً؟»

لم تقل أمانى الجملة، لكنه شعر بها على أطراف صمتها.

تقدّم اسمٌ لا يكفّ عن التردّد: شجن، الاسم الذي تحوّل في داخله إلى نبرةٍ لا تسكت. تراءى له طيفها عند باب المكتبة، تمسك كتاباً وتبحث فيه عن سطرٍ يُنقذه من نفسه، رآها وهي لا تعرف اسمه، «لو أنّك تأتي» الجملة التي كانت تكفي، لو أن ما حدث لم يحدث، في تلك اللحظة أحسّ أن الطريق يطول، وأن المسافة ليست بين القحمة والقرية الجديدة، بل بين قلبين ابتعدا دون أن يعرفا كيف يقتربان مرةً أخرى. امتدت يده إلى جيبه في حركةٍ غير واعية، كمن يبحث عمّا يهدئ روعه، أخرج منديلاً أبيض طُرّزت في زاويته وردةٌ حمراء، لم يعد يتذكر كيف أو متى وضعه، مسح حبات العرق المتجمعة فوق حاجبه، نظرت أمانى إلى يده، إلى المنديل، ثمّ إلى وجهه، ابتسمت ابتسامة قصيرة تُشبه يداً وُضعت على كتفٍ بعيدة لتقول: «أنا هنا». لم يسألها،

ولم تقل هي شيئاً، أعاده إلى جيبه كمن يُعيد سرّاً إلى مكانه، وأدار زرّ المذياع ثمّ أغلقه قبل أن يتكلم، لم يحتمل أي صوتٍ بديل عن صوته الداخلي.

لم تكن أمانى تتظر إلى المنديل بقدر ما كانت تتظر إلى ملامحه وهو يحمله بين أصابعه، فالمنديل بالنسبة إليها لم يكن قطعة قماش، بل خيطاً مدّه لقلبه حين كان عصياً على اللمس، أثرت الصمت لعلمها أن الكلمات لن تصل إليه وهو غارق في داخله، لكنها ابتسمت ابتسامة تكفيها هي، ابتسامة من يعرف أنه حتى لو ظلّ غائباً عنها فهي باقية في جواره.

عبر طيف نورة كظلّ، أو رجع أغنيةٍ من أربعة أبيات لا يتذكّر منه إلا وقعها على قلبه، لم يرها الآن، لكنه أحسّ أن حضورها كان افتتاحاً لشيءٍ لا يعرفه، كانت تمرّ في داخله مثل علامةٍ على طريق وسط الصخور، ثمّ تختفي، لم يردّ على أثرها إلا بصمتٍ أطول.

«راشد».

قالت أمانى بصوتٍ خافت كأنها تخشى أن تخدش شيئاً هشاً في داخله، لم يجب، كرّرت النداء بدرجةٍ أهدأ، ومدّت يدها تمسك يده التي على المقود، ارتفعت أصابعه تحت أصابعها قليلاً ثمّ استقرّت، نظرت إلى يده ثانيةً وإلى عينيه اللتين بقيتا على الطريق.

قال: «أعتذر كنت شاردًا».

ثمّ سكت، لم يسألها عن شيء، ولم تسأله عن شيء، اكتفت بإبقاء أصابعها قرب أصابعه، لا لتأخذ مكانها بل لتذكّره أنه ليس وحده في هذا الدرب.

سحبت يدها برفق، وعادت تراقب الأفق الذي يتسع ثم يضيق بحسب انحناءات الطريق، انعطفت السيارة إلى محطة وقودٍ على جانب الطريق، كانت ثمة لافتةٌ تعلو السقيفة المعدنية، يقف تحتها عاملٌ يلوّح للسيارات العابرة، أوقف راشد السيارة عند المضخة، وفتح غطاء الخزان، ثم ترجّل دون أن يُطفئ المحرك، هبّت ريحٌ من خلف السقيفة، وحملت معها رائحة قهوةٍ تُغلى على موقدٍ في دكانٍ مجاور.

نظر إلى أماني، فأومأت بأنها تريد أن تبقى في مكانها، ابتعد خطوتين ثم عاد، قال لها: «أتشرين شايًا؟»

هزّت رأسها موافقة، فقصد الدكان وعاد بكوبين. لفت أصابعها حول الكوب تدفئهما، لم تشرب فوراً، وظلت تتقل بصرها بين البخار المتصاعد من الكوب وعينيّه، ارتشف رشفةً أعادت إليه ذكرى ليالٍ كان الشاي فيها أنيسَ قلقه.

استأنف المسير، أشار بإصبعه إلى الأمام كأنه يأذن لنفسه بالمضي، ومع كل كيلومترٍ جديد كانت الذاكرة تُخرج شخصاً آخر من صفوفها وتجعله يمر، حتى وقف أبو فارس أخيراً ليس كعدوّ، بل كقدرٍ يفتح الباب ويغلقه، تذكر وصيته وثقل يده على كتفه: «لا حاجة إلى أن أوصيك أن تعتني بها».

شعر بثقل المعنى في صدره، كان يعرف مراد الرجل، ويعي ما يعجز عن نسيانه؛ فقلبه أضيق من أن يسع اسمين دون أن ينشطر، حدّق إلى المدى أمامه كأنه يبحث عن موطنٍ قدم لا يتهاوى.

حاذى الطريقُ البحرَ، ثم توغل في أرضٍ منبسطة تتناثر فيها أشجارٌ شحيحة الورق. تتابعت الإشارات: مسافة إلى قريةٍ قادمة، وادٍ ضيق، قطيْعٌ يعبر فجأة، مئات التفاصيل التي لا تثقل القلب، بل تمنحه هدنةً ليلتقط أنفاسه. وفي الخلف ظلّ الاسم الذي لا يبتعد: شجن، كل ما فعله راشد أنه حوَّله من نداءٍ مسموع إلى نبضٍ صامت، لم يعد يناقش نفسه بشأنه، تركه كحجرٍ في مجرى جدول، لا يتحرّك لكنه يُغيّر مسار الماء حوله. بعد ساعاتٍ من المسير لاحت القرية الجديدة، لم تكن مختلفة كثيراً في ظاهرها: بيوتٌ متلاصقة ونوافذ صغيرة وأبوابٌ خشبية وامتداد ماءٍ، لكن الجوهر مغاير: هنا لا يعرفهما أحد، ولا يعرفان أحداً، التفت إلى أمانى، وهمس: «وصلنا».

أومأت برأسها مرةً واحدة، وسكنت في مقعدها سكون المترقب لقرارٍ مصيري، حين توقّف راشد أمام باب البيت كان في القرية صمتٌ غريب، راحت بعض الوجوه تحدّق إليهما، ومن بعيد رمقهما رجال يخرجون من سوق سمكٍ قريب، فيما كانت نسوةٌ عند البئر في طرف الطريق يتابعن المشهد. لم يقترب أحد، لكن النظرات كانت ثقيلة أشد وطأة من السؤال، لم ترَ أمانى في تلك العيون سوى فضولٍ عابر، أما راشد فشعر أن القرية بكاملها كانت تنتظرهما، كما تفعل القرى مع الغرباء حين يمرّون أول مرة.

وقفّا أمام بيتٍ صغيرٍ طُليت واجهته حديثاً، نافذتان إلى اليمين، وبابٌ حديديّ يساراً. أخرج المفتاح الذي أعطاه إياه أبو فارس وأدار القفل، ثم تنحّى قليلاً لتسبقه أمانى، فدخلت كأنها تمنح البيت ملامحه الأولى.

في الداخل، استقبلهما مجلسٌ صغيرٌ تفتَرشه سجادةٌ جديدة، وفيه أريكةٌ جانبيةٌ صغيرةٌ إلى جوار الحائط وطاولةٌ خشبيةٌ مربعةٌ تحيط بها أربعةٌ كراسي. يمتد الممر إلى مطبخٍ جانبي، وحجرةٌ نومٍ ضمت خزانةً ومرتبةً ورفاً قصيراً. كلُّ شيءٍ يقبع في مكانه الصحيح، بيد أن المكان يفتقر إلى أي أثرٍ لساكُنٍ قديم، هذا ما أراد أبو فارس: بيتٌ يُقدِّم نفسه وحده كأنَّ كلَّ شيءٍ هنا يقول:

«ابدأ من الصفر».

وقفت أمانى وسط المجلس، ودارت ببطء، تبحث عن طريقةٍ تبتُّ فيها الروح في المكان، سحبت الستارة قليلاً فتسلل خيطٌ ضوءٍ إلى طرف السجادة، ابتسمت ابتسامة الموقن بأن البدايات تتطلب صبراً، والصبر يستدعي حباً، والحب يحتاج شخصاً لا يفر من نفسه.

قالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «سيغدو مسكناً دافئاً».

التفت إليها، فرأى في عينيها الإصرار الذي رآه يوم وافقت على الزواج منه، لم يكن في داخله رفض، كان فيه شيءٌ أكثر تعقيداً: شفقةٌ تحاول أن تكون عادلة، وحبٌّ يحاول أن يستيقظ، واسمٌ يأبى الرحيل.

أنزل الحقيبتين في الحجرة وفتح الأولى، أخرج منها ثياباً مطوية بعناية وبعض الأوراق التي حرص على أن تظل معه، ثم وضع زجاجة ماء على الطاولة.

جلست على طرف الأريكة، وراحت تداعب حافة الطاولة بإصبعها، تتهدّت كمن يللم تعب الطريق، جلس راشد إلى جوارها

تاركًا بينهما مسافة مدروسة؛ ليست قريبة لئلا يبدو مقتحمًا قلبًا لم يشرّع أبوابه له بعد، وليست بعيدة لئلا يشعر بأنها غريبة عنه. التفت نحوها، فرفعت عينيها لتلاقيه في نظرة قصيرة، ثم أعادت نظرها إلى الستارة.

قال: «شكرًا لك».

لم تسأل على ماذا، فقط ابتسمت.

مدّ يده إلى جيبه، أخرج المنديل ثانية دون قصد، ووضعه على ركبته، نظرت إليه، واكتفت بأن تبسم كما فعلت في الطريق، ابتسامة لا تبدد الغموض لكنها تؤنسه.

لم يكن راشد يعرف صاحبة المنديل ولا من وضعه، لكنه أبقاه على ركبته، لأن مكانه عليها كان أهونَ وقعًا من مكانه في جيبه. نهض صوب النافذة وفتحها قليلًا، فلفحته نسمة مالحة، رأى البحر قريبًا، ليس صاخبًا ولا ساكنًا، يكفيه أن يكون هناك ويذكره أن ما تركه وراءه لم يمت.

وضع كفه على حافة النافذة، فشعر بخشونة الطلاء الحديث، هذا بيتهما الآن، بيتٌ لاثنتين لا يعرفان كيف يبدآن، لكن عليهما أن يبدأ.

التفتت إليه وقالت: «سأعدّ شايًا».

أجاب: «حسنًا».

توجهت إلى المطبخ، تنهّى إليه صريرًا باب الخزانة وقعقة صحنون وخيرير ماء يُسكب في إبريق صغير. عاد إلى مجلسه، وأغمض عينيهِ لحظة قصيرة، لم يكن يتمنى راحة، كان يتمنى ترتيبًا لما يتزاحم في صدره: الأب، الأم، خالد، الطفل، الكلب،

نورة، شجن، أبو فارس. أسماءٌ ثقيلةٌ تتزاحم أمام بابٍ واحد اسمه: حياة جديدة، أيقن أن البدء لا يستلزم النسيان، عليه فقط أن يحمل ما يثقله بطريقة لا تعرقل المسير، طوى المنديل وأعادته إلى جيبه.

خرج إلى العتبة ليتفقد الأرجاء، نظريمينًا ويسارًا، لا أحد يعرفهما هنا. هبّت ريحٌ مشبعةٌ بالملح خيّل إليه معها أن القحمة تلوّح له بيدٍ بعيدة. عاد إلى الداخل، فوجد أمانى قد وضعت الكوبين على الطاولة، وجلست مبتسمة: «ليلة واحدة تكفي للبداية».

أطال النظر إليها، ثم قال: «فلنجعلها كافيةً إذن».

شرب رشفة من الشاي الساخن، وشعر بدفء الكلمات التي ألقتها، وفي زاويةٍ قصيّةٍ من قلبه كان اسمٌ واحدٌ يتردّد ثم يهدأ كأنه يبارك البداية الجديدة، ولو من بعيد.

لم يكن الصباح يبرز بحكاية جديدة بقدر ما كان يتكرر، يستيقظ البيت كما تستيقظ سمكة على شاطئ بعيد: حركة قليلة في الذيل، ووميض ملح على الحراشف، ثم سكون طويل مبهم. تزيح أمانى الستارة، فتدخل نسمة مُشبعة بالرطوبة كأنها قطرة كبيرة تأخرت عن السقوط، تزيح العتمة بقدر يكفي ليكشف معالم الغرفة: الطاولة في مكانها، الكراسي، الرف القصير، إبريق الماء، الأريكة، والسجادة التي لم تحفظ بعد شكل أقدامهما. وبين النافذة والجدار تميل قطعة ضوء على نحو يذكر راشد بسطح الماء حين يختل فجأة بلا سبب واضح.

البيت مجهز، كل شيء فيه يردّد أنه صالح للحياة، لكنهما يقطنانه كمن يسكن فاصلاً بين صفحتين في كتاب، تعدّ أمانى إفطاراً لا رغبة فيه ولا رفض، فقط عادة تُمسك اليوم من وسطه لئلا ينزلق، تُشعل الموقد، يُصفر إبريق الشاي، وتصبّ السائل الأحمر في كوبين، تضع أحدهما أمامه، وتجلس قبالة، يهمهم بشكر خافت صيانةً لخيط الود، فتدّ بابتسامة مقتضبة تداري بها شعث قلبها. يشرعان في حديث مبتور؛ جمل مقتضبة عن ليل مضى، وعربات سمكٍ عبرت، وصوت مجهول سمعته في الخارج، ثم يتكسر الكلام كما يتكسر الموج عند حافة الرمل.

يمضي النهار رتيباً: يخرج راشد إلى الطريق القريب أمام البيت، يقف قليلاً تحت سقيفة من ألواح معدنية وينظر إلى البحر، يذرع المكان جيئةً وذهاباً، ثم يعود ليصلح مسماراً في

خزانة، أو يشدّ برغيًا في مفصل الباب، أو يحكم إغلاق نافذة لا تغلق جيدًا، كان يفعل ذلك بحرصٍ محاولاً تناسي أن إصلاح الأشياء لا يعني الانتماء، أمّا أمانى فتتشر الثياب قرب النافذة، وتعيد طيّ الملابس قبل أن تجفّ تمامًا، تُحاول أن تحيي روح البيت بتكرارٍ متعمد للحركات: نشر وطيّ وترتيب ومسح.

في منتصف النهار يعلن بائع الخبز وصوله بصوتٍ هادئ، فتخرج إليه أمانى لتبتاع رغيفين، وفي الطريق تقابل نظرات عابرة: امرأةٌ تُطلّ من باب، رجلٌ يتفحص شبكة الصيد، طفلٌ يطارد قطًا، لا أحد يقول شيئًا، ولا أحد يبتسم مرجحًا كأن القرية تعلّمت أن تُقيم مسافةً متساوية من كلّ الوجوه التي لا تعرفها. عند العصر يجلسان قرب النافذة، أمامهما كوبٌ شاي آخر يحاول عبثًا استدراج الكلام، فيما تجاهد أمانى لتتبت في الصمت كلمة.

«فلنتمش قليلًا».

«ربما نشتري شيئًا للمطبخ».

«أغيّر الستارة غدًا».

يوافق ولا يعترض، يخرج معها، ثم يخرج معها. يمشيان بمحاذاة قوارب صغيرة مربوطة بحبالٍ نافرة كأوردةٍ متبسة، يسيران دون كلام طويل، تشير أحيانًا إلى قوقعةٍ على الرمل أو أثرٍ غامض أو سمكةٍ تتلألأ كأنها فضّة، يحاول أن يضيف جملةً، يجدها قليلة على ما في صدره، فيسكت..

وفي الليل يستحيل السكون مادةً لزجةً تُثقل الهواء، تدور المروحة بتناقل.. ينامان، وما إن يدخل راشد في الغفلة الأولى

حتى تُرسل الذاكرةُ مبعوثيها. تأتي الطفلةُ أولاً؛ ليست كما رآها في القحمة مبتلةً بثوبٍ ملتصق، بل طيف من ضوءٍ يتأرجح في آخر الزقاق، تلوح له قائلةٌ بصوتٍ خافت: «عد». لا تزيد كلمة، ولا تقدم سبباً، وإذا به يستيقظ على اسمها يخرج منه كأن أحداً يدفعه دفعا: «شجن». يفتح عينه نصف انفتاح، يلتقط أنفاساً قصيرة، ويعود إلى النوم، تسمع أمانى الاسم، لا تقول شيئاً، تُقنع نفسها في الليلة الأولى بأنه هذيانٌ جسدٍ مكدود، لكن الذريعة تضيق في الليالي التالية، إذ يتكرر الاسم، تارةً يصدر واضحاً حتى ليخال الجيران أنه نداءٌ لعابرٍ بالباب، وتارةً يهمس به كحفيف ورقة، وبين الحين والآخر تمرّ نورة في منامه، ملامحها مبهمة كريح تهز ستارة النافذة في الحلم، تقول جملة واحدة: «القحمة بحاجة إليك». ينهض راشد كمن غمره ماءً بارداً، يلمس طريق العودة إلى الواقع، ينظر إلى السقف حيث زوج من العناكب لا يتقدمان إلا خطوة كل ليلة، ثم يجلس واجماً، أما أمانى فتدفن رأسها في الوسادة خشية أن يلتفت ويرى في عينيها السؤال المحترق: «مَن شجن».

يأتي النهار فيكرر نفسه، غير أن شيئاً تزداد كثافته في صدر أمانى، تضع يدها على قلبها وهي ترتب الأطباق كأنها تُروّض جموحاً غامضاً، تحاول أن تقرأ شيئاً فتتذكر المكتبة البعيدة هناك: رف الشعر، الكتب التي دفأتها الأيدي الكثيرة، والفتاة التي ساعدتها يوماً في انتقاء كتابٍ لراشد، تذكرت الاسم حين قالت الفتاة مبتسمة: «اسمي شجن».

تقع المعلقة من يدها بلا شعور، حاولت إقناع نفسها بأنها مصادفة، ولكن المصادفات حين تبدأ في الدوران حول اسمٍ واحد، تفقد صلاحيتها كعذرٍ للسكوت.

مرّت الأيام رتيبة، دأب راشد كل مساءً على الوقوف عند العتبة، يحدّق إلى ممرٍّ طويلٍ بين البيوت، يشبه ممرًّا آخر تركه وراءه، أَلِفَ المقعدُ الخشبي على الشاطئِ جلستين، وحفظت المرأة الصغيرة فوق الخزانة انعكاسين، وحفظَ الكوب ذو الحافة الرقيقة أثر شفيتين، بيد أن البيت ظل بلا ذاكرة تخصّه، وكانت أمانى تدرك ذلك وتقاومه بأشياء صغيرة: زهرةً على الطاولة، ورائحةً خبزٍ طازج، وقطعةً قماشٍ تُبدّل بها لون النافذة، كانت تغرس فسائل الود في أرض يباب ومع ذلك لم تياس، كأن الحياة التي تطلب أن تُعاش تُجرب كل اللغات قبل أن تستسلم للصمت. في إحدى الأمسيات ظهر الغراب، لم يحطّ على عتبةٍ أو سياج، بل مرّ بسرعةٍ عند حافة النافذة كمن لا يريد أن يترك أثرًا، غير أن ريشةً بيضاء في جناحه الأسود لم تتوار مع السرعة؛ لمحها راشد بوضوح لا يقبل الشك، فباغته وخزة في صدره كأن صوتًا خفيًا همس في أذنه: «أرأيت».

في الليلة ذاتها عادت الطفلة إلى منامه، وقفت أقرب هذه المرّة كأنها أيقنت أنه صار مستعدًا لسماع جملة ثانية، لكنها لم تقل شيئًا، اكتفت برفع يدها، ولوحت تلويحةً غامضة.

لم تقل أمانى شيئًا عن الغراب الذي رآته هي الأخرى، وأقنعت نفسها أنه مجرد طائر ناقص اللون. لكنها حين سمعت في تلك الليلة الاسم ذاته يتكرّر في فم نائم، لم تنفع كلّ العقلانيّات،

نهضت قبل الفجر، وخرجت إلى المجلس، ثم جلست على الحافة الخشبية للطاولة، ووضعت رأسها بين كفيها، أحسّت أن البيت ضيق، وأن أسماء كثيرة تحوم فوقه كطيورٍ تائهة لا تعرف أين تهبط، وحين عاد راشد من غفوةٍ قصيرة إلى يقظةٍ قصيرة، وجدها جالسةً.

قال: «أتصنعين شأياً؟»

هزت رأسها، ثم ملأت الإبريق، وانتظرت صفيهره، ثم سكبته وعادت بالكوبين، ولم تُقدّم أكثر من جملةٍ واحدة: «أريد أن أسألك عن شيءٍ ولا أعرف كيف».

لم ينظر إليها، كان يدرك أن الأسئلة المؤجلة في القلب تتآكل حافاتها لتصبح شفراتٍ تجرح حين تخرج.

قال: «قولي».

وضعت الكوب على الطاولة، نظرت إلى جيبه، ثم قالت:

«من أين لك ذلك المنديل؟»

قال دون تفكيرٍ طويل: «وجدته عند عتبة بابنا».

سرت رجفةً باردةً في أوصالها، كانت تتوقع الإجابة، ومع ذلك وقعت عليها كطرقةٍ على زجاجٍ مشروخ.

قالت: «أنا من وضعه».

رفع رأسه بسرعةٍ لم يعتدها في هذا البيت، ونظر إلى عينيها

وقال: «أنت؟»

أومأت وقالت:

«في ليلة الحريق، ذهبتُ إلى بيتكم، ظننت أنني سأموت ذاك اليوم، لكن الله نجّاني، وضعتُ المنديل عند العتبة ثم رأيتُ أبي

خلف بيتكم عند الجدار، لم يرني لكني كدتُ أموت من الخوف». شعر راشد كأن كوةً هُتِحت في ذاكرته؛ وتداعت ليلة الحريق دفعةً واحدة: الشررُ يلدغ الأبواب، والصرخةُ التي لم تخرج، والظلُّ الذي فرَّ أمامه ثم ابتلعه الظلام، تذكّر كيف عاد ليجد أبا فارس عند الجدار، ينتظره أمام البيت، يومها لم يسأل كيف وصل؟ واليوم حين أخبرته أمانى، تجمع كلُّ ما تفرّق.

«هل يعقل؟» قالها في نفسه.

ثم جاءت الجملة التي لا يريدونها ولا يستطيع ردّها:

«إن كان هو فلماذا زوّجني ابنته؟ وما مصلحته؟»

لم يُجب أحد، لم تكن أمانى تملك جواباً، ولم يجرؤ هو على صياغة الاتهام بصوتٍ مسموع، لكن بذرة الشك كانت قد زُرعت في تراب خصب، ومن يومها صار كلُّ تفصيلٍ صغيرٍ في القرية يتحوّل إلى علامة:

الصوتُ المريب آخر الليل، نظرة رجلٍ رآهما في سوق السمك ولمّح بابتسامةٍ نصفها معنى ونصفها جهل، ريشةُ الغراب البيضاء وهي تختفي في الأفق، واسم «شجن».

توالت الأيام، وتعلّم البيت فنّ التعايش مع الصمت، وتعلّمت أمانى التمييز بين غيرةٍ لا طائل منها، وبين وجعٍ لا يبرئه دواء. زادت قسوة الليل، وتكاثرت أصواته في الخارج: خشخشة نافذة في بيتٍ مجاور، نباحٌ بعيد ينقطع سريعاً، وقعُ أقدامٍ مجهولة تمرّ في الطريق ثم تخبو، وفي خضمّ ذلك كان راشد يتكور على جنبه كأن جسده ينوء بثقل العالم كله.

عاودته الطفلة في الحلم، لم تكتفِ بالإشارة هذه المرة، واقتربت خطوةً إضافية، بعثت ملامحها المبهمة قشعريرة في قلبه.. ابتسمت بإصرارٍ من يعرف الحقيقة كلها، رفعت يدها ولوّحت أمرة: «عُدْ إلى القحمة».

وفي اللحظة نفسها عبرت نورة، لم تتجسّد طيفاً للعين، بل ريحاً تسلّلت من مسامِ النافذة المغلقة، وخلّفت قشعريرةً سرت في ذراع راشد، ثم تركت جملة مختلفة: «ما بدأ هناك لن ينتهي هنا».

تداخل صوتها مع الاسم الذي تردّد من فمه بلا وعي: «شجن».

خرج الاسم صريخاً، لا همساً ولا زلة لسان، كمن ينادي شخصاً يقف خلف الباب.

سمعتة أماني فانقبض قلبها، أيقنت أن ما سمعته ليس هذياناً جسدياً منهك، بل اسمُ امرأةٍ أخرى يسكن نومه، وضعت كفيها على وجهها، وشعرت أنّ غيرتها استنزفت حتى تحولت إلى يأسٍ صامت، فيما تردّد في أعماقها عتابٌ حبيس: أنا زوجتك لكنك هناك، في مكانٍ لا أبلغه.

في صباح من صباحات الأسبوع السادس بعد وصولهما، تقيّأت عند الحوض، ظنّت ذلك أول الأمر أثر زكامٍ عابر أو طعامٍ لم ينضج، لكن حين تكرر الغثيان في اليوم التالي، والذي يليه، تسلل إلى يقينها احتمالٌ لم تجرؤ على نطقه.. جلست على حافة السرير، وضعت كفّاً مرتجفةً على بطنها، وقالت: «ماذا لو كان الذي أخشاه».

رفعت رأسها إلى المرأة، رأت انعكاس امرأة جميلة هدها
التعب، في عينيها غيومٌ رمادية لا تتقشع، أسندت جبينها إلى
سطح الزجاج البارد وقالت في سرّها: «كيف أخبره، وهو لا
يناديني حتى في أحلامه؟»

التفتت نحوه، فرأته متمسّراً عند النافذة، يحدق في الأفق
البعيد مديراً ظهره لكل ما هو قريب.

لم تشأ أن يختلط نبأ الحمل بغيرة النساء، وأدركت بحدسها أن
كلمةً واحدةً الآن قد تحيل حياتهما إلى فخ، كانت تحتاج أن يراها
هي، لا أن يراها في ظلّ اسمٍ آخر، لذلك سككت، وفي سكوتها
شيءٌ ينكسر على مهل، نظرت إلى المرأة مرةً أخرى، ورفعت
يدها تتحسّس وجهاً غادره الاطمئنان.

وعلى الطاولة بجانب إبريق الشاي، تركت أثقال روحها تتكدّس
على نحوٍ لا يراه.

في الليلة التالية جافى النوم راشد، فتمدد محدّقاً إلى العتمة
يفكّر أن الحياة التي أمامه خريطة بلا أسماء: خط مبتدؤه
القحمة، يمرّ بهذا البيت، ويلتفّ عند الخوف، ويتوقف عند
الصمت، ليعود عند اسم لا يقبل المشاركة، غلبه النعاس، فجاءته
الطفلة أقرب من أي وقت مضى، لم تلوّح، لم تبتسم، تقدّمت
خطوتين وقالت بصوتٍ كالماء حين ينساب في شقّ ضيق: «عُد!»
الإجابات في القحمة..

استيقظ مع الفجر، فوجد أمانى جالسة قرب النافذة، وجهها
شاحب لكنه متماسك مثل شجرة صامدة في وجه الريح، اقترب
وجلس عند الطاولة، أخرج المنديل، وبسطه على الخشب بينهما،

وردته الحمراء تنزف جرحاً في بياض القماش، حدّق إليها وقال
بنبرة حاسمة: «لن نستطيع البقاء هنا أكثر».

صمتت طويلاً لتختبر وقع الجملة في قلبها، ثم دفعت المنديل
نحوه كأنها تُعيده إلى صاحبه أو تُحمّله عبئاً لا يُحتمل، ثم قالت
بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «لنعد إذن».

لم يكن في الجملة سوى كلمتين، لكن وقعها في صدره أوصد
باباً قديماً وشرّع آخر.

نهضا في اللحظة نفسها، حزمت ثيابهما في الحقيبة، ولملم
هو أوراقه وشتاته، أطفأ المصابيح، وأغلقا النوافذ مودعين بيتاً
لم يتعلّما لفته. وقف عند العتبة ملقياً نظرةً أخيرة إلى الجدران
الصامتة، فيما شدّت هي الحقيبة الصغيرة إلى بطنها مداريةً
سرّها عن العالم. في الخارج لم يلتفت أيُّ منهما، وحين خطوا
الخطوة الأولى خارج البيت مرّ غراب في السماء، ريشة بيضاء
في جناحه، لاحت لحظة ثم اختفت.

سارا معاً في الطريق الترابي المؤدي إلى الموقف، ما زال
السوق مغلقاً، ورائحة السمك مؤجلة، وأصوات الدّالّين لم تُسمع
بعد. عند الزاوية الأخيرة لمح راشد ظل الغراب على الجدار، لم
يتوقف طويلاً، اعتصر المنديل في جيبه ومضى.

ركبا السيارة، يدها على حقيبتها الصغيرة، والأخرى على
بطنها حيث ذلك السرّ الذي لم تُخبره به بعد، نظرت من النافذة
لترى القرية تتقلص وتغيب، أغمضت عينيها، فيما ظلّ هو يتأمل
الطريق. تضافرت الأصوات في رأسه صاعدةً من بئرٍ سحيقة:
الطفلة تقول: «عُد! الإجابات في القحمة».

نورة تقول: «ما بدا هناك لن ينتهي هنا».

وصوت ثالث مبهم يجرّه صوب وجهةٍ وحيدة، لم يكن يعرف شيئاً عن «الواحد والعشرين يوماً».

جَهَلٌ راشد أن القحمة مقبلة على دورة تَسْعُ القيامة والسقوط معاً، كل ما يعرفه أنه عائد، لأنه لم يجد في البيت الجديد متكأً يحط فيه قلبه دون أن يرتطم.

أداز وجهه صوب النافذة، امتد الطريق صفحةً بيضاء تنتظر أول كلمة، لم يطلب من المنديل وعداً، ولا من وردته المطرزة إشارة بينة، أراد فحسب أن يحمل معه ما لا يخون الذاكرة حين تتعرض للريح، وعندما دخلت السيارة في المنعطف المبتعد عن البحر، رفع رأسه قليلاً متهيئاً للمشى على أرضٍ لا تتسامح مع الخطى المرتجفة.

وهكذا تركا البيت الجديد خلفهما بلا ضجيج، يحملان منفاهما الصغير في جيبهما، وعيناهما على طريق يطول، لا يُطْفِئُ المواجه، بل ليضعها على الطاولة أخيراً.. واحدة.. واحدة.

كان الصباح يتهيأ للقحمة كأنه ليس من أيام البشر، بل ساعة تُفرض على الأرض فرضاً، عند تخوم القرية وقف الصياد تحت السُدرة مسنداً راحته إلى الجذع كما دأب منذ سبعة أيام، لا طلباً لظل أو راحة، بل تسليماً لجسده إلى ما هو أثبت من العظام وأجلد من البشر، لم يخط نحو السوق أو الميناء، فقد غدا الميناء فوهة مفتوحة للبحر تبتلع أطراف القرية.

زحف البحر ضارباً الأبواب، وتسرب بين الأزقة كوحش، يجرّ معه ألواحاً متكسرة وحجارة، ويقذفها نحو البيوت، غابت السماء المألوفة؛ فلا غيمًا رماديًا، ولا زرقة بعيدة، وتحولت إلى صفحة مشروخة وجرح غائر يسيل منه مطر أحمر لا يشبه الماء، يتقاطر متناقلًا كالدم، وكل قطرة منه تُلطخ الحجر وتبقى مثل ندبة، أول ما سقط على عتبة بيت عند الزقاق فصار بقعة تُشبه دمًا بشريًا طازجًا، وبسرعة خاطفة غطى المطر سطوح البيوت والممرات والحجارة حتى وجوه الناس.

استنفدت القرية صراخها منذ اليوم الأول، ليسود صوتٌ وحيد: دويّ البيوت المنهارة، عند حافة الميناء فقد بيت جداره الأمامي، فانهارت معه حجرة بأكملها، سمع الناس صرخة امرأة ثم انقطع صوتها تحت الركام، وإلى جانبه قاوم بيت آخر متشبهاً بجداره الأخير لكن الشقوق توسعت في وسطه فأخذ ينهار رويدًا رويدًا، وكل لحظة تأجيل ليست إلا مهلة لموت قادم.

في السوق أسرع الخباز فأدخل ما تبقى من الأرغفة، لم يعد يعرضها على المصطبة، بل يخبئها كما يخبئ أحدهم طفله في حضنه، وينادي: «يكفيكم رغيّف واحد»، وصوته مبحوح من الدخان والحرارة، على مقربةٍ منه أسدل صاحب المكتبة الباب الحديدي، ضربه بكفه مرّةً واثنين حتى استقرّ، ثم أغلق القفل مودعاً حياته وموقناً أنّ رفوفه وأوراقه ستتشرب دم السماء.

عند الأزقة هرولت النساء، كل واحدةٍ تسحب صغارها من الممرّ قبل أن يُغرقهم الطين، ليس هناك وقتٌ لنداءات طويلة، اليد هي التي تتكلّم، قبضةٌ على الذراع، ودفعةٌ إلى البيت، ثمّ بابٌ يُغلق بعنف، بكى الأطفال رعباً من اللون الذي غطّى وجوههم، ولم يعرفوا لماذا يلسع المطر هذه المرة جبينهم كالنار ولا يبرده. في الأفق لم تصمد الطيور، رفرفت قليلاً، ثم أثقلها المطر فسقطت واحدةً تلو الأخرى، بعضها ارتطم بالأسطح ومات في الحال، وبعضها ظلّ يتخبط بجناح مكسور حتى توقّف، صار الريش الأبيض والأسود مبلولاً بلون الدم مرمياً في الأزقة. رأى طفلٌ طائراً يسقط أمام نافذته فظنه حجراً، لكنه حين رأى الريش يتناثر بكى، قذفت الأسماك من البحر، جرّها الطوفان من قاعه ولفظها في الممرّات الضيقة، سمكٌ صغير فاغر الأفواه يبحث عن ماءٍ أعمق فلا يجده، يسبح لحظاتٍ قصيرة ثم يتجمد، أجساده الهزيلة تتمايل مع الطين كأنّها قصاصات ورق.

حاول بعض الأطفال أن يلتقطوها، لكنّ أمهاتهم صرخوا: «اتركوها» خوفاً من اللون الذي صبغ حراشفها. في أطراف السوق عجز بغيرٌ مربوط عن الثبات، شدّ رأسه إلى الأعلى مرّاتٍ

عديدة، ثم انقطعت العقدة، فاندفع خطواتٍ قصيرة قبل أن تزلَّ أقدامه، ويهوي على جنبه، حاول أن ينهض، لكنه بقي يتخبط في الوحل ورغاؤه يضيع هباءً حتى ارتطم به جدارٌ منهار، فارتجف قليلاً ومات.

في حظيرة بعيدة عن البيوت ارتفع الماء ليغمر حوافر حصان وحيد مربوط بحبل قصير إلى عمودٍ خشبي، حاول أن يقفز ويرفس الأرض، لكن الطين كان أثقل، شدَّ عنقه عاليًا، فانكمش الحبل على رقبته، خرج منه صهيلٌ متقطع، لم يسمعه أحد، ارتدَّ صهيله في جدران الإسطبل وحدها، رفع رأسه مرّة أخيرة، واتسعت عيناه، ثم مال إلى جانبه، ليغطي الطين نصف فمه وأنفه، وتبقى عينه مفتوحة؛ نافذةً مُشرعةً على الموت.

في الفجر سيجده صامتًا، لكن تلك الحكاية لم تُحك بعد، والموت وحده شاهد، ما يزال الصياد عند السّدر، رأى غرابًا يمرّ فوق رأسه، لم يكن غرابًا عاديًا، لونه غريب، لم يسبق أن رأى في القحمة غرابًا بيضاء من قبل!

توقّف الصياد عند الجذع وقال: «غرابٌ أبيض وآخر أسود، هكذا تختصر الحياة». ثمّ صرف بصره، فصورة كهذه تسرق من الروح أكثر مما تعطيها، ومضى الغراب مستقيمًا نحو الميناء، ثمّ اختفى. الناس في البيوت يسمعون أصوات الانهيارات كما يسمع القلب دقّاته ساعة الخوف، بيتٌ تهدّم في الزقاق الثاني، ورجلٌ حاول أن يرفع لوحًا لحماية السقف فسقط معه، لم يعد أحدٌ يراه خارج البيت، في بيتٍ آخر نجت امرأة وطفلان، لكنّ السقف انشقّ فوقهم فهرعوا إلى حجرة أضيق بحثًا عن ملاذٍ آمن.

في السوق قلت الأرغفة، لم يعد الخباز يجرؤ على إشعال التّور طويلاً، صار الخبز بحجم أصغر وثمانٍ أكبر، والمفاوضة عليه تشبه السرقة، همسُ عند الباب: «أعطني رغيفين لي ولطفلين».

والإجابة لم تتغير: «رغيفٌ واحد يكفيكم اليوم».

يكيل الرجال ما بقي في أكياس الدقيق، وتخفف النساء الماء في القدور ليؤجّلن بكاء أطفالهن ساعةً إضافية.

خرج الإمام مساعد عصرًا، وقف على عتبة المسجد، ورفع صوته بالقدر الذي يُسمع الواقفين في الساحة: «عودوا إلى البيوت، لا يخرج أحد». جملته لوحُ نجاةٍ يتشبث به الغريق، هز بعض الرجال رؤوسهم ودخلوا بيوتهم دون نقاش؛ فالمطر والبحر أبلغ من أي خطاب.

عند الغروب اصطيفت الأزقة بالحمرة، ولم يعد أحدٌ يفرّق بين ما هو ماء وما هو دم وما هو طين، اقتحمت رائحة البحر البيوت ممتزجةً بالعفن والدم والطين ورائحة أجسادٍ لم تجد وقتًا للغسل.

وحين جنّ الليل لم تهدأ الأصوات، ظلّ البحر يضرب الجدران، واشتد هطول المطر. توقفت الطيور عن السقوط، وطافت الأسماك في المستنقعات الصغيرة عند الأزقة، غدا كل بيتٍ نفقًا مغلقًا، وكل نافذةٍ عينًا مرعوبةً تنظر وتدعو.

في تلك الليلة لو مررت عند السّدرة، لألفيت كف الصياد لا تزال على الجذع، أثرها رطبٌ غائر في اللحاء، ولو اقتربت من

السوق لشممت رائحة خيزٍ محترق، ولو دقّقت عند الأبواب لرأيت
عيوناً تحديق من خلف شقوقٍ ضيقة، تراقب المطر الدموي يطلّخ
القرية، نامت القحمة وهي تنتظر نهاية هذا الموت الطويل، لكنها
لا تعرف إن كان هذا اليوم سيمضي أم إنها البداية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جاء الصباح على الصوت لا على النور، لم تتبدّل السماء، بقيت مشروخةً كما كانت بالأمس، تسيل منها حمولةٌ أثقل من أعناق الناس، مطرٌ أحمر، والبحر لم يتراجع خطوةً، تقدّم داخل القرية يدفع أمامه ألواحًا مسنودة كأنها نعوش، ويصطدم بجدرانٍ جرّدها البلل من تماسكها، استحالت الأزقة طبقةً واحدة من طينٍ وملح بلونٍ لا يُخطئه أحد. شدّت أمّ فارس طرف ثوبها إلى الأعلى وأمسكته بدبوس تركته سابقاً على لوح الخشب قرب الباب، قالت وهي تُحكّم غطاء رأسها:

«سأعود سريعاً، الطحين محفوظٌ عند أمّ عبد الله».

التفت إليها أبو فارس، رفع يده يريد أن يقول شيئاً لكنه تراجع، ثم نظر إلى ابنه وقال: «ابقَ في الداخل».

لم يجب فارس، فبعد أسبوعٍ غدا وجهه غريباً: خطّان دقيقان فوق الحاجبين، وفمٌ يابسٌ يُطبّق على السؤال ويحبسه.

فتحت أم فارس الباب، وخرجت إلى زقاقٍ صار كالوتد بين بيتين، كلا الجدارين يضغط على الآخر لئلا يسقط، المطر يتكاثف، ويلطّخ العتبات والواجهات، ويخطّ خطوطاً على الجدران. مشيت بحذر من تعلّم السير في الليل بلا ضوء، تضع قدمًا ثم تختبر الأرض قبل أن تُنزل الأخرى، تُغطي وجهها بذراعها من رشقةٍ مفاجئة، وتلتفت مع كل خطوةٍ مرّةً لتتأكد أن الباب ما زال خلفها، وأن زوجها وابنها ما زال لهما بيت.

عند الزاوية خان المكانُ أهله، تداعت العارضة التي ظلت تُقاوم أسبوعاً كاملاً، وارتطمت موجةً جاءت من جهة الميناء بأساس البيت فمادت الجدران، انحلت أربطة حبال سقف الحجرة، وهوى نصف السقف دفعةً واحدة.

لم تسمع القرية صرختها؛ اختنق حلقها قبل أن يصير النفسُ صوتاً، سقطت أم فارس تحت سعفٍ مبللٍ وأخشابٍ مهترئةٍ ورملٍ سائلٍ أخذ طريقه إلى صدرها.

سمع فارس ارتطاماً لا يخترق السمع، له دوي لا يصدر عن سقوط إناءٍ ولا دلو، دويٌّ يخبرك فوراً بانقياس سقف، دفع الباب بكتفه واندفع خارجاً، وأبوه في إثره، رأى نصف بيتٍ منهاراً على الأرض وتحتَه طرف عباةٍ ويداً مسترسلة، رفع لوحاً فشقَّ الخشب ساعده وترك خطأً أحمر يُضاف إلى كل ما حوله، ساعده أبوه من الجهة الأخرى، أدخل يده تحت عارضةٍ مهشمة وقال وهو يلهث: «رفقاً، رفقاً». كلمةٌ يوجَّهها إلى جسده وإلى الحجر الوعر وإلى ابنه.

التفت يداهما حول اللوح فارتفع، قلبا الحجر وأزاحا الرمل، ظهرت الكفّ فالذراع فالوجه، سحبَها من بين الردم، ثم أجھش فارس بالبكاء، وهو يسند الرأس براحته اليمنى ويقول:

«أمي لا تموتي، أرجوكِ يا أمي».

تجمدت ملامح أبي فارس ولم يقوَ على قول شيء.

تجمع الناس كما يتجمع المطر في بركة، جاء خمسُ نسوةٍ يُعطّين أفواههنَّ بأطراف الأثواب، وصبيٌّ يحمل لوحاً خفيفاً، قال شيخ كبير بحزم:

«تستحق مئوى أفضل.. لندفنها قبل اشتداد المطر».

أقبل الإمام مساعد من جهة المسجد، نظر إلى السماء ثم إلى الوجوه ثم إلى الجسد المسجن، وقال: «عجلوا إلى المقبرة». لم يتحدث أحد عن غسل ولا كفن كما يجب، فالماء الهاطل فوقهم دم، والبحر الهائج تحتهم ملح، نشرت إحدى النساء قماشة بيضاء من صندوق، خيطت أطرافها بيد سريعة قبل أشهر لعرس لم يأت، فصارت اليوم كفناً، لُفّت أم فارس فيها بحزن، ووُضعت على لوح نُزع من باب مكسور، ورفعها أربعة رجال، تدمي الحجارة أقدامهم، وينزلقون في كل خطوة ثم يتماسكون.

كان الطريق إلى المقبرة طيناً، في كل خطوة ينزل المرء نصف ساقه، ولا يُخرجها إلا بشق الأنفس لتغوص بعدها ساقه الأخرى. جلد المطر وجوههم مخلفاً بقعاً داكنة، والنساء خلف النعش يلهجن بتكبير خافت يقطعه شهيق حار. سار فارس عند الرأس قابضاً على طرف اللوح بكلتا يديه معرضاً عن النظر للكفن، فيما لزم الأب موضع القدمين.

وقفوا عند طرف المقبرة، حيث الأرض أعلى قليلاً وأشدّ تماسكاً، هناك رقدت قبور طمس المطر شواهدا منذ أيام، أشار الإمام بحضر قبر يتجاوز عمقه وصول الماء.

نزل رجلان إلى الطين، غرست المعاول أسنانها في اللزوجة لتقلب التربة إلى كتل حمراء تُرفع بالأيدي، حضروا مستطيلاً قدر المستطاع، في جانب منه شق للحد، تناهى هدير البحر إلى الأسماع، ضرباته تتناوب مع ضربات المعاول، كل ضربة على الأرض تجيب عنها ضربة على الحجارة عند أسفل القرية.

اصطفَ الرجال في صفين للصلاة، ورفع الإمام يديه مكبرًا: «الله أكبر».

تأخّر المطر لحظةً واحدة كأنّه يُنصت، صلوا على عجل، ثم دعا الإمام بصوت بالكاد يسمع:

«اللهم اغفر لها وارحمها، وثبّتها عند السؤال، واجعل قبرها روضةً من رياض الجنّة».

لم يُطل الدعاء، ثمّ تقدّموا إلى الحفرة، أمسك الإمام بالرأس من فوق الكفن وأمسك الأب بالقدمين وفارس بالوسط، وأنزلوا الجثمان إلى اللحد، كانت الراحات تتزلّق، فيمسك أحدهم بالآخر قبل أن يوضع الميّت، وضعوا عند الرأس حجرًا أملس يسدّ الشقّ. عند أطراف المقبرة، قالت امرأةٌ لأخرى: «كانت تبكّر بالخبز للجيران».

قالتها قابضةً على ذكرى توشك أن تفلت، ردت أخرى من الخلف بصوتٍ مبحوح: «وما ردّت سائلًا قط».

لم يكن في المقبرة مساحةٌ لخطابة، كانت الكلمات قليلة وصادقة.

جثا فارس عند حافة الحفرة واضعًا كفّه على التراب الرطب، أحسّ ببرودة كوب كانت أمّه تضعه قرب فراشه حين يمرض، كاد يقول شيئًا، ولكن بكاءه سبقه. ظلّ ينتحب حتى تعب، ثمّ جلس بظهرٍ منحنيّ. جاءه أبوه من الخلف، رفعه من كتفه رفعَ المُنهك للمُنهك، وقال وهو يلتقط أنفاسه:

«رحمها الله، يا ولدي، رحمها الله».

لَمَّا هَمُّوا بالرجوع، زَلَّتْ قدم فارس عند الحافة، فقبَضَ الأب على ذراعه كأنه يقبض على الحبل الأخير، دنا الإمام منهما خطوةً، وقال:

«رزقكما الله الصبر، وأنزل الرحمة على قلوبكما».

انفضَّ الجمع كما ينفض المطر قطراته، في الطريق بدت المقبرة أعلى، والقحمة تحتهم تتحسر عنها الأسماء، بيوتٌ عُرفت في الأمس بساكنيها، تعرف اليوم بأطلالها: بيتٌ دون سقف، بيتٌ بلا باب، بيتٌ من حجرةٍ واحدةٍ مسنودةٍ بعارضة.

دخل فارس وأبوه البيت، لم يسَلِّما، كان البيت يردُّ باهتزازه.

عبرت الريح من سقفٍ مُهلِهٍ إلى حجرةٍ أخرى، على الطاولة قرب الباب سُبْحَةٌ كانت أمُّه تُسَبِّح بها الله بعد كل صلاةٍ، وعلى العتبة دبوس صغير وقع من حاشية ثوب، ولم يرفعه أحد، وعلى الحائط آثارٌ حِناء.

قام الأب إلى المغسلة، غسل يده حتى احمرَّ جلده، وفرك تحت أظافره، رفع عينيه إلى المرأة، ولم يجرؤ على النظر، فالمرأة لا تُعين أحداً على نفسه.

أغلق فارس باب غرفته ووضع كرسيًّا وراءه، وقف وسط الغرفة لا يعرف أي جدارٍ يسنده، أخرج الفص وربطه حول معصمه، وضّمّه إلى صدره حتى بدت الراحةُ مثل يدٍ أخرى تُمسك بقلبه. جلس على الفراش، سقطت قطرة على طرف اللحاف من الأعلى، تلتها أخرى في الموضع ذاته، حاول أن يزيح الفراش، لم يجد مكانًا جافًا، فوضع تحت القطرة خرقة، كان صوت القطرات يُشِثته.

في حلقة الليل لما حاول أن يغمض عينيه، عاد إليه صوتٌ قديم نابعاً من من جوف صدره، صوت خالد وهو يغرق، غابت ملامح الوجه عن ذاكرته، لكنه سمع النداء، حاول أن يُدير رأسه، فجأة تقياً ماءً ومرارة، والتوى جسده على نفسه، قال بصوتٍ لم تسمعه سوى الجدران: «أنا خائف يا أمي».

في الحجرة الأخرى لم ينم الأب، جلس على طرف الفراش يتململ بين نهوضٍ وقعود، بين الذهاب إلى الباب ثم العودة، اتجه إلى المغسلة ثانية، لم يكن يريد أن يغسل شيئاً، لكنه رغب في سماع صوت غير صوته، مرّت في خاطره جملةٌ لم يقلها لأحد: «ماذا لو وقع السقف عليّ؟»

شدّ قبضتيه حائراً في أمر يدين رفعتا اللوح، وأنزلتا الجسد، وعجزتا عن صون أهل البيت داخل البيت.

نظر إلى المرأة ثانية، لم يقترب منها، تراءى له سكونها فخاً يعيد إليه وجهاً يفرّ من رؤيته.

في الخارج لم تهدأ القحمة، واصل البحر ضرب جدران البيوت واستمر مطر الدم، استحال الطير الساقط نهاراً لُطخاً دمويةً على الأسطح ليلاً، وختم الصمت أفواه الكلاب النابحة، وطفّت الأسماك في الأزقة فاغرة الأفواه. وفي طرف القرية أطبق سقف بيتٍ آخر على أصحابه، ولم يخرج منه أحدٌ.

ومع الفجر حين كفّ المطر لحظةً واحدة، خرج من المسجد صوتٌ يُطمئن وصدح الأذان: «الصلاة خيرٌ من النوم».

رددها كلّ واحد في بيته بطريقته، تسمّر فارس خلف الباب المغلق ولم يفتحه، مدرّكاً عجز قدميه عن حمله للمسجد اليوم،

رفع الأب رأسه، نظر إلى السقف المُنهك ثم إلى الباب ثم إلى الأرض، قامت دنياهما على اثنين، كل واحدٍ يحمي الآخر بصمته. بعد الصلاة انتفضت القرية بالأخبار لا بالعمل، تناقلت النساء: «دفناها في المقبرة».

وتبادل الرجال النبأ: «سقط بيت زيد».

عند الزاوية همس رجل آخر للإمام بسرٍّ لا يريد لأحد سماعه. في الخارج عند السُدرة، كان أثرُ الكفِّ ما يزال على الجذع، لم يأت الصيَّاد عند الفجر كماداته، ظلَّ في البيت حتى لا يُقال إنَّ أحدًا ترك بيته في يوم كهذا.

وفي السوق أنزل الباب الحديدي للمكتبة كلّه، وأغلق الخبّاز باب الفرن، ووضع عليه حجرًا، وجلس إلى جانبه يفرغ من صدره أنفاسًا مُتعبة.

ذلك اليوم لا اسم له في أفواه الناس، لكن الذين كانوا هناك سيقولون بعده: «كان اليوم التاسع».

وسيفهم أنّ المقصود هو اليوم الذي حُفِر فيه قبرٌ تحت المطر، يومٌ وُضِع فيه حجرٌ جديد على حافةِ مقبرةٍ، وصار بيتٌ بلا أمٍّ، وحُجرة بلا رائحة خبز، وبابٌ خلفه كرسيٌّ يسنده.

اليوم العاشر

خَفَّ المطرُ في اليوم الجديد، لم يهجم على الأزقة كالأمس، بل نزل متقطعًا على فتراتٍ متباعدة. في السوق فتحت بعضُ الأبواب نصف فتحة، مصاريحٌ حديديةٌ لا ترتفع إلا بمقدار ما

تسمح به اليدُ الحذرة، لم يُخرج الخبّاز إلا صينيةً واحدة، أرغفتها أصفر، ورائحته أقلّ امتلاءً، وقفت امرأةٌ على العتبة تسأل في همس: «أعطني رغيفين فقط».

أوماً برأسه مثبتاً عينيه على النار: «واحدٌ في اليوم».
على حافة المقهى ثبت صاحبُه لوحًا خشبيًا تحت العارضة، ومسح بكمّهِ موضعًا صغيرًا من البلل، لا ضحك هنا، ولا حديث على الملاء، كلماتٌ قصيرةٌ تقطع الطريق من الفم إلى الأذن بلا ضوضاء.

يُنزل حسن الورّاق الباب إلى منتصفه، يُخرج كتابين ويعيدهما، يلمس العتبة براحته كمن يطمئن على أطفاله، ثم يقف جانب الباب واضعًا المفتاح في جيبه، وعيناه تُراقبان شقوق السقف. في تلك الساعات ارتدى السوقُ الصمتَ زيناً موحدًا، لبسه الجميع بلا اتفاق، والأطفال الذين اعتادوا الركض بين الدكاكين صاروا يمشون بحذر بمحاذاة الجدران.

مرّ راعي المواشي مسرعًا، يقود معزتين مدعورتين.
عند زقاق جانبيّ، وقف جابر في الممرّ الضيق سافر الرأس بلا غطاء، وجهٌ نحيلٌ تعلّم الدرس قبل الجميع، مدّ راحته إلى الأعلى فتلقّى بها قطرةٌ تأخر سقوطها، تقلّبت على جلده، ثم انقسمت إلى أثرين، رفع عينيه إلى العابرين، وأطلق صوته ملء المسافة: «من صمت في الحريق، لا يملك أن ينفي الدخان عن ثوبه».

التفتت رؤوسٌ قليلة، وأعرضت أخرى، سحبت امرأةٌ ولدها من كمّهِ، وشبك رجلٌ أصابعه خلف ظهره، لم يُجادله أحد، ولم يسأله أحد، لكن الجملة وقفت بينهم.

كان أبو فارس في الجهة المقابلة، سمع الجملة قبل أن يرى قائلها، التقت عيناه بعيني جابر لحظة قصيرة، وخُطِفَ لونه، ثم استعاد ثباته مثل من يُحسن إخفاء ارتبাকে، لزم مكانه ووضع كفه على صدره ليسكن ارتجافاً داخلياً، ثم مضى نحو المخبز، وقال للخبّاز بصوتٍ هادئٍ:

«رغيفين».

رد الخباز: «واحدٌ للجميع».

أوماً وانصرف.

خرج الإمام إلى العتبة مرةً واحدةً، وقال لمن مرّ بمحاذاته:

«ابقوا في بيوتكم»، ثم دخل.

كان قوله أقصر من جملة جابر، لكن أثره شبيهٌ بما يُطمئن. رجالٌ يتبادلون نظراتٍ خاطفة، ونساءً يغطين الأواني خشيةً الكسر، وأبوابٌ تواربُ مصاريعها في حركاتٍ متتدة. ارتفعت الأسعار في السوق، والأعين تُمعن في النظر إلى الوزن الذي ينقص قليلاً كلّ مرة.

يضع بائع البصل حبة بدل حبتين في الكيس، وصار التفاوض على الخبز همساً.

في طرف السوق جلس وضّاح، يمسح أوتار السمسمة بأصابعه ولا يعزف، ينظر إلى الممر حيث وقف جابر، ثم يعيد عينيه إلى سمسميته، غارفاً أنّ صوتها سيأتي في يوم آخر.

تحرك جابر خطوة فقد ضاق الموضع بقوله، مرّ بمحاذاة بائع التمر، وضع كفه على حافة الصندوق وقال دون أن ينظر:

«الدخان يعلّق في الروح أكثر مما يعلّق بالثوب».

تجاهله البائع، وانشغل بشدّ شريطٍ من الخيش.

صار البيت بعد دفن أم فارس أكثر فراغًا، بقي الدبوس على العتبة وحيدًا، والكوب الفارغ على الطاولة لم يُرفع منذ الأمس، جلس فارس في الحجرة، لم يفتح فمه بكلمة، يسمع الأخبار من الشقوق.

حين عاد أبوه خلع ثوبه عند الباب، وافترش الحصير، وقال جملةً واحدة:
«أهدأ من الأمس».

لم يكن الهدوء سلامًا، كان فاصلاً بين كارثتين.

عند السُدرة على الطرف الآخر من القرية، توقفت يد الصياد على الجذع لحظةً أطول مما يلزم، رفع كفه عنها كمن يرفع يداً عن كتفٍ مُتعبةٍ لا يريد أن يثقل عليها. نظر إلى الطريق المؤدي إلى المسجد، لم يرَ جديداً سوى خِفة المطر، ثَبَّت عصاه على الأرض، وقفل عائداً إلى البيت.

سوقٌ نصفُها مغلق، ونصفُها الآخر يتهيأ للإغلاق. أنزل صاحب المكتبة الباب حتى التبصق بالأرض، أدخل المفتاح في الحلقة، ثم توقّف لحظةً لينظر إلى الممرّ الذي وقف فيه جابر ظهر النهار كأنّ للمكان ذاكرةً تُدَوِّنُ الجُمْل القصيرة، رفع وضّاح السمسيميّة، داعبت أنامله وترّاً واحداً فقط، فخرج منه صوتٌ يتيّم، لكنه قال ما يكفي ليشعر الرجال على الطاولات أنّها تكتّم أنفاسها ريثما ينضج الألم.

عاد جابر إلى الممرّ، لم يكرّر جملة، ولم يعتذر عنها، وقف عند حجرٍ صغيرٍ ناتئٍ من الأرض، ركله بحافة نعله، ثم سار بمحاذاة الجدار حتى اختفى.

قُبِيلَ المغرب بدقائق، جلس أبو فارس عند الباب الداخلي لبيته، حيث رسم الضوء خطأً وحيداً على الأرض.. أخذ نفساً عميقاً، أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما؛ فلا بشارة تلوح، ولا نذير يظهر. في صدره بقايا دُخان لا رائحة له، وفي السوق خيمت آثارُ يوم نجى بنصف قلق، لِيُسَلِّمَ نصفه الآخر للغد، هداً المطرُ أكثر، وسكتت طرقة اللوحين في الميناء، وارتفعت من المسجد تلاوةٌ قصيرةٌ تُذكّرُ الناس بأن الليل لا يأتي ليُخيف، بل ليعدّ للأرض صباحاً مبشراً. في الأزقة حين مرّ رجلٌ بآخر، رفع الأول كفه إشارةً صامتة، وردّ الثاني بإيماء رأسٍ، زهد الجميع في الكلام؛ فَحَسَبَهُمْ عبورُ الساعةِ بسلام.

اليوم الحادي عشر «حين يُثقل الماء الخطى»

لم يطلع الصباحُ بوجهٍ جديد، جاء الماء أسرع من العيون التي تنهياً لرؤيته، انفتحت الأزقة على سيولٍ خاطفة، ثم طال اندفاعها، فصار الطين جسداً واحداً يتحرّك ويجرّ ما أمامه، ويُفلت ما خلفه، عاد اللونُ الأحمرُ على المداخل أكثر وضوحاً؛ خطوطٌ حمراء على الحجر، بقعٌ داكنةٌ عند العتبات، وخيطٌ يسري بمحاذاة الجدران.

تلقّى الميناء الصدمة الأولى، ارتفع الماء مقداراً لم يعتده الناس في مثل هذه الساعة، وبدت الحبال المشدودة أوردّةً تنبض، يتناوب عليها شابان ليشبّتا عقدةً تُوشك أن تفلت، صدم

قاربُ قاربًا آخر، فصدر دويٌّ عالٍ ثم هداً، اتكأ رجلٌ على عمودٍ، رفع طرف ثوبه وأشار لمن معه:
«اربط من هنا».

وفي الأزقة طفت الأسماك، تسبح لحظاتٍ في بركٍ صارت أنهاراً صغيرة، ثم تنفق. همّ طفلٌ أن يلتقط واحدة، صاحت أمّه فأعاد يده دون أن يلتفت، وقف ينظر إليها كأنها لعبةٌ يُريد الحصول عليها.

ضلّت المواشي طريقها، فلتت نعجةٌ من رباطها، واندفعت إلى أول جدارٍ قابلها، ارتطمت وتراجعت، ثم حاولت ثانيةً في جهةٍ أخرى، هرعت بقرةٌ من زقاق جانبي، عيناها تُكثّفان الرعب في بؤبؤين، رفست باباً من الخشب فلم يفتح، فمالت إلى الجهة المقابلة، وانتهت بكتفٍ مدمّاة، جرّها رجلٌ من حبلها لاهئاً: «هنا إلى الداخل».

طغى صوت الماء وهو يضرب حافات الجدران، عند نهاية السوق هوت سقيفةٌ صغيرةٌ دون أن تؤذي أحداً.

خرج الإمام ووقف أمام باب المسجد، شقّ طريقه بين الماء المتجمع عند العتبة، وخاطب الواقفين بصوتٍ هادئٍ: «الزموا البيوت، النجاة ليست مضمونة في الخارج».

جملةٌ قصيرة، لكنها استقرت في الصدور كأنها حجرٌ يسند جدارٍ آيلاً للسقوط. بعض الرجال هزّوا رؤوسهم ومضوا، شدّت امرأةٌ يد ابنها وقالت: «سمعت؟» وسحبته دون أن تنتظر جوابه. في السوق قلّ الخبز، صينية واحدة أمام الخبّاز يغطيها بقماشٍ نظيفة ثم يكشف، ومع كل كشف تنقص عدداً، حين طلب

رجلٌ ثلاثة أرغفة، مدَّ الخَبَّازُ له واحداً وقال: «واحدٌ للجميع»، لم يحتج إلى تبرير.

أنزل صاحب المكتبة الباب إلى نصفه، ووقف وراءه يُعيد ترتيب الكتب علَّها تصمد أمام الكارثة.

على حافة الزقاق الطويل تحرَّك وضَّاح بسمسميته، لم يعزف، جرَّ أنامله على وترٍ واحدٍ فقط، فخرج منه صوتٌ ثم أسكنه براحته، رفع بصره نحو الماء الراكض، ثم أعاد عينيه إلى الأرض في البيوت، تغيَّر الإيقاع، أبوابٌ تُسند بعوارض، شبابيكٌ تُسدُّ بسعف وقصب، وسلالٌ تُرفع إلى الأعلى.

في البيت جلس فارس يراقب بقعةً تُكبر على السقف كبقعة حَبَرٍ في كتابٍ، يُزيح الفراش قليلاً، ثم يجلس على الكرسيِّ أمام الحائط يتابع القطرة وهي تبحث عن مكانٍ آخر لتسقط، لا صوتَ لامرأةٍ في البيت ولا رائحةَ خبزٍ، فقط صمتٌ يتكثَّف حين يشتدُّ المطر، ويخفُّ حين ينقطع كأن البيت يختبر كيف يكون الفراغ بعد رحيل صاحبة الظلِّ.

يمرُّ أبو فارس من الحجرة إلى الفناء، يحمل لوحاً يضعه تحت العارضة، يشدُّ عقدةً على حبلٍ أحكمه بالأمس ثم زاد شدَّه اليوم، لا كلام بينه وبين ابنه، نظراتٌ قصيرة، وإشاراتٌ باليد، وخطوات ثابتة لا ترفع المياه منها إلا الطين الذي يلتصق بالكعب ثم يسقط.

مرَّ جابر المجنون من طرف السوق، وقف دقيقةً عند زاويةٍ اعتادها، نظر إلى الماء وهو يجري، همس بشيءٍ لنفسه ومضى، لم يلتفت إليه أحدٌ طويلاً، فالأعين مشغولة بتأمين خطٍّ للعودة

إلى البيت قبل أن يسدّ التيار، بيتٌ وحيدٌ نَشَرَ عن هذه الموسيقى الثقيلة: بيتٌ مناع، في زاويته نافذةٌ نصف مفتوحة دائماً، لا تُغلق، مرّ الماء بمحاذاته ثمّ تغيّر مجراه قليلاً، لا صوت في بيته ولا ضوء. عند العصر مرّ صبيّان وأبطأ خطواتهما لحظةً وهما يلتفتان إلى تلك النافذة، ثم هرولاً صامتين، ضرب رجل بكتفه كتف رجلٍ آخر وهو يقول دون أن ينظر:

«يظل قائماً».

ورد الثاني:

«وما من أحدٍ فيه».

وانتهت الجملة في الماء.

في بيت مناع النافذة على حالها: نصف مفتوحة، لا تشرّع ولا تُغلق، من الداخل مرّ ظلٌ خفيفٌ كأن شيئاً تحرك، ولم يثبت، عند منتصف الليل خرج صوتٌ لا يفسّره أحد: ليس ضحكاً ولا بكاءً ولا شجاراً، شيءٌ أقرب إلى همهمة انقطعت سريعاً، مرّ رجلٌ عند طرف الزقاق، توقف هُنيئاً مسترقاً السمع ثم مضى، في الصباح سيقول: «ربما كانت الريح»، ولن يُجادله أحدٌ، فالناس مشغولون بما فوق الأرض وما تحت الماء.

في داخل البيوت تكدست الأجساد في حجرة واحدة كما أشار الإمام: حصائر متلاصقة، أبواب مسنودة، وكلمات قليلة لا تُستهلك، عدّت امرأة أسماء أولادها قبل أن تنام، وردد رجل دعاءً قصيراً حفظته الذاكرة، وغفت طفلةٌ وهي تضمّ لعبتها إلى صدرها. وضع فارس كرسيّه تحت الشُقّ الذي يقطر، وعيناه تلاحقان السقوط من السقف، أسند أبو فارس ظهره إلى الجدار،

يفتح كَفَّهُ ثم يقبضها، فترت حدة الماء ولكنه بقي في الطرقات.
عند الفجر ستظهر خطوط الطين على طول الزقاق مثل
خرائط صغيرة رسمها الليل، وسيقرؤها الناس بأقدامهم: هنا
مرّ تيارٌ صغير، هنا سقط لوح، هنا طفت سمكةٌ واستقرت،
سيبقى بيتٌ نافذته نصف مفتوحة كما كانت، وسيخلد السوق
أثر جملة جابر المبتورة على وجوه أنكرت الفهم. وحين ساد
الصمت إلا من وقع قطرات متباعدة، أسندت «القحمة» ظهرها
إلى جدارٍ واحد، موصيةً البيوت: قفوا متلاصقين فالماء لا يُفرّق
بين حجرٍ وآخر. في تلك اللحظة، لم يعد الناس ينتظرون علامةً
في السماء، وصاروا يفتشون بأيديهم عن موضع يثبت اللوح، وعن
كلمةٍ قصيرةٍ تجلب النوم، وفي النافذة التي لا تُغلق تمامًا، ظلّ
الضوء الخافت يشبه عينًا نصف مفتوحة، لا ترى من الداخل
أحدًا لكنها ترى كل الذين يمرّون من الخارج.

اليوم الثاني عشر

اتكأ نهار القحمة على ساقٍ واهنة من طينٍ وماء، وتراجع
الضوء جازًا وراءه أشلاء يوم التهمته الكوارث من أطرافه. انحسر
المطر منذ الظهرية مخلفًا رطوبةً عند المنعطفات، وطبقات وحلٍ
تبرق في المنخفضات.

في السوق فتح الخبّاز بابًا وأغلق الآخر، وأبقى على صينيةٍ
صغيرة يغطيها بقماشة، باب المكتبة الحديدي نصف مرفوع
كإشارة صامتة إلى نهارٍ عجول لا يرغب في البوح أكثر.

خرج فارس إلى الفناء الخلفي لبيتهم حاملاً فوق رأسه خشبةً لا يعرف أين يضعها .

رشح سقف الحجرة من زاويةٍ غفل عنها، فلزمه لوحٌ يسد به موضع الرشح حتى لا تسقط القطرات على الحجرة، توجه صوب إلى مخزنٍ صغيرٍ في طرف الحيّ، كلّ شيءٍ حوله يطلب المشي بحذر، قشرة رقيقة من طين، حصى يختبئ تحت الماء، وحائطٌ يوشك أن يقع .

عند زاوية زقاقٍ ضيقٍ يفضي إلى المخزن، رأى جابرًا يمشي وحده، لا يحمل عصاً، ولا يرفع رأسه إلى السماء، فقط ساقان تخوضان في الطين بخطواتٍ محسوبة، وفي الطرف المقابل ظهر أبو فارس يخرج من ظلّ بيتٍ مهشم الحافات، يمشي بظهره المستقيم وبهدوءٍ لا يُنذر بشيء .

تسمّر جابر في موضعه، كمن يتذكّر كلمةً يجب أن يقولها . اقترب أبو فارس حتى صارت المسافة بينهما مقدار ذراعين، وحين تلاقت الأعين، خرجت الجملة من فم جابر واضحة لا تحتاج إلى تأويل، قصيرة كحدّ السكين:

«أنت الذي فتحت الباب» .

خلت نبرته من الصراخ لكنها وصلت واضحة، لم يلتفت لها أحد، كان الزقاق خالياً إلاّ منهما ومن فارس الذي انعطف تلقائياً إلى الجدار، يستند إلى فجوةٍ بين حجرين يتنفّس فيها مرتبكاً . تراجع أبو فارس خطوةً صغيرة كأنّ الجملة دفعت صدره، ثم قال بصوتٍ أخفض مما ينبغي: «هيا، انصرف» .

لم يتحرّك جابر، فأعادها أبو فارس بنبرة تشي بالتحذير:
«انصرف أيها المجنون».

ظلّ جابر ثابتاً، ثم استدار بهدوءٍ لا يشبه الهرب، ومشى داخل الزقاق الأضيّق حيث تتقارب الجدران حتى تكاد تلتصق، تبعه أبو فارس دون صوت، ولحقهما فارس، وقد نسي اللوح والرشح والسقف كلّ، ودخل خلفهما على أطراف قدميه، تحرسه فجوات الطين.

في قلب الزقاق حيث لا يصل نظر السوق ولا يراهم أحد توقف جابر واستدار ثانية، نظر إلى أبي فارس ولم يقل شيئاً، تقدّم أبو فارس خطوتين حتى صار بينهما موضع حجر، كان الحجر هناك متكوراً عند قاعدة حائط، مدّ أبو فارس يده إليه، لم يرفعه دفعةً واحدة، جرّه أولاً من قاعدته كأنّ الأرض تشدّه، ثم قبض عليه بكلتا يديه. رأى فارس مفاصل أصابع أبيه تشدّ، وعروق معصمه تتنبه، ورأسه ينخفض مقدار شبر، قال شيئاً لم يسمعه إلا جابر، كلمة قصيرة لا معنى لها إلا حين تنطقها يدٌ تعتزم البطش، جاءت الضربة الأولى خاطفةً، فأحدثت صوتاً مكتوماً حين اصطدمت بالصدغ، ارتجّ جسد جابر كارتجاف خيطٍ في مهبّ ريح، وتراجع نصف خطوةٍ ثم ثبت، التقط أبو فارس نفساً أطول، ورفع الحجر ثانيةً، هوت الثانية فوق الأولى، فلم يعد للظلال على الحائط معنى، ثم تلتها الثالثة دون ضرورة مدفوعة بحقده الدفين، سقط الحجر إلى الوحل وبقي جابر صامداً لحظةً واحدة، ثم مال إلى جنبه وسقط الفم الذي قال قبل دقائق جملةً واحدة، اقترب أبو فارس خطوة، نظر إلى الوجه الذي لا يزال مفتوح العينين، كأنّ

فيهما بقايا سؤالٍ لا يريد جوابًا، ثمّ تلفت يمينًا ويسارًا، قبل أن يغادر الزقاق كما دخله: بلا عجلة، بلا التفاتة.

تسمّر فارس في مكانه، كأنما التحم بالجدار. انفرست قدماه في الطين، بيد أن جسده انسلخ عن إرادته؛ فألجمه الرعب عن الصراخ أو الفرار. اجتاح فمه صقيعٌ مفاجئٌ فسال ماءً مرّ على لسانه. رفع كفه إلى فمه مانعًا صرخته من الخروج، زحف بنصف قدم ثم أخرى، وخرج من الزقاق إلى الزاوية الأولى فالثانية ثم إلى الطريق المفضي إلى البيت، وداخل صدره تتردد جملة جابر ككلمة تجرّ ذيلها: «أنت الذي فتحت الباب».

وحين بلغ العتبة، فتح الباب وأغلقه خلفه دون أن يصدر صريرًا، ثم جرّ الكرسي داخل الحجرة وأسنده إلى الباب كمن يُسند جدارًا يتداعى، جلس وراح ينظر إلى نقطة في الفراغ، وفي حلقه غصة صاعدة كأنه يختنق، اندفع القيء فجأة، فمال إلى جانب الفراش.

قالها أخيرًا: «أبي قاتل!»

ثم أعادها كمن يختبر صدق اللفظ: «أبي قاتل».

خارج البيت في زقاقٍ لا يصل إليه نظر فارس، عثر صبيّ عند الغروب على جسدٍ ممدّد، صرخ صرخةً مُدوية فجاء رجالٌ، وقفوا حول الجسد، قال أحدهم وهو يرفع طرف ثوبه:

«حجرٌ سقط عليه».

وقال آخر وهو يتفقد رأس جابر بحدّ نظره: «ربما انزلق».

هزّ شيخٌ رأسه وقال:

«ندفنه قبل حلول الليل».

أقبل الإمام مساعد من طرف المسجد، ألقى نظرة سريعة، وقال في سرّه: «مات أعقلنا!»

ثمّ أمر بصوت مرتفع: «احملوه».

لم يُشِرْ إلى شيءٍ أكثر من ذلك، لُفَّ الجسد على عَجَلٍ بملاءٍ جاد بها أحد الحاضرين، وحُمِلَ إلى طرف المقبرة، لا موكب، ولا بكاء، صفّ قصيرٌ خلف الإمام، تكبيرات مكتومة، وقراءةٌ يقطعها نفسٌ سريعُ الإيقاع، وحين انتهوا، قال رجلٌ مبجوح الصوت: «رحل جابر، رحل جابر».

في تلك الساعات انهمر الماء على حجر المغسلة في بيت أبي فارس غزيراً، وقف فارس خلف الباب يستمع إلى صوت الماء، وبعدّ في رأسه عدد المرات التي ينسكب فيها على الجلد: واحد اثنان ثلاثة.. لا يتوقف، يد أبيه التي رفعت الحجر هي ذاتها التي تفرك الآن ما تحت الأظافر بعنف بحثاً عن جوابٍ يسقط من بين أصابعها. كلّ مرةٍ يتوقف فيها صوت الماء يظنّ فارس أنه سيتوقف، لكن الصوت يعود. واصل العدّ: أربعة عشر، خمس عشرة، تسع عشرة، وتذكّر يد أبيه وهي تُصلح رباط الحبل في السطح، وهي تحمل القهوة في صباح قديم، وهي تحمل نعل أمه، ثم رآها تهوي بالحجر في الزقاق.

جلس فارس في الظلام، وفي داخله يندفع شيءٌ كثيفٌ لا يُعرف من أين يأتي: خالد الذي لم ينقذه يومَ ابتلعه الماء، وجه أمّه تحت الركाम، أنفاسها الصغيرة في آخر ساعة، ودموعه التي لم يقدر على ذرفها وقتها، الآن فقط عرف كيف يقتله كل شيءٍ دفعةً واحدة: الذنب القديم والفقد القريب واللحظة التي رآها بعينه قبل دقائق.

أطبقت الحجرة عليه؛ الحائط يزحف نحوه، والسقف يرفض البقاء مكانه، أمسك بمعصمه وشدّ الخيط الأخضر فالألم الملموس أهون من ذلك الذي يملأ صدره، ثم همس:

«خالد، أمي، وأبي».

في الخارج خيم الصمت على السوق سريعاً، تعود الناس أن يسدلوا المصاريع دون سؤال، لم يدر أحد من العائدين من المقبرة أن فارساً يفتح عينيه على سقف لا يريد رؤيته، وأن صوت الماء المتكرر في الحجرة المجاورة صار عدداً للضربات، عبر طيف أمّه أمام الباب الداخلي ثم تراجع. لم تطرق، لكنّ ظلالها شعرت بالبرد المنبعث من الداخل، لم تقل شيئاً، ففي بيت كهذا تترك الأسئلة حتى الموت.

حين انقطع أخيراً صوت الماء، عرف فارس أن أباه خرج من المفصلة، سمع وقع خطاه في الممرّ: ثلاث خطوات ثم توقف، لم يقترب من الحجرة، لم يطرق الباب، ولم يناد، بل مرّ تاركاً الليل يُكمل ما بدأه هو. تسلّلت إلى فارس رغبة عميقة في الموت، بقي يحدّق إلى نقطة سوداء على الحائط، ثم أطلق بصره في الفراغ تحت سطوة فكرة وحيدة فرضت نفسها: «إن قال جابر: أنت الذي فتحت الباب فمن الذي سيفلقه؟»

أعوزه الجواب، وعلم أن البحث عنه الآن يكشف ما يفوق احتمال، وضع راحته على قلبه لإسكاته، فلم يهدأ، ارتفعت في صدره اختلاجة تشبه النشيج، جاهد لكبحها خشية أن يسمعه أبوه، تذكر العرافة وهي تقول:

«تحتاج إلى قلب يمتلك القدرة على الاعتراف والمواجهة».

لكنه لم يكن يملك الليلة إلا أن يعيش نتيجة اعترافٍ لم يجروُ عليه .

أبُّ قاتل، وابنٌ شاهد يعجز عن البوح، ولغزٌ خرج من الزقاق وغاب حلهُ في القبر.

اليوم الثالث عشر

طلع الصباح هادئاً، وتسلسل ضوء شحيح عبر الشقوق، غير أن البرودة بقيت تسكن الحجرة. تحت الأقدام حصيرٌ مبتلّ، وعلى الجدار لمعان مياه تسيل. رقّعت الأم شقاً قرب السقف بقطعة قماش لتقطع قطراتٍ تهبط بانتظام، فيما جلست شجن إلى جوارها، تلفُّ عباؤها حول كتفيها، وتحذّق إلى صدعٍ دقيقٍ يتّسع في سقف غرفتها المجاورة.

قالت الأم بصوتٍ مشدود: «ابقي هنا».

هزّت شجن رأسها وهمّت بالكلام، فباغتها صوتٌ تكسّر واضح من جهة الحجرة المتصدّعة؛ خشخشةٌ قصيرة تلاها صرير ممتدّ ينذر بانهيار السقف، رفعت الأم يدها محدّرة: «انتظري».

لم تكذبْ الكلمة حتى انشقّ السقف. تهاوت العارضة أولاً، وتبعتها كتلُ الطين والخشب والحجارة دفعةً واحدة. دوى الارتطام، وتناثرت شظايا الردم المبتل، فملأت الممر بهباء ثقيل ورائحة طين خانقة كتمت الأنفاس.

صرخت شجن: «غرفتي!»

اقتحمت سحابة الرَّدَم، لكنَّ الأم تشبّثت بذراعها بكل ما أوتيت
من ذعر وحب، وصاحت: «عودي يا شجن! البيت يَسْقُط!»
حاولت شجن الإفلات باكية: «لجّين، كُتبي، دفاتري!»
ضمّتها الأم إلى صدرها بقسوةٍ تشبه النجاة:
«يا ابنتي، لو سقط عليكِ السقف فلن يبقى كتابٌ ولا قطعة ولا
شجن».

جَرَّتْها الأمّ حتى العتبة، وحين التفتت شجن، رأت الركّام يبتلع
آخر خيوط الضوء في الحجرة. كان البيت ينهار رويدًا رويدًا:
خشبةٌ تنزلق، وجدار يتصدع، وشقٌّ يتسع.
وقفتا خارج الباب والمطر الخفيف يوشّي أطراف الثياب. كانت
الأم تلهث وتستند إلى الجدار واهنة الساقين، فانتهزت شجن
لحظة عجزها وانطلقت كالسهم عائدة إلى الداخل. صرخت الأم
لكن صوتها ضاع في نشيج الأبواب المخلخلة، ولم تقو ساقها
المرتجفتان على اللحاق بها، فاكتفت بتغطيةٍ فمها بطرف عباءتها.
اتقاءً لرائحة العفونة المتصاعدة.

استحالت حجرة شجن قبرًا مفتوحًا؛ كتلٌ متراكمة من طينٍ
وخشبٍ وزجاجٍ مهشَّم، وكتبٌ تمرّقت صفحاتها وذاب حبرها في
الماء حتى صار عجينا. جالت الفتاة بعينين زائفتين، ثم هوت
على ركبتها تُقلِّب الألواح والأحجار، وتزيح ما استطاعت، مناديةً
بصوتٍ تخنقه العبّرة: «لُجّين.. لُجّين!»

تتاهى إلى سمعها مواء واهن؛ أخفض من أن يكون حياةً،
وأعلى من أن يكون موتًا. انحنت نحو مصدر الصوت، ورفعت
اللوح الخشبي الثقيل ضاغطةً بأسنانها على شفيتها لتكتم صرخة

الألم. حين زحزحته، انكشفت كتبٌ مرصوصة بفوضى، تحتها ذيلٌ رماديّ يرتعش. مدت يدها بحذرٍ نحو الجسد الصغير المحشور بين ضلعين خشبيين، سحبت الألواح، رفعت حجرًا، أزاحت كومة ورق مبتلّ، ثم انكبت عليها كمن يستنقذ قلبه من تحت الركام. ظهرت لُجين، نصف مغمضة العينين، أنفاسها تتعثر، وفمها مفتوح يبحث عن الهواء. احتضنتها شجن مسندةً جبهتها على الرأس الصغير لتمنحه بعضًا من دفئها، وقالت ونشيج البكاء يخلق صوتها:

«لا تموتي، لا تتركيني وحدي، لا تكوني مثله».

كانت تعني ذاك الذي غاب ولم يعد؛ ذاك الذي لقّنها قسوة الانتظار.

مسدت الصدر الصغير بكفّها، ومسحت الفرو المبلل، ثم ضمّت القطعة إلى صدرها لعلّ نبض القلب يسرق من الموت لحظةً إضافية. سعلت لُجين سعلتين قصيرتين، ثم همد الذيل المرتجف، وأسبلت العينان اللتان قاومتا الانغلاق ستارهما الأخير. همست شجن بقلب مكسور: «كلّ هذه الأيام، ولم يبقَ لي إلا أنت».

جاءت الأم، ووقفت عند العتبة تستبذ بيدها إلى كتف الباب. تأملت الموقف، مسحت دمعتها، ثم مدت يدها إلى ابنتها: «هيا، لا بيت لنا هنا يا شجن، هيا إلى بيت جارتنا أم منيرة، هذا المكان لم يعد لنا».

ردّت شجن وهي تمسح أنف لُجين بطرف عباؤها:

«أريد أن أدفنها وأعود إليك أرجوك يا أمّي».

«سأساعدك».

دفعت شجن يدها برفقٍ عن كتفها.

«لا، أريد أن أدفنها وحدي».

تراجعت الأم خطوةً، بصبر من يعرف أنّ بعض الأحزان لا تُشارك دون أن تُهان. سلمت أمرها لله وقالت بصوتٍ قاطع:
«سأنتظرُكِ في بيت أم منيرة.. لا تُبطئي».

ثم خرجت.

بقيت شجن وحدها في الحجرة التي تداعى سقفها حتى كاد يلمس الأرض. تناولت قطعة قماشٍ بيضاء اعتادت أمها فرشها على الأرفف، نظّفت أطرافها ما استطاعت، ولقّت بها لجين مسدلة الستار على مسرحٍ لن يُضاء مرةً أخرى.

قبّلت الكفن الصغير، ونهضت من وسط الركام تجمع ما طالته يدها من كتب اقتنتها من أجل الرجل الذي لا اسم له؛ تلك التي صارت مرافئ مؤقتة حين اشتدّ بها طوفان الوحدة.

حملت دفتر الرسائل أيضاً؛ ذاك الذي حفظت فيه ما عجز لسانها عن قوله. وبيدٍ تحمل جثةً مكفنة، وبالأخرى أكوام ورقٍ عاش معها أكثر مما عاش غيره، خرجت إلى الممرّ، وقصّدت المخزن لتأخذ مجرفةً.

غادرت البيت.. كانت الأزقة بعد المطر موحلة، وعلى جوانبها آثار جريان الطين. مشّت بمحاذاة الجدار حتى اتّسع الطريق، ثم مضت نحو أطراف القرية.

وقفت عند جذع نخلةٍ مقطوعة في أرضٍ أقلّ رطوبةً وأقرب إلى السكينة، وبدأت الحفر. غرزت المجرفة في التراب لتخرج

محملة بطين لزج، واطمأنت إلى خلو الأرض من الماء الجاري.
نال منها التعب سريعاً.. آلمتها كتفها وارتجفت يدها لكنها لم
تتوقف. مع كل ضربة للمجرفة كانت تنتحب وتردد:
«لا تتركيني».

جهلت لمن توجه نداءها: إلى لجين أم إلى بقايا حياتها
الصغيرة؟ ولما بلغت الحفرة عمقاً يحفظ ما يُدفن فيه، واتسع
قاعها للجين والكتب والرسائل، وضعت لجين أولاً، وأدنت وجهها
من الكفن تهمس:

«إن كان في الأرض دفء، فليكن لك أولاً».

وضعت فوقها الكتب التي علّمتها الانتظار وتلك التي خدعتها
بالنجاة، ودفتر الرسائل الذي كتبته يوم لم تجد اسماً تُخاطبه،
ثم تنهدت باكية:

«دفنت كل شيء.. إلا اسمك، لم أستطع دفنه».

أهالت التراب حتى استوت الحفرة بالأرض كأنها تُسدّد ديناً
تأخر سنوات، ثم وضعت حجراً عريضاً ليكون شاهداً للقبر.
وقفت ونظرت حولها؛ لا أحد، لا شاهد على الحزن سوى نخلة
بيست سعفاتها منذ زمن. مسحت وجهها بطرف العباءة، ومسحت
الطين عن كفيها، ثم مضت بخطى ثقيلة نحو السوق.

كانت المكتبة نصف مغلقة؛ باب مرفوع إلى منتصف الواجهة،
ورائحة ورقٍ تالف تتصاعد من الشقوق. وقفت شجن عند العتبة،
فنادها حسن الورّاق بصوتٍ أثقلته الأيام: «تفضّلي يا شجن».

خطت نحو الداخل خطوة وجلّة، وقالت: «أتذكر الرجل الذي
كان يأتي مساءً، يجلس هنا، ويقرأ».

استحضر الوراق ذاكرته، ثم ابتسم بحزن: «نعم، أذكره».
ناولته ظرفاً مطوياً بعناية، تلمخ طرفه بالطين، وقالت: «إذا
عاد، أعطه هذا الظرف.. وأخبره أنني انتظرتُه طويلاً».
أخذ الظرف ووضعه في درج قريب، ثم رفع نظره إليها صامتاً؛
ففي حضرة الوداع، تضيق الكلمات وتتسع النظرة.
غادرت المكتبة، ووقفت لحظةً عند النافذة المكسوة بطبقة
من الطين والدم. رأت انعكاسها باهتاً، وخلفه رفوف مررت عليها
يدها ألف مرة. مررت إصبعها على الزجاج، وخطت أثراً لن يلبث
أن يزول، ثم عادت إلى البيت.

وقفت أمام حجرتها التي أصبحت ركام ذكريات، رأت مكتبتها
المهدمة والدفاتر المدفونة تتحرك داخل قلبها كأنها لا تزال حيّة
على الرف، مشت بين الركام حتى وصلت إلى العتبة، أسندت
يدها إلى كتف الباب، قالت لنفسها: «هنا كنتُ، وهنا انتهى ما
ظننته لا ينتهي».

أغلقت عينيها ثانيةً، وأحنت رأسها تحيةً صغيرةً لما بقي
في الخارج. ثم خرجت ساحبة بيدها صرّة وضعت فيها ثوبين
ووشاحين، وسجّادة صلاة، وصورة قديمة لأبٍ غيَّبه الموت.
نظرت مرةً أخيرةً إلى بيتٍ صار فماً لا يريد أن يبتلع المزيد،
وهمست: «سأحتفظ بصوتكِ يا لجين ما استطعت».

عند باب بيت أم منيرة، كانت الأم تنتظر بوجهٍ شاحب.. وما إن
رأت ابنتها قادمة حتى فتحت ذراعيها، فارتمت شجن في حضنها
كمن يعود إلى المعنى الوحيد المتبقي في الحياة. قالت الأم بحزم
مشوب بالانكسار:

«حان الرحيل، لا بيت لنا هنا بعد الآن».

«إلى أين؟»

«إلى قريةٍ فيها سقفٌ لا يخون، ولو كان مؤقتاً».

«وأشياءنا؟»

«نحن الآن أشياءٌ بعضنا».

خرجتا إلى الساحة الترابية عند طرف السوق، حيث تقف حافلة كوسترٌ بيضاء للنقل الجماعي، وإلى جوارها بائع التذاكر، وصوت محرّكه يلهث استعجالاً للنجاة. مقاعد الحافلة ممزّقة الحافات، وستائرُها الخفيفة تلتصق بالنوافذ من رطوبةٍ لا تجفّ، وعلى الباب يقف سائقٌ يلوّح صائحاً: «مقعدان، مقعدان!» وخلفه نساءٌ يحملن أطفالاً، ورجالٌ يحملون أكياساً تعجز عن احتواء حياةٍ كاملة، لكنها تكفي لليلةٍ تأمن غدر الأسقف. تقدّمت الأم، وقالت للرجل عند الباب بصوتٍ ثابتٍ رغم الارتجاف: «أفي الحافلة مكان لشخصين؟»

أجاب مشيراً إلى الدرج المعدني: «نعم اصعدا، أسرعاً».

جالت الأم بعينيها بحثاً عن أمّ منيرة بين الواقفين، لمحتها تلوّح من طرف الساحة، فردت التحية بمثلها، ثمّ أمسكت بكف شجن وأصعدتها، وقفت شجن على العتبة لحظةً تختبر قدرة قلبها على صعود سلّم من ثلاث درجات، ضمت حقيبتها الصغيرة إلى صدرها، ورفعت بصرها: القرية كلّها صفّ من الوجوه على حافة الوداع، مسجدٌ يرسل تلاوة قصيرة، ومكتبةٌ نصف مغلقة، وهناك تحت النخلة المقطوعة حجرٌ مسطّح يحرس سرّاً دفيناً، عضت شفّتها، وقالت: «سأحتفظ بصوتكِ يا لجين ما استطعت».

ثم صعدت.

أزاح أحد الرجال حقيبته ليُفسح لهما مكاناً قرب النافذة،
جلست الأم عند الممر، وجلست شجن عند الزجاج. كانت
الحافلة تزدهم بالنازحين: عجوزٌ تضم كيس دوائها بيد، وشابٌ
يحمل قفص طيور، وطفلٌ يهمس لأمه:

«هل القرى الأخرى أقلّ مطراً؟»

فتردّ: «فيها سقفٌ لا يخون».

ضرب السائق براحته على المقود: «أغلق الباب جيّداً،
سننطلق».

أغلق الباب، وزمجر المحرك، وانطلقت العجلات على طينٍ
صار من حكايات الأمس.

تقلصت القرية في إطار النافذة؛ سقوفٌ متعبة تُنصت، ونافذة
تعرف طريق الريح، ومكتبةٌ تُومئ بباب نصف مرفوع، وقبرٌ صغير
لوّح له جذع النخلة بظله. رفعت شجن يدها قليلاً كمن يودّع بلا
حركة، ثم أنزلتها، مالت الأم نحوها، شدّت على أصابعها وقالت:
«سنصل قريباً، هناك بيتٌ نقيم فيه حتى تمرّ هذه الأيام».

همست شجن: «أعلم، لكن بعض البيوت نرحل عنها ولا نرحل
عنا».

انعطف الكوستر عند آخر الطريق الترابي، تبدل الهواء في
الداخل، وصار مشبعاً برائحة البنزين. في المقعد الخلفي أخذ
رجل يردّد دعاء السفر بصوتٍ منخفض، تراجعت القحمة خلف
زجاج النافذة مثل صورةٍ تُسحب من إطارها ببطء.

هكذا خرجت شجن مع أمّها من القرية، لا على أقدام متعثرة،
بل على مقعدٍ يهتزّ في حافلةٍ تُقلّ المنكوبين إلى قريةٍ أخرى،

تَعْدُ بِسَقْفٍ مُؤَقَّتٍ وَلَيْلٍ يُمْكِنُ أَنْ تَتِمَّ فِيهِ، نَصْفُ شَجْنٍ كَانَ فِي كَفْنٍ صَغِيرٍ دَفَنْتَهُ بِيَدَيْهَا، وَنَصْفُهَا الْآخَرُ فِي ظَرْفٍ تَرَكْتَهُ عِنْدَ بَائِعِ الْكُتُبِ، وَكُلَّهَا فِي يَدِ أُمِّ شَدَّتْ عَلَيْهَا كَمَا تُشَدُّ حَيَاةٌ مِنْ حَافَةِ سَقُوطٍ.

وَبَيْنَ بَيْتٍ سَقَطَ وَاسْمٌ لَمْ يُدْفَنْ وَمَغَادِرَةٌ لَا تَتَقَنَّ الْوَدَاعَ تَعَلَّمْتُ أَنَّ الْخَسَارَةَ حِينَ تَصِلُ لَا تُغْلَقُ الْبَابَ خَلْفَهَا، بَلْ تَتْرَكُهُ مُوَارِبًا، لِتَسْمَعَ مِنْ بَعِيدٍ هَمْسًا: «كَانَ هُنَا قَلْبٌ وَكَانَ لَهُ بَيْتٌ».

اليوم الرابع عشر

لَمْ يَطْلُعِ النَّهَارُ كَامِلًا؛ إِذْ غَشَى السُّوقَ ضَوْءٌ عَلِيلٌ كَأَنَّمَا يَخْشَى الْبِزْوَجَ. وَارَبُ أَصْحَابِ الدِّكَائِينِ الْمَصَارِيحِ بِحَذَرٍ يَخْتَبِرُونَ الْأَجْوَاءَ، وَسُرْعَانَ مَا أَعَادُوا إِیْصَادَهَا. وَفِي الْفَضَاءِ الْمَشْرِعَ عَلَى الْمِينَاءِ، تَلَاَحَمَتِ الْغَيُومُ بِسُرْعَةٍ مَرِيْبَةٍ، وَزَحَفَتِ كَتَلَةُ سُودَاءٍ وَاحِدَةٍ. بَاغَتِ الرِّيحُ الْمَكَانَ؛ هَبَّةٌ أُولَى لَطَمَتْ وَجُوهَ الْأَبْوَابِ كَصَفْعَةٍ، فَزَفَرَتِ اللَّافِتَاتُ وَاصْطَلَكَتِ الْأَلْوَاخُ، وَتَطَايَرَ رِذَاذُ الْمَاءِ عَنِ الْأَسْطَحِ الْمَشْبُعَةِ. لَمْ يَكُنْ هَطُولًا عَادِيًّا، بَلْ سَيَاطًا مَائِيَّةً تَجْلِدُ الْأَرْضَ جَلْدًا، وَفِي دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ غَرَقَتِ السُّوقُ، وَاضْطَرَبَتِ الْقَوَارِبُ فِي الْمِينَاءِ وَهِيَ تَشُدُّ حِبَالَهَا بِعَنْفٍ.

انْدَفَعَ رَجُلٌ مِنْ دِكَانِهِ صَائِحًا: «أَغْلِقُوا! الزَمُوا الْبُيُوتَ!» رَدَّدَ آخَرُونَ النِّدَاءَ؛ دَوَّى صَوْتُ الْأَبْوَابِ الْحَدِيدِيَّةِ وَهِيَ تُغْلَقُ، وَأَشَارَ بَائِعُ الْخَضَارِ لِعَمَالِهِ صَارِخًا: «هَيَّا... إِلَى بُيُوتِكُمْ فُورًا!». عِنْدَ بَابِ الْمَكْتَبَةِ وَقَفَ الْوَرَّاقُ يَتَفَحَّصُ الْوَاجِهَةَ بَعَيْنَ قَلْقَةٍ.

ثمة شق رفيع في الركن العلوي للجدار يرقبه منذ يومين، لكنه اليوم يتسع ببطءٍ ينذر بالخطر. مرر كفه على الحجر يتحسس الفجوة، ثم التفت إلى الفتى الذي يساعده وقال بنبرة أمر: «عد إلى البيت».

جرّ حسن الورّاق الباب الحديدي ملصقًا إياه بالأرض، وزجر المارين تحت المطر: «لا تتجمّعوا هنا، إلى البيوت!»

في المقهى، تسمّر وضاح على مقعدٍ يواجه الباب، وحيدًا إلا من صاحب المكان الذي انهمك يللم الكراسي ويدفعها إلى الداخل بعيدًا عن العتبة، ثم يثبت ألواحًا خشبية ليصدّ بها سيل المطر. رفع وضاح السّسمية إلى حضنه، ومرر إصبعه على الوتر، فخرجت منها نغمةٌ طويلة حزينة، كأنها أنين خافت يحاول شقّ هدير المطر. زاحمت الريحُ الصوت، ووحد المطر إيقاعه الصاخب على السقف، وقد خلت السوق إلا من نفرٍ قليل يحكمون إغلاق دكاكينهم ويهرعون إلى البيوت.

هبت ريحٌ ثانية أعتى من الأولى، فارتجّ سقف المقهى، ونزّ الماء غزيرًا من بين الألواح المتفككة، صرخ صاحب المقهى بآبانه: «لا تقترب!»

في تلك اللحظة، علا صوت تكسّر مكتوم من الجهة المقابلة؛ واجهة المكتبة تتصدع في موضعين. الباب مغلق، لكن الجدار بدأ يميل. مر رجل يركض تحت المطر صائحًا: «الزموا البيوت! لا تقفوا هنا!»

نهض وضاح، لكنه لم يفادر. أعاد السسمية إلى فخذيه، وأسند ظهره إلى الجدار المجاور للباب، ثم مرّر إصبعه على الوتر

مرّةً وثانيةً وثالثةً، حتى استقام الصوتُ تحت العاصفة خطأً ثابتاً في قلب الفوضى؛ ثلاث نقراتٍ تتكرّر بإصرار. نظر إليه صاحب المقهى وهو يلهث من التعب والخوف: «اذهب إلى البيت يا وضاح.. الأمر خطِر».

لم يُجب، ولم يكن صمته عناداً، لكنه اختار مكانه ومصيره في هذا اليوم.

هبّت ريح ثالثة، قذفت بلوح خشبي طائش من جهة الميناء ليرتطم بعمود حجري عند زاوية المكتبة. سَمِعَ الناس من خلف الأبواب المغلقة دويّاً، تلاه صوت فرقة، وتحركت الواجهة حركة فادحة، صاح حسن الورّاق: «ابتعدوا عن الساحة!»

ثمّ ترك كل شيء؛ لم يلتفت إلى رفٍّ انكسر، ولا إلى كتابٍ سقط في الوحل، بل خرج من السوق ومضى مسرعاً إلى بيته. اهتزت الأشجار عند طرف السوق، وزاحمت الحبال عند الميناء في ضرباتٍ سريعة، وعمّت رائحةُ الملح أرجاء المكان نذيراً بطوفان وشيك. ومن جهةٍ بعيدة سقط سربٌ حمام، ثمّ توارى.

انفلق جدار المكتبة بشقٍ غائر امتدّ من الأعلى إلى المنتصف. لم يكن السقوط دفعةً واحدة بل سلسلة انكسارات؛ تحرّك القوس الحجري فوق باب الحديد محدثاً طقطقةً مسموعة، ثمّ انحدرت كتفُ الواجهة نصف ذراع. التقط وضّاح النغمة الخامسة والأخيرة ثم توقّف، ورفع رأسه.

من بعيد صرخ صاحب المقهى: «تحرك! الجدار يسقط!»
لم يتحرك وضاح، ظلّ مكانه.

هوت كتلة ضخمة من الحجر والطين المبتل أمام المكتبة، دافعة الباب ليسقط نصفه، وتطاير فتات الردم والوحل ليلطخ العتبة.

تراجع عابران مفزوعين، وجرّ أحدهما صاحبه من معصمه إلى الزقاق صارخاً: «إلى البيوت!»
خلت الساحة إلا باب المكتبة المتهدّم، وباب المقهى المشرع، ووضّاح وسمسميته.

جذب صاحب المقهى يد ابنه وركضا خارج السوق، وقبل أن يغيب، التفت إلى وضّاح التفاتة أخيرة، ولم يقل شيئاً؛ كانت نظرة «وداع الرجال» التي تقول: هذه اللحظة لك.. أو عليك.

لم يحتج وضّاح إلى أكثر. أعاد سمسميته إلى فخذه، وضرب الوتر ضربة طويلة أخيرة، وفي اللحظة عينها انسلخت قطعة من سقف المقهى المتهالك، وسقطت فوق العتبة، ثم تداعى الحائط الجانبي مطبقاً على ما تحته.

لم يستغرق الأمر طويلاً؛ في رمشة عين انقض الجدار على الأرض، وتحطم المقعد، واختفت السمسمية وصاحبها تحت الانقراض. صرخ صاحب المقهى من بعيد «وضّاح!!!»، لكن صوته ضاع في هدير العاصفة بلا جواب.

حاول التقدم خطوة، ثم تراجع حين سمع تكسّر حجر آخر. لا مجال لافتحام الركाम هنا، ولا مكان للمجازفة تحت المطر والعاصفة؛ فالقاعدة الصارمة الآن: النجاة أولاً.

انهمر المطر دقائِق أخرى على السوق المقفرة. الأبواب المواربة أحكم إغلاقها أو تهشّمت، وسرت سيول الماء في الأزقة كأوردة

مفتوحة. انقطعت أصوات الناس تمامًا، فالعاصفة لا تُفاوض، بل تكسر ما لا ينحني لسطوتها.

بعد ساعة، هداً كل شيءٍ إلا إيقاع القطرات الرتيب من الأسقف، وهدير الموج البعيد يستعيد أنفاسه مع خفوت الريح. تسلل رجلان من زقاق خلفي، وتسمرا عند حافة الساحة. نظرا من بعيد إلى ركام المكتبة والمقهى؛ كان الاقتراب حماقة، فالجدران المتصدعة تترصد أي حركة. تُرك وضّاح هناك تحت الردم المبتل، لم يجروا أحد على مناداته، ولم يُرفع عنه لوح أو حجر؛ فالخوف كان سيد الموقف.

في آخر النهار، أطلّ حسن الورّاق من الزقاق الجانبي. وقف بعيداً، ورأى واجهة المكتبة قد صارت تلّة منخفضة من الركام، والباب قطعةً ملتوية، والكتب التي أفنى عمره بينها تحولت إلى بقع ملونة ذائبة في الطين. تلعغ بثيابه اتقاء للبرد، وقال للرجلين بصوت خافت:

«لا تقتربا الليلة، الموت لا يُنبّه أحداً».

أوماً، ومضى كلٌّ إلى بيته.

مع الغروب، صار الهواء بارداً ونقيّاً بارداً كأنما اغتسل من الحمى، وانكسر المطر إلى قطراتٍ متباعدة، وارتفع الأذان شجياً حزيناً. في البيوت، تحلّق الناس حول فتاة العشاء؛ يتقاسمون الخبز يابس، ويتبادلون لقيماتٍ لا تُشبع البطون لكنها تُقيم الأرواح إلى غد مجهول الملامح.

همست امرأةٌ لصبيّها: «لا تقترب من العتبة».

هزّ الصبي رأسه، وهو لا يدري أيّ كوابيس ستأتيه في نومه الليلة.

وقبل اكتمال الليل، مرّت هبّة ريح أخيرة، لا تشبه ما سبقها إلا في أثرها؛ مرّت كزفرة على الألواح المخلوعة. تحت أنقاض المقهى، اختفت الطاولة والفنجان والسسمية. عند تلك العتبة، صمت الصوت الذي تحدى العاصفة لثوانٍ معدودة، ثم غاب إلى الأبد.

حين يسفر الصباح، سيخرج الناس بحذر الناجين. سيرون المكتبة ركامًا، والمقهى ترابًا وخشبًا، وبابين موصدين بالردم. سيشير بعضهم إلى كومة الطين ويقولون: «هنا.. كان يجلس وضاح».

وفي آخر الليل، يغلي صدر القحمة بكلام مؤجّل: عن رجلٍ حمل ليلَ الحكايات على وتر، وعن مكتبةٍ تهاوت كقشرةٍ هشّة، وعن طيورٍ أسقطتها الريح.

لكن صدر القرية حوى موعدًا آخر أيضًا؛ فجرًا يقترب، ومعه سيارة تقطع الطريق الموحد تحمل غريبين إلى عتبة حياة جديدة؛ أحدهما يعرف الطريق بذاكرته، والآخر يتحسسه بخوفه. سيجيء الفجر لا ليفلق الحساب، بل ليقطب صفحةً في دفتر الأيام التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد.

هكذا انطوى اليوم الرابع عشر: موتٌ خفيفٌ الصوت ثقيلٌ الأثر، وسوقٌ تضمّد جراحها بالصمت.. لا جنازة ولا موسيقى. يُترك الساقط تحت الحجارة شأنَ حجارةٍ كثيرةٍ لا تملك أسماء في سجلات البشر. ويبقى وترٌ واحد في الذاكرة.. يكفي أن نضع عليه إصبعًا لنذكر كيف يمكن لصوتٍ صغيرٍ أن يحمل قريةً كاملةً.. إلى الغد.

دخلت السيارة أطراف القحمة بحذر، زجاجُ المقدمة مبتلّ بما تبقى من ليلةٍ عاصفة، ومسّاحاته تمسح ولا تتظّف إلا بقدر يكفي للرؤية. لم تكن البيوت أول ما ظهر من القرية، بل الأثر: أسلاكٌ متدلّية على ارتفاع منخفض، وأخشابٌ مرصوصة على عجل فوق مداخل الدكاكين، وقطعُ قماشٍ ممزّقة عند الشُرَفات، وأسماكٌ نافقة مسطّحة في برك ساكنة، وأطرافُ شبّاكٍ ملتصقة بالأرض، عند زقاقٍ بين منزلين خروفان نافقان، وعلى زاوية سورٍ قصير كلبٌ قضى غرقاً، وعلى حافة الرملٍ بغيرٌ لم تبق فيه آثارٌ للحياة، كانت رائحة الجيف تفعل ما لا تفعله الصورة: تُقنعك بأن ما تراه ليس التباساً في النظر، بل واقعٌ اكتمل.

في ممر القرية الأول آثار عجلاتٍ سياراتٍ مرّت في العاصفة ثم توقّفت قبل أن تسحبها الأرض اللينة، تهاوت الواجهات التي كانت تُعرف بالأسماء، وعند حائط المدرسة الصغير جملتان بخطّين مختلفين، تهدم نصفُ إحداهما.

في منتصف الطريق لافتةٌ حديدية ملقاة، نصفها مغمور في التراب ونصفها خارجه.

انعطف راشد إلى مسربٍ جانبيّ ليتجنّب السوق، ومضى بمحاذاة ما تبقى من صفّ البيوت عابراً أمام ممرٍ ضيّق يُفضي إلى بيتٍ منع: بابٌ متآكل الحافات، ونافذة صغيرة نصفها مفتوح دائماً، وجدارٌ مبقّع بما جفّ عليه من ماء، وعتبة خلت من أثر الأقدام.

توقّف راشد ونظر من النافذة لحظة، لم ير أحداً في الداخل، لكن من عاش في هذه القرية يعرف أن «ذلك البيت» لا يُريح من ينظر إليه طويلاً.

أدار المقود وتابع، كلُّ عشرة أمتارٍ تروي قصة قصيرة: لوحٌ منزوعٌ من سقفٍ قريب، وخطوطُ ترابٍ سحبتها عجلات إلى جانب الطريق، وعربةٌ صدئة انقلبت وترك صاحبها داخلها سلة خبز، وسطحٌ انخسف من جهةٍ واحدة، وفانوس جداري لم يبق منه إلا قاعدته، وخشبٌ قصّ ليلاً من شجرة لا ذنب لها ليفتحوا به ممراً، كلُّ هذا يشبه ميدان معركة انتهت.

حين بلغت السيارة الساحة، ظهرت شجرة السدرية كاملة: جذعٌ سليم، وأغصانٌ غسلت غبار السنين في ليلةٍ واحدة. تحلّق حولها نفرٌ قليل؛ الصياد والإمام والمؤذن ومعهم رجالٌ ونساءٌ لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين، ملامحهم مبلولة بالخوف، وشفاههم يابسة من الرعب، وجفونهم مرفوعة لا تعرف أين تضع النظر، على الجذع ورقةٌ مثبتة بمسمار، حوت سطورَ أسماءٍ وإزاء كلٍّ منها كلمة:

«رحل».

«مفقود».

وأحياناً: سطر فارغ ينتظر اسماً ما.

ركن راشد سيارته في طرف الساحة، تملكته الدهشة والجزع، فظل فاغراً فاه عاجزاً عن النطق لهول الصدمة.

شدّت أمانى حزامها، وقالت وقد تملكها الرعب هي الأخرى: «يا إلهي! لقد حلّ الواحد والعشرون يوماً».

تذكر راشد الآن نبوءة الصياد عن هذه الأيام، لكنه لم يتخيلها بهذا السوء.

لاذ بالصمت، واكتفى بالقول: «سأرى الجمع وأعود».

أغلق الباب، ثم تقدّم وسلم على الجمع.

التفتت الوجوه دفعةً واحدة، تقدّم الصياد، وبسط كفّه: «وعليكم

السلام يا راشد، مرحبًا، أهلاً بعودتك».

صافحه الإمام وأمال رأسه: «الحمد لله على سلامتك».

انتفت الحاجة للسؤال؛ فالساحة ناطقةً بالجواب: امرأةٌ تسند

ظهرها إلى الحائط ممسكةً بسطلٍ فارغٍ من الماء، ورجلٌ على

كرسيٍّ بلا مسند يطوي ضمادًا صغيرًا لجرحٍ في يده، وطفلان

خلف عباءة أمهما يطلّان ثم يختفيان، من وراء السُدرة في اتجاه

السوق تُرى ألواحٌ مصفوفة تسدّ مداخل بعض الدكاكين، وعند

المقهى حاجز حجريّ يغلّق نصف العتبة، وفي أقصى الطرف

يلوح ما تبقى من واجهة المكتبة.. تلة منخفضة غير منتظمة.

بدت القريةً مثل ساحة حرب وضعت أوزارها للتو؛ سكونٌ

ثقيلٌ يعقب الضجيج، وأبصارٌ شاخصةٌ نحو السماء بوجوم.

قال الصياد بصوتٍ واضحٍ لا يترك مجالاً للبس: «اسمع يا بنيّ

ولا تُطلِ المقام، لقد حلّت الأيام التي حدثتكَ عنها، نَزح السواد

الأعظم من الأهالي، ومن بقي فلقلّة الحيلة. هوى نصف المكتبة

ونصف المقهى، وتهدمت البيوت، وغدت الدورُ قبورًا لأصحابها،

وضاح مدفون تحت الحجارة، وجابر ودعنا قبل أيام، وأمّ فارس

توفيت يوم المطر الكبير».

ضاق صدر راشد كمن تلقى ضربةً، فغصت الكلمات في حلقه،
وفاضت من عينيه دمعاً سخيةً.. ثم سكنت.

ناولهُ المؤذّن قنينة ماءٍ صغيرة، فقبض عليها بيده المرتجفة
دون أن يفتحها، لا عزاءً في الساحة؛ ولا لغة هنا سوى إيماءات
الرؤوس والوقوف الصامت.

تدخّل الإمام قاطعاً الذهول بعبارة مقتضبة: «خذ زوجتك إلى
بيت أبي فارس، وإياك أن تخبرها بشيء هنا».

أردف الصياد: «من بقي في بيتٍ ثابت، فليلزم الحجرة الوسطى
إن وُجدت، ويُحكم الإغلاق، ومن أراد الخروج فليحذر، نحن هنا
عند السدرة».

أوماً راشد مودعاً، وتمتم بصوت خافت: «جزاكم الله خيراً».

ردّ الإمام: «الله يصبركم».

وقال الصياد: «الله يعينكم».

عاد إلى السيارة مثقلاً، نظرت أمانى في عينيه فقرأت ما
يكفي، وحين أدار المحرك وقال: «نذهب إلى البيت»، اكتفت بهز
رأسها وتشبّثت بحافة المقعد كمن يخشى السقوط.

لم يعد الطريق إلى بيت أبي فارس كما يعرفه راشد:

الأبوابُ موصدة، والشبابيك محجوبة بالأقمشة، وآثار الخراب
عند زوايا كثيرة، ورائحةٌ كريهة تسري بين الأزقة.

حين وقف أمام الباب فكر في وقع الخبر على أمانى، كان
فارس واقفاً في الفناء، فيما جلس أبوه مستنداً إلى الحائط، وما
إن أبصر راشد حتى تجمّد وجهه لحظةً، ثم نهض ببطءٍ محسوب
محاولاً إخفاء اضطرابه.

قال راشد: «السلام عليكم».

رد أبو فارس بنبرة متماسكة: «وعليكم السلام، الحمد لله على سلامتكما».

مدّ فارس يده وصافح راشد بقوة زائدة، وقبضته تستغيث بقدر ما ترحب.

خطت أمانى إلى الفناء بقلب واجف، وقفت قبالة أبيها وأخيها، وقالت بصوتٍ متهدج: «أين أمي؟»

أطرق أبو فارس برأسه هنيهة، ثم رفعه مثقلًا بالحزن، لم يشأ أن يوارب الحقيقة، فقال بلفظٍ حاسم: «أمك توفيت يوم مطر الدم».

انشقّ الهواء بنحيبٍ عالٍ لا يدّخر وجعًا، ترنحت أمانى وتراجعت خطوتين، ثم تكوّمت في مكانها وغطّت وجهها بكفّيهما. لم يحاول فارس أن يسكت ما لا يسكت، جلس إلى جانبها، وتدققت دموعه.

وقف راشد عند طرف الفناء تاركًا لهما مساحة للحزن والبكاء، لم تجف دمعته منذ وقف عند السّدر.

وبين شهقات البكاء تمت فارس: «خرجت لتجلب الطحين، فهوى السقف في الزقاق، ثم...» رفع راشد كفه مقاطعًا برفق: «لا تكمل».

ليس منعًا، بل إشفاق على جرح ما زال مفتوحًا.

تهدد راشد وأردف مختصرًا الأخبار بقدرٍ لا يجرح: «أخبروني عند السّدر أنّ وضّاح تحت الركّام، وجابر مات».

عند سماع اسم جابر تحرّك داخل فارس حجرٌ ثقيل لا يراه

أحد، تذكر ذلك الزقاق الضيق، وتلك اللحظات التي لا يجرؤ على روايتها، استعاد صوت العظم يتهشم تحت ضربات الحجر الثلاث، لم يظهر شيء على ملامحه غير رجفة قصيرة، نظر إلى أبيه نظرة خاطفة، ثم أعاد بصره إلى الأرض، لقد تهشم شيء في أعماقه يومها، وظل حطامه هناك للأبد.

خيّم السكون على المجلس، لا أحد يطلب ماءً، ولا أحد يذكر طعاماً.

خارج البيت، عند السّدرّة وقف نفرٌ قليل من الرجال، لا يكثرون الكلام، يرقبون القحمة كأنهم يودّعون من مضى ويثبتون أسماءهم، ويحصون ما يمكن إمساكه ريثما تنتهي هذه الأيام المعدودات، وعلى الطريق المفضي إلى السوق ظلت رائحة الموت العالقة تذكر بأن فجر هذا اليوم قد شهد من الأهوال ما لا تمحوه الذاكرة.

اليوم الخامس عشر

هبط المساء على البيت كأنه يجرّ خلفه جنازةً، جلست أمانى في الحجرة إلى طرف الفراش، تتحب بصوتٍ متقطع، لا تهدأ دقيقة حتى تعود ببكاءٍ أشد، وقف راشد جانبيها مواسياً ويده على كتفها، يردد جملة قصيرة:

«أنا هنا بجانبك».

ثم يصمت، لم يكن يملك أكثر من حضوره، لكن حضوره نفسه بدا ضعيفاً أمام هذا الفقد.

في الحجرة الأخرى أغلق فارس بابه على نفسه، وغاب في وجوم يشبه وحشة القبور، أما أبو فارس فجلس في الفناء، يقلّب بصره بين السقف والأرض، يتفحص الألواح ويدقق في المواضع المهددة بالسقوط.

فجأة زمجرت الريح، وضرب المطر السقف ضرباً عنيفاً، فاهتزّت العارضة التي تسند البيت، صاح أبو فارس من الفناء بصوتٍ شقّ هدير العاصفة:

«فارس!»

لم يأتِه رد، انتفض راشد مفزوعاً وقال لأماني:
«ابقي هنا».

ثمّ هرع إلى الفناء، فرأى أبا فارس يغرس كتفه تحت عمودٍ خشبي ضخم، يحاول باستماتة أن يمنعه من السقوط، وجبينه يقطر عرقاً. صرخ حين لمح راشداً: «بسرعة! أسند العمود معي قبل أن يهوي البيت!»

أمسك راشد بالعارضة بكل قوته، غرس قدميه في الأرض لتثبيت نفسه، ودفع بكتفه وذراعيه إلى جوار أبي فارس. كان الثقل هائلاً، وعضلات الرجلين ترتجف تحت وطأة الخشب المبلل. صرّ أبو فارس أسنانه: «يجب أن نرفعه ونعيده إلى القاعدة الحجرية.. واحد، اثنان، ادفع!»

تحامل الاثنان بكل ما أوتيا من قوة. وفي ذروة الجهد، وحين رفع أبو فارس ذراعه عاليًا لدفع العمود، علق كُثمّ ثوبه المبلل بنتوءٍ خشبي حاد في العارضة. ومع حركة الدفع العنيفة، تمزق القماش بصوتٍ مكتوم، وانحسر الثوب تمامًا عن ذراعه.

عندها ومض البرق فكشف لراشد ما لم يكن ليتخيله، هناك
في ساعد أبي فارس برز وشمٌ داكنٌ محفورٌ في اللحم، عين داكنة
واضحة مرسومة بدقة مرعبة تحديق من فوق جلد أبي فارس.

تجمد الدم في عروق راشد، ورغم الثقل الذي يكاد يسحق
عظامه قفزت رسمة الطفل المشلول إلى ذهنه، تلك التي رآها
على الورقة: العين نفسها، لم تكن خريشات عبثية بل إشارة تعني
هذا الرجل بالذات، «العين» التي استعصى عليه فهمها آنذاك، ها
هي ذي شاخصة على ساعد أبي فارس.

شعر أن صدره يُطبق، وأن ما تجاهله من قبل صار الآن حقيقة
لا مفرّ منها.

صرخ أبو فارس الذي لم ينتبه لتمزق ثوبه من هول الموقف:
«راشد! لا ترخ يدك! ادفع!»

استعاد راشد وعيه في اللحظة الأخيرة، ودفع بقوة اليأس
والغضب معاً، حتى انزلق العمود واستقرّ في قاعدته، وثبت
السقف أخيراً. تراجع الاثنان يلهثان، وصوت أنفاسهما يعلو
على صوت المطر الذي بدأ يتراخى. مسح أبو فارس وجهه
بيده المرتجفة، وحين أنزل ذراعه، انتبه للتمزق الكبير في ثوبه
ولساعده المكشوف.

لمح نظرة راشد المثبتة على ساعده. وبحركة خاطفة سحب
طرف ثوبه الممزق ليغطي الوشم، وشده بيده بقوة، وعيناه تلمعان
ببريق غامض وحذر. لم يقل شيئاً لتبرير ما رآه راشد، اكتفى بأن
استند بيده الأخرى إلى العارضة وقال بصوتٍ أجش: «ستتماسك
لهذه الليلة».

لم ينبس راشد بكلمة، دخل الحجرة الصغيرة وأغلق بابها، افترش الحصير مسنداً ظهره إلى الجدار، أغمض عينيه، فتدفقت في رأسه كل الصور: المنديل الذي قالت له أمانى إنها وضعتة على عتبة باب بيتهم، والظل الذي أفلت منه قرب البيت ليلة الحريق، ورسومات الطفل المتكررة: السمكة والجبل والعين، والكوايبس التي كانت تظهر له في أحلامه، والخيالات التي تحثه على العودة إلى القحمة، وتحذيرات نورة والطفلة، ونباح الكلب الذي لم يفهمه، وتلك الرسمة التي كان يريد أن يراها واحترقت مع الطفل، والنظرات التي لم يفهمها، الآن كلها اجتمعت في رأسه، قال في نفسه:

«لماذا رسمك الطفل؟ ولماذا زوجتي ابتكت؟ أكان ستاراً؟ أم مصلحة خفية؟»

رفع رأسه، أحس أن الحجرة تضيق عليه، وأن الأرض تميد من تحته. لم يدخل عليه أحد، فأمانى ما زالت تبكي في حجرتها، وفارس أغلق باب غرفته على نفسه، وبقي وحده يسمع الأسئلة التي ترتطم في صدره، أسئلة لا يجد لها جواباً.

من النافذة المطلة على الفناء سمع خفق جناحين، رفع عينيه، فإذا بالغراب الأسود ذي الريشة البيضاء قد حطّ على نافذة حجرة أبي فارس، وقف صامتاً، ينظر مباشرة إلى الداخل، وبعد لحظة خرج أبو فارس من غرفته ورآه، تلاقت النظرات في جمود متبادل، لم يتحرك أي منهما، ثم طار الغراب بهدوء بلا نقيق ولا عجلة كأنه ترك وراءه رسالة وغادر.

أغلق أبو فارس النافذة، ودخل إلى غرفته، أما راشد فأسند ظهره إلى الجدار وقال في سرّه:

«من هذه الليلة سأراقبه».

قرر أن يفتح عينيه على كل خطوة وكل كلمة وكل حركة، فالرجل الذي يحمل على كتفه مثل هذا الرمز لا يمكن أن يُترك دون مراقبة.

بقي البيت ساكنًا إلا من وقع المطر، أمانى في بكائها، وفارس في صمته، وراشد في يقينه الجديد: أن كل ما مرّ به كان يقوده إلى هذه اللحظة.

تكملة اليوم الخامس عشر

كان فارس مستيقظًا يصارع أفكاره المجنونة، ويقاوم أحزانه، يجلس على طرف الفراش، قدماء على الأرض، وراحته تعصر جبينه، الحجرة ساكنة، بيد أن يده ترتجف كلما عاد إلى رأسه ما رآه في ذلك الزقاق. رفع رأسه فجأة، لا شيء سوى قطرات متتابعة من ناحية السقف، وجرسٍ بعيدٍ يُعيده إلى لحظات تُشعره بالذنب، نهض وتقدّم خطوتين ثم عاد إلى جلسته، كان ينشرُ حبل حياته في هذه الوحدة، وكان الليل أطول منه.

في الحجرة المجاورة تمدد راشد إلى جوار أمانى التي نامت بعد بكاءٍ طويل ووجهها إلى الحائط، أمّا هو فلم يستطع النوم. بقي يراقب الظلّ عند العتبة، يشعر أنّ البيت لا يهدأ، وأنّ في صدره بابًا لم يُغلق منذ رأى «العين».

أسند كفيه إلى الفراش ونهض في تودة، فلفت سمعه خشخشة خفيفة في الممر، صوتُ جرّ شيءٍ على الأرض، تلاه خفقٌ خافتٌ

لمِزْلاجٍ يتحرَّك. جلس وحدَّق إلى العتمة، فسمع الخطوة ذاتها تعود إلى الفناء.

فتح الباب قدر إصبع وأطلَّ، كان ظلُّ أبي فارس يمرُّ أمام الحائط، ثم ظهر وهو يحمل في يده شعلة صغيرة، نارها خافتة لكنها كافية لتصنع هالة حمراء حول وجهه، ألقى نظرةً إلى الحجرات، كمن يتحسس أن البيت نام، ثم مضى إلى زاوية الفناء، التقط حبلاً، لفّه على ذراعه، وأدار كتفيه نحو الباب الخلفي. تراجع راشد خطوة، وأغلق الباب دون صوت، ارتدى ثوبه على عجل، وخرج ملتصقاً بالجدار مقتفياً خطى أبي فارس.

رآه يقصد الحظيرة، فتح بابها، تريت قليلاً حتى تأكّد من السكون، ثمّ دخل، وما لبث أن خرج يسوق عنزة سوداء مربوطة بحبل، تمشي مطأطئة لا صوت لها، تلفت يميناً وشمالاً، رفع الشعلة قليلاً وأكمل طريقه.

اختبأ راشد خلف الباب حتى خرج، ثم واصل ملاحقته تاركاً بينهما مسافة كافية.

الأزقة ضيقة، حافاتها مبللة بما خلفه المطر، والضوء الذي في يد أبي فارس يلمع مع كل حركة فينعكس على واجهات البيوت، ساق العنزة أمامه، والحبل يضرب ساقه، لم يصدر من العنزة ما يلفت، أما راشد فخَطأ بحذر شديد مقترباً ومبتعداً تبعاً لالتفاتات أبي فارس المباغثة.

عند نهاية زقاقٍ يفتح على الساحة الترايبية القريبة من البحر، توقّف أبو فارس لحظةً، حنى رأسه، ثم تابع إلى الرصيف حيث القوارب مصطفة، بعضها مقلوب على حافة الرمل، وأخرى ربطت

إلى أوتادٍ عند طرف الرصيف، ثَبَّتَ الشعلة على مقدمة قاربٍ، حمل العنزة إلى الداخل وصعد، ثم دفع القارب بعضا طويلة حتى ابتعد عن الحافة، أمسك بالمجدافين وراح يضرب الماء بانتظام، ترنَّح ضوء الشعلة فوق السطح، وامتدَّ أمام القارب خطَّ مهتزٍّ من ضوءٍ أحمر. انتظر راشد حتى صار القارب نقطةً مضيئةً بعيدة، ثم انسلَّ إلى قاربٍ آخر، حلَّ عقده، ودفعه براحتيه، وعندما صار الماء تحت بطن القارب، أخذ مجدافًا واحدًا فقط، وتبع تلك النقطة البعيدة دون أن يشعل شيئًا، أحاطه سوادٌ شاسع ولمعان متقطع فوق الموج، قبض على المجداف بثبات، وأخذ يعيد الضربة نفسها على نفس المسافة حذرًا أن يحدث صوتًا يكشفه، كان الضوء هناك أمامه، لا يفارقه، إذا ابتعد قليلاً زاد في التجديف، وإذا نفرت النار لحظة بفعل الريح، هدأ الحركة حتى تعود، لم يذكر كم مرَّ من الوقت، رأى فوقه نجومًا قليلة تتبدَّل أماكنها، ورأى المدى يتَّسع حتى لم يبقَ من القحمة سوى خطٌّ منخفض لا يكاد يُرى، راح يردِّد في سرِّه: لا تفقد الضوء، لا تُحدث أثرًا يُسمع، هذا الليل ليس لك.

تقدَّم القارب المضيء في خطٍّ متعرجٍ يمنةً ويسرة كأنه يتجنَّب شيئًا في الماء، ازداد النور تأرجحًا مع اتساع الموج: لكن اليد التي تدفع المجداف حافظت على إيقاعها، أحسَّ راشد أن ذراعه تشتعل من الكدِّ، أطبق على أسنانه حتى صار فكه يؤلمه، لكنه لم يتوقف، ثم بدأ السواد الذي أمامه يتغيَّر في الأفق، ارتفع ظلٌّ كثيف لكتلةٍ خارجةٍ من البحر، لا يشبه سحابًا ولا ركامًا، كلما اقترب القارب المضيء منه ازداد الظلُّ وضوحًا، خطوطه قاسية،

وحافاته مسنونة في الأفق، توقف وقلبه يدق بجنون.. ظهر الجبل أمامه!

تسمّر في مكانه والدهشة تعقد لسانه، فيما راح الشكل يتضح شيئاً فشيئاً: سفح يصعد من البحر، فوهة معتمة عند الجانب، وكتف صخرية تمتد ثم تنفر، قال بصوتٍ اختنق نصفه: «الجبل!»
ما هذا الجبل!؟

انفتحت في رأسه صفحة الطفل المشلول: الجبل المنحوت في الرسم، والفتحة في جانبه، والخطوط التي يكرّرها كأنه يحبس بينها سرّاً، وضع راشد كفّه على فمه، وظلّ يحدّق.. الجبل «هو هو»

التقط أنفاسه بصعوبة، خفف التجديف حتى سكن القارب، أدار جسمه جانباً، وألصق بطنه بالحافة كي لا يراه أحد، ألقى بصره مرةً أخرى: الشعلة تقترب من دلالة صخرية عند سفح الجبل، ثم تميل وتغيب. انتظر دقيقةً كاملة، ساد السكون والظلام، وخفت الصوت إلا من تلاطم خافت عند جلاميد قريبة.

أخذ نفساً طويلاً، وأدار القارب بأناة، وشرع في رحلة العودة. كل ضربةٍ بالمجداف تعلن وحدته بين الماء والليل، ضربته الأولى كانت ضعيفة، والثانية أقوى، ثم عاد إلى إيقاعٍ يحتمي به، استدار إلى الخلف حيث الجبل، فلم يرَ منه سوى كتلةٍ تزداد ابتعاداً، عاد إلى التجديف بضرباتٍ طويلةٍ متتابعة، يطرد مع كل ضربةٍ ارتعاشةً تصعد من ساقيه إلى صدره، لم يلتفت إلى شيءٍ في الطريق، صارت النقطة المضيئة التي كانت أمامه قبل قليل خلفه، وكتلة الجبل معها. غشيت راحتيه برودة العرق، وتقطّع زفيره، وعقد

الاختناق حلقه مانعاً الكلام، لكن لا كلام هنا، فالبحر لا يقبل الشرح، ولج الماء الهادئ قرب الشاطئ، رأى القوارب مصطفةً على حالها، والرصيف ثابتاً في مكانه، شدّ القارب إلى عمود، ربطه بعقدة سريعة، ثمّ صعد إلى الشاطئ، تحسس الأرض بقدميه، وتابع إلى الساحة.

كانت الأزقة أضيق في العودة، كل ظلّ يبدو رجلاً، وكل حركة ورقةً على الأرض تبدو قدمًا.

سار ملتصقاً بالجدران، يتوقف إذا سمع شيئاً، ثم يتابع. عند باب البيت وقف لحظات وضع جبهته على الباب، أحسّ أن وجهه صار بارداً، مدّ يده إلى المزلاج، فتحه ودخل، مرّ بالفناء خطوة خطوة ثمّ إلى حجرته، وجد أمانى حيث تركها نائمة، وتنفّسها متّزن.

جلس على الأرض إلى جانب الفراش، وأسند ظهره إلى الجدار، وضع يده على صدره، وأغمض عينيه، ظلّ يرى الجبل، ففتح عينيه، وقال في خلدّه: «سأذهب، حين يعود، لا بدّ أن أذهب».

لم يأتِه النوم ولم يحاول أن ينام، كان ما رآه لا يُترك على طرف الليل كحلم سيُنسى عند الصباح. مدّ يده إلى كوب الماء، أعاد رأسه إلى الجدار، استعاد الطريق: من الحظيرة إلى الرصيف، من الشعلة إلى النقطة، من النقطة إلى الجبل، استعاد صورة العنزة السوداء في القارب صامتةً وهي تُساق، شدّ كفّه، سرى فيه بردٌ مفاجئٌ كأن شيئاً مرّ بين كتفيه.

في جهةٍ أخرى من البيت، تقلب فارس في فراشه، جلس ثمّ تمدّد، لم يستطع أن يلبث على حال. نهض قليلاً، فتح نافذته قدر

شبرٍ ونظر، لم يرَ شيئاً يدّله على جواب، أغلقها وعاد، جلس على الأرض، وضع يده على معصمه، ثمّ أسند ظهره إلى الحائط، وظلّ مستيقظاً حتى شارف الفجر.

عند أول عصفٍ للريح في الفناء نهض راشد، لم يخرج واكتفى بأن ثبت نظره على العتبة كأنه ينتظر أن يظهر من خلالها كل ما غاب في الليل، لا شيء، ظلّ السكون يمدّ في ساعاته، ومع تسال أول خيط ضوءٍ خافت من الباب الخارجي، قال مرةً أخرى: «سأذهب» تلك الكلمة وحدها كانت تكفيه، أودعها صدره وأغلق عليها.

حين استيقظت أمانى بعد ساعة، وجدته في مكانه، رفعت رأسها، وسألته بعينين منهارتين لماذا لم تتم؟ قال: «نامي أنت، وأنا سأنام بعد قليل».

أكمل جلسته عند الحائط، أدرك أن أبا فارس حين خرج بالشعلة والعنزة إلى الجبل يُخفي سرّاً، لا يُريد لأحد أن يعرفه، لم يعد الطريق إلى الجبل طريق أبي فارس وحده، بل صار طريقه هو أيضاً.

العهد

وصل القارب إلى الشاطئ كأنه يعرف الطريق وحده، ربط أبو فارس الحبل في وتدٍ عند نتوءٍ حادٍّ، ثم جرَّ العنزة السوداء إلى فسحةٍ منبسطةٍ بين صخرتين.

ثَبَّتَ الشعلة في شقٍّ ضيقٍ، فصار ضوءها يزحف على الحصى، التفت إلى صخرةٍ ملساءٍ يتخذها أهل السحر مذبحاً، أخرج من جيبه كيسَ مسحوقٍ أسود، ونثر الملح في دائرةٍ ضيقةٍ ثم رسم بخطٍّ محكم نجمةً خماسية، وفي قلبها عيناً مفتوحة، وحول الرسم خطَّ سطرًا من عزائم العهد بحروف مكسّرة أقرب إلى الطلسم منها إلى الكتابة، لا تطلب أن تُقرأ بل أن تُطاع، رفع رأس المعزة، ومرّر حدَّ الخنجر على الرقبة ثم على العرق النابض، فانبثق الدم دافئاً وسال على أخاديد النجمة، غرف منه بكفّه، ورشَّ به رؤوس الأضلاع، ثم تركه يزحف إلى العين حتى لمع الخطُّ مُشعاً بوهج ينبثق من باطن الصخر، تقدّم خطوة، ووضع كفّه فوق قلبه، وقال بلسان من يعرف الأبواب وأسماءها: «يا عقد البحر، يا سرَّ العهد، يا رصد الجبل، يا تابع الريح، يا خادم الملك، اجتمعوا على اسمٍ لا يُنطق إلا في الليل، حُقِّ الدم، وغُلِق الباب علينا وعليكم، فافتحوا لنا الآخذ».

اهتزَّت الشعلة قليلاً، ثم استقامت، ولمع الدم على حافات الخطوط، ثم تشربته مسام الصخر بنهم. من فم الكهف جاء خفق جناح لا نعيق معه، غرابٌ أسود، وفي جناحه الأيمن ريشةً بيضاء تقطع السواد قطعاً حاسماً، مال الطائرُ برأسه صوب الرسم ثم إلى وجه أبي فارس.

استحال جسده دخاناً، وانعقدت منه ظلالٌ تصاعدت فوق الشعلة، تتكاثف حتى قامت أمامه هيئة لا وجه لها، ملامح تتبدل، وعينان ثابتتان كجمرٍ، وكتفان تبرزان وتغيبان، وحدودٌ سوداء تتحرك بلا جسد ليتجلى الخادم مختصراً وحشة العوالم كلها.

قال بصوتٍ غريب وغامض: «أين القربان؟»

شدَّ أبو فارس قبضته على خنجره حتى أدماه حدّه، ثم قال

بصوتٍ ثابت: «الليلة نذرٌ، والدم سال، والطريق سيفتح».

اقرب ابن النار خطوة لا تطأ الثرى كأن الأرض تُطوى تحته،

وقال بصوتٍ هادر: «فرَّ المسجون من حبسك، حُزّت قريانا

فهرب، وملكتْ خنجراً وخاتماً فضاعا، سيدي المارد يقول:

«انتظرنا عشرين عاماً وعشرين مداراً.. والنجمة تشتعل وتنطفئ

عبثاً، الطقس ناقص، والعهد مهّد، أين الخنجر المُتمّم للقطع؟

وأين الخاتم الذي يُغلق الباب؟ ضاع مفتاحان، وسقطت معهما

أعدارك، سيدي المارد يُحذرك: إن لم تأتِ بالقربان، فسيهتلع

البحر القحمة، ويبتلعك مع أبنائك إن لم يكتمل العهد».

تراجع أبو فارس خائفاً، ثم قال متوسلاً: «أمهلني، لم أجد بابَ

العقد الذي أحكم به القربان، فالتعويذة تحرسه، لا أرى الخنجر

والخاتم، اختفيا من موضعهما، لكن الطريق ما زال عندي، وراشد

في قبضتي، أعرف كيف أدفعه إلى فم الموج، وأجعل البحر

يرضى، ليالٍ معدودة تكفيني، وأتمّ العزيمة، وأربط اسمه باسم

البحر، ثم...».

قاطع ابن النار كلامه بضحكة تُجرّح المسافة بين الأذن

والقلب: «البحرُ لا يغفر الخيانة، والمُلك لا يفاوض، نفذ ما عليك،

والأفّح الطوفان ليطمس اسمك ويمحو سلالتك».

شخص أبو فارس ببصره إلى الكتلة السوداء، سال عرقُ باردٍ بين كتفيه، ومع ذلك لم ينكسر صوته: «الطلسم أضاء مع الدم، أحتاج إلى ليالٍ معدودة لحل التعويذة، ثم أسوق راشد إلى شفة البحر، ليأخذ الملك حقّه، لا أريد فوضى تُفرق كل شيء، أريد طاعة تذهب به وحده».

زحف الظلّ حتى لامس طرف الشعلة دون أن يطفئها، وأقسم: «إن صدقت، نُودي اسمُك عند فم الموج، وفتح لك بابٌ ترضاه، وإن كذبت هويت في فم البحر، اجعل القطع قريباً».

تبخر جسده دخاناً مرةً واحدة، تجمّع الدخان عند المدخل، وعاد الغراب إلى هيئته الأولى، هزّ جناحيه هزّةً واحدة، وارتجفت الريشة البيضاء محذرة، وطار إلى ليل البحر.

حدّق أبو فارس بعض الوقت إلى النجمة الملطّخة، ثم انحنى على رأس الذبيحة، وسحبها إلى جوف شقّ صخري، ودفنها بحجارةٍ صغيرة، ومسح كفّه بالملح، ثم أخذ الشعلة وسار نحو المغارة.

سلك الممرّ الضيق الذي يفضي إلى المدخل الحجري، الذي تحيط به نقوشٌ أشبه بالطلاسم، وضع كفّه ودفع الصخرة، فتزحزحت ببطءٍ، وانفجرت بمقدار شبر.

قال بصوتٍ غاضبٍ: «يا سالم!»

انبعث من العمق أنينٌ مبجوح، تلته قعقة سلاسل تُجرّ على الحجر، فرفع الشعلة قليلاً وهو لا يرى سوى عتمةٍ لا تعرف شكل الضوء.

قال: «هرب ناصر من يدك، فتحت الباب لحظةً واحدة، ففتحت على القرية أياماً لا تُغلق، لن تخرج من هنا حتى تموت أو يعود.. وأنا أقسمت: ستأكل صدى نفسك حتى تموت».

جاءه من وراء الصخر ضحكٌ ضعيف، لا قوة فيه إلا ما يحمله من سخريّةٍ مريرة. ثم ارتجّت السلاسل بعنف، فصرَّ أبو فارس أسنانه، وقال: «لو أنني ذبحته بدل أن أحبسه، لما انتهيتُ إلى هذه الليلة، الآن يصمت الجبل، وتصمت أنت معه».

دفع الباب الحجري إلى موضعه بكلتا يديه حتى استقرَّ في مكانه، ثم تراجع رافعاً الشعلة، ونظر إلى المدخل كأن أعيناً خلفه ترصده، لم يعد يسمع قعقة السلاسل الثقيلة، ابتلع ريقه، وعاد إلى المذبح، فطمس آثار الملح حول النجمة، جمع متاعه، واتجه إلى السفح.

على الدرجات الحجرية بدت آثار الدم خيطاً نحيلاً يلمع مع بقايا الضوء، فتجاوزوه دون أن ينظر إليه، عند أول بروزٍ يطل على الشاطئ، توقّف ليتأكد أن فم الكهف خلفه خالٍ من أي حركة، لم يسمع نعيقاً، فقد قال الغراب كلامه وطار. تابع النزول، دفع القارب إلى البحر، ثبت الشعلة في المقدّمة، وشرع يجذّف ومع كل ضربةٍ يجدد قَسَمه: سيتمّ الأمر، البحر مسطّحٌ على وجهٍ واحد، لا موج يتدافع ولا ريح تهب، حتى إن القارب لينساب من تلقاء نفسه؛ فقد أرخى الجبل قبضته عنه، ليعودَ بما يريده الغراب. التفت مرّةً أخيرةً إلى كتلة الصخر، لا صوت ولا ظل ولا طائر، فقط عتمة مثل عباءةٍ سوداء على كتف الجبل.

ومع كل ميلٍ يبتعد فيه القارب، كان يسمع من خلفه طنينَ الحديد يضعف، ثم يعود، ثم يضعف، تمدد صدَى السلاسل فوق الصفحة الملساء، حاول أن يطرد الصوت عنه بضرباتٍ أسرع، فلم يختفِ، مشى الصوت معه، يتبعه في الماء كما يتبعه ظله. حدث نفسه: «أيامًا قليلة فقط يا راشد».

وعاد يضرب بالمجدافين، وهو يعرف أن القرية نائمة على تاريخ جديد، وأنَّ الجبل سيبقى خلفه حارسًا لا ينام، وأنَّ الريشة البيضاء ستظهر مرةً أخرى قبل أن يضع رأسه، لتذكّره بأن العهد لا يغفل عمن يؤخّره. وصل إلى الرصيف، ربط القارب وحمل الشعلة، في الطريق اخترق سمعه صرير الأبواب، وفي داخله علا صوت السلاسل، أوضح من أن تتكره الأذن، يطارد رأسه حتى البيت. هناك سيسكب الماء على حجر المفصلة مرارًا كما فعل بعد حكاية الزقاق، وسيظن لحظة أن الحديد خرج كله من تحت الأظافر، ثم يكتشف أن الذي يبقى في العظم لا يغسله شيء.

رفع رأسه عند أوّل بابٍ في الزقاق الجانبي، كانت الظلال مستقيمة والطرق ضيقة والمصاريع مغلقة، أحسَّ أن الجبل يضع كفّه على قفاه من بعيد، لا ليعيده، بل ليعده لما بعد. دخل الأزقة، وخطوته لا تُسرّع ولا تتباطأ، كأن البيت ينتظره ويعدّ الليالي، ليلةً للدم، وليلةً للبحر، وليلةً للقربان الذي سيقدّم، ولمّا أغلق الباب وراءه، كان الصمتُ داخل البيت كافٍ لأن يسمع مرةً أخرى ما أراد أن يتركه عند السفح، سلسلةٌ تهتزُّ بعيدًا ثم تهدأ، وفي صدره سقطت جملةٌ: «البحرُ لا يغفر الخيانة، والملكُ لا يفاوض، نفذ ما عليك، وإلا فُتح الطوفان ليطمس اسمك ويمحو سلالتك».

لَمَّا انْغَلَقَ الْبَابُ خَلْفَ أَبِي فَارَسَ، أَطْبَقَ الْبَيْتَ جَفْنِيهِ لِيَسْتَرِيحَ.
 خَرَجَ رَاشِدٌ مِنْ حَجْرَتِهِ عَلَى مَهْلٍ، وَتَسَلَّلَ فِي الْعَتَمَةِ حَتَّى بَلَغَ
 عَتَبَةَ حَجْرَةِ أَبِي فَارَسَ، وَاسْتَرَقَ النَّظَرَ مِنَ الشَّقِّ، لَمَحَ جَسَدَهُ
 مَمْدُودًا عَلَى الْفَرَّاشِ، عِنْدَهَا فَقَطْ اِطْمَأَنَّ، وَارْتَدَّ إِلَى الْخَلْفِ، ثُمَّ
 أَدَارَ جَسَدَهُ إِلَى الْخَارِجِ. عِنْدَ الزَّائِغَةِ ابْتَلَعَ الْمَمَرَّ خَطَاهُ مِثْلَ سِرٍّ لَا
 يَرِيدُ شَهُودًا، عَبَرَ الْفَنَاءَ حَامِلًا فَانُوسًا صَغِيرًا وَارَى وَهْجَهُ تَحْتَ
 شِمَاغِهِ، دَفَعَ الْبَابَ الْخَارِجِيَّ، لَمْ يَكُنْ فِي الطَّرِيقِ إِلَّا بَيُوتٌ تَسْنَدُ
 شَقُوقَهَا بِالْأَمَلِ، مَضَى بِخَطَوَاتٍ ثَابِتَةٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الرِّصِيفِ،
 فَكَّ رِبَاطَ الْقَارِبِ، وَأَنْزَلَهُ بِرَاحَتِيهِ، ثُمَّ دَفَعَهُ دَفْعَةً قَوِيَّةً، وَاعْتَلَى
 حَافَتَهُ طَاوِيًا وَرَاءَهُ حَيَاةٌ لَا تَحْتَمِلُ، كَانَ الْمَاءُ سَاكِنًا عَلَى غَيْرِ
 عَادَتِهِ، رَفَعَ الْمَجْدَافِينَ عَلَى مَهْلٍ، وَأَخَذَ يَضْرِبُ بِهِمَا ضَرْبَاتَ
 قَصِيرَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ، كَانَ الطَّرِيقُ خَطُوطًا مَعْتَمَةً تَتَسَّعُ لَمَّ تَضْيِيقِ،
 وَعَيْنُهُ لَا تَفَارِقُ النُّقْطَةَ السُّودَاءَ الَّتِي يَعْرِفُ أَنَّهَا سَفْحُ الْجَبَلِ،
 كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ يَتَجَمَّعُ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَجِدُ لَهَا صِيَاعَةً،
 عِنْدَمَا ارْتَفَعَ ظِلُّ الْجَبَلِ هَدَأَ ضَرْبَ الْمَجْدَافِ، اقْتَرَبَ مِنَ الدَّلَالَةِ
 الصَّخْرِيَّةِ الَّتِي لَمَحَهَا قَبْلَ سَاعَاتٍ ثُمَّ تَرَكَ الْقَارِبَ يَلَامِسُ الرَّمْلَ،
 وَقَفَزَ إِلَى الشَّاطِئِ، تَابَعَ السَّيْرَ بِخَطَوَاتٍ مُرْتَبِكَةٍ، أَوَّلُ مَا قَابَلَ
 عَيْنَهُ: الْعِنْزَةُ السُّودَاءُ مَدْفُونَةٌ بَيْنَ الصَّخُورِ بِشَكْلِ يَلْفَتُ النَّظَرَ، كَانَ
 رَأْسُهَا مَطَاطُنًا، وَالْجِلْدُ يَلْمَعُ عِنْدَ الرِّقْبَةِ، وَلَطَخَاتٌ عَلَى الرَّأْسِ
 وَالظَّهْرِ. تَرَاجَعَ خُطْوَةً، أَحَسَّ شَيْئًا يَهْبِطُ فِي صَدْرِهِ، عَاوَدَ التَّقَدُّمَ،
 عِنْدَ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ رَأَى خُطُوطًا تُمَسِّكُ بَبَقَايَا لَوْنٍ غَامِقٍ عَلَى

هيئة نجمة، وفي الوسط عين مفتوحة، تحدّق إليه مهما حاول أن يزحزح بصره، حول الرسم ذرّات مسحوق مبعثرة، وكسرات فحم صغيرة، مدّ أصابعه، ولا مس طرف خطّ يابس، التقط بضغاً منه، ثمّ نفّضه عن راحته، شعر بقشعريرة في جسمه، دار نصف دائرة حول المذبح الحجري، رفع الفانوس، وراح يتتبع آثار الخطى والأقدام، إلى أن لمح مدخل مغارة تسدها صخرة، يصعب تمييزها لولا بروزها عن مستوى الجدار الصخري. اقترب، فألقى الفانوس بوهجه على المدخل، رأى النقوش الغريبة المحيطة به، عضّ على شفته، ومدّ كفه يتحسسها، ثمّ وضع الفانوس أرضاً، وتقدم من الصخرة ليزحزحها.

انبعث صوت من الداخل، نبرةٌ مختنقة خرجت من خلف الحجر: «أبا فارس؟ أعتقني أرجوك، لم يكن ذنبي». تصلّب ظهره، وردّ سريعاً: «من هناك؟»
جاءه الصوت مرّة أخرى، وفيه لهفةٌ تقفز على الكلمات: «من؟ ناصر؟ عدت؟ أرجوك أخرجني من هنا، وإلاّ فسيتركني حتى أموت». تجمّدت عيناه على الحجر، التفت خشية أن يكون هناك من يراه، ثم اقترب أكثر، وضع فمه على الشقّ، وقال بصوت مكتوم: «ناصر؟ ماذا قلت؟ من أنت؟»

انكفأ الصوت للداخل، ثم عاد: «ألم تعد؟ من أنت؟ ألسنت ناصرًا بن فهد؟ بلى.. بلى. هذا صوت ناصر، أميزه جيّداً». تاهت الكلمات في رأس راشد، همس لنفسه: أباي هنا؟ اشتدّت قبضته على الفانوس وقال: «أنا لست ناصر أنا ابنه، من أنت؟»
جاءه الجواب وقد فقد شيئاً من ثباته: «ابن ناصر! أخرجني من هنا، أرجوك».

«ليس قبل أن تخبرني أين أبي؟ وما الذي كان يفعله هنا؟»
«أنا مجرد حارس، أمرت أن أحرسه وألا أدعه يهرب، لا دخل لي بشيء.. أخرجني من هنا أرجوك، لا أرى الضوء إلا من موضعٍ ضيق، أكاد أختنق».

قال راشد: «من الذي أمرك؟ ومن أغلق عليك؟»
سكت الصوت قليلاً كأن السؤال وجّه إليه سهماً، ثم قال: «إن قلت فسأقتل، هذا سر لا ينبغي لي الإفصاح عنه».
اقرب راشد أكثر، حتى لامست جبهته الحجر البارد ثم قال:
«أقسم لك إنني لن أخبر أحداً، لكنك ستقرّ بكل شيء، إن لم تقل لن أخرجك وستبقى هنا وحدك».

ارتجّت الكلمات في الداخل: «لا تقل وحدي لا تقلها».
تهدّد الصوت وتابع: «جاؤوا به موثقاً قالوا: يجب أن يكتمل، همسوا بأسماء لا أفهمها، رسموا على الصخر، وأوقدوا ناراً، قلت: هذا رجل. قيل لي: اخرس.. لست إلا حارساً للمفارة».
ارتجف قلب راشد: «عمن تتكلم؟ من الرجل؟»
ردّ الصوت: «ناصر بن فهد. كان هنا، كان القريان».

انكسرت الجملة فوق رأس راشد كحجر سقط من أعلى الجبل، القريان.. ردها في سرّه مرتين، فلم تستقر، أفلت الفانوس من يده لحظة، فتداركه قبل ارتطامه بالأرض، رفعه من جديد، وجبهته على الحجر، قال بصوت خافتٍ لكنه حادّ: «من أتى به؟»
انتهى تردّد الصوت عند اسم واحد: «أبو فارس».

سقطت الكلمات الثلاث على القلب، وهوت عليه فكرة لم يختبرها قط في أشدّ لياليه قسوة.

أبو فارس ساحراً! نطقها داخله ولم تخرج، تسمّر بلا حراك
مستعيداً نبوءة نورة: في بطن الساحر سرّ دفين!

سأله بصوتٍ متماسك: «كيف جرى القربان؟ وماذا فعلوا؟»
أجاب الصوت: «أحكموا الطلسم، وطلبوا الدم، وترقّبوا
علاماتٍ لم تأت. وفي ليلةٍ غلبني فيها النعاس، ترجاني ناصر أن
أفتح له الصخر ليستششق بعض الهواء، كان في عينيه قراراً واحداً:
ألا يموت هنا. باغتني بضربةٍ على رأسي، فأغمي عليّ واستطاع
أن يهرب، بعدها حبسني أبو فارس مكانه».

استجمع راشد شتات صوته: «إلى أين ذهب بعد خروجه؟»
«إلى البحر، لم أره بعد ذلك».

تذكر راشد ما رآه: النجمة، العين، آثار الدم، المسحوق،
والعنزة بين الصخور.

ثم قال: «أتعني أن أبا فارس هو الذي...؟»
قاطعة الصوت، وفيه رجفة رجلٍ يمدّ رقبتَه لكلمةٍ تقطع قيده
أو تقطع عنقه: «لا تُجبرني على قول المزيد».
قال راشد: «لن أجبرك على شيءٍ إلا الصدق، أنا ابنه، وإن
كنتَ تكذب، فلا تنتظرني بعد الآن».

ساد الصمت في الداخل، تلاه اعترافٌ تدفق كدم لا يوقفه
ضغطٌ كفّ: «هو ساحر، لا أحد يعلم ذلك، لكنه يملك قوةً
يُسخرها. حبسني هنا لأحرس له سرّاً، ومحا اسمي من الوجود،
فلم يعد أحد يعرف أنني حيّ، وإن أخبرته بما قلت، فلن تجدني
بعد لحظة».

قال راشد، والاسم الذي يسمعه منذ طفولته يتبدّل في فمه إلى شيءٍ آخر: «وأبي؟»

ردّ الصوت: «إن عاد، لن يعود إلى هنا، البحر لا يردّ من حاول أن يسبق دوره، لكنه لم يمت عند قدميّ، خرج حيًّا، هذا ما أنا متيقن منه».

شعر راشد بثقل الجبل يطبق على صدره، مسح جبينه بكُمّه، وقال: «لا أستطيع أن أفتح لك الآن، لكنك ستخرج حين أنتهي من أمر أبي فارس، إن لم أعد فاعلم أنني صرت في عداد الموتى وإن عدتُ إليك فستعرف أن مصير أبي فارس قد انتهى».

تسلّت من الداخل ضحكةٌ قصيرة لا تشبه فرحًا ولا سخرية، ثم قال الصوت: «أدعى سالم»

تردّد راشد لحظة، عيناه على الباب الصخري، وصدره يعلو ويهبط بسرعة، ثمّ قال بصوتٍ حاد يفيض غضبًا: «اسمعني جيّدًا إن جاءك أحد، لا تقل إنني جئت. إن أفشيت ذلك بكلمة، فلن ترى النور مرة أخرى، وستموت هنا في العتمة».

لم يجب سالم، لكن السلسلة اهتزّت من الداخل اهتزازًا خفيفًا، وضع راشد راحته على موضعٍ من الباب، ثم تراجع بين الباب والمذبح الصخري، سقط الضوء على خطٍ رفيعٍ من الدم اليابس، تبعه بعينه حتى انتهى عند طرف صخرٍ منخفض، هناك في صدع ضيق، رأى جزءًا من جلد العنزة معلقًا، انحنى ونظر إلى الخطوط التي رسمها من كان هنا قبل ساعات، فأدرك أنها سياجٍ لشيءٍ لا يريدون له أن يهرب، رفع الفانوس قليلًا، فعادت العين في وسط النجمة تلمع لمعانًا كاذبًا، أغلق جفنيه لحظةً، ثم ابتعد.

في طريق العودة إلى القارب، كان كل حجرٍ يذكره بصوتٍ لا يريد أن يبقى داخله: قربان. تسير الكلمة قبله، ثم تستدير وتنتظر إليه. صعد القارب، دفعه وأخذ مجدافيه، كان الماء بلا تموج، وكل ضربةٍ على السطح تشقّ الصمت، رفع رأسه شطر الجبل، كان يقف هناك كتلةً بلا لسان، لكنه قال ما يكفي، حين بلغ الرصيف شدّ الحبل على القارب بعقدةٍ سريعة، حمل الفانوس وأطفأه قبل أن يدخل الزقاق، مشى بخطواتٍ مترددة، يلتفت كل بضع خطوات خشية أن يراه أحد، قلبه يضرب في صدره أسرع من خطاه، وعقله لا يتوقف عن السؤال: ماذا لو استيقظ أبو فارس الآن ووجدني غائبًا؟ ماذا لو عرف أنني وصلت إلى الجبل؟ وماذا سيكون مصير سالم لو اكتشف الأمر؟

دخل البيت بخفةٍ كأنه يخطو فوق زجاجٍ يخاف أن ينكسر. تجاوز الممرّ، وحبس أنفاسه وهو يفتح باب حجرته، وجد أمانى نائمةً بعمق، وجهها مائل إلى الجدار، لم تتحرك، اقترب منها، وتمدّد إلى جوارها، وعيناه شاخصتان إلى السقف، تتزاحم الصور في رأسه: الدم اليابس على الصخرة، الطلسم المرسوم، العنزة المذبوحة بين الصخور، الباب الصخري، الصوت المبحوح الذي ناداه باسم أبيه، والساحر الذي ينام معه في نفس البيت!

ارتجف قلبه من الخوف، لكن غضبًا أسود ارتفع في صدره، أبو فارس ساحر؟ وأبي قربان؟! لم يجد مكانًا للراحة، كان يشعر أن كل ما حوله كذب، وأن الأرض نفسها تتواطأ لتخفي الحقيقة عنه، قبض على كفّه حتى تألم من شدة الضغط، أطبق جفنيه أخيرًا، لم ينم فوراً، كان يتقلب مرةً بعد أخرى كأن النوم يرفض

أن يجيء. غلبه التعب في النهاية، فاستسلم لنومٍ متقطع، جسده ساكن، لكن رأسه ظلّ يدور حول ما عرفه وما لم يعرفه، وقبل أن يثقله النعاس، همس في داخله: «إن كان أبي حيًا، فسأمشي إلى حيث مشى البحر به، وإن كان ما قيل كذبًا، فسأكسر هذا الباب ولو بيديّ العاريتين».

مكتبة
t.me/soramnqraa

استيقظ قبيل الظهر على مطرٍ يطرق السقف طرقاً متتابعاً ثقيلًا كطبولٍ، انتفض راشد من نومه، كان قد نام عند الفجر على حافة قسم لا يهدأ، فلما فتح عينيه وجد الضوء يتسرب من شقوق النافذة، على طرف الفراش كانت أمانى منحنية الكتفين، تُسند جبينها إلى راحتها، كأنها تكتُمُ أنيناً من الانفلات.

قال وهو يقترب منها: «ما بك؟»

رفعت رأسها، عيناها متعبتان من البكاء، وصوتها مُتقطع: «فارس تغيّر يا راشد، لا يخرج من غرفته، ولا يأكل، ولا ينام وإن نام فعلى قلقي، أسمعته في الليل يتمتم: قاتل، لقد غرق، أنا السبب، أنا جبان، وإن ناديته لا يجيب، أخشى أن أفقده هو الآخر».

توقّف الكلام في حلق راشد، خطر له أن فارساً رأى ما لا يُحتمل، وجرى في خاطره وجهُ أبي فارس في ظلال الكهف، والحجرُ الذي يضيق، وسالمٌ وهو يبتلع خوفه بين كلمتين، لم يقل شيئاً من هذا، جلس بقربها ووضع كفّاً على كتفها وقال: «سنعبّر، كلُّ شيءٍ يشتدّ قبل أن ينقطع، اصبري فقط، وسيخرج ممّا هو فيه، ما مر به ليس سهلاً».

همست: «أخاف ألا يبقى لنا أحد».

قال: «سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام».

مسح على رأسها، ثم نهض وغسل وجهه، شعر بلذعة توقظه في العمق حيث تتراكم الليالي، خفّ المطر قليلاً دون أن ينقطع.. فتح الباب، فدخلت رائحة التراب المشبّع بالماء، ووقف في الفناء

لحظة. كان أبو فارس جالساً على الكرسي، بيده سُبْحَة يمرر أصابعه على خرزها كأنه يحصي ذنوبه، نظرَ إليه، بكل ما يحمل من صدمة وإنكار وخيبة، فتح الباب وخرج.

كان الماء ينساب على الحجارة خيوطاً دقيقة، اتجه إلى السوق، الواجهاتُ المُنهارة، الأبواب المقلوبة على أعتابها، ألواحٌ مكسورة، وصناديقُ مرمية، وجيف متناثرة من الحيوانات، وكتبٌ شُقَّت بطونها وشريت ماءً حتى التصقت أوراقها بعضها ببعض، وقف عند أطلال المكتبة، حيث عرف رائحة الورق كما يعرف نفسه، صار المكان كومةً من خشبٍ وحجارةٍ وورقٍ اختلط بالطين والحبر، كان حسن الوراق يمشي بين الأنقاض كأبٍ يعود إلى بيتٍ انطفأت فيه الأسماء، سقطت رفوفه فسقط معها توقيته ومعناه، كانت الأيام تُعرف من وقع الأقدام، معلّمٌ يطلب كتب السير، وشابٌ يجلس على الكرسي يلتقط سطرين كمن يبلى عطشاً، وامرأة تمسح الغلاف بباطن كفها ثم تضمه إلى صدرها، الآن لا باب ولا رفّ ولا قارئ يمر، الكتبُ عنده لم تكن سلعاً، بل كانت أعماراً مُعارة وذاكرةٌ تُسند صدوراً أعيّتها الحياة، وحين انهار السقف تشقّق وجهه معها، لم تنكسر أوراقٌ فحسب بل انكسرت طريقة عيشه، كلّ ساعة يعود، يزيج حجراً صغيراً، يعتذر سرّاً لعناوينه المدفونة، ويستعيد من الحفظ فهرساً كان يُرتّب به العالم، لا يبحث عمّا نجا، فقد انتهى ذلك، إنما يلتقط من تحت البلبل طرف نفسه، ويحمل الفقد كما تُحمل صلاةٌ في القلب بصمتٍ مُثابر، وبإيمانٍ أنّ المرء إذا حفظ للكتب حقّها، حفظت له ما تبقى منه.

قال من غير تمهيد: «جاءت شجن قبل سقوط المكتبة بساعات، وتركت لك رسالة هنا، وقالت إن رأيته فادفعها إليه، ثم انهار السقف على الكتب والرسالة، لم أستطع أن أنقذ كتابًا، وما تركته لك شجن دُفن مع المكتبة».

قال راشد: «متى حدث هذا؟»

«قبل يومين، بدت مضطربة تستعجل اللحظة قبل أن تفلت منها، قالت إن رأيته أخبره أنني انتظرت طويلاً، ثم ذهبت». أشار بيده إلى ناحية لم تعد موجودة وقال: «ربما تركت لك حياة كبيرة، لم يكن من نصيبها النجاة»

ثم أمسك بطرف لحيته وقال: «لم أستطع أن أنقذ شيئاً».

مضى من غير أن يُكثر مسلماً المكان إلى حزنه وعاد إلى بيته الفارغ.

نظر إلى الركam متخيلاً الورقة تحته تومئ له وتختنق. لم يمدّ يده، خاف إن حفر أن ينتزع من رسالتها نَفْسَهَا الأخير، وأن يُميت في صدره ما بقي منها حياً. ناجاها في سرّه: يا شجن، إن دُفنت رسالتك تحت هذا الركam، فقد ابتلغني العجز قبلها. إن صرتِ حكاية مدفونة، فأنتِ قلبي الذي يبقى كل العمر يذكرني بك، سامحيني، تركتُكِ بلا كتفٍ تُسكن رجفتك، وبلا كفٍّ تمسح خوفك، وبلا كلمة تُهدئ وحشتك، وبلا وعدٍ صغيرٍ يضيء غتية ليلك، أنا القريبُ وإن أبعдна الطريق، أنا اليدُ التي تُعيدك إلى سَكينةٍ تعرفينها.

ثم مضى، واسمُها على لسانه كدعاءٍ يتعثّر، وخطاه تُعيد كلّما ابتعد: يا شجن يا شجن.

عند طرف القرية شمخت السدرة كعادتها، جذعٌ صلبٌ يحمل ظلًا في نهارٍ خجول، الورقة المعلقة لا تزال في مكانها، أسماؤها ازدحمت وتزاحمت، بعضها بهت، وبعضها طريٌّ كُتب للتو، جمعٌ من رجالٍ ونساءٍ وقفوا قريبها، يتبادلون نظراتٍ قليلة وكلماتٍ أقل، الإمام على مسافةٍ يقرأ آيةً قصيرةً ثم يغلق شفتيه، كان الصياد أقرب الناس إلى الجذع، يلمس طرف الورقة بأطراف أصابعه كمن يعزي.

اقترب راشد منه، نظر الصياد إلى الأسماء، ثم قال بصوتٍ ثابت: «كلّ صباحٍ تُضافُ أسماء جديدة، لم يعد في القرية بيت بلا غياب».

قال راشد: «هل بقي في السوق ما يُفتح؟»

«نفتح لنعدّ الخسائر، لا لنبيع».

«ومتى تنتقضي؟»

«أيامٌ قليلة نحصيها ونقاومها، ونشدّ الأبواب، ونمضي إلى قدر مكتوب».

«أعندك خبرٌ عمّن خرجوا إلى القرى الأخرى؟»

«بعضهم يُرجعه الحنين، وبعضهم لا يملك القدرة على العودة لأنه لم يعد يملك بيتًا».

ثم لمس طرف الورقة وقال كمن يُسدي نصيحة: «إن عزمْتَ على الخروج، فاخرج قبل أن يأتي المطر الكبير، وإن أقمت فأقم على صبرٍ وحذر».

لمّا انصرف عن السدرة، سار بين الأزقة، يخطو على حجارةٍ لامعةٍ من البلل، يتجاوز أستاذًا ممزقةً تتدلّى من شرفاتٍ مائلة،

وَيَصْغِي لَوْ قَع الْمَطَرِ عَلَى الْأَسْطَحِ، عِنْد ثَالِثٍ مُنْعَطِفٍ وَقَدْ خَفَّ الضَّجِيجُ مِنْ حَوْلِهِ انْفَصَلَتْ هَيْئَةٌ عَنِ الْبَلَلِ كَأَنَّ الْجِدَارَ سَلَّمَهَا إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَوَقَّفَ وَخَرَجَ الْاسْمُ مِنْ فَمِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَبِهَ: نَوْرَةٌ!

ظَهَرَتْ نَوْرَةٌ وَلَمْ تُكْثَرِ، أَدَارَتْ جَسَدَهَا قَلِيلًا وَقَالَتْ: «اتَّبِعْنِي». سَارَ خَلْفَهَا زَقَاقِينَ وَثَلَاثَةٌ، تَخْطُو بِثَبَاتٍ لَا تُغَالِبُهُ الْحَفَرُ، وَهُوَ يَمْضِي كَمَنْ يَتَذَكَّرُ طَرِيقًا نَسِيَهُ، لَمْ تَلْتَفِتْ، وَلَمَّا انْفَتَحَتْ أَمَامَهُمَا السَّاحَةُ الرَّمْلِيَّةُ وَهَذَا الْمَطَرُ، وَقَفَا قِبَالَةَ الْبَحْرِ، كَانَ خَطُّ الزَّبَدِ يَرَسُمُ حَدَّهُ وَيَمَحِيهِ، وَزُرْقَةُ الْبَحْرِ تُخْفِي مَا وَرَاءَهَا. رَفَعَتْ يَدَهَا وَأَشَارَتْ إِلَى كِتْلَةٍ غِبْرَاءَ تَتَرَبَّصُ عِنْدَ الْبَعِيدِ: «تِلْكَ جَزِيرَةُ أُمِّ الْقَشْعِ».

«مَاذَا هُنَاكَ؟»

«امْرَأَةٌ تَدْعِي عَجُوزَ الْبَحْرِ، تَحْفَظُ مَا عَجَزَ عَنْهُ النَّاسُ، إِنْ أَرَدَتْ الْأَجُوبَةَ، فَاذْهَبِ إِلَيْهَا».

«وَمَنْ تَكُونُ؟»

«بَابًا بَيْنَ مَا نَعْرِفُ وَمَا نَجْهَلُ»

ثُمَّ خَطَّتْ إِلَى الْمَاءِ خَطَوَتَيْنِ، فَانْتَشَى الْمَوْجُ عَلَيْهَا مِثْلَ سِتَارَةٍ تُسَدَّلُ، خَلَّفَتْ وَرَاءَهَا خَيْطًا مِنْ زَبَدٍ سَرْعَانِ مَا تَلَاشَى، وَدَائِرَةٌ خَفِيفَةٌ حَيْثُ غَابَتْ.

وَقَفَ كَمَنْ أَنَّهُكَه رُكُضٌ طَوِيلٌ، وَالدَّهْشَةُ تَطْوِي صَدْرَهُ، وَالْخَوْفُ يَفْتَحُ فِي دَاخِلِهِ أَبْوَابًا: أَنْ يَقُودَهُ الْبَحْرُ إِلَى مَا لَا يُحْتَمَلُ، أَنْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى حَقِيقَةٍ أَبْيَهُ فَتَجْرَحُهُ، أَنْ يَخْسِرَ أَمَانِي إِنْ غَابَ، وَأَنْ يَخْذُلَ رِسَالَةً دُفِنَتْ لِصَاحِبَتِهَا وَلَمْ تُقْرَأَ.

رَبَضَت الْجَزِيرَةُ هُنَاكَ بَقْعَةً غَبْرَاءَ ثَابِتَةً، وَكُلُّ مَا سِوَاهَا يَتَحَرَّكُ،
رَأَى فِيهَا وَعْدًا وَمَصِيدَةً مَعًا، إِنْ مَضَى إِلَيْهَا، مَاذَا يَتْرِكُ خَلْفَهُ؟
وَإِنْ تَرَجَعَ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَصُدُّ الْخَرَابَ الَّذِي يَمْشِي نَحْوَهُ؟ عَبْرَ
خَاطِرِهِ وَجْهٌ أَبْيَهُ فِي ظِلْمَةِ الْكَهْفِ، وَقَسَمُهُ الَّذِي تَلَفَّظَ بِهِ، وَاسْمُ
شَجْنٍ وَهُوَ يَخْتَنِقُ تَحْتَ الرِّكَامِ. أَحَسَّ أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ انْفَتَحَ بِقَدَرِ
مَا تَعَمَّقَ السُّؤَالُ، وَضَوْحٌ يُجَاوِرُهُ غَمُوضٌ، شَدَّ عَلَى يَدِهِ، وَحَفِظَ
اتِّجَاهَ الْجَزِيرَةِ فِي صَدْرِهِ ثُمَّ اسْتَدَارَ، رَجَعَ حَامِلًا دَهْشَتَهُ الْمَوْجِعَةَ
وَخَوْفَهُ مَعًا؛ مَتَهَيِّئًا لِرَحْلَةٍ سَرِيَّةٍ لَا يَعْرِفُ نَتَائِجَهَا، عَادَ إِلَى الطَّرِيقِ
الضِّيْقَةِ، أَخَذَ الْمَطَرُ حِظَّهُ مِنَ السَّكُونِ، وَصَارَ يَجِيءُ عَلَى دَفْعَاتٍ
قَصِيرَةٍ مُتَبَاعِدَةٍ، فِي عَتَبَةٍ أُخْرَى رَأَى امْرَأَةً تُغْلِقُ نَافِذَةً وَتُسَنِّدُهَا
بِقِطْعَةٍ خَشَبٍ، ثُمَّ تَلْتَفَتَ إِلَى الدَّخْلِ مُحْصِيَةً مَا بَقِيَ، كُلُّ شَيْءٍ
فِي الْقَرْيَةِ يَقِفُ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ.

دَخَلَ الْبَيْتَ، كَانَ الْفَنَاءُ هَادِئًا، ثُمَّ سَارَ إِلَى غُرْفَتِهِ، فَوَجَدَ أَمَانِي
تَرْتَبُ حَقِيبَتَهَا الَّتِي لَمْ تَفْتَحْهَا بَعْدَ، التَفَتَتْ إِلَيْهِ وَسَأَلَتْهُ: «أَيْنَ
كُنْتَ؟»

قَالَ: «أَرَدْتُ أَنْ أَتَمَشَّى قَلِيلًا».

جَلَسَ عَلَى طَرَفِ الْفِرَاشِ، صَوَّرَ الْيَوْمَ تَتَدَاخِلَ: شَجْنٌ وَرِسَالَتُهَا
الَّتِي دَفَنْتَ، الْوَرَقَةَ عَلَى السِّدْرَةِ وَهِيَ تَتَزَاحَمُ، وَنُورَةٌ وَهِيَ تُشِيرُ
إِلَى جَزِيرَةٍ تَلُوحُ كَحَدٍّ بَيْنَ عَالَمَيْنِ، عَجُوزُ الْبَحْرِ الَّتِي لَمْ يَرَهَا بَعْدَ،
ثُمَّ تَذَكَّرَ قَسَمَهُ فِي لَيْلِ الْكَهْفِ، الْكَلِمَاتُ لَمْ تَبْرُدَ فِي صَدْرِهِ بَعْدَ،
صَاغَ لِنَفْسِهِ قَرَارًا وَاضِحًا: عِنْدَ أَوَّلِ فُرْصَةٍ سَيَخْرُجُ، لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُؤَجِّلَ مَا يَدْعُوهُ. أَسْنَدَ رَأْسَهُ إِلَى الْحَائِطِ، وَفِي الْخَارِجِ عَادَ
الْمَطَرُ عَلَى فِتْرَاتٍ قَصِيرَةٍ. عَبْرَتَهُ صُورُ: الْعِنِزَةُ عِنْدَ الْجَبَلِ، امْرَأَةٌ

تغيب في الماء، واسمُ جزيرةٍ صار عنواناً لطريقه.

أغمض جفنيه على عزمه، وقد استقرّت الوجهة في قلبه: أمّ القشع وعجوز البحر، ثمّ وقع عليه النومُ وقوعَ الإغماءِ. لم تكن القحمة حين هدا المطر أقلّ وجعاً. لكن في صدر راشد شيءٌ لم يكن فيه أمس: مسارٌ ولو على ماء، وفي الحجرة المقابلة استمرّ فارس يهمس بكلماتٍ تتسلل عبر الجدران: «قاتل.. لقد مات.. أنا السبب»

وضعت أمانى رأسها على الوسادة، وقلّبت الدعاء في قلبها، وجلس أبو فارس في فناء البيت على صمته لا يسمع إلا ما يريده. أما الورقة على السدرة، فظلت تنتظر صباحاً آخر تُضاف فيه أسماءٌ جديدة، وما عاد في القرية بيتٌ بلا غياب، وفي أقصى البحر توارت أم القشع خلف ظلٍّ يعرف طريقه إلى القلوب التي أرهقها السؤال.

خمد البيتُ أخيراً، وتباعد وقع المطر على السقف، وانتظمت أنفاس النائمين، جلس أبو فارس في عتمة غرفته مديراً خرز السُّبْحَة بين أصابعه ليحصي ما بقي له من ليالٍ. رنَّ تهديد "ابن النار" في أذنه، فحدث نفسه: «لا يكتمل الطقسُ دون الخنجر والخاتم، ولا قربانٌ دون أدواته، أنا أملك الجسد، لكن المفاتيح ليست معي».

تسلَّل الغراب ذو الريشة البيضاء إلى النافذة، كانت عيناه تلمعان، رفع إليه أبو فارس نبرته قدر ما يحتمل الليل: «أمهلني، ليالٍ معدودة سأجد الخاتم والخنجر».

نقرَ الغرابُ الخشبَ نقرتين كجوابٍ، ثم طارَ، أطرق الرجلُ برهةً ثم نهض، وقد استبد به هاجس واحدٌ: الصندوق، قال في نفسه: إن كان في مكانٍ بعد هذا الخراب، ففي بيت الجد، ذاك البيت الذي ابتلعتهُ النار، وابتلعت معه الطفل الذي ظَلَّت قصَّتُهُ شوكه في الحلق.

لبس ثوبه وألقى شماغه على كتفه، فتح باب الحجرة ببطءٍ حتى لا يصدر ضوضاء، نظر إلى حجرة راشد سريعاً، سكونٌ في سكون، ثم انسلَّ خارجاً.

فقد الطريقُ إلى بيت الجد معالمه، فكلُّ منعطفٍ صار أطلال جدار، وكلُّ عتبةٍ صندوقاً مهشماً، حين بلغ باب البيت رأى كيف اسودَّت حافته، وكيف انصهر القفلُ بفعل النار. رفضه فانفتح، وانكشفت له فسحةُ الفناء: رماذٌ ممسوسٌ بالمطر، وبقايا جدارٍ

متفحم. خطا خطوة، في الطرف القريب ارتجف ظل وانسحب، ثم ظهر شيء يلمع بطول ذراع ملتف: حيّة خرجت من الركام ونصبت رأسها، لسان ينفلق ويعود، توقّف، ثمّ التقط عصا من الأرض، وخطا ثانية بحذر، استقامت الحيّة في موضعها وقطّبت رأسها نحو ساقه، أطلقت فحيحاً تُحذره من المرور ثم سكنت بترقب مُترصد!

دخل أوّل حجرة، فلم يجد فيها غير قطع من خشبٍ مُتفحم وركنٍ أحمر لجدارٍ حمل يوماً خزانة، في الجهة الأخرى بابٌ آيلٌ للسقوط، حين اقترب منه انفجرت الأرض حراكاً، حياتٌ عدةٌ خرجت من تحت الأنقاض، تتقاطع أجسادها على خطوطٍ لامعة من الرماد مشكّلةً أمامه سدّاً منيعاً، تراجع خطوة، وضرب بالعصا على الأرض ضربيتين، ارتفعت رؤوسٌ متجهة إليه، يَمنعها بضربة فتعود، يتقدّم شبراً، فتلتفّ عليه من الجانبين. عرف أنّ البيت تحت حراسة مشددة. اندفع بالعصا إلى يمينه ليشقّ لنفسه ممراً، توزّعت وتشابكت أجسادها واتخذت هيئةً سياج، كلّما شقّ بينها بالعصا انغلق الشقّ أضيق، مدّ قدمه إلى الداخل، لحظتها انطلقت إحداها كنبل انطلق من وتره، ولمح رأسها قبل أن يحسّ بوخزتين في ظاهر القدم، جذبها بالعصا في حركةٍ عمياء فرمت نفسها بعيداً، واستند إلى الجدار، حُرقةٌ حادةٌ تصعد من الكعب، شدّ على أسنانه، وتفقد الأثر، خطّان أزرقان يتّقدان تحت الجلد. نظر إلى الباب الداخلي وراءه، حجرة لا ينساها، حيث الشرارة الأولى، ولكن كيف يدخلها وأمامه سياجٌ حيٌّ يكبر ويزيد؟ ضرب بالعصا مرةً ثالثة، ثم سمع رنيناً خفيفاً في أذنه، وضغط على

موضع اللدغة ليكسر حدة الحُرقة، تراجع خطوة بخطوة، والحيّات تتحرك على قدر تراجعها، لا تريده أن تتركه يتوغّل أكثر، حين بلغ الفناء رأى الغراب دار فوقه دورة قصيرة ثم ابتعد، عرف أبو فارس أن الليلة ليست له، وضع العصا تحت إبطه، وربط شماغه حول ساقه الموجوعة ثم وقف لحظة عند العتبة ونظر إلى الداخل نظرة طويلة مشحونة بالوعيد، ثم خرج.

بدا طريق العودة أطول، هطل المطر في دفعاتٍ، وكل خطوة تفاقم ألمه. جرّ جسده جرّاً، وحين بلغ بيته توقّف عند الباب يلتقط أنفاسه، رفع بصره إلى العتبة، ثم قال كمن يرسل رسالة: «ليلة أخرى وسأجد ما أبحث عنه، ولو كان تحت الأرض».

دخل البيت بهدوء، ما تزال السُّبحة على الطاولة حيث تركها، مرّ بيده فوقها ثم تركها. وقف عند باب حجرة راشد، ثم تابع إلى غرفته، جلس حيث كان، ومد قدمه، والألم يلسعه. رفع رأسه، فترأى على العتبة ظلّ جناحٍ ثم اختفى، قال مُغمغماً: «أمهلي، ثلاث ليالٍ فقط».

ثم أسند ظهره إلى الحائط، والمطرُ يصفق على السقف كعدّادٍ يُحصي ما تبقى من ليالٍ.

استفاق راشد قبيل الفجر بلحظاتٍ على نبرةٍ تمسُّ أعماق ما فيه، همسٌ واحدٌ واضح «عجوزُ البحرِ تنتظركُ».

انتبه كمن لُمز في قلبه، جلسَ مفزوعاً، والتفت حوله كأن الصوت قد ترك أثره واختفى، التقط زجاجة الماء، رفعها إلى فمه، وشرب جرعاتٍ سريعة. راح يحدّق إلى السقف المهدد بالسقوط، وهو يشعر أنّ شيئاً في داخله يدفعه دفعاً لا يقبل التأجيل.

نهض، ومدّ يده إلى ثوبه، لبسه على عجل، وثبّت الحزام، دسّ في جرابٍ جانبي نصلًا، وملاً زجاجة الماء، ووضع في الكيس تمرًا يكفيه وخرقةً، ثم خرج من الباب على أطراف أصابعه، والبيت ساكنٌ كأنه مهجور. كان الفجرُ قريباً، والقرية في عمتها الأخيرة، مضى نحو الميناء، وفي طريقه مرّ بجذوع نخيلٍ مقصوصة تلوّح رؤوسها كالأسنان، وعلى حافة الماء بدت جذور القرم مكشوفة سوداء كأصابع، الممرّات التي امتلأت يوماً بماء المد ضاعت مع انهدام الضفاف، والنّوارس لم تعد تُحلق، والأسماك غائبة، فلا ومضة قفزة تشقّ سطح الماء، ولا ظلّ سرب منها يمرّ. اتجه عند قاربٍ صغيرٍ مرميٍّ عند الطرف، ودفعه حتى عانق الماء، قفز إلى داخله، وثبّت المجدافين في حلقتيهما، ثم بدأ يضربهما ضرباً موزوناً، يقطع خطّ الزيت الأبيض الذي ينساب خلفه كأثر، كان البحرُ هادئاً بطريقة لا تُطمئن، صفحةٌ داكنة تلمع، نسمةٌ خفيفة ترسل في الجلد بللاً بارداً، والقرية من وراء ظهره تتضاءل شيئاً فشيئاً. مضى يُراقب ما أمامه، بقعةٌ غبراء تزداد وضوحاً

كلما اقترب، تُشبه قطرةً ممتدةً على صفحة الماء محوطةً بحزام داكن من حصي، دخل في ماءٍ ضحلٍ صافٍ، يرى تحته خطوط الرمل، وعُقدًا صغيرة من الأعشاب، على الجانبين شجيرات متقطعةً واطئة، وفي الطرف لسانٌ رمليٌّ دقيقٌ يمتد كالذيل.. أدار القاربَ بمحاذاة الجافة، شدَّ المجدافين إلى الداخل، قفز إلى الماء، ودفعه بيده حتى رسا على الرمل. صعد إلى اليابسة، لم يكن في الجزيرة أثرٌ لبشرٍ إلا بيتٌ واحد ينتصب عند الجهة القريبة من البحر، هيكَلٌ من خشبٍ طاف جرفته البحار مربوط بحبالٍ سميكة مشدودة، جذرانه من شباكٍ مرقعة وأقمشةٍ أشرعة متأكلة، وسقفُه من ألواح قوارب مكسورة وعظام سمك. من الشاطئ إلى الباب شريطٌ من طحالب يرسم طريقًا خافتًا فوق الرمل، وعلى الجانبين قواقع مهشمة وقطعٌ من فقرات سمك، في العتبة خيوطٌ تتدلى تحمل أصدافًا وسرطانات مجففة وقطعًا من عظام دقيقة تصطك عند أي نسمة تصعد من البحر، فتطلق رنينًا لا يُشبه سواه، رفع راشدُ الستارة الشبكية قليلًا، في الداخل شعلة قصيرة فوق حجارة سوداء، وسكينٌ صديءٌ موضوع على صفيحة، كانت العجوز جالسة عند الموقد، ثوبها داكن يلتف حول جسدها النحيل، وغطاء رأسها من قماشٍ سميك تشده ربطةٌ بلا زخارف، ومن تحته تنسدلُ خُصلٌ بيضاء. وجهها مسفوع، وعيناها بلون الماء. حين دخل نثرت قبضةً من ملح على الموقد، فاشتعلت الشعلة لحظةً ثم هدأت، واهترت خيوط الأصداف فوق رأسه. نهضت ودارت حوله كأنها تتفحص فريسة، ثم توقفت خلف ظهره، ونظرت إلى موضعٍ عند مؤخرة رأسه تبحث عن شيء

هناك، هم أن يستدير لينظر إليها فزجرته بنبرة أمرة: «لا تتحرك». أكملت دورتها حوله ثم أشارت له إلى موضع على الأرض بجوار الموقد وقالت: «اجلس».

تقدم خطوتين وجلس. كان الموقد مصنوعاً من حجارة سوداء تتصاعد منها شعلة قصيرة، ورائحة ملح ودخان، وعلى الجدار عظام سمك مُصفوفة كأنها مكتبة بحرية.

جلست قبالة، وأردفت: «علامتك حيث ينبغي أن تخفى عند مؤخرة العنق تحت منبت الشعر، هلال لا تحمله إلا ذرية الملح». رفعت كفها كأنها تقطع عليه أي سؤال: «لا تتكلم».

تابعت بصوت لا يرتفع ولا ينخفض: «في ليلة باردة قبل أربعين عاماً اختبأت خلف السدرة العظيمة أرقب ظليّين يطولان نحو الساحل، كان الساحر أبو فارس يركض، يضمّ طفلاً إلى صدره، وفي قبضته خاتم وخنجر يلمعان كشرارة، خلفه جدك بسيف مكشوف وصوت يشق هدوء الليل: «أعطني ابني وإلا قتلتك».

توقفاً عند حد البحر، قال أبو فارس:

«اقتلني ولن تأخذه».

ارتفع السيف، ولكن سبقه الخنجر إلى القلب، سقط الجد على الموج، انحنى أبو فارس وأمسك يد الجد وألبسه الخاتم، وأمسك بيده الخنجر وغرسه في فم البحر، ثم دفع الطفل إلى الماء ومسح الأثر وهرب إلى الظلام، دخلت أنا الماء على عجل، وانتشلت الطفل قبل أن يفرق، ونزعت الخاتم والخنجر من يد الجد وسترتهما حيث لا يصلهما سواي، تلك كانت أول بداية العهد، لا ينكسر سحره إلا إذا عرفت الكلمة ورجع الخاتم والخنجر إلى مكانهما الصحيح».

تحرك راشد في موضعه، لكنها رفعت كفها: «لا تتكلم، جئت هنا بحثاً عن الأجوبة».

سكت.

تابعت: «تريد أن تبطل العهد؟ الشجاعة وحدها لا تكفي، عليك أن تستعيد كلمة العهد من موضعها، اذهب إلى كدمبل، كتبها أبوك بيده: ولا أحد يستطيع قراءتها غيرك، أو شخص يحمل علامة الهلال!»

اذهب، وخذها من حيث وضعت، ثم عد إلى الصندوق الذي تعرفه، فيه الخاتم والخنجر، عند البحر تلبس الخاتم، وتفرز الخنجر، وتقول ما كتبه أبوك، حينها سيكف البحر أذاه».

قال همساً: «الصندوق؟»

قاطعته بعين لا ترمش: «تعرف موضعه يا ابن الملح، الوقت يهرول، ثم مالت قليلاً إلى الأمام حتى رأى انعكاس الموقد في حدقتها، وقالت: «أنت من ذرية تمسك من عنقها لا من يدها، لذلك وضعت العلامة حيث لا ترى».

قال: «ومن أنت؟»

قالها كما تُقال كلمة لا بد منها، حدقت لحظة طويلة إليه، ثم قالت كمن يقرأ في فنجان: «أنا التي دلتك، أنا نورة، وأنا الطفلة، وأنا عجوز البحر».

سقط الاسم في صدره كحجر، وأحس أن كل صورة مرّت عليه في الأيام الماضية تلتحم في صورة هذه العجوز، كأن الوجوه الثلاثة وجه واحد في ثلاث مراحل من الزمن.

أردفت: «امضِ الآن، الوقتُ يُهرول، خذ من كُدمبل كلمةَ العهد،
وارجع إلى صندوق الجدِّ، لا تُكثر التفكير عند الماء، الماء لا
يحبُّ المتردد».

«وإذا لبستَ الخاتم وغرزتَ الخنجر وقلتَ الكلمة من موضعها
رأيت ما وعدتُك به».

ثم أمالت يدها في الهواء كمن يزيل غباراً، وقالت: «عمُّك
القُربان الأول حيٌّ في مكانٍ ما، وأبوك نجا من سجن، وأخشى
أنّه اختار سجناً آخر».

ترنَّح كأنَّ الأرض تحركت تحت قدميه، قال وهو يشهق: «أبي
وعمي! أين هما؟ أرجوك، أخبريني!»

رفعت كفَّها تقطعُ رجاءه: «لا أستطيع الآن، لو أفشيتُ لك ذلك
ضاع الطريق، امضِ قبل أن يسبقك الساحرُ إلى ما تبحث عنه..
الوقتُ يُداهمك».

قال: «دليّني، ولو بكلمة واحدة».

قالت، وهي تصرف نظرها إلى البحر: «خُذ من كُدمبل ما
كُتب لك، وأبطل العهد».

شعر بأنَّ صدره يضيق من اسمين عاداً إلى الحياة دفعةً
واحدة، ومع ذلك شدَّ قبضته، وفهم أنه إذا ألح بالسؤال الآن فإنه
يضيع وقته لا أكثر.

قال قبل أن يمضي: «أخشى أن يسبقني الذي يطلب ما في
الصندوق».

قالت: «الخوف فائدةٌ إذا قادك، وبلاءٌ إذا قعد بك، أسرع،
البحر لا يفتح أبوابه للمتردد».

ثم قامت، وهي تقول: «ولا تنسَ أنَّ الغراب إذا سقط، سقط معه المستتر».

نهض، أحسَّ أنَّ الأرض تحت قدميه تجرُّه، عبر العتبة، والأصداف تتصادم تصادمًا خفيفًا فوق رأسه، وصفحة الماء تهتزُّ بخطِّ دقيق من نور بدأ يتشكَّل. التفت، كانت لا تزال عند الموقد، وجهها نصف ظلِّ ونصف لهيِّب، وعيناها لا تتحركان عن مكان أعلى من كتفه قليلًا، عند موضع العلامة.

قال: «إلى كُدمبلِ إذًا».

هزَّت رأسها بإيماءة واحدة.

ثم قال: «وإن انتهيت؟»

قالت: «إذا انتهيت فلتكن النهايةُ كاملة».

خرج إلى الرمل، كانت الطحالب تحت قدمه مثل خيوط تُعيدُه إلى القارب، والجزيرة خلفه ساكنة مثل صفحة تُطوى على سرِّها. دفع القاربَ إلى الماء وركبه، وثبتَّ المجذافين، قبل أن يضربهما نظر ناحية البيت، خيوطُ العتبة تتأرجح، ورنينها يجيء ويخفت كأنها تلخِّص له ما سمع: أمرٌ يُنفَّذ، وكلمةٌ تُنزع من صخرة، وعهدٌ يُكسر.

شدَّ على المجذافين، انشقَّ خطُّ الزبد، وبدأت أمّ القشع تصغر خلفه. وفي البعيد ارتفعت جزيرة كُدمبل على صفحةٍ تزداد صفاءً، أخفض رأسه قليلًا، واستقام صدره على أمرٍ واحدٍ لم يُعد فيه مكانٌ إلا لكُدمبل، ولا في الوقت متسعٌ لغيرها، الوقت يُهرول.

أدار القارب عن أمّ القشع واتّخذ جهةً كُدْمبل، وقد لاح خيط
 الفجر الرفيع في الأفق البعيد، امتد الماء أمامه مرآة صقيلة لا
 يخذش صفاءها سوى وقع المجدافين وهما يشقان سكون السطح
 بإيقاع رتيب، وبين الضربات تفتّحت في داخله وجوه الكلمات،
 عجوز البحر على عتبتها، وجملَةٌ واحدة تُسكت ما بعدها:
 «الوقت يُهرول».

عمّي؟ حيّ؟ لم أره يوماً، ومع ذلك صار له فجأةً وزنٌ في
 القلب، أيُّ أرض تحمل أثره الآن؟ أبي! نجا من سجنٍ واختار
 سجنًا آخر، أيُّ سجنٍ هذا؟

وأبو فارس الذي شتّت الشمل وأدار الطقوس، وهو في وجه
 آخر أبو زوجته، أيُّ اسم يبقى إذا بلغ هذا كله نهايته؟ شدّ قبضته
 على المجداف وثبت نظره على الخطّ البعيد، ليس هناك وقتٌ
 للتردد.

حين دنا من كُدْمبل انحرف نحو الشاطئ المكشوف، ودفع
 القارب حتى لامس الرمل، قفز بخفة، وعقد الحبل في نتوء
 صخريّ قريب، رفع رأسه، الجبل أمامه قائمٌ، سواده حادٌ، ووجهه
 مملوءٌ بالشُعَب والكسور.

نزل إلى الرمل، ومضى يفتّش عن موضع تطوّه الأقدام أكثر
 من غيره، أو حافة ملساء تُشير إلى مرور يدٍ، أو شقّ يقود إلى
 صفحةٍ، أو موضع أملس من سائر الصخرة، كلّما بدا له أثرٌ تبعه،
 وكلّما انقطع عاد يتلمّس المسالك بصبر، توقّف عند أول صفحةٍ

تُشبه مكاناً للكتابة فلم يجد إلا خدوشاً مبعثرة وفواصل، بعد مسافة قصيرة ظهرت له صخرة عريضة، اقترب منها، ووقف قبالتها، يبحث عن الكلمة التي جاء لأجلها، كانت العبارة هناك محفورةً بخط واضح: «دماؤنا ليست لنا».

قرأها مرة، ثم ثانية، ثم ثالثة، كل مرة أبطأ من قبلها، حتى شعر أن الجملة تهبط داخل ذاكرته وتستقر، أعادها همساً، ثم لمس الحروف بكفه كأنه يثبت الحفظ على موضعه.

جال ببصره حول الصخرة، لم يطل البحث حتى رأى ما يدل على مرور إنسان هنا، أداة حفر بدائية ملقاة أسفل الجدار، وإلى جوارها قرية ماء مطروحة دون إغلاق، وفي منتصف الجزيرة حفرة رماد، ثم قطعة ثوب مشقوقة مليئة بالدم، وأثر دماء على حجر منخفض قريب من النقش، تسمّر مكانه متيقناً أن أحداً ما كان هنا منذ زمن قريب.

جلس هنيهة ليفسح للمنطق مكاناً وسط الفوضى، وهمس بوجل: يا أبي عدت إلى الكتابة التي كتبتها بيدك؟ ثم سكت، ليس هذا وقت الأسئلة، عاد إلى الجملة، قرأها مرة أخيرة، ثم نهض، وضع كفه على الصخرة ثانية، ثم رفعها، نظر إلى دلائل اليد التي سبقته: هذه الحفارة لأصابع تعرف الحجر، وهذه القرية لأحد عطش ولم يُرو، وهذه النار أضاءت ليلاً طويلاً، وهذه القطعة الملطخة بالدماء، اجتمع في صدره معنى واحد: يجب أن أسرع. عاد أدراجه، كان الطريق إلى الأسفل أوعر، فكل موضع قدم يتطلب ميزاناً دقيقاً، والحافات الصخرية المسنونة تتربص بأي زلة، عند منعطف ضيق شقت صخرة غادرة كعبه، فدوى ألم حاد

في مفصله أجبره على التوقف، عضّ على شفّتيه حتى سكن الألم قليلاً، ثم تحامل على نفسه وتابع المسير، لمّا بلغ الموضع الذي رسا عنده، دفع القارب إلى الماء، وثبّت المجدافين، والتفت نظرةً أخيرة إلى الجرف الأسود: لا حاجة إلى وصفٍ بعد الآن، فقد أخذ معه ما جاء لأجله حفظاً.

في طريق العودة من كُدْمبل إلى القحمة غيّر زاوية القارب قليلاً ليتّخذ جهة الشاطئ التي تُوصّله بأقصر طريقٍ إلى بيت الجدّ حيث يرقد الصندوق. راجع ترتيب ما بعد العودة: الصندوق أولاً، ثم موعد البحر حين يكتمل المفتاحان، لا بدّ أن يسبق، هناك مَنْ يعدّ عليه لياليه، شدّ على المجدافين، وكلُّ ما أمامه مُلخّصٌ في فعلٍ واحدٍ لا يقبل التأجيل.

لَمَّا لاحت القحمة، مال بالقارب ناحية اليابسة، أوقفه عند الحافة ثم قفز على الرصيف، سحب القارب قليلاً وربطه في الوتد وشدَّ العقدة، التفت لحظة نحو البحر، وانطلق يعدو كأنَّ قريةً بأكملها انغrust في صدره دافعة خطاه إلى الأمام، تكسرت العصي والحصى الصغيرة تحت قدميه وتناثرت، ارتبك الناس على العتبات مذهولين، ولم يسمعو من وقع خطاه إلا نذير خطرٍ داهم، عند السدرة وقف الصياد يمدُّ كَفَّهُ إلى الجذع، فلمَّا لمح راشداً قادمًا كالسهم، قال في صدره: ما باله يركض؟

اقترب راشد والعرقُ على جبينه وأنفاسه تتقطع من التعب، قال بلا مقدّمات، بصوتٍ يلتهم التردّد: «اسمعي يا عم عايش، اجمع أهل القرية كلّهم عند السدرة، من البيوت، من السوق، من جهة الميناء، من الأزقة، من كلّ مكان، لا تنسَ أحدًا: الإمام، المؤذن، حسن الورّاق، الخباز، النساء، الصغار، الشيوخ، فارس وأماني وعلى رأسهم أبو فارس، اجمعهم ولا تسأل، سأعود إلى هنا أمام البحر».

أومأ الصياد، وانطلق كمن يحمل في صدره ناقوسًا، باب يُفتح وآخر يُطرق، وجوهٌ تتبادل النداء، خطواتٌ تخرج كخيطةٍ ممتدّة من الأزقة إلى الشجرة، ترك المؤذن عتبه ورفع صوته بكلمة واحدة «إلى السدرة». جمعت النساء الأطفال إلى صدورهن، وصوّب الرجال وجوههم شطر السدرة، وهناك فوق الغصن الأعلى من السدرة وقف الغراب، ينطق على فترات كأنه يحسب عدد الحاضرين.

اتجه راشد إلى بيت جدّه، تجاوز العتبة دون وقوفٍ أو التفاتٍ إلى ما تغيّر، غير عابئ بشيء. دخل من الباب المحترق قاطعاً الممرّ، ثم انعطف إلى الحجرة اليمنى بخطى لا تخطئها الذاكرة. مدّ يده تحت ركام الخزانة وسحب الصندوق؛ وجده في مكانه ناجياً من الحريق سوى حافته.

أزاح الغبار عنه ورفع الغطاء، وألقى نظرة داخل الصندوق: خاتمٌ، وخنجر، وصورة مطموسة، وورقة محترق نصفها، رفع الورقة، كان على هامشها كلمة واحدة لم يتأثر إلا جزء منها، ولكنه الآن قرأها بوضوح: «دماؤنا».

أكملها في صدره: «دماؤنا ليست لنا».

أعاد الورقة إلى موضعها، وتناول الصورة، وتأمل الوجه المطموس، وهمس: «أنت إذن يا عمي القربان الأوّل». أدخل الخاتم في إصبعه، قبض على الخنجر، أغلق الصندوق، وحمله تحت ذراعه وخرج.

كان النداء قد سبقه إلى الناس، الأزقة تتدفق إلى السدرة، لمّا بلغ المكان وضع الصندوق عند الجذع، وجال ببصره في الوجوه المحتشدة: الصياد يقف بجانب السدرة، الإمام عند حافة الظلّ، حسن الوزّاق، الخبّاز يمسح عرقه بطرف شماغه، المؤذن يحرك سبّابته على مسبحته، حتى منيرة وأمها كانتا هناك، منيرة التي لا تعلم أن راشد هو من كانت تنتظره شجن! خبأت النساء أطفالهن خلفهن، وحدث الرجال، وقف الغراب ذو الريشة البيضاء يرقب من فوق الغصن الأعلى، على الجانب وقف أبو فارس وعيناه زائغتان لا تستقران على قرار، يكسو وجهه ذعرٌ واضحٌ، وعن يمينه ويساره وقف ولداه فارس وأمانى، وعلى وجهها علامات الاستغراب.

تقدّم راشد نحو القارب، فانشقّ أبو فارس عن الجموع وتبعه حتى بلغ حدّ الماء، وقال بصوتٍ مخنوقٍ بحذرٍ لم يعد ينفع: «توقّف يا راشد ماذا تفعل!»

لم يلتفت راشد، ركب القارب تاركاً أبو فارس عند الشاطئ، عند الخطّ الذي يبلّ أطراف ثوبه حيث يراه الجميع، فيما بقيت القرية كلّها عند السدرة واقفة تحبس أنفاسها وتنتظر!

ضرب راشد بالمجداف مرّتين، ابتعد مسافة قصيرة، ثمّ نهض، وقال بصوتٍ يسمعه أهل القرية: «ستعرفون الآن الحقيقة، وترون الساحر الذي دبر كل سوءٍ لنا»، ثم رفع الخنجر بيده اليمنى، والخاتم في إصبعه، غرق الناس في صمتٍ وذهول، رفع الغراب رأسه، ومال بجناحه الذي يحمل الريشة البيضاء ثم استعد. قال راشد جملته كأنه يقولها عن كلّ الذين لم يقولوا شيئاً: «دماؤنا ليست لنا».

ثمّ طعن البحر.

بعد لحظات اهتزّ سطح البحر، وانشقّت المياه عن دائرة تتسع كحدقةٍ، لم يكن شقاً، كان فماً فاغراً، طار الغراب من فوق السدرة كمن سُحب، اندفع في الهواء، ثمّ انجذب نحو الفُوّهة، دخل واختفى، عندها خرج من قلب الماء دخانٌ أسود كثيف يشقّه خطّ أبيض واحد.

انكشبت النسوة خطوة إلى الخلف، ورفع رجلٌ يده فوق رأسه، وتلفّت طفلٌ يبحث عن يدٍ يضع فيها خوفه.

وضع أبو فارس يده على صدره يتحسس ندبةً خفية لا يعلم سرها سواه، شلت يداؤه، وانحنى ظهره كمن يحمل فجأةً ما أجله

سنوات، شعرةً شهباءً واحدة صارت عشناً من الشيب في لحظة، ارتعدت ساقاه، وجحظت عيناه رعباً.

التفت إلى أهل القرية وحاول أن يُلَوِّح بيده ويقول شيئاً، لكنّ موجةً ارتفعت من جهة الفُوْهة وابتلعت أبا فارس، خرج نداء فارس بصوتٍ من حافة الروح: «أبي!».

صرخة فارس لم تكن صوتاً فقط، بل كسرًا في شيء ظلّ متماسكاً داخله رغم كل شيء.

تحرك إلى الأمام، لكن يدين أمسكتا كتفه، يد الإمام من جهة، ويد رجلٍ لا يعرفه من جهة أخرى، فبقيت قدمه تجرّ خطاً في الرمل، رفعت أمانى يداً إلى فمها وخرجت منها شهقة سمعها كل أهل القرية.

ثبت الصياد كفّه على الجذع، وقال بصوتٍ ضعيف: «اللهم سلّم ما بقي لنا».

ثم ظلّ ساكناً حتى بدأ الدخان الأسود يترقق، والخطّ الأبيض يبهت حتى اختفى.

وقف راشد في القارب، والخنجر ما يزال في يده، والخاتم في إصبعه يضيق ويتسع. لم يُطل الوقوف، حرك المجدافين وعاد إلى الشاطئ. عادت الأسماك تقفز على الأطراف كأنّ البحر يوزّع اعتذاراتٍ عن سنوات الحرمان، جاءت أسراب الحمام وتشكّلت فوق السدرة دوائر، والنوراس التي لا تزور الساحل إلا نادراً حطّت على الجدار المنخفض، وقبل أن يلامس القارب الرمل انشقّ فارس عن صفوف المهللين، ومضى وحده نحو الزقاق المؤدي إلى البيت، لا يلتفت لأحد، ولا يُصدر صوتاً، كان الحزن والبكاء

وضعت يديها على الأرض، وضربت رأسها مرة ومرتين، ثم وقعت عيناها على ورقة ملقاة بجواره، التقطتها بيدٍ مرتعشة، فلم تجد سوى جملةٍ غير مفهومة «سامحني يا راشد».

شهقت، ثم انفتح في صدرها بابٌ لا حدود له، خرجت تركض خارج البيت كالمجنونة تمسك شعرها بكلتا يديها وتصرخ، نزعت عباءتها عند أول الشاطئ، وأكملت الركض نحو البحر، ثم اختفت. مضى راشد إلى بيت أبي فارس حتى يطمئن على فارس وأماني، حين وصل وجد الباب مواربًا، دفعه ودخل إلى الفناء. رأى فارس معلقًا على السقف فتجمّد، وانقطع نفسه، استند براحته إلى الحائط ليمنع نفسه من السقوط، حاول أن ينطق اسمه، فخرج صوته مكسورًا: «فا.. فارس».

اقرب منه، لمس ساقه الباردة فانتفض مصعوقًا، تحامل على جراحه، رفع الجسد بكتفه، وبيدٍ مرتجفة استل خنجره وقطع الحبل، هوى الجسد عليه ووقعًا على الأرض، ضمّه إلى صدره، وألصق خدّه بجبهته، اهتزّت كتفاه بالبكاء، خرجت منه شحّة صوت أولاً، ثم صرخة عالية وقال بين شهقتين وهو يربّت على كتف فارس: «يا فارس، يا صاحبي، سامحني إن تأخّرت، سامحني». احتضنه دقائق قليلة ودموعه تقطر على الوجه الساكن، مدّ يده إلى الورقة، لم يستطع أن يفتحها فورًا، مسح عينيه بباطن كفّه، ثم قرأها: «سامحني يا راشد».

أطبق جفنيه لحظةً، أطرق رأسه، ثم قال بصوتٍ متهدّج وهو يمسح وجهه المبلول: «لا أعرف ماذا تقصد لكنّي سامحتك، سامحتك يا أخي».

غطى الجثمان بقماش أبيض، وضع الكفين فوقه، قبل جبينه ونهض، التفت حوله كمن يطلب عوناً ولا يجد، ثم قال بصوت عالٍ أماني.. أماني.. نادى مراراً فلم يجبه سوى الصدى، فتش في الغرف، في الحمام، في الأزقة، ولم يجدها.

خرج إلى الشارع هائماً يسأل العابرين: «هل رأى أحدٌ منكم أماني؟» قال رجلٌ من المارة: «رأيتُ امرأةً تركض نحو البحر وهي تشدّ شعرها لا أعرف إن كانت أماني».

انطلق راشد إلى الشاطئ، ينادي: «أما اني.. أما اني».

جال في المكان، رأى عباءةً ملقاةً على الضفاف، كانت عباءة أماني يعرفها من تطريزها، دخل الماء حتى خصره، فتش بين الصخور، ثم عاد، بحث في الجهة الأخرى فلم يجد لها أثراً، ذهب إلى الأزقة القريبة ولم يجد لها أثراً، رجع إلى السدرة، وجد الإمام مساعداً فأخبره بانتحار فارس، أغمض الإمام عينيه، وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، ندفنه ونصلّي عليه».

انطلقت الدعوة سريعاً، كان الوقت ما يزال يملك من النهار شريطاً يكفي لوداعٍ ثقيل، غُسل الجسد في البيت وسط بكاءٍ وحزنٍ عميق.

حمل الرجال فارساً على أكتافٍ صامتة، تبعهم الأطفال من بعيد بوجوهٍ حائرة لا تفقه سر الموت، دُفن فارس في مقبرة القرية، وقف راشد عند طرف القبر، وفي عينيه ما يكفي من حزن.

سأل من حوله بصوتٍ خافت: «هل رأى أحدٌ منكم أماني؟»

لم يجب أحد، خرج رجلٌ من الخلف، وقال: «رأيت امرأةً تركض على الشاطئ، تُمسك برأسها لم أعرف من تكون». هز راشد رأسه، عاد إلى الشاطئ بعد الدفن، كان المساء قد فرش على البحر سواده، حاول البحث في كل مكانٍ قرب الشاطئ، وخاض البحر مرة أخرى، وبحث بين الصخور، لكن لم يجد أثرًا لها.

عاد يجر قدميه إلى السدرة، حيث لا يزال الصياد واقفًا مع الإمام مساعد عند الجذع. وقف راشد بينهما، وضع كفه حيث يضع العم يده دائمًا، فسرت برودةٌ خفيفة في راحته. قال همسًا: «انكسر العهد أخيرًا».

رفع الإمام رأسه إلى السماء التي صفت، وزفر بارتياح: «بابٌ أغلق والحمد لله».

ردّ الصياد: «بقي أن نعدّ الأسماء من جديد».

ثم صمت الجميع، وتكلمت القحمة بطريقتها: أبوابٌ تُغلق برفق، أو أن تُغسل على عجلٍ دون جلبة، أطفالٌ ينْعسون في وقتٍ مبكّر بعد أن نال التعب منهم، فوق الغصن الأعلى حيث كان الغراب يجثم قبل ساعات، حطّ غرابٌ أبيض لم يُر مثله، التفت يمينًا ويسارًا ثم طار.

في البيت ظلّ صدى صرخة أمانى يتردّد بين الجدران، لم يعرف أحدٌ أين ذهب بعد أن سقطت العباءة عند البحر، بعض النسوة قلنَ إنهن رأين ظلاً يبتعد على خطّ الماء، وبعض الرجال حلفوا أن لا شيء كان هناك.

كان قلب راشد منشطاً بين قبرٍ دفنوه وزوجة لا يُعرف لها مكان، عند منتصف الليل خرج إلى الشاطئ وحده، وقف حيث وجد العباءة، لامس قدمه بقعةً ما زالت أكثر برودةً من غيرها، كأنّ جسداً مرّ من هناك قبل ساعات، نظر إلى البحر، وقال في نفسه:

«يا مَنْ فتحت فمك علينا ثم أغلقتَه، اترك لنا من نحب».

لم يكن رجاءً ولا أمراً، كانت جملة تُقال حين لا يجد المرء في صدره إلا هذا القدر من التوسّل. عاد إلى السدرة، وضع كفّه على الجذع مرة أخيرة، قال الصياد وهو يقف إلى جانبه: «إذا كان العهد قد كسر اليوم، فسنحتاج من الغد إلى عهدٍ آخر مع أنفسنا».

نظر راشد إلى الأفق المعتم وقال بعزمٍ يغالب اليأس: «غداً أبحث عن أمانٍ من أول الفجر».

أجاب الإمام الذي لحقهما: «نصلي الفجر، ثم يخرج الرجال ليبحثوا في مجموعات، نمشط الطريق نحو الساحل، وممرّات الميناء، والبيوت عند الأطراف، كلّ اسمٍ نعرفه نبحث فيه». أوماً راشد واستدار.

باتت القحمة في تلك الليلة مختلفة، خفت رائحة الملح أخف، واتسعت صدور البيوت. لم يكثر الناس الكلام، ولم يدع أحدٌ الفهم الكامل لما جرى، لكن السكينة هبطت على القلوب؛ فأطال الآباء النظر في وجوه صغارهم قبل النوم، وتحسس البعض مواضع قلوبهم ليطمئنوا أن الخوف قد رحل. وفي الممرّ الصغير المؤدي إلى بيت الجدّ، كان هناك غراب أسود ونصف جناحه أبيض.

وقبل أن يدخل راشد بيت أبي فارس، توقّف عند عتبةٍ تقابل البحر، رفع رأسه إلى السماء التي اتّسعت، تذكّر الجملة التي لم تحترق على الورقة: «دماؤنا». تذكّر كيف اكتملت حين طعن البحر، فهم أن الجملة كانت مفتاحًا، وأن المفتاحين حين اجتمعا تغيّر شكل القرية، وأن غياب أمانى الآن جرحٌ لا يلتئم بسرعةٍ، لكنّه لا ينفي أن القحمة أنقذت وأن القلوب على ثقلها تعلّمت هذا المساء كيف تنام بلا رعب، شدّ على الخاتم في إصبعه، نظر إلى الخنجر وقد وضعه قرب خصره، ثم دخل.

حين يجيء الفجر وحين ينهض أول الضوء سيقف عند السدرة من جديد، سيقول للذين حضروا: «هلمّوا نبحث».

سيضع الصياد كفّه على الجذع كما فعل دائماً، وسيشير الإمام إلى الجهات التي تُطرق، وسيمشي راشد إلى البحر أولاً، ليس لكي يطلب علامة، بل ليجرّب اسمًا واحدًا بصوتٍ يسمعه من يستحق الحياة: «أمانى».

وسيسمع البحر الاسم ويحفظه، ويُعيد للقرية يومًا يمكن أن يُسمّى يومًا عاديًا، إن عاد من غاب وإن لم يعد، سيعرف الناس كيف يذكرونه من غير أن يُطفئوا ما أوقد الليلة: ذلك الضوء الخافت الذي ملأ القلوب بعد أن سُدّ فم العتمة.

لَيْلٌ يُقِيمُ فِي الْقَلْبِ

ترسم الشمس آخر خطوطها على المرسى، وتحرك النسمة التي تمر بين الحبال الرايات الصغيرة فوق القوارب، يعلو صدى نداءات الحماليين ويهبط، و«سلام سلام» تتكرر عند كل مصافحة، تختلط رائحة البن ببخور خفيف يتصاعد من دكان قريب، وصفير سفينة يمر على صفحة الماء كأنه يجر خلفه زقاقاً كاملاً.

في زاوية مقهى يطل على الرصيف جلس رجل أبيض البشرة، عريض المنكبين، يكسو وجهه هدوء لا يخفي يقظة عينيه، أمامه فنجان قهوة وكوب ماء، عن يساره امرأة سمراء، وإلى جانبها طفل أسمر في الثامنة يلف إصبعه بخيط صغير.

كانت عيناه تمسحان المكان:

ثلاثة رجال يتوزعون عند أطراف الطريق بلا حاجة، أحدهم يقف أطول مما ينبغي عند دكان تبغ، وآخر يعبث بحبل قارب لا يخصه، وثالث يمرر نظرة إلى المقهى، ثم يتظاهر بالشرود.

مال إلى المرأة وقال بصوت خافت: «خذي الطفل الآن، واذهبي باتجاه السوق ولا تلتفتي». شددت المرأة على يد الطفل، نظرت إليه نظرة قصيرة، ثم انصرفت.

في الزقاق المؤدي إلى السوق، راقب الرجل انعكاسهما يبتعد في واجهة زجاج معتم، ثم أعاد وجهه إلى الرصيف.

مرّ رجل أول بمحاذاة كرسيه ولمس كتفه ثم اعتذر له بابتسامة، من اليمين رجل ثانٍ يقطع المسار بخطوة، وعند الباب وقف

ثالثٌ يتشاءب عمداً ليجعل الأمر طبيعياً، عند طرف المقهى رابعٌ يرفع خيشةً فارغةً فيما عيناه على الكرسي، نهض الرجل، ودفع الكرسي إلى الخلف، وهمّ أن يعبر في الاتجاه المعاكس للسوق، وفي اللحظة نفسها هبطت على رأسه خيشة من الخلف، شدّها أحدهم بإحكام، وحبلٌ لفّ المعصمين في ثلاث لَفّاتٍ سريعة، التفت جسده غريزياً، فالتصق عند خاصرته خنجر، وهمس صاحبه عند أذنه: «لا تُصدر صوتاً وإلا أغمدته في قلبك».

لم ينبس بكلمة، كل ما سُمِع سقوطُ الكرسي على الأرض، وصوتٌ قريب يقول: «امش».

حملته الأذرع القوية من إبطيه إلى الممرّ الجانبي، رأى المقهى ارتباكاً لا يفسره إلا اثنان يحملان رجلاً سقط من الإعياء، هذا ما يراه من لا يريد أن يتدخل.

اكتفى صاحب دكان التبغ بترتيب علب لا تحتاج إلى ترتيب، وببالغ بائع القهوة في طرق الملاعق على الكؤوس ليس لأنهما لم يفهما، بل لأنهما فهما أكثر مما ينبغي.

كانت عصابة معروفة، وشعار النجاة في هذا الميناء بسيطٌ: لا تقف بين الرجل والبحر.

على الرصيف رجالان من العصابة ظلا في مكانهما لحظة، لم يقتربا من القارب الصغير، بل انعطفا إلى الزقاق الذي دخلته المرأة والطفل، وابتلعتهما السوق، أحدهما كفّه داخل جيبه، والآخر يرفع طرف عمامته كلما اشتدّ السير، المطاردة هنا برفق بلا صراخ، لا عدوٌ يركض، فقط ظلّان يذوبان خلف ظلّ امرأة وطفل.

أما الذين اختطفوا الرجل فقد أسرعوا به عبر الرصيف،
القارب ينتظر، ومجاديفه مُعدّة، وحباله محلولة، دُفع المخطوف
إلى القارب كأنّه كيسُ قمح، ثبت أحدهم قدمه عند المؤخرة،
وجلس آخر عند المقدّمة، وجلس الثالث في الوسط، تناول
الرجلان المجدافين وضربا الماء ضرباً محكماً، فيما ظلّ الثالث
يثبت الرجل في الوسط. انفلق الماء خلف القارب خطّين كطريقٍ
اتفق عليه سلفاً.

في طرف الرصيف رجلان من العصابة سترا الحادثة،
أحدهما يُمازح صبيّاً مرّ بجانبه، والآخر يُحدث بائع الأسماك
جملةً قصيرة لا تعني شيئاً. بعد دقيقة انزلقا إلى زقاقٍ جانبي،
وعاد الضجيج إلى طبيعته كأن الكرسي لم يسقط، وكأن الخيشة
لم تمرّ فوق رأس أحد.

لاحقاً شاهد رجلُ المقهى المرأة والطفل يخرجان عند آخر
الزقاق ثم يختفيان عند منعطف ضيّق، رفع الملعقة في الهواء
كمن يودّ أن يقول شيئاً، رسمت النوارس قوساً فوق الماء، وأطلقت
السفينة عند الشريط البعيد صغيراً قصيراً، لا أحد يصرخ، لا
أحد يركض، هذا الميناء يعرف أنّ بعض القصص تُحكى بلا
كلمات.

ابتعد القارب الصغير بخطّ مائلٍ وراء جسم مركبٍ أكبر، ثم
خرج إلى فضاءٍ أوسع.

لم يلتفت ركابه، لا أسماء تُنادى، ولا إشارات تُلوّح، فقط عملٌ
محكمٌ يُنجز في وقتٍ محسوب.

بقي في المقهى كرسيٌّ مقلوب وفنجانٌ لم يُكَمَل، وعلى الأرض

خيطة قصير من ليف الجبل حيث رُبِطت اليدان، ليس هناك من يسأل عنه الآن، الرجل الأبيض الذي خرج لم يترك اسمًا، والمرأة السمراء والطفل خرجا من السوق إلى زقاق جانبي آخر لا يفحصه أحد بعد الغروب، والرجلان يتابعان أثرهما في الظلال.

تتلاشى خطوط الضوء تحت أرجل المارة، ويتحوّل النداء في المرسى إلى همهمة بعيدة، على حافة المقهى رفعت امرأة صينية الخبز عن الصاج، وقالت كلمة قصيرة لجارتها.

ثم عمّ السكون المكان.

لكن السؤال ظلّ مفتوحًا في صدر الميناء: من هذا الذي اختطفوه من قلب مصوّع؟ ولماذا بدا المرسى مستعدًا له إلى هذا الحدّ؟

يواصل القارب شق طريقه بالمجاديف بلا هواده.

الليل وحده، ولا أصوات من غرفٍ مجاورة، ولا ضوضاء تُشتت الحواس، نافذةٌ صغيرة على شارعٍ منطقيٍّ، وفانوسٌ خافت يترك دائرةً من ضوءٍ فوق طاولةٍ وحيدة، جلست شجن أمام دفتريها، وضعت كفَّها على الصفحة الفارغة كأنها تحميها من الكلام الذي يتردد ولا يخرج.

في هذه العزلة تتعلم أن الحزن يُحسن الإصغاء أكثر مما يُحسن الشكوى، تتذكر لجين التي لم تعد، ولا تذكر متى كفّت يدها عن البحث تلقائياً عن ذلك الدفء الصغير عند حجرها. تتذكر منيرة، صديقتها التي تُرسل إليها عبارات قصيرة في رأسها ثم تمحوها قبل أن تُكتب، ماذا تفعل الآن؟ هل استطاعت أن تدبّر قلبها دون أن تتكئ على كتفٍ تعرفها؟

وماذا عن القحمة؟ هل تعلّم الناس طريقة جديدة للصبر، أم أنهم ما زالوا يقيسون النهار بنبض الخوف ويقولون إن كل شيءٍ «سيمضي»، فيما لا يتغير شيءٌ حقاً؟

ثم يجيء الرجل الذي لم يعد، لا تتذكّره بملامحه، إنما بطريقة وجوده، كان إذا جلس في المكتبة ترك بينه وبين الأشياء مسافةً تسمح للسلام أن يمرّ، لم يكن يُكثر الوعود، لكن الجملة التي قيلت مرةً واحدة بقيت في صدرها كأنها وُلدت معه:

«هل يكفي أن ألقى بنفسي في البحر لأثبت لك كم أحبك؟»

كم يتسع القلب لجملةٍ واحدة؟ وكم يخونها الوقت حين تتكئ عليها أكثر مما يجب؟ سؤالان يُعيدانها إلى المقعد ذاته: الحب

ليس رواية تُقرأ حتى الصفحة الأخيرة، الحبّ تدريبٌ على الأمانة، أن تبقى حيث جعلتك لحظة صادقة، ولو لم يجرِ أحد.

تفتح الدفتر، لا تريد جُملاً معقّدة، تريد ما يُشبهها حين تتكلّم مع نفسها، تكتب: «الحياة تمضي، لكنّ القلوب لا تمشي بالسرعة نفسها، بعضنا يصل، وبعضنا يظلّ واقفاً عند بابٍ لم يفتح بعد، لا يعيبه الوقوف، يعيبه أن ينسى لماذا أحبّ».

تضع القلم وتستدير إلى النافذة، لا أحد يمرّ والليل لا يشرح نفسه، لكنه يُذكرها بما تعرفه: ليس كلُّ غيابٍ خيانة، وليس كلُّ انتظارٍ فضيلة، وبينهما منطقةٌ يعيش فيها الناس. يبتسمون في النهار ويختبرون صدقهم في المساء، هناك تعيش هي الآن.

لا تريد أن تُجبر أحداً على الحضور، ولا تريد أن تُنكر على قلبها حقّه في الذكرى، تريد شيئاً واحداً بسيطاً: أن تبقى كما هي، من غير أن تُراوغ نفسها.

تعود إلى الطاولة، تتردد بين أن تكتب لمنيرة رسالةً لا تعرف طريقها، وبين أن تكتب لنفسها ورقةً تُتقّدها.

غداً حين تستيقظ بصبرٍ أقل، ستختار الثانية وتكتب بخطّ واضح: «إليكِ شجن، لا تُكثري الكلام على ما ضاع، ولا تُغلقي الباب في وجه ما قد يأتي، خذي كتاباً واذهبي إلى زاويةٍ تشبهكِ. إن جاء أحدٌ فليجئ، وإن لم يأت فلا يهم، لا تخلطي بين من أحببت وبين الصورة التي صنعتها له، وليبقَ ما جعل القلب حياً، أما ما أثقل الروح فدعيه يهدأ وحده».

ترفع الورقة وتظر إليها طويلاً، لا تزعم أنها شجاعة، ولا تدّعي أنها بخير، هي فقط تُحافظ على حرمتها أمام نفسها،

تنظر إلى الظلّ على الجدار، فتتذكر يوماً كانت تبسم فيه لأنها وجدت كتاباً أنقذها من ساعةٍ ثقيلة، هل كانت السعادة بهذه البساطة؟ لحظةٌ صادقة بين يدٍ وقلب، ليس مطلوباً من الحياة أن تُقيم حفلةً كل أسبوع، المطلوب ألا تسرق من المرء حقّه في أن يعيش لنفسه.

يطرق خاطر باباً آخر، منيرة تكتب لها سطرًا تتخيله الآن: «يا صديقتي، إذا ضاق بك الليل فقولِي لنفسك: أنا لم أخطئ حين أحببت، أنا أخطأت فقط حين ظننتُ أنّ العالم سيتغير من أجل قلبي، ولن أكرّر الظنّ». تطوي العبارة وتضعها في الدفتر كأمانٍ مؤجّل.

النافذة صامتة، والشارع هادئ كدرسٍ يُتلى على مهل، تهدأ شجن لأن الكلام انتهى إلى ما تحتاج إليه، الذكريات تعيش معنا، نحن لا نعيش فيها. ستصحو غداً، وستأكل لقمةً مع أمّها، وربما تخرج إلى دكانٍ صغير أو مكتبةٍ بعيدة لا تعرفها، لن تفتّش عن أحد، ستفتّش عن نفسها بين العناوين، وتعلّم يدها ألا ترتجف وهي تفتح الصفحة الأولى.

تُطفئُ الفانوس، تبقى دائرة الضوء لحظات قبل أن تنطفئ تماماً، تضع كفّها على قلبها وتهمس بجملةٍ واحدة تصلح أن تكون بدايةً لا نهاية: «سأبقى على عهدي لنفسي، لا أنكر الحبّ، ولا أستجدي عودته، أتذكر الأشياء الجميلة وأمشي طويلاً دون أن أتوقف».

فتاةٌ في مكانٍ ما لا تزال تنتظر، ليس انتظارَ مَنْ ضاع، بل انتظارها حين تعود إليها كاملة.

«انهض».

رفع ناصر رأسه: «إلى أين؟»

جاءه الصوت باردًا: «اصمت! لم تعد ملك نفسك، أنت عبدٌ

وخادم».

شدّ أحدهم ذراعَه وسحبَه إلى الممرِّ، لم يمهلوه، لفّوا قماشة على عينيه، وأوثقوا رسغيه، فُتِحَ باب آخر، ودُفِعَ إلى صندوق الشاحنة، أغلق الباب، وبدأت العجلات تُحصي الطريق، في البداية سمع ضحكات قصيرة من سوقٍ جانبي، وصوت بحّارة يُجهزون سفينتهم، نداء بائع خبز، صوت عربية، وبعد دقائق تراجعت الأصوات إلى أثر بعيد، وبرزت فراغات طويلة تُقسّم الطريق، انحرفَ طويل إلى اليسار، يليه يمين أقصر، فمطّبان متتابعان، ثم كَسَرَ حصباء تُنبّه القدمين كلما تغيّر الطريق، قال الذي عن يساره: «كلمة واحدة نطوي قصّتك الليلة»، لم يُجب ناصر، عضّ على لسانه، وكتم السؤال في صدره.

توقّفت الشاحنة عند بوابة، سلسلة تُسحب وقفل يُفتح، ثم عبورٌ إلى ساحة أوسع. فتحو الباب، أمسكه رجلان من إبطيه وأنزلاه، نزع أحدهم الرباط عن عينيه لحظة ليتثبت من الوجه، ثم نظر سريعًا إلى الخاتم ثم تركه.

كان المكان واضحًا لمن يرى المشهد بعينه، مزرعة مسوّرة على طرف المدينة، سياجٌ معدني عالٍ، أضواء تقطع الظلام في ممّرات مستقيمة، كلاب حراسة يسيل لعابها، ورجال يتبادلون إشاراتٍ

مقتضبة، في الجهة اليمنى مبنى منخفض بأبواب حديدية، وفي الوجه حظيرة بباب عريض، وعلى اليسار حجرة حراسة صغيرة وخلفها تمامًا غطاء حديدي مسطح يغلّق فتحة مربّعة عند الأرض. تقدّم المسؤول، وجهٌ يؤدّي عمله من غير انفعال، قال وهو يقف على مسافة ذراع: «هنا لا أسئلة، تتكلم حين نقول، وتصمت حين نقول».

قال ناصر: «لماذا تخفونني؟»

ردّ المسؤول: «لأنك مهمّ للشيخ، وهذه إجابة كافية».

لوح المسؤول بكفّه، التقطه رجلان من المرفقين، سارا به بمحاذاة الحظيرة. من الداخل صوت مراوح ومواشٍ، عند زاوية المبنى المنخفض، حيث لا يقف أحدٌ عبثًا، انحنى رجلٌ أصلع، أدخل عتلةً في زاوية الغطاء الحديدي ورفعها حتى ثبت على عارضةٍ جانبية، بدت الفتحة، وفيها سلّمٌ يهبط عموديًا إلى الأسفل، وضوءٌ حادٌّ ينبعث من هناك.

قال ناصر وهو يثبّت قدميه: «إلى أين؟»

التصق عند خاصرته خنجر بيدٍ خبيرة، وهمس صاحبها عند أذنه: «إن صدر منك صوت فستموت قبل أن يخرج».

قال المسؤول: «انزل».

مدّ ناصر يده المقيّدة يتحسس السلم، شدّ الرجل الذي خلفه الرباط بعقدة واحدة وتركه، وبقي القماش على العينين لحظة ثم أزيح. خطوة أولى.. ثانية.. وثالثة.. صار للإيقاع وزنٌ.

بردٌ لطيف يتسرّب من الأسفل، وإضاءة تعكس على الدرج، في منتصف النزول التفت نصف التفاتة، رأى إطار الفتحة ورأى كفّ المسؤول على الحافة.

بلغ القاع، بسطة ضيقة وباب، دفعه الذي عن يمينه خطوة واحدة إلى الداخل. حجرة بيضاء فارغة، جدران ناعمة، ومصباح في السقف، أرضية نظيفة، لا نافذة، ولا فتحة تهوية. تقدّم الحارسُ النحيلُ الذي نزل معه، وفكّ رباطَ معصميه ثم تراجع إلى الباب، رفع المسؤول صوته من أعلى الفتحة، صوته ينزل ثابتًا: «من الآن أنت تحت أمر الشيخ، ليس هناك مجال للهرب، إن لم يقتلك الحارس، ستكون طعامًا للكلاب».

أغلق الباب الثقيل، وصعد الرجلان السلم، من فوق سُمع صرير الغطاء وهو يُسحب، والكلاب في الساحة تواصل حراستها، وقف ناصر لحظةً بلا حركة، عيناه لم تتعودا على الضوء الأبيض، واليد التي كانت مقيّدة قبل دقائق تستقرّ على الركبة، لم يفهم بعد معنى وجوده والمكان لا يترك فراغًا للصدفة، والباب لا يفتح بقوة الذراع، والصراخ لا يفيد، تحرّك إلى الجدار وأسند ظهره إليه. مرّت دقائق، لا يُطرق بابٌ ولا أحد يقول كلمة. وضع ناصر كفّه على صدره، وهمس باسم واحد: «راشد».

أطبق فمه على صبرٍ عنيد، كيفيه أن يحمي ما بقي مستقيمًا فيه، وألا يهب خصومه هزيمةً بلا ثمن، فوقه أنهى الحُرّاس آخر دورية ليلية، وعادت المزرعة إلى رتابتها.

أمّا تحت الأرض، فقد ثوى رجلٌ في حجرة بلا نافذة، غُيِّب عن الأنظار، واحتجب عن العالم. بيد أنّ الحكاية تحيك خيوطها لغدٍ مرتقب؛ إذ لم يكن دويّ صفقة الباب الثقيلة سوى نقطة الختام لهذه الليلة.

لم يبدُ الليلُ ليلاً، ولا الفجرُ فجرًا، بل هدنةٌ بين شهيقٍ طويل وزفيرةٍ، وفي هذه الهدنة عاش راشدُ الكابوسِ العاشر كما لو أنَّ الكوايبس كلها اتفقت أخيرًا على أمرٍ واحد، رأى نفسه على حافةٍ تفضي إلى سقوطٍ شاهق، والطفلُ المشلول يتقدّم نحوه بكرسيٍّ لا عجالات له، بل ظلٌّ يجرُّه كأنَّ الأرض تتطوَّع لخطاه، كانت عينُه الزرقاء تبتُّ نورًا، وعينه السوداء تبتلعُ هذا النور.

قال بصوتٍ ليس له: «أنت من تركني أحترق وأموت».

لم يجادلْه راشد، فالحُجَّةُ تنقطع حين يأتي الاتهام من الذي يعرف الحقيقة، مدَّ الطفلُ كَفَّهُ، وكان الكفُّ جمرَةً، وحين لامست يده يدَ راشدٍ انشَقَّت الحافةُ مثل جفنٍ يُغلق على نظرةٍ أخيرة؛ سقط راشد، ورأى في السقوط وجوهًا تتعاقب، رأى وجه خالد، وأمّه، وأبيه، وشجن، وأماني، وأبي فارس، وأم فارس، وجابر المجنون، ووضاح، ونورة، والطفلة، والكلب، وعجوز البحر. استيقظ مذعورًا، لم يصرخ، فقد صار الكابوسُ معتادًا: كلُّ ليلةٍ صورةٌ من النار أو الماء على هيئة طفلٍ مُقعَدٍ يُذكره بالذنب الذي التصق به.

عشرة أيام كاملة، نهارها بحثٌ لا يكلُّ، وليلها كوايبس لا تكف، لم تُترك بُرْفِي القحمة إلا وأدلي فيها حبلٌ، ولم تُترك أنقاض بيتٍ إلا وفُتشت حجرًا حجرًا.

تناوب الرِّجالُ على تمشييط الشاطئ، من أول ضفافه إلى آخر ما تُبصره العين، يرمون الشباك ويجرّونها، فلا يخرج منها إلا

سمكة ميتة ويأس، قال قائلٌ: «ربما أخذتها الجنيّة انتقاماً للطفل المشلول».

وقال آخر: «ربما خرجت إلى قريةٍ أُخرى».

وقال ثالث: «اختُطفَت».

غير أنّ المسافة بين العباءة السوداء التي وجدها راشد عند الماء وبين خُطى أمانى الأخيرة لم تملأها إلا جملةٌ راجت حتى صارت كاليقين: ابتلعها البحر.

في اليوم الثالث اشتعلت شائعةٌ أنّ امرأةً شوهدت عند النخلة المقطوعة تمشي بثوبٍ أبيض، في اليوم الخامس أخبر رجلٌ من أهل المراكب أنّه رأى ظلاً يسبحُ في العتمة ثم غاب، ولم يصدّقه أحد. في اليوم السابع توقّف الخبّاز عن السؤال، وصار يُقدّم الخبز لمن يجيء من فرقِ البحث بلا كلام، في اليوم التاسع رُفعت فتحةٌ حديدية فوق بئر، ونزل شابٌّ بحبلٍ طويل، فلم يجد إلا بعض الحجارة وكلباً ميتاً، وفي الأيام كلها ظلّ راشدٌ يذهبُ كلَّ صباح إلى الموضع الذي وجد فيه العباءة، يرفعها كما تُرفع رايةٌ على قلبٍ واحد، ويطويها كما تُطوى حكايةٌ، كان يقف ويقول بصوتٍ لا يسمعه أحد غير الماء:

«إن كنتِ حيّةً فعودي، وإن كنتِ في قلب البحر فهبي لنا منك إشارةً واحدة».

فلا يجيبه إلا الموج حين يتردّد ككلمةٍ مُتحرّجة.

تفرّق أهلُ القرية فريقين: الإمام مساعد وقفَ عند أوسع زقاقٍ وقال لرجالٍ التقوا حوله: «نُقَسِّم الجهات، شرقاً: الآبارُ والبيوتُ عند الطرف، وغرباً: السواقي وما بقي من الحُفر، وجنوباً: الساحل حيث الميناء، وشمالاً: البيوت المهجورة».

أرسل الصياد نظرهُ إلى شجرة السدرة، ووضع كَفَّهُ على الجذع كما اعتاد، وقال جملةً تحوّلت مع الأيام إلى نصيحةٍ مُرّة: «إن كان البحرُ بيتَ اللغز، فلا تفتشوا فيه عن جثث، بل عن إجابة». كان راشدٌ في تلك الأيام يشربُ ماءً لا يروي، ويمضغ لقمةً لا يشتهيها.

كلُّ ليلةٍ يعودُ إلى بيت الجد، الخاتم في إصبعه يضيقُ حين يذكر العباءة، ويتّسعُ حين يذكر شجن، وفي الليل يأتيه الطفل، مرة في جسدٍ من فحم، والرماد يقطرُ منه ويقول: «تركنتي أحترق». ومرةً جسده مبتلّ، وشعرُهُ مُلتصقٌ بجبينه وعينه الزرقاء تُومضُ ويقول: «تركنتي أغرق». ومرةً كرسيُّ فارغٌ يتقدّم وحده، فينهض راشدٌ ويصيح: «سامحني!»

فلا يردُّ إلا الفراغ: «أنت الذي علّمتنا الصمت».

حتى إذا جاءت الليلة العاشرة، رأى الحافة واستيقظ في لحظة السقوط، والطفلُ يمدُّ كَفَّهُ، ولا خلاص، هذه المرة لم يعدَ يحتملُ أن يكونَ النهارُ حبلاً والليلُ مصيدة.

لقد نجح راشدٌ في أن يفك العهد، وعاد إلى الجبل ليوفي بوعده لسالم وينقذه من الموت، لكنه عجز عن العثور على الراحة التي كان ينشدها، حتى بعد أن ركبت القحمة للهدوء ورتابة الأيام. وظل صدره يتأجج بالذنب، كأن الحريق الذي بدأ في بيت جده وجد طريقه إلى قلبه، ولم يطفئه أحد.

جلس قبيل الظهر إلى جوار السدرة، والصياد على مقربة، يمسحُ على الجذع كأنه يطمئن قلباً لا جذعاً.

قال راشد، وصوته رطبٌ كمن يخرجُ من الماء: «يا عمّ عايض».
أجابه وهو لا يرفعُ عينه: «نعم يا راشد».
«أريدُ الإمام».

«سيأتي».

جاء الإمام مساعد، في وجهه سكينَةٌ من عرف أنّ الكلامَ إذا طال أضاعَ حقّه.

قال راشد: «يا شيخنا، أنا كنتُ جزءًا من السبب منذ حادثة الحريق، والذنب لا يفارقني، أريد أن أتطهّر منه، وأن أسلم نفسي للمخفر، إن كانت في الدنيا عقوبةٌ تُخفف ما في صدري، فانصحنني».

نظر إليه الإمام نظرةً تُخبر أنّ الرحمة لا تجري بغير العدل، وقال: «يا راشد، التوبة لا تُكتبُ عند المخفر، لكنّها قد تُحفظ هناك إذا أردت أن يكونَ ما تفعلُ اعترافًا لا هربًا، افعل لا لكي يرضى الناس، بل لكي ترى وجهك في المرأة ولا يرهبك، إن رأيت أنّ تسليمك يُخففُ صراخَ من فيك، فافعل، وإن رأيت أنّ عليك أن تُكمل البحث، فأكمل، أمرُ قلبك إليك، ولا تؤخّر اختيارك».

قال راشد وهو يقبضُ على الخاتم: «القلب ضاق، والليل لا يرحم، سأذهب».

همس الإمام: «اذهب، وادعُ الله أن يجعلَ هذا الفعل بابًا للتوبة».

قال الصياد وهو يرفع كفه عن الجذع: «واذكر أن القحمة بعد اليوم بلا حُرّاسٍ للعهد، فإذا سُجنتَ يا راشد، فاحفظ من خلف القضبان ما استطعتَ من أسماء الذين تُحبهم».

نهض راشد، وفي الطريق إلى المخفر كانت القحمة تمتدُّ كأنها شريطٌ حياةٍ يُعاد على مهل، مرّ بباب بيتٍ رأى عنده صغيراً يناديه: «انظر إليّ وأنا أغوص!»

ولم يمدّ يداً، لأن اليدَ التي لم تمتدّ في الماضي لا تُصبح أطولَ حين تُستعاد، مرّ بالمكتبة، بين الرفوف ظلُّ فستانٍ أسود وورقةٌ كُتبَ فيها: «إلى الرجل الذي لا اسم له».

فعرف أنّ الاسمَ قد صار له، ولكنه جاء متأخراً ليحمله، مرّ ببيت أبي فارس، الباب مواربٌ كفم لا يريد الكلام، لكنه لم يدخل، ذاك البيت صار ذكرى أموات، وقّف قليلاً عند الموضع الذي انتحر فيه فارس، وقال بتمتمةٍ: «سامحتك يا أخي وصديقي، وإن جهلتُ سبب اعتذارك».

واصل السير، عند الشاطئ كانت العباءةُ ما تزال مطويةً حيث تركها.

لم يحملها هذه المرّة، تناهت إليه أصواتُ ناسٍ يتحدثون قرب السوق.

امرأةٌ تقول: «أخذتها الجنيّة».

ورجلٌ يردّ: «بل تاهت ليلاً خارج القرية».

وفتى لا يعرف من الأمر إلا ما تُحبّه مخيلته يقول: «قتلوها».

ثم تلك الجملةُ التي انتشرت كالماء إذا انساب:

«غَرَقَتْ».

تذكر لحظة طعن البحر، والجملة التي انفتحت معها الفوهة:

«دماؤنا ليست لنا».

فشعر أنّ الليلة التي كسر فيها العهد لم تُغلق الباب، بل فتحت باباً آخر عليه وحده. اقترب من المخفر، البناء ليس عالياً لكنّه مُهيب، قبل أن يبلغ الباب، رأى عند آخر الزقاق رجالاً بثيابٍ سودٍ، وجوههم مُحايدة، ليس في ملامحهم شيء من أهل القحمة، كانوا يسألون ماراً: «أين راشد بن ناصر؟»

فيجيب الرجل وهو يهزّ كتفه: «لا أدري».

ويسألون آخر: «هل مرّ من هنا؟»

فيقول: «كان عند السدرة».

يُجيب ثالثٌ:

«بحثنا عنه في الأطراف، لم نره».

غرباء لا يُعرفون، جاؤوا من خارج القحمة، لا يرفعون أصواتهم ولا يشتبه بهم، يبدوون كمن يُنفذ مهمّةً، لكنّهم تأخّروا خطوةً واحدة، فالرجل الذي يسألون عنه كان قد قرّر، وها هو ذا عند المخفر. لم يدخل مباشرةً، توقّف، واستدار إلى الخلف، فبدت له القحمة كلّها على شكل ذكرى واحدة: الأطفالُ عند زوايا الدروب يركضون بحذر، رجلٌ عائِدٌ من سقايةٍ يمسحُ جبينه، امرأةٌ تحمل طفلها على صدرها وتعود إلى بيتها، السدرة واقفٌ كشيخ يتعكّز على ظلّه، الصياد يضعُ كفّه على الجذع كمن يُحصي مرّات النجاة، الإمام مساعد عند درجة باب المسجد يقول لفتى يُسرّع: «رويدك».

في هذه الصورة كان ثمة فراغٌ في الموضع الذي ينبغي أن تقف فيه أمانى، ففقدت الصورة توازنها. ضاق صدره، ليس من الندم وحده، بل من الرغبة في أن يجدَ لاسمها مكاناً لا يشتبه به الماء.

رفع بصره إلى السماء وقال: «إن كانت حيّة فاردّدها، وإن كانت عندك فسامحني وارحمها، ما رأيت منها إلا الحب».

دفع باب المخفر ودخل.

خلف طاولة يجلس رجلٌ يتفحص أوراقاً أمامه، قال راشدٌ بلسانٍ لا يتلعثم: «أنا راشد بن ناصر، جئتُ أسلّم نفسي، في رقبتَي ذنبٍ لا يعرفه غيري، ولا يرتاحُ إلا إذا وُضعَ حيث ينبغي». رفع الرجل عينه، ثم نهض قليلاً، وأشار إلى مقعدٍ بلا كلمة، جلس راشد، ولم يسأل عن شيء، اليدُ التي تحمل الخاتم لم تعد ترتجف، تخيّل لحظة أن الأمّ تقف عند الباب تبتسمُ له كما كانت، وتقول: «إذا فتحت الصندوق، سامحني»، فابتسم.

تذكّر خالدٌ يركض عند الماء، فسمع الضحكة الأخيرة، رأى أباه يخرج ليلاً ولا يعود، فعرف أن اللعنات قد تبدأ من رجلٍ واحدٍ يغيب، لكنّ نهاياتها لا تُكتبُ في البحر وحده.

رأى شجن في المكتبة، عباءتها تتحرّك كنسمةٍ، وورقتها تُطفئُ لهباً لا يُطفأ.

رأى أمانى عند النافذة، وعند الشاطئ، وبين الاثنين طريقاً لم يكمله، همس: «سامحيني».

في تلك اللحظة، كان الرجالُ الغرياءُ عند السدرة يسألون الصياد بنبرةٍ لا تُتذر بخير: «نبحث عن رجلٍ اسمه راشد بن ناصر أين هو؟»

لم يرفع الصياد عينيه، وكفّه على الجذع، وقال: «إن كان حقاً من تبحثون عنه، فابحثوا عنه عند ضميره لا في القحمة».

قال أحدهم: «نريد عنواناً».

قال الصياد:

«عنوانه الطريقُ الذي لا يتأخَّرُ عنه صاحبه».

لم يفهموا، وواصلوا السيرَ بين الأزقة، دخلوا بيتاً عند الزاوية، وطرقوا باباً آخر، ثمّ مضوا، لم يمسكوا بأحد يدلهم على راشد، لأنّ الرجل الذي أرادوه كان قد سبقهم إلى الباب الذي لا لافتة على مدخله سوى كلمة اعتراف.

جلس الإمام مساعد عند عتبة المسجد، وقد أخبر أنّ رجالاً بثيابٍ سودٍ يتجولون في القحمة بحثاً عن راشد، فتذكّر قوله لراشد: «افعل ما يخفّفُ صراخَ من فيك» همس: «اللهم كما جعلتَ البحرَ كتاباً، فاجعلْ ما يقرأُ فيه عبدك قبولاً لا حُكماً».

ثمّ نهض وسار في اتجاه المخفر لا ليتدخل، بل ليكون قريباً من الرجل الذي اختار أن يضع نفسه حيث لا أحد يُجبره. وأمّا القحمةُ فقد كانت في ذلك اليوم تختلف عن كلِّ يوم، لم تقف امرأةٌ عند عتبةٍ تنتظر خبراً، صرنَ يعرفنَ أنّ الأخبارَ لا تُرسَلُ مع طيرٍ ولا تأتي في لفافةٍ، إنّما تُكتبُ في الوجوه. هبطت أصواتُ لعب الأطفال درجةً إلى الأسفل لا خوفاً، بل توقيراً لاسمٍ ذُكر كثيراً في الأيام العشرة، أخرج الخبازُ صينيةً إضافيةً ووضعها على المصطبة كأنّ خبزه يُرسل اعتذاراً.

مسحَ حسن الورّاق الغبارَ عن كتابٍ غلافه أسود، وقال لمن يقف قريباً منه: «كلُّ روايةٍ تنتهي حيث تبدأ».

ولم يفهم الرجل.

عند السدرة، وقف الصياد وحده بلا عصا اليوم ولا حكاية، رفع كَفَّهُ إلى الجذع، وقال كمن يؤدِّي اليمين: «يا شجرة السدرة، يا ظلَّ من يعرف الأسماء، كان هنا قومٌ يظنون أنَّ العهدَ لا يُكسر، فأنكسر، وكان هنا رجالٌ يحرسون، فسقط آخرُ الحُرَّاس، إن بقي لنا شيءٌ نُعطيك إِيَّاه، فهو أن نحفظَ الصمتَ الذي يُبقي الجذعَ قائمًا، وألا نزعِمَ أننا فهمنا الماء، السلامُ على الذين رحلوا، وعلى الذين لم يعودوا، وعلى الذين يحملون أسماءهم في صدورهم كأختام لا تُفَضُّ».

في المخفر رفع الموظفُ ورقةً وطلبَ من راشد أن يكتب، أخذ القلم، ولَمَّا وضعه بين أنامله، رأى السطرَ الأوَّل يتردَّد كتميمةٍ لا تُخطئُ:

«راشد بن ناصر».

لم يُكْمَل حتى سمع في أذنه صوتًا يعرفه، ليس صوتَ ماءٍ يجري، ولا صدى طفولةٍ بعيدة، بل صوتَ شجن وهي تقول من صفحةٍ لم تُكتب بعد:

«بعض الكتب لا تُقرأ إلا حين نكاد نفقدها».

ابتسم، ثم مضى في الكتابة، لم يكتب ذنبًا تفصيليًا كما يفعلُ من يخشى القوانين، بل كتب ما يمكن أن يُطلق عليه صيغةُ غُفرانٍ يكتبها رجلٌ لنفسه، وبينما كان يكتب، حطَّ طائرٌ أبيضٌ على الغصن الأعلى من السدرة، التفت يمينًا ويسارًا ثم طار، رفع صبيُّ رأسه فرآه، وقال لصاحبه:

«أرأيتَ؟»

فأجاب الآخر:

«لا، لم أرَ شيئاً».

مرَّ الإمام تحتِ الجذع ولم يقل كلمة، لأنَّ الكلماتِ إنْ نطقتْ
أفسدت اللحظة.

عند الشاطئ ظَلَّت عباءةُ أمانِي حيث هي، لا تحملها كفٌّ
ولا تُفرقها موجة، في طياتها رائحةُ امرأةٍ لم يجدها أحد، وفي
أطرافها ملحٌ، مرَّت امرأةٌ من أهل القرية عند العباءة، تراجعت
خطوة،

ثم قالت: «اللهم إنا لا نملكُ إلا الدعاء».

عادت الشمسُ تُقيمُ ميزانها الواهنَ فوق البيوت، وأرسلت ظلاً
طويلاً نحو المخفر.

وقف غريبان من الغرباء الذين دخلوا عند بابٍ قريب وسألاً
صبيّاً: «أين نجد الرجل الذي طعن البحر يوم كُسر العهد؟»
قال الصبي: «لا أعرف».

ثمَّ أشار بيده دون أن ينتبه إلى جهة المخفر، نظر الغريبان
إلى الاتجاه، ثم سارا بتمهّلٍ لا يصنعُ أثراً.

كتب راشدٌ آخر سطرٍ، ووضع القلم، وشعر أنَّ الجدارَ المُقابل
صار امرأةً، سيخرج بعد حينٍ إلى كوةٍ صغيرة، يرى منها القحمةَ
بلا حُرَّاسٍ للعهد، سيعرف أنَّ الماءَ الذي فتح فمه تلك الليلة
لا يزال قادراً على الكلام، وأنَّ المهمةَ لم تعدَّ أن نحرس العهد،
بل أن نمنع الاسمَ من أن يختفي، سيُغمض عينيه، لا لينام، بل
ليستعيدَ وجهين لا يريد هما أن يبتعدا:

وجه أمّه يوم قالت «سامحني».

ووجه خالدٍ حين رفع يده للغوص.

ثم وجهين آخرين:

شجن وهي تكتب، وأماني وهي عند النافذة تنظر إلى الفراغ.
خرج من الحجرة الصغيرة إلى رواقٍ يفضي إلى باحةٍ أوسع،
كانت رائحةُ الورقِ والحبرِ وبينهما رائحةُ صدورٍ متعبة، سمع
وقعَ أقدامٍ لبعض الرجال خارج المخفر، لم يلتفت، تقدّم خطوةً
واحدة، ثم وقفَ هنا يبدأ السجن الذي اختاره، قال في نفسه
آخر جملة قبل أن يسلم ورقته: «إن كان البحرُ لا يُغلق فمه، فدعوه
يتكلّم، أمّا أنا سوف أصمتُ طويلاً».

في الخارج ارتدت القحمةُ سكونها الجديد، لا رعبَ الآن، ولا
طمأنينة كاملة، الأطفالُ يتهايمسون بأسماء يعرفونها وبأسماء
ستكبرُ معهم كالألعاب لا تُملّ، السدرة واقفٌ، والجذعُ يحملُ أثرَ
كفٍّ لا يفارقه، والعباءةُ على الشاطئ كعلامةٍ سؤالٍ أرسلت للبحر
ولم تُستردّ، الغرباءُ ذوو الثياب السوداء يمرّون بلا ظلٍّ، يتركون
وراءهم سؤالاً آخر: مَنْ أرسلهم؟ وماذا يريدون؟ والإمامُ يعدّ مع
نفسه من جديد: من بقي؟ ومن غاب؟ وأيُّ عهدٍ سنكتبه الآن إذا
لم يعدّ ثمة حارس؟

وفي موضع لا يراه أحد تحت صفحة الماء، ظلٌّ يُشبه صبيّاً
يضحك، يرفعُ يده كمن يُحسنُ الغوص، لا يأخذه أحد، ولا يأخذُ
أحدًا، كأنّه يقول: «ما فُهم من الماء يكفي، وما لم يفهم فامضوا
عنه، وإلا صرّتم له».

عاد الكلام إلى ما يُتقنه: أن يقف بعيداً قليلاً ليرى الصورة
كاملة، هذه القحمة التي كانت تُدعى قدراً أصبحت اليوم تُدعى
مكاناً، وهذا البحرُ الذي كان يُدعى لعنة أصبح اليوم كتاباً، ليس

لأنّه طاهرٌ بل لأنّ مَنْ قرؤوا فيه أخيراً عرفوا أنّ القراءة لا تُنتهي
النصّ إنّما تُعيده من أول السطر، وأمّا العهد، فقد بقيّ على
صورة الخاتم الذي ضاق واتّسع على إصبع راشد، حلقةٌ سوداء
تُذكر: لا سحر يُمسكُ الناس بأعناقهم.

مشى آخرٌ من مرّ قرب السدرة تلك الليلة، فوضع كفّه حيث
كان الصياد يضعها، ثم ابتسم دون أن يعلم السبب، قال للعابر الذي
لا اسم له: «نمضي وسوف يحفظُ البحرُ ما يُحسنُ أن يحفظه».
ثم انطفأت الحكايةُ كما تنطفئُ الفوانيسُ في ساعةٍ متأخرة
بلا ضجيج.

وبقيت القحمةُ كما أرادت بلا حُرّاسٍ للعهد، لكنّها مع ذلك لم
تعد كما كانت، صارت تعرف أنّ الأسماء لا تُحرّسُ إلا بقلوبٍ تقوى
على أن تقول حين يجب أن تقول، وتصمت حين يجب أن تصمت،
وبين القول والصمت مضى رجلٌ إلى المخفر وحده، تاركاً خلفه
عباءةً على الرمل، وشجرةً تحفظُ راحة اليد، وبحراً لا يهدأ، لأنّ
الحكايات لا تهدأ.

© kudumbul

مكتبة

t.me/soramnqraa

شكروامتنان

إلى أولئك الذين يعيشون في الكواليس،
إلى المترجمة والأديبة المبدعة، أ. إكرام صغيري.
أحياناً يحتاج الكاتب إلى من يساعده على قتل شخصية...
وأنتِ فعلتِ ذلك ببراعة جعلتني أضحك على موتها وأبكي على
رحيلها في الوقت نفسه.
لو لم تقتليها، لكانت قد قتلتنا جميعاً.
ممتن لكِ على موهبتكِ القاتلة، وعلى روحكِ المرححة التي تجعل
الموت يبدو أقل رعباً،
وشكراً جزيلاً على الأيام الطويلة في مراجعة العمل.

إلى الأستاذة نسرین محمد،
شكراً لعينك الفاحصة التي ضبطت الحروف، ولجهدك الدؤوب
الذي سابق الوقت ليخرج هذا العمل في موعده...
شكراً لإخلاصك وتفانيك.

إلى الصياد أكرم حمدان،
على معلوماتك المثرية عن تاريخ القحمة،
وعلى نباهتك اللمّاحة قبل صياغة سؤالتي بدقة عمّا لم أكن قد
سمعت به من قبل،
وعلى جرأتك في أن أرى كُدمبل رغم كل شيء،
وعلى القصص التي رويتها ببراعةٍ رغم أنك لم تشهدها.

إلى الأستاذ عبد الله عيد العتيبي
شكراً على مراجعة الرواية، وإضافاتك القيمة.

KUDUMBUL

FAHAD ALODAH



في آخر الليل، في صدر القحمة كلاً مؤجّل: عن رجلٍ حمل
ليلَ الحكايات على وتر، وعن مكتبةٍ سقطت كقشرةٍ لم تعد
تحمي ما تحتها، وعن طيورٍ تهاوت. وكان في صدرها موعدٌ
آخر؛ فجرٌ يقترب، ومعه سيارة تحمل شخصين إلى عتبة القرية،
أحدهما يعرف البيت من ذاكرته، والثاني سيعرفه من خوفه.
سيجيء الفجر لا ليغلق الحساب، بل ليُضاف إلى دفتر الأيام
التي لا تنتهي إلا لتبدأ مرةً أخرى.

هكذا انطفأ اليوم الرابع عشر: موتٌ خفيفٌ الصوت ثقيلُ
الأثر، سوقٌ يضمّد تشقّقها بالخشب، لا جنازة ولا موسيقى،
يترك تحت الحجارة من يسقط، كما تترك حجارة كثيرة لا تملك
اسماً في سجلات الناس. ويبقى وترٌ واحد.. يكفي أن نضع عليه
إصبعاً لتتذكر كيف يمكن لصوتٍ صغير أن يحمل قريةً كاملةً
إلى الغد.

مكتبة

t.me/soramnqraa